العلم المرح

الطبعة الأولى
رقم الايداع القانوني : 892 / 1993
ردمك : 4 - 007 - 25 - 9981

NIETSCHE - نيتشه

العلم المرح

ترجمة و تقديم حسان بورقية - محمد الناجي

افريقيا الشرق

هذه الترجمة مرفوعة إلى روح الوالـــديـــن ،
وسائـــر الأصـــدقـــاء . . .

بهاء اللايقين

... بمثابة تقديم

(تقاطعات الـ « مرأة » ، الـ « حقيقة » ، الـ « حياة والاسلوب ») .

-1-

«بينما كنت أسير (. . .) التقيْتُ بعجوز ناجتني قائلة :

- لقد كلمنا زرادشت مرارا نحن النساء ، ولكنه لم يتكلم عنا مرة واحدة !

قلت لها : يجب ألا يتكلم الرجل أمامي عن النساء إلاّ للرجال فقط فقالت : - لك أن تتكلم أمامي عن النساء لأنني بلغت من العمر أرذله (. . .) ، قبلتُ الرجاء . . . فقلت لها : كل ما في المرأة لغز ، وليس لهذا اللغز إلا مفتاح واحد ، وهو كلمة «الحبَل» . . . إن الرجل الحقيقي يطلب أمرين : المخاطرة واللعب، وذلك مايدعوه إلى طلب المرأة، فهي أخطر الألعاب . . .

عندئذ قالت العجوز (. . .) والان اصغ إلي . . . فإني سأعلن لك حقيقة صغيرة . . . : إذا ما ذهبت إلى النساء ، فلا تنس السوط» (1)

-2-

في نص آخر ، بعيد (2) ، يقول مخاطبا الحياة في نهاية المقطع الأول :

«لقد تعبتُ من رعايتك والسير وراءك ، أيتها الساحرة ، لقد أسمعتك أغاني حتى الآن ، فلسوف تسمعينني صراخك ، هيا : أرقصي على نقرات سوطي ، ألهبك به ، فإنني ما نسيته».

-3-

تنقص بعض النصـــوص ليكتمل أمرُ العـلاقـة بين المرأة ، الحيـــاة ، الحقيقـة والأسلـوب . . . ذلك أن كل نصوص نيتشـه تميل - من بين ما تميل إليـه - إلى هـذه العلاقة . لنستمع إليه إذن :

«لقـد حدّقـتُ يومـاً في عينيْكِ أيتهـا الحيـاة ، فحسِبتُني هويـت إلى غورٍ بعيـد القرار، غير أنك سحبتني بشباك من ذهب ، وأطلقتِ قهقهة ساخرة عندما قلتُ إن غورك لا قرار لـه . وأجبتني : هذا ما تقوله الأسماك جميـــعا ، فهي إذ تعجـــز عن سبر الأغوار تحسبها لا قـرار لها . وهل أنا إلاّ المتقلبة النفور ؟ وهـــل أنا إلا امـرأة ، وامـــرأة لا فضيلة لها ؟ لقـد تقوّل النـاس كثيرا عن صفاتي، وأجمعـوا على أنني غير المتناهية، المليئـة بالأسرار . . . إن للحكمة عينيْ الحياة ولها ابتسـامتها ، بل لها أيضا شبـاكها المذهّب . . وعنـدما سألتنـي الحياة عن الحكمـة ، أجبتها : هي الحكمـة يشتهيها الإنسان بكـل قوته ولايشبع منها . فهو يحدّق فيهـا ، ليتبيّن وجهها من وراء القناع، متسائلا عن جمالها وما يدريه ما هو هذا الجمال . . . ولكم رأيتها تعض على شفتها وتسرّح شعرهـا ، ولعلها شريرة مخادعة ، بل لعلّ لها صفـات المرأة بأجمعها . فهي لاتبلغ أبعد مداها في اجتذاب القلوب إلا عندما تهجر ذاتها .

وبعـد أن قلت هـذا عن الحكمة للحيـاة ، مـرّت على شفتيهـا ابتسامـة شرّيـرة وغيّضتْ مني قائلة : -عمّن تتكلم ؟ . . . لعلك تتكلم عني أنا . . .» (4)

-4-

إذا افترضنا -مع نيتشه - أن الحقيقة امرأة، ألم نكن لنشـكّ في أن كل الفلاسفة ، في نطاق كونهم دوغمائيين ، قـد أساءوا فهم النساء ؟ وأن الجديـة المرعبة ، الفضول الأخرق الذي تابعوا به الحقيقة ، حتـى الآن ، لم يكونوا سوى وسائل غير موفقة وغير لائقة ليتزوجوا بنتا ، عبارة حقيرة : بنت سهلة(5) . وفي "العلم المرح" يبقى الفرق صارخا بين العجوز ، المرأة والبنت . الحياة إذن تفيض بأشياء جميلة ، لكنها تعوزها اللحظات الجميلة والإظهار الجميل لأشياء مماثلة . «لكن ربما كان ذلك هو سحر الحياة الأكثر فعـالية : إنها مغطاة بحجاب منسوج من ذهب ، حجـاب إمكانيات جميلة يمنحها مظهـراً واعداً ، صموتاً ، محتشماً ، سخريـاً ، محنّنا ، مفتِناً ؛ أجل ، إن الحياة امرأة» (6)

لهذا تـوضع في كتـابـة نيتشه كلمـة « الحقيقـة » بين مـزدوجتين . . . المرأة تعني الشكـوكية والمواربـة المحجبة ، كما الكتـابة (الشـذرة64 من العلم المرح) . الـــ «حقيقة» لم تكن إلا سطحـا ولن تصبح حقيقة عميقـة ، خامـا ، مشتهاة ، إلا بفعل القناع : الـذي يقع عليها . حقيقـة غير معلقة بمـزدوجتين ، والتي تخفي السطح بحركة احتشام . . . يكفي أن نسقط القناع أو أن نتركه يقع بطريقة أخرى ، لكي لا تكون هناك حقيقة أبدا ، أو على الأقل ، لكي لا تكون هناك «حقيقة» .

-5-

المرأة (الحقيقة) لا تستسلم

بمجرد ما تمزق قناع الخجل أو الحقيقة الـذي أردنا أن نغلفها به ، للاحتفاظ بها «في أكبر جهل ممكن بـالإيـروسي» لن تكـــون لشكـوكيتهـا تخوم . لنقـرأ عن العفـة النسائية (الشذرة 71) لنعرف أيـن «ترسخ قصـارى فلسفة وشكـوكية المرأة» . إذ في هـذا الفراغ تلقي مـرسـاتها بين : «الحب والحشمة» «التعـايش الـلامعقـول للإلـه والحيوان» ، «حلّ اللغز» و«لغز الحل» . . .

-6-

«هل تستطيع المرأة أن تأخذنا (أو كما نقول أن «تفتـن» نا) من حيث لا ندري ، عند اللزوم ، هل تعـرف كيف تستعمل الخنجر (أيّ نـوع من الخناجـر) ضدنـا ؟ أو ضد نفسهـا هي : ذاك مـا يكـون في حالات معينـة انتقـامـا أكثـر حساسيـة (الانتقـام الصيني)» (7)

ترادف الفتنـة باستعمال الخنجر باعتبـاره شكلا يحيل على ما هـو جنسي (يدخل باب الغـواية) ومن حيث شكله يشبـه القلم ، قلم الكتابة . . . أسلـوب الفتنة : أسلوب حـاد ، مهمّز ، أداة طويلـة ، متطاولة ، وسـلاح للزينة مثلما هـو ثاقب ، سنان يحوز قـوته -بلغـة دريدا- من الأقمشـة ، من الستارات التـي تتوتـر ، تطوى وتبسط حولـه ، إنه بعبـارة أخرى «نسيت مظلتي» (8) . ويُنصح بأن لاتُنسى هـذه العبارة . . . كلها تميل إذن إلى شكل واحد : كونها حادة ، نواجه بها الغير في لحظة عنف ، كخنجر ، نعلّم بها ، نـرسم العلامـات ، نترك بصمـــة أو شكـلا معينا ، وبها كذلك ندفع خطرا ، نقصيه إلى بعد ، إلى مسافة . . .

-7-

في الشذرة (60) من " العلم المرح " التي تحمل عنوان «النساء وتأثيرهن البعيد» يقول «أما تزال لي أذنان ؟ ألست بعد سوى أذن ولا شيء عدا ذلك ؟ (ـ وما أسئلة نيتشه هنا - يقول دريدا ، سوى أسئلة امرأة بالخصوص . . . الأسئلة التي تلتفّ في متاهة أذن-) في وسط اضطرام ارتداد الأمواج حيث تتدفق ردّة اللهب المزبدة حتى قدميّ - ليس [اللهب] سوى عويل ، وعيدٍ ، وزعيقٍ تهاجمني ، بينما رجّة الأرض القديمة في كهفها الأكثر عمقا تغني بلا رنين لحنها كثور خائر : أثناء ذلك بقدمها الراجّ تعيّن نغما كما يهتز قلب شياطين هذه الصخور المفتتة . حينئذ عند أبواب هذه المتاهة الجهنمية كأنه تَدَفَّقَ من العدم ، بعيد بباعيْن فقط ، يظهر مركب شراعي عظيم يعبر بانسياب شبحيّ صامت . أيها الجمال الشبحي ؟ أي سحر لا يمارسه عليّ ؟ ماذا ؟ أينقُلُ هذا الزورق الصغير راحة العالم الصّموت ؟ أترسو غبطتي الخاصة هناك . في ذلك المكان الهادىء ، أناي أكثر حظاً ، وأناي الثانية نفسها مخلّدة ؟ لم أمت بعدُ على أنّي الآن لست حيا ؟ منزلقا وعائما ، أكون وسيطًا ، شبحيا ، صامتا ورائيًا ؟ شبيهًا بالمركب الذي يحوم بأشرعته البيضاء فوق البحر ، كفراشة عملاقة ؟ آه ، أن نحلق فوق الكائنات كلها ! هو ذاك ، هو ذاك ما يلزم !

- أتكون هذه الضجة إذن قد صيّرتني غريب الأطوار ؟ إن كل هيجان يرفعنا لتخيل الغِبطة في السكون والمكان النائي . حينما يجد الإنسان ، الذي كان مرتعا لضجته الخاصة ، نفسه في وسط ارتداد أمواج «انبجاسات» ـه ومقاصده : سيرى على الأرجح حينئذ كائنات ساحرة وصامتة تنساب أمامه أيضا ، حيث يتمنى الغبطة والعزلة - وهذه الكائنات هي النساء . . . إن أقوى سحر النساء هو أن نعرّف به إلى مسافة بعيدة ، وحتى نتكلم لغة الفلاسفة ، إنه الفعل عن بعدٍ : لكن لبلوغ ذلك يجب أولا وقبل كل شيء بعض المسافة ؟»

فيما بين النساء لا توجد الـ «حقيقة» لأن مجرّد معرفتها انتهاك لكل أغراضهن (9) . المرأة ليست حتى مسطحة وتعتبر عميقة «لأننا فيها ، لا نلامس العمق أبداً» (10)، هو ذا لغز الاقتراب المحجوب ، وإذا كانت المرأة التي تتهرب هي تلك التي لا فضائل ذكورية لها ، «هي التي تُخفي» ، فإن البُعد يضاعف ، ما أسماه نيتشه بلغة الإغريق : actio in distans ، يُمسي ، باستعمال هايدغر ، البعد مبتعدًا ، أو يتباعد البُعد ، ينفتح في الانزياح ليفسح المجال للـ«حقيقة » ، وللـ «مرأة» لكي تبتعد عن نفسها . وبما أن الأمر كذلك فإنه لا حقيقة للمرأة ، لأنها

تبتعد عن نفسها . الـ «مرأة» اسم للا حقيقة الحقيقة هاته [11] ، كما لو أن كل شيء يجري في نهر الشعر .

-8-

حيثما يكون أسلوب ما ، يجب أن يكون متعددا . . . والكائن بحاجة إلى التحول في «الأسلوب » ، لأنه لا وجود أبدا لـ : الأسلوب ، الظاهر ، المرأة (. . .) لكي يحدث الظاهر ، يجب أن نكتب في الانزياح بين العديد من الأساليب . إذا كان هناك من أسلوب فسيكون ذاك ما توحي به إلينا امرأة نيتشه . يجب أن يكون أكثر من واحد . حافتا حيزوم على الأقل ، ذاك هو الاستحقاق ، بينهما الهوة حيث نُلقي ، نخاطر، نضيّع المرساة ربما [12]. مؤكد- ونيتشه لا يغفل ذلك- أن قوانين الأسلوب تدخل انزياحا ، تخلق المسافة ، ولا تسمح للزائر الأول «بالنفاذ» إلى الفكر . وبها يمكن ل«كاتب» ما ، في الآن ذاته ، أن يُفهم وأن ينفلت من كل فهم- أن يتحفظ وأن يقدم نفسه بانتقاء لفطنة أولئك الذين ، دون أن يرفعوا الحجاب ، يعرفون كيف يقرأون «بطرف العين» وكما بطريقة مباشرة ، في الهامش [13] ، «ألا نكتب بالضبط ، يقول نيتشه بسخرية ، لكي نستر ما نخفيه بداخلنا ؟» والفكرة الكبيرة لكي تنقال لا تحتاج لفضاء واسع ، بل في الغالب الأعم لا تنقال إلا في خفايا جملة ، وكما في الهامش (هايدغر) .

-9-

«عندما نعشق امرأة [نحن الفنانون] ، . . . يوحى إلينا الطيف وقوة الخيال . وها نحن نرتقي بتيقظ المسالك الأكثر خطورة ، غيرآبهين بكل مخاطرة ، على السطوح ، على الأجراف ، وعلى أبراج التخيل دون أدنى دوار ، للتسلق خلقنا- نحن متسر نمو النهار ! نحن الفنانون ! نحن كاتمو الطبيعة ! نحن غريبو الأطوار والباحثون عن الإله ! نحن المسافرون إلى صمت الموت ، المسافرون الجلد على أعالي لا نحسبها كذلك ، نعتبرها سهولنا ،[نعتبرها] يقينياتنا . » [14]في هذا التحليق إلى الأعالي ، فوق الكل وكل الأشياء ، في مناطق الرياح القوية ، قريبا من النسور والثلج والشمس ، تكمن اللذة المؤلمة ، الشغف بالصدق المطلق : منطقة المخاطرة المميتة ، حيث يتفوق الإنسان على الإنسان الذي كانه . وما قلب السعادة سوى تجسيد للغوص في كل شيء ، في كل اتجاه : فما أكثر المجاهل والخفايا . تلك صورة تقريبية للمقامرة بكل شيء ، ليصبح المجهول واللاّيقيني في الإنسان هو ما يحدد

آمالـه العظيمة : نشـوة اللامعنى باعتبـاره موطن الانتشـاء والرقص . إن سـؤال الـ «حقيقة» سيظل باستمرار سؤال ال«مرأة» لديه ، لأن «الرجل الحقيقي يطلب أمرين : المخــاطـرة واللعـب ، وذلك مـا يـدعـوه إلى طلب المرأة ، فهي أخطـر الألعاب» ، خـاصة وأن كتابـاته تغطي مجمـوع مساحة السـؤال : «منذ الأصل ، لا شيء أكثر غرابة ، تناقضا ، عداوة للمـرأة من الحقيقة - فَنُّهَا الكبير هـو الكذب ، وشرطها الأكبر هو الظاهر والجمال» .

- 10 -

لنعـد الآن إلى جملـة : «لقد نسيت مظلتي» يـذهـب دريـدا إلى أنها رابط مـؤجل لـلإخصـاء : لـيـس لحقيقـة الإخصـاء التي لا تـؤمن بها المرأة ، لا ولا للحقيقـة كإخصاء ، ولا الحقيقة - الإخصاء . نسيان المظلـة . نسيان لشكل ما ، ومثلما له ما يحدده ، له كذلك فعله ، غير أن هـذا الفعل نُسِيَ الآن ، فبقيَ مفعوله فقط . أي لم يتـم الإخصاء فعلا . لا وجـود إذن لحقيقة - إخصـاء . هذه القضيـة ، قضية رجل صرفـة . إنهـا الإنشغـال الـذكـوريّ الـذي لم يَبْلَ كما ينبغي ، لم يُسْتر كما ينبغي ، والذي ، في سذاجتـه ، في غباوته (الجنسية دائما ، التي تمنح بالمنـاسبة لنفسها تمثيل السلطة الخبيرة) يُخصي نفسه بـرشح طُعم الحقيقة - الإخصاء (ربما كـان يجب هنا أن نسأل الانتشار المجازي للحجاب ، للحقيقة التي تتحـدث ، للإخصاء وللامتلاك القضيبي في خطاب جاك لاكان J. Lacan ، مثلا) .

بعد الآن ، لا تـؤمن المرأة بالضد الصريح لـلإخصاء ، إنها أكثـر مكراً من ذلك وتعلم بأن قلبا مماثلا سيجردها من كل إمكانيـة ظاهر ، لتصبح مريدا مهذبا للسيد (المعلم) . في حيـن أن الـ «مـرأة» بحاجة كـذلك إلى مفعول الإخصـاء ، والذي بـدونـه لا تستطيع لا أن تفتن ولاأن تشهـر رغبتها . وكـل ما يلعب لـه صـورة الـ «مرأة» .

-11-

«لقد نسيت مظلتي» ، معناه : أن ترث جمالية ذكوريةٌ جمالية أنثويةً ، أي أن تحُلّ جمالية المنتجين محل جماليـة المستهلكين : السلبيّين والمستقبِلين . شذرة «الأمهـات» تحيل على ذلك : إن الحمْل قـد صيّر النسـاء حنـونـات أكثـر ، صبـورات أكثـر ، هلـوعات أكثـر (. . .) وكـذلك الحمْل الفكـري ينمّي طبع محبّي التأمّل ، حليفي الطبع الأمـومي : أولئك أمهات ذكـورية ، وعنـد الحيوانـات يُعرف الجنسُ المذكـر بالجنس اللطيف» . (15)

يذكـر هايدغر في تحليلـه الشذرة التاليـة «كانت جماليتنا أنثويـة ، في هذا المعنى حيث وحدها الأمزجة المستقبلة للفن قـد شكّلت تجربتها حول «ماهو الجميل؟» في مجموع الفلسفة حتى يومنا هذا ، تغيب الفنان» . بشكل آخر ، حتى الآن في مقابل الفن يكون فيلسـوف الفن ، والذي يكون دائما سابقا للفـن ، لا يلمسه ؛ الذي في حالات معينة يخال نفسه فنانا ومنتجًا للآثار الفنية بينما يكتفي بالحديث عن الفن . يكون هذا الفيلسوف امرأة : امرأة عـاقر طبعا ، وليس أمًّا ذكورية . إزاء الفن يبقى الفيلســـوف الدغمـــائي ، الممالق الأرعن كعـالم من الدرجـة الثـانية ، كـالعنّين ، كعانس [16].

-12-

المنتج إذن : أمٌّ ذكورية ، لأنهما يتقـاطعان- هو والمرأة- في عـلاقة الحمل . ومن خلال أغلب أعمالـه ، يبدو نيتشـه ، دون سابقٍ ، مفكـر الحمْل ، الحمل الذي لا يمتدحه لدى الرجل أقل مـن المرأة . في «العلم المرح» يقول : «إن الحيوانات تتصور الإناث ، بخـلاف [ما يتصوره] الـرجل [عليهن] : الأنثى بالنسبة إليهـا قيمتها في طبيعتها الإنتاجية . لا وجود عندهـا [أي الحيوانات] لحب أبوي ، هناك شيء يشبه الحب الذي نكنّه لأبناء العشيقة ، والطريقة التي نتعود عليها في ذلك . تجد الإناث في صغارهن إشبـاعا لرغبتهن في السيطرة ، مِلكيـة ما ، انشغالا ما ، شيئـا واضحا بالنسبـة إليهن تماما ، يمكن أن نثـرثر معـه : كل هذا يكوّن الحب الأمـوميّ ، مثل حب الفنان لأثـره . إن الحمل قدصيّر النساء حنونـات أكثر» . . . [17]مثلما يذهب إلـــى أن «صـورة الأم تحدد إذن سمات المرأة . . . كل رجل يحمل صـورة عن المرأة ، تعود إلى أمه : إنها هي التي تحثّه على احترام النسـاء بصفة عامة أو على احتقارهنّ ، أو على ألا يحسّ إزاءهن إلاّ بعدم الاكتراث» [18]. أما في «هكذا تكلم زرادشت» : كل ما في المرأة لغز ، وليس لهذا اللغز إلا مفتاح واحد ، وهو كلمة الحمْل» [19].

-11-

الكذب إذن هو فن المرأة الكبير ، لأن « من لا يعرف أن يكـذب لا يعرف ماهية الحقيقة ولا كيفيتها . . . إن في أنانيتكم أيها المبدعون ، حزم الحبلى ومحاذرتها» . . . هذا بعض سمـة رسم نيتشه «للانسـان المتفوق» في كتـابه الذي بشّر بـه ثمانية عشر شهـرا التي كـان فيها يـؤلف «العلم المرح» وليس من المدهش إذن أن نعثـر في هـذا الأخير ، باعتراف من المؤلّف نفسـه على مئة مؤشر تعلن دنـوّ شيء لا يقارن» [20] ،

كتاب «العلم المرح» تحضير للنظريات الكبيرة مثل «العودة الأبدية» ، «إرادة القوة» «الإنسان المتفوق» . . . وغيرها . والكتاب كما هو معروف شيء للسخرية من الحقائق التي يعتبرها بالية كالقيم التي تدعمها ، والتي إذا انتصرت مرة هنالك «فتساءلوا بكل ارتياب عن الضلال الذي دافع عنها فأولاها انتصارها» ، شأن حقائق العلماء التي ينصح بالحذر منها لأن أصحابها لعلة عقمهم يكرهون الراقين . «وعيونهم باردة جافة لا تلقي نورها على طير حتى تعرّيه من ريشه، إنهم يباهون بامتناعهم عن الكذب ، فاحذروا من هذه المباهاة لأن المجال بعيد بين من عجز عن الإتيان بالكذب ومن أحبّ الحقيقة» (21)

- 10 -

عندما يسقط القناع تَتَداعى الاحتمالات ، احتمالات لعبة النرد . لأن القناع ضيق بالحقيقة الواحدة ، واختراق للمعنى الأوحد ، وفتح لما أسماه هولدرلين بنشوة الكلام في اللامعنى . المرأة إذن في هذا السياق ، وما سبقه ، زرع للـ «فوضى» في اليقين ، في الاعتقاد الساذج ، لأن المرأة «فنانة تماما» وأسئلة الفن ، الأسلوب ، الحقيقة ، الحياة ، لا تبرح المرأة ككائن للتأمل - لأن القناع -أي الكذب بالمعنى النتشي- إبعاد للمعنى المبعد أصلا ، سؤال حول السؤال . وفي ذلك ، كما في الرقص واللعب ، تحديد لمعنى من معاني العلم المرح . لأن هناك نساء ليست لهن ، أينما بحثنا لديهنّ ، حقيقة باطنية ، لكنهن مجرد أقنعة . الرجل الجدير بالشفقة ، من يرتبط بهاته الكائنات الشبه شبحية ، الخدّاعة بالضرورة ، لكن القادرة بالضبط على بعث رغبة الرجل أشد ما يمكن : يمضي باحثا . . . وأبدا لا يكف عن البحث (22)

-9-

العلم المرح ؟ : تعلُّمُ إجادة اللعب والتحدي . «وهل نحن في الحياة إلا جلاّس مائدة كبرى للسخرية والمقامرة ؟ . . . إن أعظم ما ارتكب في العالم من أخطاء هو من قول القائل : «ويل للضاحكين في هذه الدنيا» فإن من جاء بهذا الإنذار قد قصّر في التفتيش فما وجد على الأرض شيئا يستحق الضحك في حين أن الأطفال يجدون ما يُضحكهم (. . .)

. . . فانظر إلى خطواتي تدرك حالي ، وإذا رأيتني راقصا فاعلم أنني اقتربت من هدفي . . . إن بين طلاّب السعادة حيوانات ضخمة ثقلت حركتها ، وبينهم من ولد كسيحاً ، فمثل هؤلاء يحاربون الرشاقة كالفيل يجرّب أن ينتصب على قمة رأسه .

غير أن المجانين بالسعادة خير ممن يجنّون بالشقاء ، والراقص متثاقلا ، أفضل ممن يتعارج في مشيته . . فتعلموا أيها الراقون أن تقفوا سويا على أقدامكم . . .

أيها الرجال الراقون ، إن شرّ ما فيكم هو أنكم لم تتعلموا الرقص على أصوله لتتوصلوا إلى الانطلاق بخطواتكم فوق رؤوسكم ، وما يضيركم ألا توفقوا إذا حاولتم . . إن الممكنات كثيرة ، أيها الراقون ، فتعوّدوا أن تضحكوا ولو على ضحككُم فوق رؤوسكم . ارفعوا قلوبكم أيها الراقصون المُجيدون ولا تنسوا أن تضحكوا ضحكا جميلا» (23) .

-8-

العلم المرح : فن وضع قبعة البهلوان ، رقصة "العارف" الخاصة ، بل تأجيل الرقصة الأرضية ، مثا يُسمَح له بالاندراج بين «مديري أعياد الوجود» . تعهُّد دوام الحلم . إنه الفن الذي يمنح الانسان أعينا وآذانا للنظر والسماع بشيء من الحبور إلى ما يكونه هو في حد ذاته ، ما يحس به هو ما يريده هو كإحساس وإرادة فعّالتين . إنه كل منها «علم» الناس العاديين كيف يحترمون البطل المتخفّي في كل واحد منهم ، علّمهم فن اعتبار انفسهم كأبطال - كي يتجاوزوا أنفسهم باستمرار . العلم المرح هو روعة الإحساس بالعيب الذي يُشعِر بعدم التفوق بعدُ في قول كل مانريد - ومن «نحن» هاته ؟ - أن نعبّر عنه . . . (المرأة ؟ الفنان ؟ الشاعر ؟ الكوميدي ؟) رواد المسافة التي تُستمد منها البلاغة التي لا تقل هؤلاً في التوق والشراهة ، والتي بها يُمنح المنشدون أجنحة ، ليمسوا هم أنفسهم شعراء ورائين .

العلم المرح إذن صورة مجازية للهب ، للجنون الساخر . . . حيث تفقد الحقيقة - التي كانت- بهاءها ، ولن يُنْظَرَ إليها بعدُ على أنها كذلك ؛ لن تعود قادرة على شدِّ المرِح - كراقٍ - إليها . . . لشدّما تمسي لحظتها قصيرة ، ولشدّ ما "عاداته" أقصر ، إذ يستهويه المروق كالسهم إلى الضفة الثانية ، لأن ما يتركه يصبح فحما ، لأن نفسه تفيض «حتى يسهو عن ذاته ، إذ تحتله جميع الأشياء ، فيضمحل فيها ويغنى بها» . . . ففي كل رجل حقيقي يتخفّى طفل يتوق إلى اللعب ، خاصة وأن كلّ ما هو عميق يحب القناع» .

-7-

ثم ألم يقل هيراقليط : «الشعراء يكذبون كثيرا» ؟ والذي قال «دون الإيقاع لم نكن شيئا ، وبالإيقاع كدنا نمسي إلها . . . هل هناك شيء أكثر إثارة من أن نرى الفلاسفة الأكثر رصانة ، الأشد صرامة عادة فيما يتعلق باليقين ، يرجعون دائما في ذلك إلى حِكَم شعرية ، لمنح أفكارهم متانة وقابلية للتصديق ؟ ومع ذلك أليس أكثر إلزاما علىً حقيقة ما أن يمنحها شاعر تصديقها ، على أن يخالفها ؟» (24)

وفي مكان آخر (25) : «انظر الى صغار الناس ، وأخص منهم الشعراء بأي بيان يشكون الدهر وتصاريفه . وإذا ما أصغيت إلى هذا الأنين الشاكي فلا يفوتنّك أن تنصت لنبرات اللذة في كل شكوى .

إن الحياة تقول لمن يشكو وهي تتحكم فيه بغمزة من عينيها : إنك عاشقي ، فانتظرني لحظة لأتفرغ لك» .

الارتباط بين الشعر والكذب في أعمال نيتشه يجوهر بشكل آخر العلاقة بين الأسلوب والـ«حقيقة» ، خاصة وأن الرمز الشعري هو ما يمكن أن يقدم شكلها ، لأنه نوع آخر من الأقنعة المتعددة الألوان : قناع القناع وغنيمة الفجيعة . فالشعر تطهير من عفن اليقين ، المنطق والعقل ، لأن الكلام بالاستعارة والتشبيه ، رفع لعقيرة القناع وركض على معابر البيان «الكاذب» تحت آفاق لا حقيقة لها ، تِرْبٌ للتيه وقفز من نوافذ المساكن التي تزكم بالحقيقة الواحدة . وما شهوة الشاعر إلاّ شهوة ديونيزوس المقنّعة بألف قناع . «أجل لقد جنحت فيما مضى جنوح الهلال هاربًا من جنون الحقيقة وشهوة النور ، تعبت من النهار ومن أضوائه فانحدرت عليلا نحو المغرب إلى مطارح الظلام ، وقد أحرقتني الحقيقة بشعارها (. . .) مالي وللحقائق جميعها ، سحقًا لها ، ما أنا إلا مجنون ، ما أنا إلا شاعر» (26) . يكون البيان عديم الجدوى كلما لم تستدع حقيقةٌ قهقهةً وكلما مرّ يوم دون رقصٍ ، ولو مرة واحدة .

هل كان ليتحمل الحياة أو ليتحمل أن يكون إنسانا ، لو أن الإنسان لم يكن شاعراً محلّلا للأسرار ؟ وليس محوّلاً بحوره إلى إمكانيات للأشباح لكي تعزو تفاعيله . . . الأحرى إدراك القوى الكافية في النبرات ، للتكلم «إلى مسافات بعيدة من مسافات أبعد بالوزن الإيقاعي» : محرّر الطاقات والأهواء . . . «لكم اتبعتُ الحقيقة

. . فرجعت إليّ لتصفعني على وجهي ، وما لمست الحقيقة حين لمستها إلا عندما كان يلوح لي أنني أقول الكذب» (27)

-6-

ولأن المرِح عند اشتداد الألم يتجاوز الألم شدةً وعمقًا ، فإن الإنسان التراجيدي - كما يراه هنا- ليس كائنا مأساويا ، مرهقاً أو متشائماً بل بالأحرى كائنا مشحونا بفتنة تجربة الأقاصي ، التجربة التي يُتاخِمُ فيها الألمُ الملذَّ ، واللذة المؤلمةُ ، الشعور بالقوة الطافحة ، والفيض الظافر بالانتشاء ، وبإيجاز ، مايصطلح عليه هو ب " العافية الكبرى " أو الصحة الريّانة : حيث الوصولُ الى هدف جديد ، يرادف الحاجة إلى صحة جديدة : إذ يقف الإنسان «على مرأى أرضٍ غير مكتشفة ، لم يحد حدودَ ها أحد بعدُ (. . .) على مرأى عالم فيه وفرة كبيرة من الأشياء الجميلة ، الغريبة ، المريبة ، المرعبة والرائعة ، بحيث أن فضولنا ، مثله مثل تعطشنا للامتلاك قد أثيرا بذلك - أوه ! حتى أنه لا شيء منذ الآن سيشبعنا ! بعد مثل هاته المنظورات ، وبمثل هذا الجوع النّهم في الشعور وفي المعرفة ، كيف سيمكننا أن نكتفي بالإنسان الحالي ؟ (28)

بلغة جيل دولوز ، فإن ديونيزوس يقرّ بكل ما يظهر (من الظاهر) «حتى الألم اللاذع بإفراط» وبما يظهر في كل ما تمّ إقراره (29) . الإقرار المتنوع هو ذا جوهر الكائن التراجيدي : كل شيء يمكن أن يضحى موضوع إقرار ، موضوع مرح . يكفي أن نعرف الوسائل الخاصة التي بها أقِرّ ، حتى لا يتداخل فيها الفعّال بالارتكاسي . . . صفة «تراجيدي» تعيّن الشكل الجمالي للمرَح ، ليستْ وُصْفة طبية أو حلاً أخلاقيا للألم ، للخوف أو للشفقة . «الانسان التراجيدي» بطلٌ مرِحٌ ، وفي كتاب «إرادة القوة» يعرفه بالبطل الخفيف ، البطل الراقص ، البطل اللاعب ؛ ومهمة ديونيزوس هي أن يصيـّرنا خفيفين ، أن يعلّمنا الرقص ، أن يكسبنا غريزة اللعب (30) .

-5-

كعلم مرِحٍ ، ليس ا لفكر المستتر- المجازي ، فكراً فنيًّا فحسب ، بل فكر قناع وظاهر ، فكرٌ سخرية وباروديا : هو بعبارة أخرى ، فكر لا قعر له ولا قرار ، يحل ويتشذر فوق الهوة . . . وحين تكون فاتحة كل شيء بالقناع وبالخيال المجازي ، «لا

يكون هناك شيء ، لاشيء في الواقع ، لاوجود لحقيقة الكينونة . لقد بُعِّدت الكينونة مسبقا ، وسقطت في هذه الرحابة الفاغرة : "النسيان الفعّال"» (31)

وبعدُ ، مـاذا يمكن أن يكون هذا العلـــم المرح ؟ أليس قلب العبـارة الغريب هـذا . هذا التنـاقض الذي لا ينحلّ ، هـذه الدائرة التي يستحيل رسمُهـا ، حيث سيُحاذي الوُضُوح النسيان الأعمقَ ؟ : السقوط إلى الأعمق ، إلى الأسفل . . .

كيف تتم هاته التجربة ؟ «إنها نشوة إذ تعزّي روحُنـا المتوترة بإفراط نفسها أحيانا بسيل من الـدموع . . . إنها فيض من السعـادة حيث لم يعد الألم الأقصى والـرعب يُكابَدان كنقيض أبدًا بل كأجزاء مكملة ولا غنى عنها ، كفارقٍ ضروري وسط محيط الضياء هـذا ، إنها غريـزة الإيقاع التي تكتنف عالم أشكـال بكاملـه . . . كل هذا يحدث دون أن يكـــون لحريتنـــا أي نصيب فيـــه ، بينما نُجْـــذَبُ ، كما في دُرْدُورٍ ، بإحساس طافح بالنشوة ، بالحرية ، بالسيادة ، بالقدرة على كل شيء . .» (32)

-4-

القصيدة والمثل هما تعبيرا نيتشـه المجازيان ، غير أن لهما ارتبـاطا ممكن التحـديد بالفلسفة . إن المثل إذا تأملناه شكليا يبـدو كشذرة ، إنه شكل الفكر المتعدد ، وفي محتواه ينوي قول وصياغة معنى ما . معنى كائنٍ ، فعلٍ ، شيءما ، هذا هو موضوع المثل . ورغم إعجابـه بالكتّاب الحكَمِيّين فإن نيتشـه يدرك جيدًا مـا ينقص الحكمة كنوع : كونها لا تصلح إلا للكشف عن الأجسام المتحركة لذلك لا تستند عموما إلاّ على الظواهر الإنسانية . والحال أن بالنسبـة لنيتشه ، حتى الأجسام المتحركة الأكثر خفاء ليست مظهـرا مؤنْسَنًا للأشيـاء فحسب ، مظهرا سطحيا للنشـاط الإنساني . وحده المثل يقدر على قول المعنى ، المثل هو التأويل وفن التأويل . كذلك القصيدة هي التخمين وفن التخمين : تقول المدلولات . . وبالضبـط مدلول ومعنى المفاهيم المركبة جـدّا ، حيث يلزم أن تُخمَّن القصيدةُ نفسُها ويـؤوّلُ المثلُ . هما إذن بدورهما موضوعـان لتأويل معيّن ، لتخمين ما . . . ومن جهة التعدديـة يحيل معنى ما على العنصر التفـاضلي الـذي يشتقّ منـه معنـاه ، كما تحيل القيم على العنصر التفـاضلي الذي تشتق قيمتهـا منه . هـذا العنصر ، الحاضر دائما ، لكن المضمر والخفي دائما كذلك في القصيدة وفي المثل ، يشبه البعـد الثاني للمعنى وللتخمينات . . وبتطوير هذا العنصر ، وبـالتطور فيـه ، شكّلت الفلسفـة في ارتباطهـا الأساسي بـالقصيدة وبالمثل ، التأويل والتخمين التامَّين ، أي فن التفكير ، ملكة التفكير العليا أو «فن الاجترار» . اجترار وعودة أبدية : معدَتَان ليستا أكثر مما ينبغي للتفكير (33) .

واكب اهتمام هـايدغـر بالشعـر الفترة التي تلت صـدور كتابـه «كينونـة وزمن» (1927) ، عندما بدأ يبحث قضية الكينونة في الشعر [34] ، إذ توصل إلى أن " الفلسفة لا تقبل في مستواهـا إلا" « الشعر» ، إذ أصبحت القصيدة تجربـة ظاهراتيـة للحقيقة عبر الكـلام الذي أصبح دار إقـامـة ، عالما لا يبرح ، لأن اللغـة تتكلم وتتكلم عن ذاتها أولا ، قبل الشـاعـر . إن الشعـر - يقـول هـايـدغـر- هـو «التسميـة المؤسسـة للكينونـة ، وبجوهر الأشياء كلها - ليس قولا اعتباطيا ، ولكنه مـا ينكشف به كل ما نتجادلـه ، نباحثه في الكـلام اليومي . إن الشعـر يلامس الأرض باللغـة ، ويظهر اللغة كأرض ، كمُستقَـرٍ . وإذا استعرنا «فضاء اللغـة الفيزيقي» [35] فإن القصيدة نبْرٌ أوّلي للكلام الملفوظ (المنطوق في حالة الصفاء ؟) مثلما هي رؤية جديدة للحروف المكتوبـة . إن القصيدة تُسمِعُ وتُري مـا تنطوي عليه اللغة . إن الكـلام الشعري ، وقـد جعل اللغة مسمـوعة ومـرئية كما هي ، شأن قـدرتها على الانفتاح ، لا يُظهـر أصواتا وعلامات فحسب ، بل البعد الجوهري لإقامة الإنسان [36] ، لأن اللغة تضمّ مجال الإنسـان وهـو يقطن العـالم ، على الأرض وتحت السماء [37] وأن يُجلي الشعـرُ الأشياء وكأنها عادت لفجرها ولميلادهـا وكأنها تُرى لأول مرة ، أمرٌ لا يعود لما يمنحه من «مبادرة للكلمات» (مالارميه) بـل على الأصح لأنه يُعيدُ لها قدرتها على التجلّي ، عبر الصور والنبرات ، ولا يرتبـط الأمر بالشاعر ذاتـه لأنه يتكلم «على إثر» مـا تقوله اللغة بشكل خفيض (ميشال هار) وجوهر الصور هو «أن تُظهر شيئا ما . . . العالم اليومي ، لكن كعـالم سرّي ، تبين اللاّمرئي [38] . . لأنه لا وجود لشعـر إلاّ انطلاقا من اغتراب فكـري ، من «ضيقٍ هـو ضيق زمنـه ووجـوده الخاص « . . . نحن [الشعراء] نعود بشهواتنا إلى الأمور التي تتحدث عنها العجائز في السمر ونقول إن ما نبحث فيه إنما هو قضية المرأة الأبدية» [39]

وإذا كان البحث عن الـ «مرأة» الأبديـة ، بمثابـة بحثٍ عن الـ«حقيقة» ، عن تعدد المعاني . . . فقد صدق هيراقليط . . .

-3-

يقول ميشال راي [40] : «ما تم اكتشافه ، في الآن ذاته ، تراتبية في المدلولات تحيل إلى «إرادة» حقيقة ، والتي وجدت سندها في مجموعة مـن «العلـاقات البيانية» (إنه السـؤال الجديـد الـذي تـوجهـه الجينيـالـوجيـا : من يتكلم «خلف» طبقـات الـ «خير» ، الـ «شر» المزعومة هـاته) إذ أمكن لإنسان أن يُعيّن نفسه بفعاليـة اندفاع نحو

تقـديم مجازي ، فـذلك بعد أن أصبحت مـرمـوزة في فضـاء بلاغـة سمّت نفسهـا بالفلسفـة ، والتي حمل الظاهر بـداخلها قيمة جوهـر بالإسم نفسه الـ «حقيقة» . كجواب أولي يمكن أن نعود إلى الشذرة 58 (لايمكن أن ندمِّر إلاّ باعتبارنا مبدعين) : «أي جنـون كـان سيكون في الـزعم أنـه يكفي إبطـال هذا الأصل ، هـذا القنـاع الضبابي من الهذيان لتدمير العالم الذي يعتبر أساسيا [لتدمير] الـ «الحقيقة المزعومة ! وحدهم المبدعون قادرون على التدمير ! غير أنه لا يجب أن ننسى قط ما يلي : يكفي أن نبدع أسماء جديـدة ، تقديرات ، احتمالات جديـدة لنبدع على التمادي «أشياء» جـديدة» . . . لأنـه غـالبـا ما كـان الأصل هم أولئك الـذين أطلقـوا الأسماء على الأشياء» (الشذرة 261) «وهل الأسماء إلا جلودًا» ؟

-2-

بهذا العمق يكون المفكـرالسابق لأوانه غير مقـروء بعد ، يظل سوء تفـاهـم نتيجة إفراغه للمعنى الفارط أو الراهن وإخضاعـه للـ «مطرقة» ، كتمفصل صارم للكتابة وللقراءة ، فلم تنج - رغم لا راهنيتها - من الإقحام القسري في القراءة السيـاسية ، ولم تنج كذلك - ككل فلسفـة عظيمة - من تجنب المصير الذي عـدّ لها : تسهيلها ، إسـاءة استخـدامها ، الحطّ من سمعتهـا ، الناجمـــة عـن فهم خـاص لفلسفتـه الحقيقية . هل «قرأنا» نيتشه حتى الآن ؟

لقد حَبَا نيتشه كلمة الحيـاة رنين الذهب ، حسبما قال شيلر . مع العلم أن الألم الذي أنزلتـه به كان عظيما ، ربما كان ذلك من بين أدوات تأويله الجديـد المرتبط بالـ «فزيولـوجيا» لأن الفلسفة لم تستطع أن تحدث إلا «كتأويل للجسد وكسـوء فهـم له» (مقدمة العلم المرح) .

يقـول أوجين فنك : « . . . ولعلنـا لا نستطيـع أخيرا أن نفهم نشيـده للحيـــاة المتوحشة في عنفوانها وللإنسان المتفوق وللصحة الريّانة إلا انطلاقا من بؤس المريض وصنوف حـرمانه . وتحدد صـورة نيتشه تبعا لمظـاهر خارجيـة في آثاره أكثر ممـا لنواة فلسفته» [44] إن انتماءه إلى الكتّاب البعديين (أو مـا بعد الموت posthumes) ، الذين لا يُفهمون كثيرا بـالمقارنـة مع الذين هم «ظلال» لعصرهـم ، ربما كـان ما يشـد إليه أكثر، لأنهم في كـونهم يُتأملون فقط ، ثمـة تكمن سلطتهم . يقول : «إننـا بعيدون عن أن نكون «ألمانييّن» بالمعنى الرائج اليوم لكلمة Deutch ، حتى نجعل من أنفسنا الناطقين باسم الوطنية والحقد العرقي ، حتى نبتهج بالعدوى الوطنية (. . .) . إننا

نحن الـذين بلا وطن ، متنـوعون ، ومختلطون فيها يخص الجنـس والأصل باعتبـارنا «ناسا عصريين» ، وبالتالي نادرًا ما نعزى بالمشـاركة في هاته المغالاة وفي خدعة الهُيام بالذات العـرقي هاته ، التي تعرض نفسهـا في ألمانيا كعلامة مميزة للمـزايا الألمانية ، والتي لدى شعب «الحس المؤرخ» تعطي انطباعا مزدوجاً عن الزيف والوقاحة» (42).

وما معنى المعاصرة هنا سوى القـدرة والاستعداد على التبدد ، ما تم تأويله خطأ في مقولـة «الإنسان المتفـوق» الذي تم بعيـدا عن سيـاق "العودة الأبـدية" : إرادة الحياة، التي تميل إلى أن يخرج الإنسان عن مجرى الإنسـان الراهن ، بتجاوزه المستمر لذاته ! ليس بالدخول فقط في غياهب المجهول ، بل في الضارب في القِدم كذلك ، البحث عن إمكانيـة وشكل جديدين للحيـاة ، ليوفر الانسـان على نفسه «الغضب الصامت الـذي سيُحكم به عليه» . في شـذرة «المبهمون» (371 من العلم المرح) ، يقول «الحقيقة هي أننا في نمو ، نخلع عنا قشوراً بالية في تغيير دائم ، نكتسب جلدا جديـدًا كل ربيع ، لا نفتأ نصير شبابا أكثر فأكثـر ، نصير مستقبليّين ، شامخين ، أقويـاء ، نغرس جذورنـا دائما بقوة أكبر في الأعماق - في الشر - بينما في الـوقت نفسه نعانق السماء دائما بحب وسعة أكثر ، وبكل أغصاننا ، بكل أوراقنا نمتص ضوءها بتعطش . إننـا ننمو مثل الأشجـار ، مثل كل مـا هـو حي ، هذا مـا يستعصي على الفهم - ولسنـا ننمو في مكـان واحـد فقط ،لكن في كل مكان لا في اتجاه واحـد بل بقدر ما ننمو إلى الأعلى ، إلى الخارج ، ننمو إلى الداخل وإلى الأسفل . . » .

لذلك تقترن الإرادة عنـده بالنسيان ، كل فعل يقتضي النسيان ، الـذي لا تكون حياة بدون هذا الفن . وللنسيان هنا علاقة ليس بها هو ضد التذكر وسلطته كحقيقة وحيدة ، كامتلاء للمعنى والجواب المتوارث فحسب ، بل كذلك بمعنى «أن نحيا» بمعنى الـ «قتل» لإفراغ قيمة «الأب» ، فأن نحيا «-معناه : أن نلقي باستمرار بعيدا عنّا شيئا ما ينزع إلى الفناء ؛ أن نحيا معنـاه : أن نكون قساة وبلا رحمة بالنسبة بل ما هو ضعيف وبالٍ فينا ، وليس فينا فحسب » (43) .

-1-

بناء عليـه ، هل يريـد مريدين لـه ؟ مع العلم أن زرادشت لا يريـد أن يعود إلا عندمـا يُجْحَدُ عكس الذين يبحثـون عن أن يتضاعفـوا بعشرات ، بمئات ، يبحث نيتشه عن أصفار . لأن المسألة كما يقول مسألـة لياقة ووعي ، وللوعي «ينقص الآن طبيب الأسنـان» ، ليقوّيها ويفحصهـا ، لأن «ملكـة الاجترار» رهينـة بسلامتهـا ،

لذلك يقـول للقارىء : «أسنـانا قـوية ومعـدة سليمة ، هو ذا مـا أتمنّى لك ! وإن فهمت كتابي ، مؤكد أنك ستتفهّمني» [44] لأن الفم المجـرّد من الأسنان -كما يقول- خليق به ألاّ يتناول ببيانه جميع الحقائق [45] .

ح - ب

بنـي مـلال

25ـ 4ـ1992

هوامـش المقدمة

(1) هكذا تكلم زرداشت - نيتشـــه . ت . فليكس فارس . نص الشيخة والفتاة ص . 92 -دار القلم

(2) نفسه -نص : نشيدا آخر للرقص ، ص 256 .

(3) نفسه . نص : نشيدا للرقص ، ص 135 .

(4) نفسه ص 136-137

(5) وردت الإشـــارة في الكتاب : Epérons. J. Derrida, ed Flammarion 1978 p. 41

(6) نفسه ص39-40

(7) العلم المرح -الترجمة الحالية ، الشذرة (ش)69

(8) وردت الجملة في كتاب : Epérons ص . 103 . وهي من الشذرات التي لم تنشر ، إذ وجدت من بين مخطـوطات نيتشه ، وحـدها على ورقـة ، بين مزدوجتـين ، وهي الجملـة التي اعتمـد عليها دريدا في تحليله لأسـاليب نيتشه .

(9) - Crépuscule des idoles. Nietzsche. ed. essais/folio p. 15

(10) نفسه ص 17

(11) Epérons P. 39

(12) - Questions de Style, in Nietzsche aujourd'hui 10-18. P 289

(13) - L'étrangeté du texte . Claude Lévresque. 10.18 P 25

(14) العلم المرح-52-

(15) نفسه - ش،72

(16) - Espérons. P. 62

(17) العلم المرح

(18) - Humain, trop humain. Nietzshe. ed. Folio/essais P. 290 frag, 380 :- Leg maternels

(19) هكذا تكلم زرادشت نص الشيخة والفتاة ص 91

(20) - Eccé Homo. Nietzshe. ed. Folio/essais P. 114

(21) هذا الشاهد وما قبله عن هكذا تكلم زرادشت ص317

(22) - Humain, trop humain - frag. Masques 405 P. 295

(23) هكذا تكلم زرادشت -ص 322-323.

(24) العلم المرح ، ش . في أصل الشعر 84

(25) هـ. ت زرادشت ، نص ، النقاقة ص. 250

(26) نفسه . نص نشيـد الأشجار ص 327 . يمكن العـودة كذلك إلى نص " الشعـراء " من نفس الكتاب ص 155

(27) نفسه ، نص الظل ص 302

(28) العلم المرح ، ش . 382 (الصحة الكبرى)

(29) Nietzsche et la philosphie. Gilles Deleuze, nrf . p.19

(30) نفسه ، ص 20، يمكن كذلك العودة إلى نهاية الشذرة 38، عن الوضوح (العلم المرح)

(31) - L'étrangeté du texte. p. 31

(32) - Ecce Homo P. 119. 120

(33) - Nietzsche et la philosophie P. 35. 36

(34) انظر كتاب - Approche de Hôlderlin, Martin Heidegger
أو مقارباته لشعر تراكل ، ريلكه وغيرهما .

(35) -Acheminement vers la parole
Martin Heidegger, ed. Tel / Gal . P. 193

(36) - Mag. Litteraire N 235 . NOV. 86 P. 38

(37) - Acheminement vers la parole P. 18

(38) -Essais et conferences. M. Heidegger, ed. Tel/Gal P. 240

(39) هـ . ت زرادشت . نص الشعراء ص 156

(40) La Généalogie Nietzschéene, Par Jean - Michel Rey in , La Philosophie III de Kant à Husserl, ed. Marabout 1979. P. 246

(41) «فلسفة نيتشه» Eugène Fink تعـريب إلياس بديوي - منشورات وزارة الثقافة والإرشـاد القومي - دمشق 1974 . ص 7 . وعن القراءة الخارجية : انظر : «تحطيم العقل» الجزء II- جورج لـوكاش- دار الحقيقـة ، بيروت - ترجمة إليـاس مرقص ، الطبعـة الأولى 1981 كما يمكـن الرجوع لمقاربات جديدة ، بالخصوص رقم 4 ، 12 ، 13 ، 14 ، ضمن كتاب - Niezsche aujourd'hui ? T.2 - Passion10-18.1973

(42) العلم المرح . ش 377

(43) نفسه ، ش 26

(44) نفسه ، ش 54 بعد المقدمة

(45) هـ . ت زراشت ص 98

هزءٌ، مكرٌ وانتقام

1 استدعـــاء

تجرّأوا أن تذوقوا من طعامي ، أيها الأكلَةْ!
غداً سيكون طعمه أفضل
وبعد غد سيبدو لكم أحسنَ !
أترغبون في المزيد منه ؟
ستُلهمني وُصفاتي القديمهْ
بقدر وصفاتٍ جديدهْ

2 سعـــادتي

عندما مللتُ البحث
تعلمت الاكتشاف
ولمّا أمست لي ريح رفيقًا
صرتُ لكل ريح شراعًا

3 إقـــدام

أسبِر ، حيثما تكونُ !
ففي العِمق يكون المنبعُ !
دع بنات وِردان تصرخُ :
«إن الجحيم في العمق أبدا يكونُ»

4 حـــوار

أ- هل كنتُ عليلا ؟ هل شُفيتُ ؟
من كان إذن طبيبي ؟
ولكن ، هل استطعت نسيان كل شيء !
ب- الآن اعتقد أنك شفيتَ :
لأن من ينسى ، سليمُ .

5 للفاضليـن

على فضائلنا أيضا ، أن تعلم كيفَ ، بأقدام ناعمة
كأبيات هو ميروس ، تأتي وتروح

6 حكمــة

في السهل لا تمكث !
وعلى الصعود أكثر لا تتجرّأ !
فالعالِمِ مُدْرَكٌ من منتصف الارتفاع
أحسن مرأى ، يقدّمُ

7 Vade mecum , Vade tecum (*)

أيسحرك أسلوبي وكلامي ؟
ماذا ؟ ستتبعني خطوة خطوة ؟
لاتأبه بأن تكون إلا لنفسك مخلصا
وستكون قد تبعتني -رويدا ! رويدا !

8 التغيرّ الثالث للجلد

الآن جلدي ينطوي ، يتفتّتْ ،
الآن ، فيّ ، الثعبان يصبو
بشوقٍ إلى المزيد من التراب
لمقدار ما من التراب هَضَم .
زالقا بين العشب والحجر
شرهٌ، على طريقي الملتوي ،
لقوتَي الأبدي ، التراب !
أنت يا مرعى الثعابين !

(*) صديقي الملازم ، صديقك الملازم .

9 ورودي

أجل حظي -يريد أن يفتنكم !
لأن كل حظ يطلب الفتنة!
أترغبون في قطف ورودي ؟
انحنوا ، واختبئوا
بين الصخر والأشواك ،
وأصابعكم ، غالبا العقوا !

لأن حظي - حظٌّ منكّدٌ !
لأن حظي - حظّ مُعَفْرتٌ !
أترغبون في قطف ورودي ؟

10 المستخفّ

لأنني كففت عن الاهتمام ،
لأنني نثرت كثيراً
عُرِفْتُ بالمستخفِّ .
من يشرب ملء الكأس
فقد سكب منها كثيراً
ولم يزدر ، لأجل هذا ، خمرا .

11 يقول المثل

فِجٌ ووديعٌ ، ظريفٌ وفظٌّ
غريبٌ وَأَلُوفٌ ،
قذِرٌ وطاهرٌ،
لقاءُ العقَلاءِ والمجانين ،
أنا كذلك ؛ وأريدُ أن أكونَه
يمامةً ، ثعْبانًا وخنْزيراً .

12 إلى صديق للنور

إذا أردتَ أن لا يَكَلّ
نفاذُ النظر والرَّأْيِ
طاردِ الشمسَ في الظلّ

13 من أجل الراقصين

فردوسٌ
هو الجليد الناعم
لمن يعرف جيدًا كيف يرقصُ .

14 الباســـــلُ

عداوةٌ بلا مرونة ولا جمال
خيرٌ من صداقة بإصلاح رديء

15 الصـــــدأ

غير كافٍ ، أبداً ، أن تكون مشحوذاً
فالصدأ ضروريٌّ لك أيضا
إن أردت ألاّ تُعْرف مغفَّلاَ .

16 إرتقـــاء

- «كيف أصل بسرعة إلى القمة ؟»
- اصعد دائما ، ولا تأبهْ بذلك !

17 شعار العنيف

لاتَرْجُ أبداً : كفَّ عن التشكي هكذا !
انتزع ، أقول لك ، لا تتوقّف أبدا عن الانتزاع !

18 نفوس بليدة

أكره النفوس البليدة
حيث لا طيبة ، ولا خبث أيضا .

19 الفاتن رغما عنه

كسلاً ، ألقى
بكلمة فارغة على غير هدًى
سبّبت زلّة امرأة .

20 للوزن

إن ألمًا مضاعَفا مطاقٌ ، أكثرْ
من ألمٍ أوحد :
أتريد أن تخاطرْ ؟

21 كبريــاء

لا تنتفخ : خوفا عليك من أن تنفجر
بأقل وخزة .

22 رجل وامرأة

«إنزع المرأة التي من أجلها يحترق قلبك !»
هكذا يفكر الرجل ؛ المرأة لا تنزع أبدا ، إنها تخفي .

23 تفسيــــر

أُفَسّرُنِي ، وأكذبُ عليّ !
أنا مفسِّر نفسيَ العاجِزُ !
وحده من يرتقي مسلكه الخاص
يبجل معرفتي بنفسي !

24 دواء للمتشائمين

لم يعد لأي شيء مذاق - إذن ؟
نفس النزوات دائما ؟
حنقُك ، بصقاتُك ، شتائمك -
تضني أناتي وفؤادي .
اعزم طوعًا
على أن تبتلع فوراً
بلا تكلفٍ ، ضفدعا شحومًا !
علاج ضد عُسر الهضم .

25 رجـــاء

لعددٍ من الناس أَخْبِرُ العقول
وما خبرت أنا من أكونْ !
فعيْنِي منِي أدنى !
وما أراه ليس أنا ،
لا ولا أكثر ما رأيت .
كنت أغنم أكثر
لو مدًى بيني وبيني ،
طبعًا ، أقل بعدًا من عدوى !
ومن أقرب الأصدقاء أكثر بعداً
لكن الوسط بيني وبينهُ
أكشفتم عمّا أرجوهُ ؟

26 صلابتـــي

يجب أن أرتقي مئات الدرجات
يجب أن أعلو بينها تصيحون :
«أيها الصلب ! أنحن إذن متحجرون ؟
يجب أن أرتقي مئات الدرجات .
ولا كرامة لمن يرضى بالقيام مقام درجة .

27 المسافــــر

«لا طريق لأي مكان ، هوّة حولي وصمتُ الموتِ !»-
تلك كانت إرادتك ! وانحرفتْ عن كل مسلكٍ -
أيها المسافر ، آن الأوان
فانظر بثبات وكن صاحيا ! لقد تِهْتَ ،
إذا كنت - بالخطر - تؤمن .

28 عزاء للمبتدئين

بين ظهرانيْ الخنازير التي تنخر ، انظروا
الطفل العاجزَ ، متقلصة أصابعه
والبكاء ، كلٌّ ما يمكنه -
أيسْتطيع يومًا أن يقِفُ و يمشي ؟
لا تخافوا ، فقريبًا ، أعتقد ،
سترونه يرقص ! -
بمجرد ما يقف على قدميه - لن يلبثَ
أن يقف على رأسه أيضًا !

29 أنانية الكواكب

إن لم أتَدحرَجْ ، تدحرج البرميل المستدير -
حول نفسي دون توقف - هل سأحتمل
التوق الى الشمس المحرقة ، دون أن أشتعل ؟

30 القريــب

قريبًا ، يضايقني القريب :
إن ، بعيدًا عني ، لم يَسْمُ إلى الأعالي
كيف سيمسي لي نجما ؟

31 القدّيس المقنّع

بحياءِ غِبْطَتُكَ
تكسو دهاءَ الشيطان ،
سخريّتَهُ وزيَّه
عبثا [تحاول] ! فمن عمق نظرتك
تشعّ القداسة

32 الخاضع

أ- يتوقف ، يُصغي : ما عسى
أن يُضلَّهُ ؟ ماذا يسمع ، مد مدمًا ، في أذنيه ؟
من يكون قد هدّه ؟
ب- ككل من كان ، قديمًا ، مقيّدًا ،
حيثما يكون ، يسمع صلصلة القيودْ .

33 المنعزل

أكره أن أتّبع بقدما أكره أن أقود
أن أطيع ؟ لا ، أبداً ، وأبدا أن أحكم !
من لم يرعب نفسه ، أبدا من الآخر يستلهم الرعب -
ووحده من يستلهمه ، قيادةَ الآخرين يعرفُ .
مسبقًا ، أكره أن أقود نفسي !
كحيوانات الغاب والبحر
أحبّ أن أتيه حيناً
أتأمل أية متاهة فتانة ،
أَوْ قلْ ، أتذكر عن بعدٍ وبهدوءٍ ، مسكني -
لا سترجع حَوَاسي وانسحر بنفسي .

34 Seneca et hoc genus omne (*)

هذا الوغد يكتب ، ويعيد كتابة كلامه ، بحكمة مقيتة

---

* سنيك وهاته الأنواع كلها (سنيك : فيلسوف إغريقي ، وهو معلم نيرون)

كما لو كان المهمٌّ أن يكتب أوّلاً،
ويتفلسف ثانياً.

35 أثلوجة

أجل، أحيانا أصنع الأثلوجة
[فهي] للهضم ضرورية !
إذا كان ما ستهضمون كثيرا
آه، كم ستعجبكم أثلوجتي !

36 آثار الشباب

بداية ونهاية حكمتي،
أصغيت لصداهما : ما ذا سمعت !
نفس الإيقاع اليوم لا يملكان ،
وحدها الآهات والواهات السرمديّةُ
لشبابي، هي ما أسمع

37 احتراس

لم تعد الأسفار في هذه الناحية آمنة بعدُ،
إن كنت نبيهاً، ضاعف نباهتك !
تُغْرىٰ، تُهملُ ثم تُمَزَّقُ ،
مهووسة، هذه النفوس : يهجرها العقل

38 الرجل التقي يتحدث

الإله يحبنا لأنه خلقنا !
«الإنسان خلق الإله» تجيبون أيها الحاذقون ،
ولأنه خلقه، أهو مجبول على جحوده ؟
أمر مضطرب ومفلوق كقبقاب الشيطان.

39 في الصيف

بِرَشح جبيننا
كان يجب أن نأكل خبزنا ؟

في العَرَق ، الأجدر ألاَّ نأكل شيئا !
حسب تخمينات أطباء حكماء .
إذا القيظ داهمنا : لِمَ نحتاج ؟
بِم يبوح رمزه الناريُّ ؟
أن بعرق جبيننا
سنشرب إذن من كرومنا !

40 دون رغبـة

أجل ، إن نظرته بارده :
ولذلك تُبجِّلونهْ ؟
هو لا يبالي بتشريفاتكم ،
كالنسر، عينه على الأقاصي
كلاَّ ، لن يَراكُم
لن يبصر إلاَّ النجوم ، النجوم !

41 هيراقليطية

بالصراعِ يا أصدقائي
تنزل كلُّ سعادةٍ ساحةَ الأرض .
أجل ، لنصبح أصدقاء
لا بد من جلجلة المدافع .
يتوحد الأصدقاء في ثلاثة أشياء :
إخوة في الضرورة
سواء أمام العدو
أحرار أمام الموت !

42 مبدأ المرْهَفين

على رؤوس الأصابع ، خير
من على أربع ،
من ثقب القفل ، خير
من أبواب مشرعة .

43 نصيحة

أفي المجد أنت طامع ؟
تقبَّل هذه الموعظة إذن :
في الوقت المناسب ، احْسن التخلي طوعا
عن الأمجاد !

44 الوصول إلى العمق

ماذا ، أنا منقِّب ؟ ـ بمنّة ، وفِّروا عنِّي هذا الكلام
ما أنا إلا ثقيل كالعديد من الأوزان !
أسقط ، أسقط دون توقف
للوصول أخيراً إلى العمق !

45 إلى الأبـــد

«اليوم سآتي ،
لأن اليوم يلائمني»
كذلك ، يفكر كلّ من على الدوام يأتي
ما همه هذر الناس :
«تجيء قبل الأوان ! تجيء بعد الأوان !»

46 أحكام الكائنات المُتعَبة

الشمسُ ، يلعنها كل المنهوكين
وعندهم ، قيمةُ الأشجار : ظلالُها !

47 هبوط

«هاهو يهبط ، الآن يقعْ»
هكذا لا تكفّون عن الثّلب ـ
في الحقيقة ، إنه ينزل باتجاهكم في هذه الدنيا !
فسعادته المفرطة إلحاح
ونورُه المفرطُ يتحرَّى ظلامَكم .

48 ضدّ القوانين

من اليوم فصاعداً، في حبل عُرفٍ
حول عنقي، سأعلق ساعة :
من اليوم فصاعدا يتوقف مجرى الكواكبْ،
الشمسُ، صياحُ الديك والظلالْ
وكل ما يمكن أن يُنبئني به الزمانْ
الآن، كل شيء - كما أرى
أخرس وأصمّ وأعمى
كل طبيعة حولي
تتصامٌ لدقّات القانون والساعة .

49 الحكيم يتحدث

غريب عن الناس، غير أني مُجدٍ للناس،
أتبع سبيلي، تارة شمسا وطورا سحابا -
ودوما فوق هؤلاء الناس

50 ضياع الرشد

هي، الآن، نبيهة -
كيف حصل ذلك ؟
إن رجلا، بسببها، فقد صوابهْ،
رُشدُه قويا كان، قبل هذه التسليةْ -
إلى الجحيم ذهب رشدُه -
لا ! بل قلْ إلى المرأةْ !

51 رغائب تقيّة

على كل مفتاح
أن يضيع الآن
وفي كل ثقبِ قفلٍ
أن يُدار مفتاح عمومي !

كذلك، يفكر دائما
كل من هو مفتاح عمومي !

52 أن تكتب بالرِّجْل

لا أكتب باليد فقط
فرجلي أيضا، تريد أن تكتب دائما،
ثابتة، طليقة وقوية تجري
تارة عبر الحقول وعلى الورق طورا.

53 «انساني، مفرط في إنسانيته» كتاب

كئيب وجَفُولُ
مادمتَ بالخلف تلوي،
واثقا مما سيأتي،
ومادامت لك بنفسك ثقةٌ،
أأعدُّك، ياطائراً، واحدا من النسور ؟
ألست بومَ مينارفا (*) السميرْ ؟

54 لقارئي

أسنانا قوية ومعدة سليمة ـ
هو ما أتمنى لك !
وإن فهمتَ كتابي
مؤكد أنك ستتفهمُني.

55 الرسام الواقعي

«الطبيعة بأمان، كل الطبيعة !»
ـ على أي نحو سيتصرف؟
أيمكن للطبيعة أن تُستوفى في الصورة ؟
لانهائي هو أصغر جزء في العالم !
وهو لا يرسم منها، في النهاية، إلا ما يريد.
وماذا يريد ؟ ما يعرف أن يرسمه

(*) Minerve : إلهة الحكمة عند اليونان.

56 زهو شاعر

أعطوني صمْغاً فقط :
سأجد خشبا بنفسي !
فإعطاء معنى لأربع قواف لا معقولة
ليس موضوعا قليل العُجب .

57 الذوق الذي يختار

إن تُركْتُ وشأني لأختارْ،
بسرور، مكانا صغيرا، سأختارْ،
وسط الفردوس :
أو ربما : ببابه، أحسن .

58 أنف أعقف

يتقدم الأنف بانفراد
في العالم، والمنخر ينتفخ ـ
لذلك، كوحيد القرن بلا قرنٍ
تسقط دائما، أيها الرجل الصغير الفخور، إلى الأمام !
حتى أنهما دائما ندّان :
فخرٌ منتصبٌ وأنفٌ أعقف .

59 الريشة تخربش

الريشة تخربش : أمرٌ لا يطاق
أمحكوم عليّ إذن بالخربشة ؟
لذلك، كلما استولت عليّ، بجرأة، دواتي
أكتب بأمواج من المداد .
كيف ينساب ذلك، مترعا، سخيا !
كم أفلح في كل شيء، مهما كتبتُ !
دون شك، تشكو الكتابة من عدم الوضوح
ما همّني ؟ ثم من يفكر في قراءة ما أكتب ؟

60 رجال متفوقون

هذا يصعد إلى الأعالي ـ
هو من يجب مدحه !

ولكن طول الوقت ، ذلك ، من الأعلى يأتي !
ذاك يحيا حتى عن الأمداح خفيا .
فهو من الأعلى .

61 الشكوكي يتحدث

نصف حياتك انصرم
العقرب يتقدم ، وروحك ترتعد !
منذ أن كانت تائهة من أمد طويل
وهي تبحث ، شيئا لم تجد ـ وهنا تتحيَّـر ؟
نصف حياتك انصرم :
لا شيء عدا الكدر وهنا وهناك خطأ من حين لآخر
عما تبحث ثانية ؟ لماذا ؟
بالضبط ـ أبحث عن العلة .

62 Ecce homo (*)

نعم ، أعرف أصلي !
شرِهٌ كاللهب ،
استهلك نفسي ، متوهجاً !
نورا يصبح ما ألمسه ،
فحما يمسي ما أتركه
مؤكدٌ ، أنا لهبٌ

63 أخلاق النجوم

مختار منذ الأزل لمدار الكواكب
فيم تعنيك ، أيها النجم ، الغياهب ؟
تدحرج بهدوء عبر هذا الزمان !
وليكن بؤسه عنك غريبا بعيدا !
وللعالم الاقصى ينتمي وميضك !
إثما تكون الشفقة عندك
أن تكون صافيا ! ذاك مبدؤك .

(*) هذا هو الإنسان .

أقطن بيتي الخاص، ولم أقلد أحدا في شيء قطُّ، وأسخر من كل معلم لم يعرف كيف يسخر من نفسه.

مكتوب فوق بابي

- 1 -

لن يكون هذا الكتاب بحاجة إلى تمهيد فحسب : ففي نهاية الأمر سيبقى الشك دائما على أنـه لم يمكن لأحد أبـدا ، أن يـؤالف مع التجربة* بتمهيدات سـابقة لهذا الكتاب ، إن لم يعش تجربة ممـاثلة . يبدو أنه مؤلف في كلام طـلاقة ذوبان الجليد : كل شيء فيه نـزق ، قلق ، تناقض ، كأيام أبـريل ، حتى وكأننا استرجعنـا فيه فصل الشتاء القريب جدا ، تمامـا كما نسترجع النصر عليه ، النصر الذي يأتي ، الذي يجب أن يأتي ، الـذي ربما أتى الآن . . . الاستكشـاف يسيل بغـزارة ، كأن الحدث الاكبر مفاجأة قد تحقق ، استكشافُ ناقهٍ ـ ذلك أن الشفاء كان هذا الحدث المفاجىء .

«العلم المرح» : هو ذاك ما يبشر بأعياد زُحل عقلٍ قاوم بصبر أطول وأعنف قسرٍ ـ [قـاوم] بصبر، بصرامة ، ببرودة ، دون إذعان ، ولكنّ أيضا بـلا أمل ، والذي فجأة يبدو مهاجما بـالأمل ، بأمل العافية ، بنشوة الشفـاء . أي شيء أعجب في هذه الحال من ميلاد العديـد من الاشياء اللامعقولـة والخرقاء ، وأن الكثير من الرقة النـزقية قد بُدِّدت لصالح قضايا ذات إهـاب شائك ، والتي لم تكن مطلقا لتستجيب للمداعبة والإغراء . إن هذا الكتاب كله ليس في الواقع سوى رغبة في المتعة بعد فترة طويلة من الحرمان والضعف . سـوى ارتعاشـة فرح بالقـوى المسترجعة ، سـوى الايمان الموقَـظِ مجددا بغدٍ وببعد غـدٍ ، سوى الاحساس والحدس المفاجئين بـالمستقبل ، بمغامرات جديدة ، ببحـار مباحة مجددا ، بأهداف مسمـوح بها من جديد ، [أهـداف] جديرة بـالثقة مـرة أخـرى . ثم كم من الأشيـاء لن تـلاحقني بعد الآن ! [كـ] أثـر الخلاء ، الإنهاك ، الجحود ، الجمود في ريعـان الشباب ، هذه الشيخوخـة المحشورة في المكان الرديء ، استبداد الألم هذا ، المتجاوز أحيانا باستبداد الأنفة ، الذي يأبى نتائج الألم ـ والحال أن النتائج عزاءات ـ هذا الانفراد الجذري كمقاومة يائسة ضد بغض البشر بوضوح مـرضيٍّ ، هذا التقييد العميق للمرارة ، للضراوة ، لمظهـر المعرفة الجارح مثلما يُخضعه للتَّـقادم هذا النفـور المتنامي تدريجيـا لصالح حمية روحيـة طائشـة ، تدليع حقيقي للذهن ـــ هذا ما نصطلح عليـه بالرومـانسية . واهًا ! من ذا الـذي يقدر أن يكابد هذا ! غير أن من يستطيع ذلك سيغفر لي ، دون شك ، قليلا من الجنون ، من

(*) هذا التشديد وغيره من المؤلف .

الفيض، من «العلم المرح» ـ مثل حفنة من الأناشيد حيث يستهزىء شاعر من كل الشعـــراء بشكل يعسر الصفـح عنــه. أيْ! ليس فقط بخصـــوص الشعـــراء و«أحاسيسهم الغنائيـة» الجميلة يشعر هذا المنبعث بـالحاجة إلى تجريب مكره: من يدري أيـة ضحية مـن الضحايا سيختـار، أي موضـوع هائل من المواضيـع المخيفة الساخرة المحاكاة سيحرّضه عما قليل؟ مستهل التراجيديا (Incipit Tragœdia *) هو مـا كتب في ختام هـذا المؤلف بوقـاحـة قلقة: علينـا أن نحاذره! فشيء مـا مخيف جوهريا يتهيأ: مستهل محاكاة ساخرة، ذلك أمر لا ريب فيه...

ـ 2 ـ

ولكن لنترك ثمة السيد نيتشه: ماذا يعنينـا أن يسترجع السيد نيتشه عافيته؟ إن عالما نفسيا لا يعـرف إلاّ القليل من الاسئلة المغرية تلك التـي تبحث في العلاقة بين الصحـة والفلسفة، وفي حـالـة مرضه هـو فإنـه سيتعمق في مـرضه بكـل فضولـه العلمي. في الواقع يكفي أن نكون إنسـانا لتكون لنا بالضرورة فلسفـة خاصة: غير أن ثمة اختلافا بيِّنا. فالحاجة لدى الواحد، هي ما يباشر التفلسف، ولدى الآخر، ثرواته وأبّهاتـه، أما فلسفة الأول فضرورة، باعتبارهـا سندا، تهدئةً، دواء، تخليصا، رفعة، تجردا من الذات، أما بالنسبة للثـاني فلا تعدو أن تكون مجرد ترف جميل، وفي أحسن الأحوال، مبهجا لاستكشـاف ظافر يجب أن يُسجَّـل في النهـاية في عواصم كونيـة على القبة الـزرقاء للأفكـار. في الحالة الأخـرى، المألوفة جـدا، عندمـا يكون الضيق هو منتـج الفلسفة شأن ما هـو معروف عنـد كل المفكرين العَـليلين ـ وربما كان المفكـرون العليلون متفوقين في تـاريخ الفلسفة ـ: كيف سيمسي الفكـر ذاته، وقد خضع لضغط المرض؟ ذاك هـو السؤال الـذي يهم عالِـم النفس: وهنـا تكون التجربة محتملة. ليس بخلاف ما يفعل مسافر يقرر أن يستيقظ في ساعة محددة، ثم يستسلم بهدوء للنـوم، قيـاسـا على ذلك، لنفترض نحن الفـلاسفة أننـا مـرضنـا، سنستسلم جسما وروحا للمرض ـ نطبق أعيننـا تقريبا على أنفسنا. وشأن ذاك الذي يعـرف أن شيئا مـا فيـه لا ينام، [هـذا الشيء] يعـد الساعـات ليـوقظه في الـوقت المطلوب، نحن أيضا نعلم أن اللحظة الحاسمـة ستجدنا يقظين ـ ووقتذاك ينبجس شيء مـا ويضبط العقل في حـالــة تلبُّس، أقصــد، على وشك أن يضعف أو أن يتراجع، أن يستسلم أو أن يتصلـب، أن يكتئب أو أن يتـداعـى، لا أدري لأيـة

(*) الكلمات والجمل اللاتينيـة واردة في النص الأصلي كذلك. احتفظنا بها في سيـاقها وحاولنا تـرجمتها في الهامش.

حالات عقليـة مَـرَضية، تُـقاومها عادة، أيـامَ العافية، أنفـةُ الذهن (حتى نبقى في المعنى القديم : «الـذهن الأبيّ، الطاووس، الفـرس، هي حيوانات الارض الثـلاثة الأكثر زهـوا»). نتعلم على إثـر مساءلة الـذات بشكل مماثـل، على إثر تجربـة ذاتية ممـاثلة، إعـادةَ النظر في كل مـا سبق أن تم تأمله حتى الآن، بنظـرة ذربةٍ : نحـوز أحسن مما مضى الضـلالات، الموربابات، أنواع الاصطياف، منـاطق شمس الفكر حيث لم يكن المفكـرون لينقاذوا ضد إرادتهم أو ليضلـوا إلاّ لأنهم كانـوا يتألمون. من الآن فصاعـدا نعرف إلى أين، بـاتجاه ماذا يقـود عند الضروزة الجسـدُ المعتل العقلَ، ويدفعـه ويجذبه لا شعـوريا ــ نحو الشمـس، السكينة، الـرقة، الأنـاة، الدواء، التعْزيـة بمعنى معين. كل فلسفـة تولي للسلم مكـانة أرفع ممـا توليه للحـرب، كل أخلاقيات تنمّـي مفهوما سلبيا للسعادة، كل ميتـافيزيقا وكل فيزيقـا تدعي الإلمام بغاية ما، بحـالة نهائية ما، كل طموح ذي سيـادة جمالية أو دينية، لجهة، لما وراء، لخارج، لما فوق، تسمح بالتساؤل عما إذا لم يكـن المرض هو ما يلهم الفيلسوف. إن التنكر اللاشعوري للحاجات الفزيولوجية تحت أقنعة الموضوعية، التصور الذهني، العقلانية الخالصة، قادر على أن يأخذ أبعادا مخيفة ـ وكثيرا ما تساءلتُ، بعد تقليب طويل، إن لم تكن الفلسفة إلى ذلك الحين عبارة عـن تأويل للجسد وسوء فهم له، على الأطلاق. فـوراء أحكام القيمة الساميـة حيث كان تاريخ الفكـر مسددا حتى الآن، كانت تُـسْـتَـتَـرُ خـلافات بصـدد بنية الجسـد، سواء من قِـبل أشخاص منفردين، أو من قبل طبقات اجتماعية أو أجنـاس بكاملها. ومن المشروع أن نتأمل الحماقات المتهورة للميتافيـزيقا، وبالخصوص الأجوبة التي تقـدمها عن سؤال قيمة الـوجود، كهـذا المقـدار من الأعراض المرضيـة للبنيـات الجسـدية الخاصـة لبعض الأشخاص، قبل كل شيء، وإذا ما كانت تخمينات مماثلة عن العالم، إيجابية كانت أو سلبيـة، لا تتضمن، من وجهـة نظـر علميـــة، أدنى شيء من الـواقعيـة، فإنها بالمثل، لا تقدم للمؤرخ ولا لعالم النفس مؤشرات موثوقا بها باعتبارها أعراضا مرضية كما ذكرت آنفا، عن بنية الجسد القابلة للاستمرار أو الفاشلة، عن فيضه وعن طاقته الحيويين، عن سيادتـه في التاريخ، أو بالعكس عن تضايقاتـه، عن انهاكاته، عن افتقاراته، عن حدسِهِ النهاية، عـن إرادة بلوغ مداه. مازلت بانتظار مجيء فيلسوف طبيب، بالمعنىٰ الاستثنائي لهذه العبارة، حيـث ستنهض مهمته على دراسة مشكلة الصحة الاجتماعية لشعب مـا، لحقبة ما، لجنس ما، لـلانسانية ـ وسيجرؤ يـوما ما على إيصال ريبتي إلى اقصى حـد، وعلى تطوير الفرضيـة : في كل نشاط فلسفي لم

يكن الأمر يتعلق حتـى ذلك الحين بالعثور على الـ «حقيقه» إطـلاقا، ولكن بشيء آخر تماما، لنقل بالصحة، بالمستقبل، بالنمو، بالقوة، بالحياة. . . .

- 3 -

نحزر [إذن] أنني لا أريد أن أتخلى أبدا، بصعوبة، عن فترة السقام البالغ هذه، حيث ما تزال فائدتها حتى اليـوم، بالنسبة لي، غير مستنفدة بعد: كما أنني واع بما فيه الكفايـة، بكل الطائلة التي تمنحني، قطعا، إياها التغيرات الـلامتناهية لحالتي الصحية عن كل نموذج خشن للعقل. إن فيلسـوفا عبر ولا يكف عن عبور حالات صحية عـدة، ومر بهذا المقدار من الفلسفـات، لا يستطيع أن يفعل أكثر من تغيير كل حـالـة من حـالاتـه للشكل ولـلأفـق الاكثـر روحيـة، ـــ فن التغيير، تلك هي الفلسفة. لا نملك نحن الفلاسفة الآخرون أن نفصل بين الروح والجسد، كما يفعل النـاس، أقل من أن نفصل أيضا بين الـروح والعقل. لسنـا ضفادع مفكـرة، آلات للإسقاط أو للتسجيل دون أحاسيس، ـ يجب علينا أن نولِّد دوما أفكارنا من صميم آلامنـا، وبأمـومـة ننعم عليهـا بكل مـا فينـا من حيـاة، من حب، من رغبـة، من شغف، من وجع، من شعور، من مصير ـ من حتمية. أن نحيا ـ هذا يعني بالنسبة لنا: أن نغيّر باستمـرار كل ما نحن عليه نوراً ولهبا، كـذلك الحال أيضا، أن نحول كل ما يؤثر فينا، لا يسعنا أبدا أن نتصرف بوجه آخر. أما ما يتعلق بالمرض، هل من الممكن على الأقل، إذا سـولت لنـا أنفسنـــا أن نتسـاءل، هل من الممكن أن نعفي أنفسنـا من ذلك ؟ وحده الألم العظيم هـو المحرر النهـائي للعقل، مُـرَبِّـــي الريبـة الكبيرة الذي يجعل من كل (يـاء) (هاء)، هاء أصيلـة حقا، أي [أن نجعل] الحرف مـا قبل الاخير، قبل الأخير . . . وحـده الألم العظيم، هـذا الألم المديـد والبطيء، الـذي لا يتعجل، حيث نـؤكل تقـريبـا، كما مع الحطب الغضّ، يُكـرهُنـا، نحن الفلاسفة، على النزول إلى عمقنا الأخير، على انتزاع هذه الثقة منا، [على انتزاع] كل عطف، كل حلٍّ وسط، حيث وظّفنا ربما كل إنسـانيتنا فيما مضى. أشك في أن ألما مماثلا «يُـحَـسِّنُ» ـ ولكنني أعرف أنه يعمقنا. منذ ذلك الحين ـ إما أننا نكون تعلمنا أن نواجهـه بأنفتنا ـ بسخـريتنا، بقوة إرادتنـا على غرار الهندي الـذي يصمد لأقبح ألوان العذاب، بفرط ذمّه لجلاده، وإما أننـا بفضل الألم نكون انطوينا في هذا العدم الشرقي ـ النيرفانـا ـ في الخرس، الخمول، صمم الزهد، الكفر بـالذات وخَـوَرِها: يبقى أن مثل هذه التمارين الطويلة والخطيرة، لضبط النفس، تجعل منا إنسانا آخر، باستفهامات إضـافية، بل قبل كل شيء بإرادة التساؤل في المستقبل، بإصرار أكثر،

بعمق، بصرامـة، بقساوة، بفظاظـة وبرصـانة لم يسبق لها مثيل حتـى الآن. لم تعد هناك ثقة في الحيـاة، فالحياة بدورها أصبحت مطلبا. ولكن لا يُعتقـدنَّ أن أحدا قد تكدر بالضرورة من ذلك! حتى آنذاك يظل حب الحياة ممكنا ـ ولو أننا سنحب بعد الآن بطريقة أخرى. إن حبا تجاه امرأة هو ما يـوقظ فينا شكوكا . . . فالابتهاج الذي يحس به مثل هؤلاء الناس، الأكثرر رهافة، والمُرَوْحنين أكثر (Spiritualisés)، تحت وطأة الافتتـان بكل ما لـه طبيعة ريبيـة، قـادر بتوجهـه الجلي على تحويل كل ضيق المشكوك فيه، كـل مخاطرة الخوف وغيرة العاشق أيضا، بـاستمرار [هكذا] سنختبر غبطة جديدة . . .

ـ 4 ـ

في النهايـة وحتى لا يبقى المهم مُـضْمرا: فمن هُـوىً ممـاثلة، ومن سقام بـالغ مماثل نشفى، كما من خدر الشك البـالغ نعود وقد ولدنا من جديـد، بآراء جديدة، أكثر حساسيـة، أكثر فظاظة، بـذوق مهذب أكثر للإبتهاج، بمـذاق مرهف لكل الأشياء الجميلة، بحـواس أكثر مرحا، ببراءة جـديدة وأكثر مخاطرة في الفـرح، أكثر سذاجـة وأكثر رهافة في الآن ذاتـه، مما لم نكن عليه قط فيما سبق. واهـاً! كم تبدو لكم المتعة وقتئذ منفرة، خشنة، تفِهة وباهتة كما يفهمها عادة طالبو اللذة «أصحابنا المثقفون»، أثـرياؤنا، وأوليـاء أمرنا! بـأي خبث نشاهد بعـد الآن ضجيج المعارض الكبير حيث يستسلم اليـوم ال «انسـان المثقف» المديني للغضْب من طـرف الفن، الكتاب والموسيقى، بغايات «المتع الروحيـة»، كتأثير المشروبات الروحية! كم تشج في آذاننا صرخة الشغف المسرحية، كل التمرّد الرومانسي، كل التباس الحواس، التي تؤثرها الدهماء المثقفة، بكل طموحاتها إلى اللاموصوف، إلى التعظيم، إلى التخديد، كم أضحىٰ كل هذا غريبا عن ذوقنا! لا! على قدر مـا نكون نحن الناقهون بحاجة إلى فن، سيكـون فنـا آخـر تمامـا، فن هـازىء، خفيف، منفلت، رشيق بغـايـة الإتقـان، مصطنع بكمال مطلق، يلتمع كلهب مضيء، في سماء بـلا غيـوم! فن، قبل كل شيء من أجل الفنـانين، من أجل الفنانين فقط! نحن خير خبراء في هـذا الـــذي يُعتبر، قبـل كل شيء ضروريـــا لهذا الفن: المرح، كـل أنـــواع المرح أيها الاصدقاء! ثم كفنان، أحب أن أبرر ذلك، إننا نعرف جيدا عددا من الاشياء، بعد الآن، نحن الناس المتيقظـون: أيْ نعم! كم نفرط في التعلم لكـي نحسن النسيان من بعـد، لكي لا نعلـم جيـدا أي شيء، كفنـانين! أمـا مـا يتعلق بمستقبلنـا: فسَيـُعثَر علينا بصعوبة في أعقاب أولئك المصريين الـذين يعكرون أمن المعابد ليلا،

الذين يحتضنـون التماثيل ويحرصون على الإطلاق على إظهار [و] كشف و إخـراج ما احتُفظ به سراً لاسباب دقيقة في واضحـة النهار. لا، إن هذا الأسلوب الضار، إرادة الحقيقة، هذه «الحقيقة» مهما كان الثمن، هـذا الهذيان الصبياني في طلب الحقيقة، كلها عندنا بعد الآن من المكروهات : فنحـن مفرطو الضَّرس، الرصانة، الابتهاج، المبتلون بالاحتراق، أعمق من ذلك. لا نعتقد أبداً بأن الحقيقة تظل كذلك، بمجرد ما نزيح عنهـا قناعها : لقد عمّرنا طـويلا لنؤمن بهذا. واليوم فالمسألة بـالنسبة لنا، مسألة لياقة عندما لا نستطيع أن نـرى كل شيء بلا قناع، ولا أن نشاهد كل عملية أو نريد فهم كل شيء و «العلم» به. «أصحيحٌ أن الإلـه حاضر في الأشياء كلها ؟ ـ سألت طفلة صغيرة والدتها ـ يبدو لي أن ذلك غير لائق» ــ [هذا] تنبيه للفلاسفة ! علينا أن نُمجِّـدَ الحياء الذي تتخفى بـه الطبيعة وراء الأسرار والـرِّيَب المبرقشة. ربما يكون اسمها، حتى نتكلم إغريقيا Baūbo (*) ؟ هؤلاء الإغريق ! كانوا منسجمين ومعنى أن نحيا : أي ما يستلـزم أسلوبا جريئـا للتوقف عند الظاهـر، عند الغلاف، عند البشرة، عند الافتتان بالظاهر، الايمان بالأشكال، بالأصوات، بالكلمات، بآلهة الظاهر كلها! هؤلاء الإغريق كانوا سطحيين ـ بعمق ! أليس هذا بالذات هو ما عدنا له، نحن مقتحمـو أهوال العقل، الذين تـوقّلوا أعلى وأخطر قمم الفكـر المعاصر ـ الذيـن راقبوا الآفاق، مـن الأعالي، والذيـن من هناك ألقـوْا نظرة باتجاه الاغـريق ؟ عشـاق الاشكال، الايقـاعـات، الأسفل ؟ أليس في هذا مـا يجعلنـا ـ إغـريقيين ؟ مولعين بالأشكال ـ بالأصوات وبالكلمات ؟ وبالتالي فنانين ؟

روتا، قرب جنوة

خريف هذه السنة 1886

(*) Baūbo : السطح

الكتاب الأول

1 أطباء الهدف من الوجود

حاولت عبثا تأمل النـاس مليا باستحسان أو باستقبـاح، جميعا وكل واحد على حدة، ولم أبصرهم أبدا إلا وهــم مثابرين على شغل واحد : العمل على مـا هو مفيد لحفظ النـوع. وهـذا الأمر في الحقيقـة لا يعـود لـلاحسـاس بالحب تجاه هـذا النـوع [البشري]، ولكن فقط لأنه لا شيء أكثر تأصلا، قـوة، تصلبا ويستحيل قهره أكثر من هذه الغريزةـ ذلك أن هذا الاحساس الفطري هو أصل النوع القطيعي الذي هو نحن، على الاطلاق. فبمجرد ما نشرع، بقِصر النظر المألوف، في تصنيف الأنواع، بحسب العادة، إلى أناس نافعين وضارين، طيبين وأشرار، يحدث بعد تحليل عميق وتفكير حصيف في مجموع الإجـراء، أن يداخلنـا الشك في نمط هذه التصفيـة وهذا الفصل، وفي النهاية نصرف النظر عن ذلك. إن الانسان، حتى الأكثر ضررا، ربما كان الاكثـر أهمية من جهة الحفـاظ على النوع، ذلك أنه يغـذي بداخله أو بفـاعلية تأثيره، عند الآخرين، إغراءات كانت البشرية من دونها ستكون منحلة ومنحطة من أمد بعيد. إن الكراهيةَ، الفرحَ لتعاسة الآخرين، الظمأ للسلب والسيطرة، وكلّ ما ينعت بـالفظ : كل هذا يتعلق بـالادخـار المدهش لحفظ النوع، بـالادخار البـاهظ والمسرف، دون ريب؛ وبالجملة، بالادخار الغـريب بشكل مدهش؛ ـ ولكن الذي يمكن أن نبرهن على أنه حـافظ على نوعنـا إلى اليوم. لا أعلم يـا نظيري، وقريبي، كيف يمكنك أن تحيا إطلاقابمضرة البشر، أي بطـريقة «لا معقولة»، «شنيعة»، فما يمكن أن يكون قـد ألحق ضررا بالبشرية، ربما تـوارى منذ قرون عديـدة، ومستقبلا [سيضحي] من طبيعـة الأشياء التي تعتبر لا معقـولـة حتى بالنسبـة للإلـه. امتثلْ لأحسن أو أقبح رغبـاتك، وقبل كـل شيء : كن فـانيـا ! في هـذا الخيـار أو ذاك، بطريقة معينـة، ستبقى بوجه الاحتمال مؤسّساً، وليَّ نعمة الانسـانية، وبهذه الصفة سيكـون لك الحق في مـادحيك بقـدر مـزاح محتقـريك ! غير أنك لن تجد أبـدا من يستهزىء بك، أنت الانسان الفريد، ولو بما فيك من تفوق، ويشعرك، كما تفرضه الحقيقة، بما فيك من بؤس الذبابـة والضفدع ! في الواقع، لمعرفة كيف نضحك من أنفسنا، كما يليق بنـا أن نضحك، لكن بضحك ينفجر *من عمق الحقيقة المطلقة*، فالأذهان المتفوقة لا تملك حتى الآن القدر الكـافي من حس الحقيقة، والأكثر موهبة منها، دون الكفـاية من النبـوغ ! ترى هل سيكون للضحـك مستقبل أيضا ! وذلك عنـدما تكـون أطـروحة : «البشر هـو الكل [أما] المفـرد فـلا أحد»، متجسـدة في

الانسانية ، ويكون هذا التحرير النهائي ، هذه اللامسؤولية الأخيرة سهلة البلوغ لكل إنسـان . ربما آنذئذ سيكـون الضحك حليفـا للنبـوغ ، ولن يكون هنـاك علم آخـر باستثناء «العلم المرح» غير أن الامـر في الآونة الراهنة بخلاف ذلك تماما ، فكـوميديا الوجود لم «تع ذاتها» بعـد ـ ونحن لم نزل في عصر التراجيديـا ، في عصر الأخلاقيات والـديـانـات . مـاذا يعني الظهـور المتجـدد دائما لهؤلاء المؤسسين لـلاخـلاقيـات والديـانات ، للمحرضين على المقاومـة من أجل انتصار المعايير الاخلاقيـة ، لأطباء حـالات الوعي وحـروب الـديانـات ، هؤلاء ؟ مـاذا يعني هـؤلاء الابطال على هـذه الخشبة ؟ ـ ذلك أنهم كانوا إلى ذلك الحين أبطـال هذا المشهد ذاته ، والآخرون الذين ظلوا وحـدهم ، لفترة ، ظاهرين ومبـاشرين فوق الحد ، لم يصلحـوا أبدا إلا لتهييء هؤلاء الأبطال ، إما كآليات وكواليس ، وإما لأدوار المؤتمنين على الأسرار والفرّاشين . (فالشعراء مثلا كانوا دائما فراشي أخـلاقيات معينة) ـ مسلمٌ به أن ممثلي المآسي هؤلاء يخدمـون أيضا لصـالح البشريـة ، مع أنهم يعتقـدون أنهم يخدمون لصـالح الإلـه ، وكمبعـوثين من طرفـه . هم بدورهم يشجعـون حياة البشريـة ، ***بتشجيعهـم الإيمان بالحياة***. «من الأهمية بمكان أن نحيا» ـ هكـذا يهتف كل واحد منهم ، ـ«هذه الحياة تعني شيئا مـا ، شيئا ما عقبها ، تحتهـا ، احذروا ذلك !» . هذه الغـريزة التي تفعل بانتظـام في الانسان الاكثر سموا كما في الانسـان الاكثر دناءة ، غريـزة حفظ النوع ، تظهـر ، في أوقـات متبـاينـة ، في هيأة العقل وشغف الروح ، فتلفي نفسهـا آنئذ ، مـدعومـة بمبررات أخّاذة ، ثم تنـزع إلى السهـو ما أمكن ، عن أنها في الحقيقـة مجرد انـدفاع ، غـريـزة ، حماقـة وانعدام أسـاس . الحيـاة تقتضي أن تُعشق ، ***لأن . . . !*** الانسـان يقتضي أن يشجـع نفسـه وأن يشجع قـريبـه ، ***لأن . . . !*** ومهما تكـون التعاريف الآنية والمستقبلية وكل هذه الـ (***تقتضي***) ، لكل هذه الـ(***لأن***) ! وآنذاك ، وحتى لا يبدو من الآن فصاعدا ما يحدث بالضرورة وباستمرار من تلقاء نفسه ودون أي هدف ، مُنْشَأً في هدف محدد ويُكسِب الإنسان وضوحَ الذهن والناموس الأخير، ـ فـإن طبيب الاخلاقيـات يلج المسرح ، بعقيدتـه الـ «***هدف من الوجود***» ، لذلك يختلق واحـدة أخرى ، [أي] وجـودا ثانيـا ، وبواسطـة تركيبـه الجديد يخرج الـوجود القديم ، المبتذل ، عن أطواره البالية . المبتذلة ، أكيد أنه لا يريد إطلاقا أن نسخر من الوجـود ، ولا من أنفسنا ـــ أو من نفسه على الأقـل ، فبالنسبة لـه يظل ***الكائن*** دائما ***كائنا*** ، شيئا من الأول والأخير والعظيم أيضا ، ليس هناك ، في نظره ، نوع ، كميات ، أصفار قط . وبقدر ما تبلغ اختلاقاته وتقديراته من الحماقة والهذيان ، بقدر ما يغالي

في تجاهل سيرورة الطبيعة ونكـران شروطها : ـ وكـل الأخلاقيات كـانت على الدوام خرقاء وضد الطبيعـة لدرجة أن كل واحدة [من هذه الاخلاقيـات] كانت قادرة على تقويض الانسانيـة لو أنها نُصِّبت سيدةً لها ـ لكن ! مع كل ولوج جديـد «للأبطال» على الخشبـة ، يكـون شيء جـديـد مـا قـد تم اكتسـابـه : الـرأي المخـالف الشنيع للسخرية ، هـذه الرجة العميقة للكثير من الاشخـاص مع هذه الفكرة : «أجل» ، من الاهمية بمكان أن نحيـا ! أجل ، أستحق أن أحيا ! » ـ الحياة ، أنـا كذلك ، أنت ونحن جميعـا قد أصبحنا البعض للبعـض الآخر، مفيديـن ثانية ، لبعض الـوقت ـ يقينيٌّ أنـه على التمادي وحتـى إشعـــار آخـــر للضحك ، انتهـى العقل والطبيعـــة بالانتصــار على كل واحد من أطبـاء «الهدف» هؤلاء : فالتراجيـديا القصيرة لم تكف عن أن تعبر وتعود إلى كوميـديا الوجود الأبدية ، ويجب ـــ حتى نقول مع إيشيل ـ أن ترتد في النهاية «أمواج الضحك اللايحصى» أيضا إلى أكبر هؤلاء التراجيديين . ولكن على العموم ، بالرغم من كون كل هذا الضحك ناجعا للإصلاح ، فإن عودة الظهور الدّائمة لأطباء الهدف من الوجود لم يكن لها أدنـى مفعول لتحويل الطبيعة الانسانية ـ *هذه الطبيعة ستفتقر من الآن فصاعدا إلى شيء آخر* ، وبالضبط الحاجة إلى العودة الدائمة لظهور أطباء مماثلين ، [لظهور] مذاهب «هدف» مماثلة . لقد أصبح الانسان بشكل غير محسوس حيـوانا غريب الأطـوار، وأكثر من أي حيوان آخر، وجـد نفسه مجبولا على تلبيـة شرط وجود : يجب على الانسان ، مـن وقت لآخر، أن يعتقـد أنه يعرف *لماذا* هو موجود ، ولا يستطيع نوعه [البشري] أن يزدهر دون ثقة دورية في الحياة ! دون ايمان بالـ*ـعقل في عقر الحياة !* وعلى التـوالي سيأتي زمن حيث سيفتي الجنس البشري أنه : «يوجد شيء ما لا يستحق أن نضحك منه !» وصديق الجنس البشري ، الأكثـر تبصرا سيضيف : «ليس الضحك والحكمـة المرحـة فحسب ، هما مـا يَـرِدُ ضمن عدد وسائل وضرورات حفظ النوع ، بل المزاج التراجيدي أيضا بغباوته التي لا توصف»! ـــ وبالتـالي ! النتيجة ! لكن هل فهمتم ما أردت قـوله أيها الـرفاق ؟ هل فهمتم هذا القانون الجديد للمد والجزر ؟ فنحن أيضا سيكون لنا موعدنا !

2 الوعي الفكري

أقوم بـالتجربـة ذاتها باستمـرار، وباستمـرار امتنع عن بداهتهـا ، مع أن الفعل محسوس : *فالوعي الفكري ينعدم لدى الأغلبية* ، وعادة ما كان يبـدو لي أن المطالبة بوعي ممـاثل تحوّل حياتنا في كنف المدن المعمـورة جدا إلى عزلـة كما في صحراء . كل واحد ينظر إليك بغرابة ويستمر في جَسِّ التصرف معيّنا هذا حسن ، ذاك قبيح ؛ لا

أحد يستحيي، إذا لفتَّ نظره إلى أن هذه المعايير لا تساوي الوزن المطلوب، ـ الشيء الـذي لا يثير، من جهـة أخـرى، أي إغـاظـة من جـانبـك ؛ ربما سَيُسْخَرُ من شكوكك. أقصد أن الأغلبية لـن ترى في الايمان بهذا أو ذاك احتقارا ولا في أن تلائم معه نمط حيـاتها، دون وعي قبلي بالأسبـاب الأخيرة وأوْكَـدِ الحسنـات والسيئات، دون أن تبالي بعدئذ بإعطـاء بواعث مماثلة ـــ والرجال الاكثر موهبـة، والنساء الاكثر نبلا ينتمون دائما لفئـة «العدد الوافر» هاته. لكن مـا الطائل من طيبة القلب، [من] الرهـافة والنبـوغ، ما دام إنسـان الفضائل المماثلة يكـابد وجـود عواطف خَـرِعَةٍ في اعتقاده وحُكْمـه، حيث أنـه لم يعد *لرغبة اليقين*، في نظره، قيمـة الاشتهاء الأكثـر حميمية والضرورة الأشد عمقا ـ بناء على ما يبـاعد بين المتفوقين والأكثر حقارة ! لقد وجدت لدى أشخـاص ورعين معينين كرها للعقل وكنت في غايـة الامتنان : هكذا على أيـة حال يفضح الـوعي الفكري الـرديء نفسه ! على أن البقـاء ضمن rerum* concordia discors هذا، البقـاء في كنف اللايقين كله، تعـددية الوجـود المدهشة كلها، ***دون أن نسـأل***، دون أن نـرتعش توقـا ورغبـة في السؤال، ولا حتى أن نكـره المستفهم الخالص من حاجـة التلهي حتى إشباع أسئلتـه ـ هذا مـا أحس أنه ***جدير بالاحتقار***، وهـذا الاحساس بـالذات هـو ما أبحث عنـه أولا في كل واحد : ـــ لا أعـرف أي جنون يقنعني على أن كل إنسـان ـ كـائن سيبتلي بهذا الاحساس، بما أنـه طبيعة بشرية. هنا أفهم معنى أن أكون جائراً.

3 نبيل ونذل

تبدو كل العواطف النبيلة والسمحـة، للسوقيّين، مجردة من منفعة فعلية، ولهذا السبب، بما أنهم مشبوهون أولا : يشيرون بطرف أعينهم بمجرد ما يسمعون الحديث عن ذلك ويتظـاهرون بقـول [إن] : «ثمة بعض الفـائدة دون ريب، لا نستطيع أن نبدد كل شيء تام» ـــ إنهم يفيضون بالمرارة بخصوص الإنسان النبيل الـذي يتهمونه بالبحث عن منفعته بطرق ملتوية. واذا تبين لهم أنهم اقتنعوا جدا بانعدام مصالح، بـواعث أو فـوائد شخصيـة، فما النبيل إذن غير مجنون عـادم الأهميـة في نظـرهـم : يحتقـرون أفراحـه ويستهـزءون من بـريق عينيه. «كيف يمكـن لنا أن نغتبط بقبـول خسارة، كيف يمكن لنا أن نتعـرض لذلك بتبصُّـر ! لا بد أن المحبـة النبيلة تتوقف على مرض عقلي ما» ـ هكذا يفكرون باستخفـاف : بالاستخفاف ذاته الذي يقابلون

(*) الوئام المتنافر النادر

به الأفراح التي يستمدهـا المجنون من فكرته الثابتة. إن الطبع السـوقي في هذا الأمر لجدير بالملاحظـة، أن لا تغرب عن بـاله مصلحتـه أبدا وأن فكـرة المنفعة والفـائدة هـذه، لأقوى مـن أقوى الـدوافع : لا يجب أن يستسلم المرء للضيـاع، بسبب من دوافعه، في أعمال عديمـة الجدوى ـ تلك حكمته ووعيه الذاتي. وبالمقـارنة معه فإن الطبع المتفوق هو الأكثر مخالفة للصواب. ــ بما أن الكائن النبيل، الشجاع، عندما يضحي بنفسه، يستسلم لانـدفاعاته الخاصـة، في لحظاته الأكثر جمالا يكـون عقله في لحظة *استراحة*. إن حيوانا يُخاطر بحياته لحماية صغاره، أو يتبع أنثاه في الموت فترَةَ النزو، لا يفكـر في الخطر، فإدراكه أيضا يكـون في حالة توقف، ذلك لأنـه مسيطَرٌ عليه، آنئذ، من طرف النشوة التي يمده بها نسله أو الانثى، ومخافة أن يحرم من هذه المتعـة يصبح أرعنا أكثـر من العادة، تمامـا كالكـائن النبيل والشجاع. هـذا الأخير يمتلك بعض ميولات الشهوة والنفور بالكثافة التي يستحيل العقل معها صامتا وإلاّ خَدَمَها : من هنـا فإن القلب، عند كائن كذلك، يـدخل الرأسَ ومن ثم لا نتكلم سوى عن «الشغف» (ودون شك يحصل أحيانـا العكس أيضا، [أيْ] نوع من «تغيرّ مفاجىء للشغف»، مثل ما في حـالة فونتنيل (fontenelle) الذي قال لـه أحدٌ وهو يضع يده على قلبـه : «إن ما تملكـون هنا، لدمـاغا أيضا يـا عزيـزي») فأن تُـضَلِّلَ الغبـاوةُ أو العقلُ الشغفَ، فـذلك مـا يزدريـه النـذلُ في الكـائن النبيل، سيما وأن الشغف هـذا ينخرط في أشيـاء تبدو له خيـالية وكيفيـة. فإذا اغتاظ مـن منظر ذاك الـذي يستسلم لشهـوة البطن، سيفهم مـع ذلك استعبـاد هـذا النـوع من اللـذة؛ وبـالمقـابل قلما يفهم أنه يمكـن، مثلا، من أجـل عشق شغـف المعرفـة أن نعـرّض عافيتنا ومجدنا للخطر. إن ميل الانواع المتفوقة يمضي إلى استثناءات، إلى أشياء عادة مـالا تثير اكتراثا وتبـدو تـافهة : للطبع المتفـوق حكم قيمـة فـريد. أمـا فيما يتعلق بخاصية ميله، فإنـه يعتقد بصفة عامة ***ألاّ نحكم*** انطلاقـا من معيار فريـد، أو أنه بالأحرى يسن قيمه وقيمه المضادة كأن لها معنى مطْلقا، وبهذا الشكل تصبح مبهمة وعسيرة.

من النادر جدا أن يتصرف الطبع المتفوق بما فيه الكفـاية من العقل لفهم ومعاملة أنـاس الحياة اليـومية على عـلاتهم : فعادة مـا يصـدق شغفه وكأنـه شغف الجميع السري، ومن هذا الاعتقـاد بالـضبط يظل مترعا بالشـوق والبيان. وقتئذ إذا لم يجرّب أناس نادرون مماثلون أنفسهم كاستثناءات، كيف سيتمكنون أبدا من معرفة الطبائع السّوقيـة وتقديـر القدوة بعدلٍ ! بهذا الشكل يتحـدثون هم أيضـا عن الجنون، عن

انعدام الهدف، عن أحلام الانسانية الغريبة الأطوار، المليئة بالحيرة أمام التعجل الجنوني لهذا العالم وإصراره على الذنوب بخصوص هذا «الذي سيكون له ضروريا» أيضا.

4 الذين يحفظون النوع

إن النفوس القوية، النفوس الخبيثة هي لأولئك الذين ساهموا أكثر، حتى الآن، في التقدم البشري: إذ لا يتوقفون أبدا عن تحميس الأهواء الخامدة مجددا ـ كل مجتمع منظم يخدرها ـ، لا يتوقفون أبدا عن إيقاظ روح المقارنة، التناقض، التذوق للجديد، المحاولات الجسورة، التجربة الخلاقة دائما، ويُكْرِهُون الناس على مقارعة الرأي بالرأي، الأمثلة بالأمثلة. وذلك مع التلويح بأسلحة [ما]، وقلب تخوم الحدود، وفي الغالب، مع جرح روح التقوى: ولكن أيضا مع خلق ديَانات وأخلاقيات جديدة! إن «الخبث» عينه الذي يحط من قدر غازٍ، يعمل في كل طبيب وداعية للجديد ـ مع أن [الخبث] آنئذ يَبين بوضوح أكثر، فإنه لن يحرك العضلة في الحال، ولن يثير افتضاحا مماثلا! إن الجديد يوجد مع ذلك في كل حالات الشر بما أنه الساعي إلى الغزو، إلى احتقار تخوم الحدود القديمة والتقوى القديمة، والقديم وحده هو ما يمثل الخير! إن الرجال الطيبين في كل عصرٍ هم أولئك الذين يجدّون كليا الافكار القديمة، والتي تنبت معها الثمرات. إنهم حرَّاثو الروح. غير أن حقلا كهذا لن يثمر في النهاية ويجب على سكة محراث الشر أن تقلبه ثانية. وتوجد الآن هرطقة أخلاقية، مبجَّلة في انجلترا بالخصوص: تبعا لها تترجمُ أحكامُ ما هو «حسن» وما هو «قبيح»، جملةَ تجارب الـ«نافع» وغير الـ«نافع»: ويكون الخير هو كل ما يحفظ النوع، «قبيح» كل ما هو ضارّ له. وفي الحقيقة، إن الدوافع القبيحة تعتبر، في درجة عليا، مفيدة وصالحة لحفظ النوع مثل الدوافع الحسنة: باستثناء أن لها وظيفة مغايرة.

5 الواجبات المطلقة

كل الرجال الذين يحسون أن الألفاظ والنبرات الفعالة أكثر، [و] أن الاشارات والمواقف المفخمة ضرورية لهم من أجل مزاولة نشاط بطريقة عامة، كالثوريين، الاشتراكيين، المبشرين بالتوبة مع مسيحية أو دونها: كل هؤلاء الرجال يتحدثون عن «واجبات»، ودوما عن واجبات ذات طابع مطلق ـ تحت طائلة عدم تبرير الكلام المهيّج الذي يثيرهم: ويعرفون ذلك جيدا. هكذا يلتجئون إلى الفلاسفة الاخلاقيين

الذين يلقون خطابا أخلاقيا مضجرا حول أمر مطلق ما، أو يقتبسون جزءا لا بأس به من الدين، كما فعل مازني/MAZINI مثلا. ولأنهم يريدون أن نثق بهم بشكل تام، فمن الضروري أن يثقوا مُقَدما بأنفسهم، بشكل تام [أيضا]، بموجب قانون ما سام، لا يُناقَش ولا يوصف في حد ذاته، وحيث يحسون أنهم خدّامه وأدواته ويتظاهرون بأنهم كذلك. هنا نواجه الخصوم الطبيعيين وذوي المكانة أكثر في الانعتاق والشكوكية ذات الطابع الأخلاقي: ولكنهم قلة. وفي المقابل نجد طبقة أوسع من نوع الخصوم هذا في كل مكان حيثما تُعَلِّمُ المصلحةُ الانقيادَ، في حين أن السمعة والشرف يُبديان منعها. كل من يعتبر نفسه مُشانا، باعتباره سليل أسرة عريقة النبالة، بفكرة أن يكون *أداة* أمير مثلا، حزب أو طائفة، لا بل سلطةِ مالٍ، ولكن من دون أن يكون أبدا، أو أن يلفي نفسه مكرها على أن يكون أداة شبيهة، في نظره كما أمام الرأي العام، فهو بحاجة إلى مسلّماتٍ مثيرة للعواطف، والتي يمكن أن نثيرها في كل مناسبة: مسلماتِ واجب مطلق لنا الحق في أن نذعن لها ونتجهّز بالامتثال [لها] دون خجل. كل عبودية بارعة أكثر تبقى مقيدة، بصلابة، بالأمر المطلق، وهكذا تكون العدو المميت لكل *أولئك* الذين يريدون تجريد الواجب من طابعه المطلق: ذلك ما تستلزمه اللياقة عليهم، وليست اللياقة فحسب.

6 خسارة في الكرامة

فَقَدَ التأملُ كل كرامة الشكل، لقد خلقنا موضوع هزء من تقاليد الحفلات، وحالة «احتفالية» من التأمّلي، ولم نعد نتحمل كثيرا حكيما من النمط القديم. نحن نفكر بسرعة مفرطة، وسيراً على الطريق، بين ظهراني مختلف الأعمال، ومع ذلك فالأمر يتعلق بالأشياء الاكثر خطورة؛ إننا بحاجة إلى القليل من التهيؤ، القليل من الهدوء كذلك، ـ فالأمر يتم وكأننا نحمل في الرأس آلة دائمة الدوران، حتى في الظروف الأقل ملائمة. قديما، كنا نلاحظ على ظاهر كل واحد أنه كان للحظة بحاجة إلى أن يفكر ـ كان ذلك استثناء دون شك! ـ ابتداء من لحظة محددة، كان يرغب في اكتساب المزيد من الحكمة وكان يتحسَّب مجيء فكرة: يختلق وجها موافقا كما من أجل صلاة، ويتوقف، نعم حين «تخطر» الفكرة، كان يبقى جامدا في الطريق لساعات، على قدم أو اثنتين. لهذا الحد «كانت ـ الفكرة ـ فاضلة»!

7 ملاحظات للمثابرين

كل من يـريد أن يجعل لنفسه، من الآن فصـاعدا، من الاسئلـة الاخلاقيـة مادة دراسة، سيبدأ مجالا واسعا للعمل. فهناك كل ضروب الشغوفات للتأمل، للمعاينة على انفراد عبر العصـور، لدى الشعوب، الاشخاص كبـارا وصغارا: لإبانـة طرق تفكيرها، أساليـب تقديرها للقيم وتـوجيهها للاشياء! حتى اليـوم لا شيء مما يلوّن الـوجود، قـد أُلِّـف تاريخه: في أي مكـان إذن شرعنـا في تأريخ للحب من قبل، للجشع، للحسد، للشعـور، للورع، للفظـاظة؟ حتى تـاريخا مقارنـا للحقوق أو للعقوبـات فقط، قد تغيب تمامـا. هل سبق وفكرنـا أن نجعل موضـوع بحث عن مختلف تقاسيم النهار، نتائج تحديدٍ متصِل للعمل، أعيـاد وأيام الراحة؟ هل نعرف الآثار المعنـوية للأطعمـة؟ هل توجد فلسفـة للتغدية؟ (فقط القلق الـذي ينفجر بـاستمرار لصـالح أو ضد النبـاتية يشهـد بما فيه الكفـاية على أن فلسفـة مماثلـة لا توجد!). هل سبق أن تأملنا تجارب الحياة داخل الجماعة، كـالحياة الدّيريّة، أو بينّا جدل الحياة الـزوجية، أو [جدل] الصداقـة؟ هلْ وجدتْ مختلفُ عادات العلماء، التجار، الفنـانين، الصناع، منظّريها؟ أصعب إلى هذا الحد أن نفكـر في كل هذا؟ كل مـا اعتبره النـاس حتى الآن «شروط وُجـودِ»هِم، كل مـا وظفـوه من عقل، من شغف ومن معتقدات باطلـة لاعتبارها كذلك ـ هل تحريناهُ أبـدا كليا؟ إن الملاحظة الوحيدة لمختلف أشكال النماء التي أخذتها الاندفاعات البشرية ويمكن أن تأخذها أيضـا بحسب تنوع المنـاخات الاخـلاقية، تمثل الآن عمـلا أكثر ممـا يجب بالنسبـة للمتحمسين أكثر: أجيال بأكملها ـ أجيال علماء متعاضدين منهجيا سيكون لا بد منهم لاستيفاء وجهات نظر و[لاستيفاء] مـوضوع هذا المجال. نفس الشيء سيكون لاستنباط الاسباب المحـددة لاختلاف المناخات الاخـلاقية («لماذا الشمسُ الفلانيةُ لحكم مبدئي، لمعيـار قيمةٍ، تسطع في المنطقـة الفلانيـة ـ وأخـرى هناك؟») ثم إن عملا جديدا سيشتمل على تـوضيح خطأ كل هذه الأسباب بل وحتى طبيعة الحكم الاخلاقي الذي رَجّح إلى ذلك الحين. إذا افترضنا أن كل هذا العمل قد تم إنجازه، فإن السؤال الشـائك جدا سيتحول مـرة أخرى إلى المقـام الأول: هل سيكون العلم قادرا على تحديد غايات للفعل بعد أن بين أنه قادر على خلع وتدمير غايات مماثلة؟ـ آنئذ سيبدأ تجريب قابل للاستجابـة لأي تصنيف من أصناف البطولة، تجريب لعدة قرون، قادر على حجب كل الأعمال العظيمة وكل التضحيـات المعروفة في التاريخ. إن العلم لم يشيد بعد صروحه الهائلة: [و] هذا الزمن سيأتي بدوره.

8 مزايا لا شعورية

كل مزايا الانسان، تلك التي يعرفها ــ لا سيما عندما يفترض أنها كذلك ظاهرة وجلية لمحيطه ــ تجد نفسها خاضعة لقوانين تطور أخرى عكس المزايا التي لا يعيها أو لا يعرفها جيدا، والتي تتوارى ولو من أمام عيني ملاحظ نبيه، بسبب من كونها تختفي، وتتستر جيدا كما خلف العدم. هكذا أيضا بالنسبة للـ«نحوت» الدقيقة على حراشيف الزواحف: يكون من الخطأ الخلط بينها كزينة أو كسلاح ــ أننا لا نميز بينها إلا بواسطة مجهر، بفضل عين ذات حدة اصطناعية إذن، كتلك التي قلما تملكها الحيوانات المماثلة، حيث سيكون الأمر عندها زينة أو سلاحا! إن مزايانا المعنوية الجلية، وبالخصوص تلك التي *نعتقد* أنها ظاهرة، تسلك سبيلها ـ فيما المزايا الخفية من الطائفة ذاتها، والتي بالمقارنة مع الأخرى، ليست بالنسبة لنا لا زينة ولا سلاحا، ***تسلك أيضا سبيلها***، سبيلا آخر بوجه الاحتمال، مزايا مزودة بالخطوط، بالخفايا وبالنحوت التي ربما سترضي إلها مالكا لمجهر رباني. لدينا الاندفاع، الكبرياء، حدة نفوذ البصر مثلا: الكل يعرف ذلك ـ ولكن بالإضافة إلى هذا لدينا اندفاع*نا*، كبرياؤ*نا* ونفوذ بصر*نا*؛ ولتمييز هذا الصنف من الحراشيف الهامية التي هي حراشيفنا، لا زلنا لم نخترع مجهرا بعد! ـ وهنا سيقول مؤيدو السلوك الفطري: «ممتاز! إنه على الأقل يعتقد بوجود فضائل آلية ـ حسبنا ذلك!» ـ كم أنتم متواضعون!.

9 ثـــورانـــنـا

عديدة هي الكفاءات التي احتازتها الانسانية في المراحل السالفة، غير أنها باهتة وجنينية أيضا لدرجة أن أحدا لم يتمكن من إدراك أنها اكتُسِبت [فعلا]، تنبجس فجأة إلى النور، بعد زمان طويل من اكتسابها، وربما قرون فيما بعد: وفي غضون ذلك تقوّت ونضجت. يبدو أن موهبة وفضيلة مماثلتين تغيبان في أزمة معينة، كما عند أناس معيّنين: على أن ننتظر أن يضطلع حفدةٌ وصغارُ الحفدة بسريرة أجدادهم في وضح النهار، هذه السريرة التي لم يكن فيها لدى الأجداد أدنى ريبة. فالابن نفسه هو غالبا من يفشي سرّ الأب. هذا الأخير الذي سيفهم نفسه أحسن مذ يكون له ابن. كلنا نحمل بداخلنا أغراسا وحدائق سريّة، ولاختيار تشبيه آخر، فنحن جميعا براكين نامية تنتظر ثورانها: ـ أما أن نعرف ما إذا كان [هذا الثوران] قريبا أو بعيدا، فالا أحد قطّ يعرف ذلك، حتى «الإله» نفسه.

10 نوع من التأسّليّة(*)

يطيب لي تأمل الرجال الأفذاذ لحقبة مـا ، وكأنهم خلف متأخر لحضارة وقدرات كاملة ، الـذين ينبجسون على حين غفلة : كتأسّلية شعب وعاداتـه مثلا : ـ بحيث أنه يبقى في الـواقع ، شيء آخر لـدى هؤلاء الـرجال يتعيّن **فهمه!** إنهم يبدون اليـوم غرباء ، أفذاذاً ، خـارقين : وكل من يأنس في نفسه وجود قدرات مماثلـة فهو مدعو إلى الإعتناء بها ، إلى الـدفاع عنها ، إلى تبجيلهـا ، إلى تربيتهـا على مخالفة عالم مغـاير وعنيـد : وبهذا النحـو إما أن يغـدو إنسـانـا عظيما أو كائنـا مختلّ الشعـور وغـريب الاطوار، حتى لايـذبلنّ في غضون ذلك . فيما مضى ، كـانت هذه الصفـات النادرة عاميّـة ، ومن ثم اعتُبرت دارجةً ، لم تكن لتقيم تمييـزا . ربما كانت لازمـة ، مفترضة ، [و] كان من المستحيل أن نجـد في ذلك رفعة لأننـا لم نكن نعرّض معها أنفسنـا أكثر لخطر الجنون والعزلة . ففي العائلات والطبقات المحافظة من شعب ما بالخصوص ، كانت تظهر ردّات فعل نزوية قـديمة مشابهة ، في حين أن ثمة احتمالا ضئيلا لظهور هذا النـوع من التأسلية حيثما تتحوّل الأجناس ، العـادات ومعايير القيم بسرعة . إن معيار قدرات النمو لدى الشعوب له من الأهميـة قدرما للموسيقى : في حالتنا هذه لاغنى حتما عن تباطـؤ في النمو، بما أنه إيقـاع ذهن شغوف ومتمهّل : وبهذا المعنى بالضبط يعمل ذهن العائلات المحافظة .

11 الشـــعــــور

إن الشعور هـو النمو الأخير والأكثـر تأخرا في الحياة العضـوية ، وبـالتالي الأقل تكامـلا والأكثر تعـرّضا للعطب منهـا . فمن خلال الحياة تنشـأ كبوات لاتحصى ، أفعال فاشلة ، تجعل حيوانا ، [و] كائنا بشريا ينقرضان قبل أن يكون ذلك ضروريا ـ «نكايـة في القدر» كما يقول هـوميروس . لولا وثاق الغرائز المحـافظ ، الشديد المتـانة للغـاية ، لـولا الفضيلـة المنظّمة التي يبـاشرهـا [الكائن البشري] ، لكـان ينبغي أن تنقرض الانسانيـة من جرّاء أحكامها الفاسـدة ، هذيانها في حالة اليقظـة ، حاجتها لأساس وسذاجتها ، باختصار، من جرّاء حياتها الشعورية ذاتها : أو بالأحرى ، من دون هذه الظواهر كانت الانسانية قـد امّحت منذ عهد طويل! قبل أن يتطور فعل ما وأن ينضج فإنه يشكّل خطـرا على الجهاز العضوي : نعم الأمر إذا كـان خلال هذه

(*) التأسليّة : (Atavisme) ردّة وراثية ، أو عودة الى طباع الأسلاف التي ابتعدت عنها الأنسال السابقة . وراثة الأفكار والتصرفات المتحدرة من الأجيال السابقة (المنهل) .

الفترة، مضطهدا جدا! هكذا يلفي الشعور نفسه مضطهدا بجفاء، ومن دون شك أليست غطرسته الخاصة هنا الأقل جورا! إننا نعتقد أن ثمة *نواة* الانسان : [أي] الدائم، الأبدي، الأخير، الأكثر أصالة فيه. نتعامل مع الشعور ككمّ ثابت معطى! نتجاهل نماءه وتقلباته! نتصوّره مثل «وحدة الجهاز العضوي»! ـ هذا التقدير المبالغ فيه للشعور! وهذا الإنكار المثيران للسخرية ، كانت عاقبتهما الصائبة تحاشي تدبيره السريع جدا. ولأن الناس اعتقدوا مسبقا امتلاك الشعور فإنهم لم يكلفوا أنفسهم عناءً لاكتسابه ـ وقلّما يختلف الأمر اليوم عن ذلك! فأن نتمثل المعرفة وأن نجعلها فطرية، ذلك ما يؤسس حتما دورا جديدا، لايكاد يدرك، حيث يتنبّأ تماما الإبصار الانساني بوميضه ـ دور لايدرك جيدا إلا من طرف أولئك الذين فهموا أنه حتى الآن وحدها *أخطاؤنا* هي التي تشبهت بنا، وأن شعورنا كله لايستند إلاّ إلى الأخطاء!

12 مـن غايات العلـم

ماذا عسانا أن نقول؟ إن الغاية الأخيرة للعلم ستكون توفير ما أمكن من المتعة للانسان وتجنيبه أدنى انزعاج ممكن؟ لكن ماذا سيحدث عندئذ عندما تلفي المتعة والانزعاج نفسيهما أنهما لم يؤلفا سوى عقدة واحدة، حتى أن كل من يريد أن يحقق ما أمكن من المتعة يجب أن يتحمل على الأقل نفس المقدار من الانزعاج ـ وأن على من يريد أن يتعلم «الابتهاج حتى السماء» يجب أن يتهيأ لكي «يكون حزينا حتى الموت»؟ وربما هكذا تلبث الأشياء! فالرواقيون على الأقل كانوا يعتقدون ذلك، وكانوا منطقيين في التوق الى أقل متعة ممكنة. (إن الحكمة التي مانكف نرددها : «الانسان العفيف هو الأكثر سعادة»، يمكنها أن تصلح شعار مذهب للطبقات الشعبية، بمقدار ما تصلح تنميقا سفسطائيا للحاذقين). واليوم كذلك لكم نفس الاختيار إما أقل ما يمكن من الكدر ، غياب الوجع الشديد ـــ والحقيقة أن على اشتراكيي وسياسيي كل حزب أن لايعِدُوا بنزاهةٍ أناسَهم أكثر ـــ، أو أقصى الكدر الممكن جزاء ازدياد بحبوحة الأفراح والمتع المهذّبة، [التي] قلما اسْتُمْتِع بها حتى ذلك الحين! ستعزفون على الخيار الأول، بنيّة إضعاف وتخفيف طاقة الألم عن الناس، فإذن يجب كذلك انتقاص وتخفيف *طاقة السرور* عندهم. الواقع أنه بواسطة الـ*علم* يمكن لنا تفضيل هذه الغاية كتلك! ربما هو اليوم معروف أكثر بوسائله القوية على حرمان الانسان من أفراحه، وبجعله أكثر برودة، أكثر مشابهة لتمثال، أكثر رواقي! لكن يحتمل أن ينكشف [العلم] يوما كـ*أكبر مدخّرٍ للألم* ـ

وحينئذ ربما سنكتشف في الآن ذاته طـاقته المضدّة : القدرة على تلميع كـوكبةِ نجوم فرحٍ جديدة!

13 من مذهب الشعور بالقوة

في فعل الخير أو الشر للآخرين، نمارس عليهم سلطتنـا ـ [إذ] لانبتغي شيئا عدا ذلك! في *فعل الشر*، نمارسها على أولئك الذين يجب أولا أن نختبرها فيهم! ذلك أن الألم وسيلة ظاهـرة بهذه الغاية أكثر من اللـذة : فالألم يحتاج دائما إلى علل، في حين أن اللذة ميّالـة إلى ألاّتراعى إلاّ لذاتها دون مراعـاة لناحية [ما]. إننـا نمارس قوّتنا في فعل أو في إرادة الخير لأولئك الـذين يخضعـون لنا بطـريقـة معينة (بمعنى، الـذين جرت العادة عنـدهم بأن يفكروا فينا كما يفكرون في مبرراتهم)، نـريد أن ننمّي كثيرا سلطتهم الخاصـة، لأنـه بهذا الشكل ننمي قوتنـا، أو أننـا نـريد أن نبيّن لهم ميـزة وجودهم في تبعيّتنـا، ـ هكذا سيرضـون أكثر على ظرفهم وسيكـونون أكثر عـدائية، أكثر قتالية لأعدائنـا نحن. أما أن نقدم تضحيات في فعل الخير أو الشر، فلن يبدل ذلك القيمة الأخيرة لأفعـالنا في شيء؛ أكان يجب أن نـراهن بحياتنا كـالمستشهد في سبيل كنيسته، ـ فثمة دائما تضحية لصـالح ظمئنا للقوة أو على الأقل للحفاظ على شعورنا بها. كم من السيطرة يحُوز ذلك الذي يـريد أن يحمي الاحساس بأنه «يملك الحقيقة»! كم من الأشياء لم يعد يلقي بها قـطّ من عل، ليبقى في «العلو» ـ أي فوق الآخرين الذين تغيب عنهم الـ «حقيقة»! مـؤكد أن الحال التي نسيء فيها، نادرا ما تكون مقبولة، خالصة من كل شـائبة مثل الحال التي نحسن فيها ـ تلك علامة على أن القوة مـا تزال تعوزنـا، أو [ما تزال] تفشي بعـائق هذا النقص، وافتقـارنا للفعل كذلك يُسبّب مجازفات جديدة وشكوكا جديدة في قدر القوة التي حظينا بها سابقا، ويكـدّر أفقنا بهواجس الانتقـام، الهزء، العقاب والفشل. وحـدهم الناس الأكثـر حنقا والأكثر عطشا للشعور بالقـوة يمكنهم أن يحسوا بلذة أكبر في وصم مُعانِدِهم بخاتم قوتهم : يحسون بمظهر الخاضع لهم، كعبء وغمّ (باعتباره سبب عطفهم). كل شيء يتعلق بـالطريقة التـي نطيّب بها عادة حيـاتنا : المسألة مسـألة ذوق في أن نفضل نموّا بطيئا للقوة بدلا من [نمو] مباغت، نموًا محقّقا بدلا من [نمو] مجازف أو مغامر، ـ نختار هذا البهار، أو ذاك، بحسب المزاج. إن ضحية سهلة لشيء جدير بالاحتقـار بالنسبـة للأمزجـة الشامخة، لأنها لاتحس إحساس الـراحة إلاّ عنـد رؤية أناس لم يستطع شيء أن يصطدم بهم والذين بإمكـانهم أن يكونوا لهم معادين، مثلما لاتفتنهم سوى رؤيـة الحيازات الصعبة البلـوغ : إن أمزجة ممـاثلة تبدو دائما قـاسية

للذي يتألم، إذ يظهر غير جدير بأنفتها وسعيها، بالمقابل يبدو هؤلاء أولى باللباقة بالنسبة إلى *أنداد* هم الذين سيكون الصراع والمقاومة معهم مشرّفين على أية حال، إذا أتيحت الفرصة لذلك. إن الشفقة هي دائما المحسوس بها بلذة من طرف أولئك الذين لهم أنفة أقل ولايستطيعون الوثوق بفتوحات كبيرة : إن الضحية السهلة في نظرهم - كذا كل كائن يتألم - شيء فاتن. إننا نعظم الشّفقة وكأنها عفّة المومسات.

14 كل ما نسمّيه حبّا

جشعٌ وحبٌ : أية أحاسيس، متضاربة، لاتوحي إلينا بها كل من هاتين اللفظتين! ومع ذلك يمكن أن تكون نفس النزوة، وقد سمّيت مُضَاعَفَةً، تارة بشكل كاذب من وجهة نظر الشِّباع، حيث عرفت هذه النزوة لديهم بعض الارتواء سابقا، وحيث يخشون في المستقبل عما «يملكون»؛ وطورا من وجهة نظر غير الرّاضين، العطشى، حيث يعظمون النزوة، باعتبارها «مفيدة». أليس حبّنا للقريب نزوة لاكتساب *ملكية* جديدة؟ ورغم ذلك حبنا للمعرفة، وللحقيقة؟ وبشكل مطلق كل اندفاع باتجاه حقائق جديدة؟ رويدا رويدا وقد كرهنا القديم، و [كرهنا] ما نملك بكل طمأنينة، نمد أيدينا للقبض على الجديد، حتى المشهد الطبيعي، الاكثر جمالا، الذي قضينا به ثلاثة أشهر لم يعد متأكدا تماما من تعلقنا [به]، ويحرّض رغبتنا ساحلٌ ما بعيدٌ : إن نفعا ممتلكا تقلّ أهميته، على العموم، بفعل امتلاكه. فمتعتنا نحن تودّ أن تكون كبيرة بحيث تغيّر فينا نحن الآخرين على الدوام شيئا جديدا - وذلك هو ما يرتكز عليه الامتلاك. (أن نكون مشبَعين زيادة بامتلاك ما يعود إلى كوننا مشبَعين أكثر بأنفسنا نحن. يمكن أن نعاني كذلك من الفائض - فرغبة الرفض، المشاطرة أيضا يمكنها أن تغطيّ بالاسم الجدير بالاحترام للـ «حب»). عندما نشاهد شخصا يتألم، ننتهز طوعا الفرصة السانحة لتملّكه : ذاك مثلا ما يفعله الانسان الرحيم والرئيف ويعتقد بدوره أنه يحس بالـ «حب»، حالما يرغب في تملكٍ جديدٍ، ويجد فيه متعة تضاهي صوت نصر جديد. غير أن الحب بين الجنسين ما ينفضح بجلاء أكبر كإغراء بتملّك منفعةخاصة : فالعاشق يريد تملّك المرغوب فيها تملّكا يقتصر عليه وحده، يريد أن يمارس سلطة مانعة على روحها، كما على جسدها، يريد أن يكون معشوقا من طرفها إلى حدود استبعاد أي شخص آخر، أن يَسْكُنَ هذه الروح، ويهيمن عليها كأنه أسمى من يكون وأشهى بالنسبة لها. إذا فكرنا أن كل هذا لايعود في مداه، إلاّ إلى حرمان بقية الناس من الاستمتاع بالنفع وبسعادة عَزيزة؛ أن العاشق يسعى إلى إفقار وحرمان كل

المنافسين الآخرين ولا يلتمس سوى أن يغدو تنّين كنزه، الـ «آسر»، المحتال، الأكثر تجردا من الوساوس والأكثر أنانية؛ وأخيرا أن العالم عينه يبدُو كله في عيني العاشق، عديم الأهمية، أكمد، لاقيمة له، وأنه مستعد للتضحية بكل شيء، للإخلال بأي نظام، لاحتقار أية مصلحة أخرى، فهناك ماسيدهشنا، أن هذا الجشع وهذا الجور الهمجيّين للكلف الجنسي جاز لهما أن يكـونا مبّجلين ومعظّمين إلى هذه الـدرجة كما حصل في أي عصر، وأنه ولـو بالغنـا في أنْ نستمد، من نـوع العشق هذا، مفهـوما للحب باعتباره نقيضا للأنانية، فإن الأمر ربما يتعلق بالتعبير الأكثر وقاحة عن هذه الأخيرة. هنـا، حسب الظـاهـر، أن الـذين لايملكـون، غير المشبعين ـــ وهم دائما الأغلبية على الأرجح ـ هم الذين ساهموا في التعابير الشـائعة للكلام. أما الذين كان القدر، في هذا المجال، قد خبّأ لهم الكثير من التمتّع والإشباع، فقد انفلت منهم، دون شك، بعض الكلام هنا وهناك بصدد الـ «جنّي الساخط»، شأن ألطف وأحبّ الآثينيين: سوفوكليس؛ أما إيروس فقـد كان يسخر دائما من مجدّفين مماثلين مع أن الأمر كان يتعلق بالضبط بأكبر مُفَضّليه. أكيد أنه يوجد على الأرض، هنا وهناك نوع من التمديـد للعشق، والذي في غضـونه استسلم هـذا الطمع الجشع والمتبادل بين شخصين، لطمعٍ جديدٍ، لجشعٍ جديد، للظمأ المتفوق *المشترك* لمثَلٍ يستعلي عليهما: لكن، من يعرفُ هذا الحب؟ مَن خَبَرَهُ؟ إن اسمه الحقيقي هو: *صداقة*.

15 مُشَاهَدٌ عن بعد

هذا الجبل يشكّل مجموع إغراء المشهد الطبيعي الذي يحيط به، إنه مانحُ سحره: ولأننا شاهـدنا [هذا المنظر] مئات المرّات، فإننـا نحس بميل لامعقول جدا وفي الآن ذاته نشكر هذا الجبل ممارسته هذا الإغراء الذي نعتبره العنصر الأكثر فتنة لهذا المشهد الطبيعي ـــ وهكذا نتسلقه ونحن خـائبو الظن. وفجـأة يبدو تحتنا الجبل ذاتـه وكل المشهد المحيط به دون سحر، فقد نسينا أن العديد من الرّفعة، كالعديد من الطيبة، يستدعي أن يُشَـاهَدَ عن بعد، بـالخصوص من أسفل، لامن أعلى ـ وبهذه الطـريقة وحـدهـا يُحْدِثُ تأثيره. ربّماعـرفتَ أشخـاصـا من محيطك لا يمكنهم أن يحسبـوا أنفسهم إلاّ على بعـد معيّن ليشعروا بأنهم حتما مطـاقون أو جـذّابون أو قـادرون على منح المتعة: إن معرفة الذات يجب أن يُنْصَحُوا بالعدول عنها.

16 عبور الجسر الضيق

يجب أن نعرف الكتمان في معاشرات الأشخاص الذين يحتشمون من العواطف : فهم قابلون لحقد مفاجىء على الذي يكتشف لديهم شعورا رهيفا، حماسيا أو عظيما، وكأنه تبيّن أسرارهم. إذا حرصنا على وجودهم الرغيد في لحظات مماثلة، سواء أضحكناهم أو رشقناهم ببعض المزاح البارد : — فإن انفعالهم سيسكن وسيتمالكون أنفسهم فورا. غير أنني أقدّم هنا الأخلاق عن التاريخ. ـ لقد كنّا ذات يوم متقاربين في الحياة الواحد من الآخر بهذا المقدار حتى بدا الأمر وكأن لاشيء يعوق صداقتنا وإخاءنا، وحدها مسافة جسر ضيق مازالت تفصل بيننا. وها قد كنت على وشك عبورها، عندما سألتك : «أتريد أن تلحق بي عبر هذا الجسر الضيق؟» لكنك لم ترد ذلك بعد، ومن ذلك الحين، جبال وسيول، وكل ما يفرّق ويغرّب الواحد عن الآخر، قد اعترضتنا، ومع ذلك كنا نريد أن نتضامّ، [و] لم نستطع ذلك أبدا! لكن، عندما تفكّر الآن في هذا الجسر الضيق الصغير، فإنك ستعجز عن الكلام ـ ولن تملك سوى النحيب والحيرة.

17 أن يعلّل المرء عوزه

أكيد أنه ليس ثمة حلية تسمح لنا بأن نجعل من فضيلة عديمة الأهمية فضيلةً غنية ووافرة، وبالمقابل يجوز لنا أن نفسّر، بلباقة، هذا العوز من ناحية الضرورة، مع أن حاله كفّت عن إحزاننا وأننا لم نعد نُبَرْطِمُ *القدر* (Fatum). هكذا يتصرف البستانيّ الحكيم الذي يسلم خُيَيْطَ ماء حديقته الهزيل لساعِدِ حورية الينابيع (*)، وبذلك يبرّر عوزه : ـ من لن يحتاج، مثله، لحوريّات إذن؟

18 فخر عتيق

إن الفارق الدقيق القديم للتمييز يعوزنا، ذلك أن عَبْدَ العصور القديمة ينقص تجربتنا. إن إغريقيا نبيل المنشأ يجد، بين سمو طبقته وهذا الهوان الأخير، الكثير من الدرجات الوسطية ومن التفاوت حتى أنه لم يكد يتبيّن شخصية العبد أيضا : أفلاطون نفسه لم يدرك ذلك تماما. إن الأمر بالنسبة لنا، بخلاف ذلك، نحن المتعوّدون على مذهب مساواة الناس، إن لم تكن المساواة نفسها. إن كائنا حيّا لايستطيع أن يتصرف بنفسه، ويفتقر لكل وقت فراغ — : أمر غير جدير إطلاقا

(*) Nymphe (إلهة الماء)

بالاحتقار في نظرنـا : ربما كانت ظروف حيوية أمننا مخالفة للغايـة لظروف القدماء، الشيء الذي أوجد الكثير مـن صنف العبودية هذا في كل واحـد منا. إن الفيلسوف الإغريقي كان يحيا بالإحساس السرّي أنه يوجد العديد من العبيد أكثر مما كان يُعْتَقدَ ـ يعني أن كل واحد كان عبدا، ولم يكن أبدا فيلسوفا : كان فخره يُتْرَعُ بإفراط لفكرة أن الأكثر جبروتـا في الأرض ذاتهم يلفون أنفسهم من بين هؤلاء العبيد، أقـرباءهم. إن هذا الفخر بدوره غريب عنا وغير معقول : حتى قياسيا، افتقدت لفظة «عبد»، بالنسبة لنا، معناها المطلق.

19 الـشـــــــــر

تفحّصـوا حياة النـاس والشعوب الـراقية، والأكثـر غنى، وانظروا إذا مـا أمكن لشجرةٍ، يجب أن تنمو إلى الأعلى، أن تُعفىٰ من الشوادن، من العواصف : إذا كان عـدم الـرضى والعـائق الخارجيان، إذا كـانت ضغـائنٌ، حُسُـودٌ، إصرارٌ، حـذرٌ، صلابـةٌ، طمعٌ، لاتشكل، بطريقة مـا، الظروف ***الأكثر ملاءمة*** والتي مـن دونها لايكاد نمـو كبير، حتى في القـوة، أن يكون مُدْركـاً؟ إن السمّ الـذي يموت بـه نوع ضعيف جدا ليعتبر منشّطا للقوي ـ هكذا لايأبه [القوي] بأن يعتبره سمّا.

20 كرامـة الجنـــون

ثانيةً بعضُ آلاف السنين على هدى القرن الماضي! ـ وفي كل ما يفعله الانسان، سيتجلّى عِلْمُـه : ولكن بهذا الشكل بالضبـط، يكون العقل قـد فقـد كل كرامتـه. سيكون، بالتأكيد من اللازم أن يكون المرء عاقلا لكن الأمر أيضا سيكون شيئا مألوفا جدا، أن يحس ذوق أكثر نبلا بهذه الضرورة على أنها ***فظاظة***. ومثلما يكون استعباد الحقيقة والعلم قادرا على الإعجاب بالكذب جهارا، يكون استعباد العقل قادرا على إنتـاج نوع جـديـد ذي حِسٍّ نبيل. أن يكون المرء نبيـلا ـــ ذاك ما يمكن حينئـذ أن يعني : أن تكون في الرأس حماقات.

21 لأطباء التعـويض

نصف مزايا إنسان بأنها *حسنة* ليس بالنظـر إلى ما تمارسه عليـه هو بـالذات من تأثيرات ولكن بـالنظر إلى تلك التـي نعتقد نحن أنها تمارَسُ علينـا وعلى المجتمع : قليلا مـا تظاهرنا «بـالنزيهين»، «بالغيْريّين» منذ الأبـد! ذلك أنه كان بودّنـا أن نرى خـلافا لـذلك، أن المزايـا (كالغيرة، الخضـوع، العفـة، الورع والإنصـاف) هي في

أغلب الأحيـان *ضارّة* لأصحـابها الشرعيين بـاعتبـارهـا دوافع تسيطـر فيهم بإكـراه وبـاشتهاء مفـرطين، واللـذين لايـريـدان إطلاقـا من العقل أن يحافظ على تـوازنهما بالمقارنة مع باقي الاندفاعات. إذا كانت لديك مزيّة، مزيّة حقيقية، كاملة (وليس فقط طيف مـزية بـاعث!) فأنت ضحيتهـا! بل لهذا أيضا يمـدح قريبُك مـزيّتَك! نمدح المتحمّس، مع أن حماسه يؤذي بالقدرة البصرية لعينيه أو [بقدرته] الفطرية، وبحيوية ذهنـه: نبجّل ونرثي للشاب الذي «أضنى نفســه في العمل» لأننا نتصوره على الشكل التالي: «من أجل رفعـة المجتمع، ما هلاكُ الشخصِ الأفضل بـالذات سوى تضحية قليلـة! مؤسفٌ أن تكون هذه التضحية ضروريـة! سيكون من الأسوأ دون شك، لو فكّـر المستقلّ بطريقة مخالفة، وعلّق أهميـة كبيرة على بقائه وعلى نمائه كما على عمله في خدمـة المجتمع!» وهكذا إذن نحزن على ضياع هـذا اليافع، ليس عليه هـو بالذات، ولكن لأن وفاتـه حرمت المجتمع من أداة متفانية، ودون مراعاة خاصة ـ من «إنســان خدوم» مزعوم. ربما تساءلنا بـالاضافة إلى ذلك إن لم يكن من مصلحة المجتمـع أن المجدي لـو يُصان أكثر في عملـه ليحفظ نفسـه أطول، ـــ قد نذهب إلى حد الاقـرار بالفائدة التي يمكن أن نكون قـد انتفعنا بها، غير أننا نتشبث بالطائلة الأخرى كالأكثر سمـوا والأكثر رسوخا، لأن تضحيةً في الواقع قد تمّت وأن عقلية الحيوان المرصود للتضحية ستجد نفسها مؤيَّدة *علناً*. ومن ثم فعندما نثني على المزايا فإنما نطري على طبيعتها الوظيفية، من جهة، ومن أخرى على الاندفاع الأعمى في جـوهر كل مـزية، والـذي لايـوقَف أبد من طـرف المصلحة الكليـة للشخص، وبالجملة: إنها غباوة المزية عينها التي نعظّم، والتي بفضلها يسمح الفرد بأن يُخْتَزَلَ إلى دور وظيفي على العموم. إن مدح المزايا يشيد بشيء ما مضرّ للحياة الخاصة ـ إنه يشجع نزوات تجرّد الانسـان من أنبل شعور بنفسـه، قوة الصيانـة العليا. بـالتأكيد أنه: في سبيل تربية وتمثل تقاليـد فضائلية تخضع لسلسلة من تأثيرات الفضيلة التي توضح أن الفضيلة والمصلحة الخاصة متضامنتـان الواحدة مع الأخرى ـ وفي الحقيقة يوجـد تكافل متماثل! إن الهيجـان الأعمى للحماس، مثلا، هـذه المزية النمـوذجية ذات الطبيعة الـوظيفية، تُصوَّر كـالسبيل للاغتنـاء والشرف، كالسم الأكثر فعـالية ضد العـدو والأهواء: لكننا نضرب صفحـا عن خطره، عن طابعـه الخطير إلى حد بعيـد. إن التربيـة تعمـل قطعـا هكـذا: تبحث من خـــلال سلسلـة من المثيرات والفوائد، على تحديد طريقة للتفكير والفعل لـدى الانسان، والتي بمجرّد ما تصبح تقليدا، اندفـاعا، انفعالا، تستبدّ بمنفعته النهـائية، بشكل مضرٍّ، لصالح «أحسن

مصلحة مشتركة» . كم مـرة سجّلتُ أن الجنون الأعمى للحماس، الذي يحصل دون شك على موارد وأمجاد ترفـع عن الأعضاءِ الرهافةَ التي تسـوّغ التمتعَ الحقيقي بالموارد والأمجاد، مع أن هذا العـلاج الأساسي ضد العـدوّ والاهواء يضعف الحواس ويجعل العقل مقاوِما لإغراءات جديدة. (إن الحقبة الأكثـر حماسا ـ حقبتنا ـ لاتعرف ماذا تصنع بكل حماسها، بكل مالِها، إذا لم يكن فائض الحماس كفائض المال : في حين أن المطلوب مهارة أكثر للإستهـلاك من الاكتساب! (فليكن! لننتظر أحفادنا). إذا توفقت التربية ستشكّل كل مزية فرديـة إذن، إنتفاعا مشتركا و إجحافا شخصيا، في سياق الغـاية الساميـة للحياة الخاصة، ـــ وبوجه الاحتمال [ستشكِّل] تلفـا للغرائز الروحية أو الانحطاط المبكر أيضا، عندما نقوّم بحسب وجهة النظر هذه لاغير، كل مـزيّة من المزايـا، كل خضوع، عفـةٍ، ورع و إنصافٍ. إن الثنـاء على النزيـه، على المضحي المتطوّع، على الفـاضًل ـ على ذلكً الذي لايسلّط كل قوّتـه إذن وكل عقله على البقاء، على النمو، على السمو، على التفوق وعلى تنـامي قوة حياته *الخاصة*، أما أن يحيا لذاته بتواضع وبلا مبالاة، وربما بلا اكتراث أو بسخرية أيضا ـ فذلك الثناء ليس وليد روح النزاهة على أية حال! إن «قـريب» ـنا يطري على نزاهتنا ***لأنه يلمس فيها تفوقه!*** لو فكر الـــ «قريب» نفسه بطريقـة «نزيهة»، لكان رفض تشـويها مماثلا للقوة، خسارةً مماثلة لصالحه، لكان عارض نمو نوازع مشابهة، وقبل كل شيء كان برهن على نـزاهته بامتنـاعه هو عن كـل رأفة! ها هنـا ينفضح التناقض العميق لهذه الأخـلاق التي هي اليـــوم بـالضبط محط شرف : إن ***بواعث*** هذه الاخـلاق تناقض ***مبادئها!*** مـا تريـد هذه الاخـلاق أن تقيم بـه حججها تـدحضــه في نفس المحاولـة بمعيـارها الاخـلاقي! إن الحكمـة القـائلة : «عليك أن تكفـر بـذاتك وأن تضحي بنفسك»، حتى لاتخالف عبرتها الاخلاقية الخاصة، يجب ألاّ تُعْلَن إلا من طرف نوع كفر هـو الآخر، من جرّاء ذلك، بتفوّقـه، وربما سبّب بالتضحية الواجبـة من طرف أفراد [ما] عـدمه الخاص. ولكن بمجرد ما يعظ القـريب (أو المجتمع) بالغيرية في ***هدف نفعي***، ستكـون الحكمـــة المقـابلـة بـالضبـط : «يجب عليك أن تبحث عن تفوقك، ولـو على حساب كل الآخرين» قـد غدت مطبّقة وسننصح بـلا توقف ب «يجب عليك» و «لايجب عليك قطّ» !

22 جدوُل أعمالِ للملك

بـدأً النهـار : لنبـدأ [إذن] بتنسيق أشغـال ومتنـــزهـات عـاهلنـا اللطيف لهذا اليوم، والذي يروق لـه، حتى الساعة هذه، أن يبقى نائما. سـوف يجد جلالته اليوم

جوًّا رديئـا : سنتجنب نحن نعت [الجو] بـالرديء ، لن نتحدث عـن طبيعة الجو : ولكننا سندْخِل اليـوم في أشغاله احتفالا أكثـر وفي متنزّهه بذخـا أكثر مما يجب . ربما سيجد جلالتـه نفسه مريضا : [لـذلك] فخلال فترة الإفطار سنقـدم له ، آخر خبر سعيد لعشية البارحة ، [مثل] مجيء السيددي مونتانْ Monsieur de Montaigne ، الذي يعرف كيف يداعب مرضه بهذا المقـدار من المرح ـ [إذ] أنه يعاني من الحصاة . سنستقبل بعض الشخصيـات (شخصيات ! ــ مـاذاسيقول هـذا الضفضع المسن المتعجرف ، إذا سمع هـذه الكلمة ! «ما أنا بشخصية قـطٌّ ، سيقول ، أنا دائما الشيء نفسه») ــ وستكون حفلة الاستقبال أطـول مما يليق بأيّ كان : [وهـذا] سبب كاف لنتحدث عن هـذا الشاعر الـذي كتب على باب بيته «من يـدخل هنا ، سيشرّفني ، ومن لم يدخل قط : سيسعدني» . ـ تلك إذن طريقة كيّسة لقول الوقاحة ! وربما كان هذا الشاعر على حق ، من جانبه ، أن يكـون وقحا : نقول إن أبياته ستكون أحسن من أبيات صـانع مماثل . ليكن ! فليقل [أبياتـا] أخرى عديدة وليبتعـدما أمكن عن النـاس : أليس ثمة معنى وقـاحتـه الملائمة؟ نثـرثـرُ و كلُّ البلاط يتخيّل أننـا الآن نشتغل وأننا نفـرط في التفكير : [أننا] لانرى أبدا نـورا صباحيا أكثـر من ذاك الذي يضيء من نوافذنا ! ـ انتبه ! ألم يكن ذاك صوت الجرس؟ إلى الجحيم ! النهار والرقص بدءا ، ولا نعرف شيئا عن متنزّهاته . هكـذا يجب أن نرتجل ـ الناس يرتجلون نهارهم ! لنفعل اليـوم إذن ككل الناس ! ــ وآنئـذ تلاشى حلمـي الصباحي الغـريب ، على الأرجح ، بـالضربات العنيفـة لسـاعـة البرج ، والتي ، مع كل جـاذبيتها الخاصـة ، أعلنت السـاعـة الخامسة . يبـدو لي أن المرة هـذه ، أراد إله الأحـلام أن يسخـر من عاداتي . ـ في الواقع ، عادتي أن أبـدأ النهار كما أرتّبه لنفسي وأن أجعله محتملا لنفسي أنا ، ولربما فعلت ذلك دائما بطريقة مفرطة الصورية ومفرطة الأميرية .

23 معالـم الفســـاد

إذا شئنـا أن نتبين المعـالم التـاليـة في عمق الشروط الـلازمـة أحيـانـا للمجتمع ، والموصوفة بالـ «فساد» . فبمجرد مـايقع الفساد بطـريقة معينـة ، حتى تسود ***خرافة*** متنوعـة ، في حين أن الاعتقاد التـام الذي يجاهِر بـه شعبٌ ما في عمـومه ، إلى ذلك الحين ، يخبو ويصبح ضعيفـا : إن الخرافة في الـواقع فكر حرّ من الـدرجة الثـانية ـ والـذي يهب نفسه لـذلك يختـار عددا معينـا من الأشكـال والصيغ التي تناسبـه ، ويستنـد كذلك على حق الاختيـار عينه . وبـالمقـارنة مع رجل الـدين ، فإن الخرافي «أنـاني» جـدا وسيكون المجتمع الخرافي ذاك الـذي يحتـوي الآن الكثير من الأفـراد ،

وحيث تتجلى رغبة الفردانية مسبقا. إن الخرافة، وقد شوهدت من وجهة النظر هذه، تبدو دائما كتقدم بالمقارنة مع الاعتقاد وبمثابة المؤشر على أن العقل أصبح أكثر استقلالا وأنه أراد تأكيد حقه. وقتئذ يشتكي المولعون بالعقيدة القديمة، محامو التديّن المفرط، من الفساد ـ فقد كانوا هم أنفسهم الذين كوّنوا إلى ذلك الحين المصطلح السائد، وقلّلوا من اعتبار الخرافة حتى لدى العقول الأكثر تحررا. لنعلم أنها دلالة على *الإشراق*. ـ ثانيا، نتّهم *بالانحطاط* المجتمع الذي يتقدم الفساد في أرضه: ومن الواضح أن تقدير الحرب والميلَ للحرب فيه يتراجعان، بينما نصبو في المستقبل إلى رغد العيش بمثل الحرارة التي كنّا نتطلع بها إلى الأمجاد الرياضية والحربية. غير أننا نهمل عادة حقيقة أن هذه الطاقات القديمة، هذه الأهواء الشعبية القديمة التي كانت تحقق خارجانية مشرقة، أنها بعد الآن، أقل جلاء لتتحول منذئذ إلى أهواء متعددة للحياة الخاصة: من المحتمل أيضا أن تصبح حاليا قوةُ وعنفُ الطاقة، اللذان يُبذَلان الآن لدى شعب ما، في ظروف الفساد أكثر من أي وقت مضى وأن الفرد يبذل منهما اليوم أكثر مما كان يستطيع أن يفعل فيما مضى ـ لم يكن آنئذ قويا بما فيه الكفاية ليفعل ذلك! وهكذا، ففي أزمة «الانحطاط» بالضبط تتردد المأساة على البيوت وتعمّ، ويولد الحبّ الكبير والكراهية الكبيرة، ويتعالى إلى السماء ألقُ المعرفة. ـ ثالثا، من عادتنا أن نسلّم بأن مراحل فساد مماثلةً أكثرُ اعتدالا من المراحل السابقة وأن الفظاظة المقارنة من بعد مع فظاظة المراحل الأكثر اعتقادا والأكثر قوة لَفِي تراجع ملحوظ. لكنني لا أستطيع أن انضمّ إلى هذا النوع من الثناء لاولا الى استنكارات مماثلة: سأقبل فقط بأن الفظاظة تتهذّب حاليا، وأن أشكالها من الآن فصاعدا تضرّ بالذوق السليم: أما في مراحل الفساد فإن الاهانات والتنكيل بالكلام وبالنظر تبلغ أقصى تمثّلها ـ آنئذ نشأ *الخبث* والرغبة فيه كذلك. يتظاهر رجال الفساد بأنهم متّقدو الذكاء وافترائيون؛ يعرفون أنه توجد كذلك أنواع أخرى من الاغتيالات غير تلك التي تصنع بالخنجر وبالغارة؛ ـ يعرفون أيضا أن *كل ما قيل بفصاحة* موثوق به. ـ رابعا: بمجرد ما «تفسد الأخلاق» حتى تنبثق أولا هذه الكائنات التي نسمّيها طغاة: إنهم السابقون، وتقريبا [إنهم] *طلائع الأفراد*. بعد وقت قصير تبدو هذه الثمرة من دون سائر الثمرات، ناضجة وذهبية اللون في شجرة شعب [ما]ـ والحال أن هذه الشجرة ما وجدت إلاّ لحمل ثمار مماثلة! والتعفن في أوْجِه مثلما صراع كافة أنواع الطغاة، عندئذ يباغت القَيْصرُ دائما طاغيةَ الختام، الذي يجعل حدا للصراع المستنفذ من أجل الهيمنة المطلقة للواحد،

مع الإبقاء على فعل التقزز لصالحه. ومع توليه للسلطة يجد الفرد نفسه عموما في نضج تام، والـ «ثقافة»، بالتالي، في قمّتها وفي الدرجة الأكثر غنى ـ ولكن ليس بسبب منه أو من طرفه قطّ : مع أن الرجال المثقفين إلى أبعد حدّ يحبون مداهنته عندما يحسبون أنفسهم أنهم من صنعه هو، غير أنهم في الحقيقة بحاجة إلى سلام خارجي، لأنهم يحملون بفؤادهم قلقهم وعناءهم. في الازمة تلك يكون شراء الذّمم والخيانة، هما الأكثر شيوعا : ذلك أن حب الـ *أنا*، الذي اكتُشِف مؤخّرا، أضحى اليوم أكثر قوة من حب الوطن، البالي، المبتذل [و] المُبَاد من فرط الكلمات : ثم إن رغبة الشعور بالأمان ضد تقلّبات الحظ جعل الأيادي الأكثر نبلا تمتد أيضا، بمجرد ما يكون هناك رجل قوي وغني قادر على دفع الذهب. توجد الآن ريبة كبيرة في المستقبل : لنحيا إذن من أجل اليوم، هاهنا حالة عقلية حيث كل الغاوين يواتيهم الحظ ـ خصوصا وأننا لانستجيب للغواية والفساد إلاّ من أجل «اليوم»، وننتظر المستقبل والفضيلة! إن الأفراد، هؤلاء [الذين ينادون] «بالشيء في ذاته» و «بالشيء لذاته» الحقيقيين، ينشغلون باللحظة أكثر مما يفعله الذين يعاكسونهم، ناس القطيع، لأنهم يعتبرون أنفسهم طارئين كالمستقبل : كما يتعلقون، بطيبة خاطر، برجال العنف لأنهم يشعرون بالقدرة على الفعل والتحايل اللذين لن يعرفا لاتسامحا ولالطفا إزاء الطبقات الشعبية، ـ ولكن يُتَّفَقُ أن الطاغية أو القيصر يتصوّر حق الفرد حتى في انتهاكاته هو، وأن من مصلحته أن ينصِّب نفسه لسان حال أخلاقيات خاصة، بل وأن يدعمها. ذلك لأنه يظن بنفسه، ويودّ أن يكون الظن فيه ما تلفّظه نابليون يوما بطريقته الكلاسيكية تماما : «لي الحق في أن أردّ على كل شكاويكم بـ *أنا* أبدي، أناً مستقلٍ عن الكل، لاأقبل شروط أحد. عليكم أن تخضعوا لكل نزواتي، وأن تعتبروا الأمر بسيطاً أن تكون لي تسليات مماثلة». هكذا تحدث نابليون إلى زوجته يوم كان لها من الأسباب ما يجعلها تشك في وفاء زوجها. ـ إن أزمنة الفساد هي تلك التي تسقط فيها الثمار من الشجرة : أعني الأفراد، الحاملين لبذور المستقبل، المحرّضين على الاستعمار الروحي، وعلى تكوين أعضاء جدد للدولة وللمجتمع. إن مصطلح «فساد» ليس سوى واحد من مصطلحات احتقار *المرحلة الخريفية* لشعب ما.

24 مختلف حالات الاستياء

إن الضّعاف والمتأنثين تقريبا من بين المستائين، هم أناس ذوي طبيعة حساسة لتحسين وتعميق الحياة؛ أما الأقوياء منهم الذين يمثلون العنصر الرّجولي ـ لكي

نبقىٰ أوفياء لصورتنا ـ يريدون إصلاح وسلامة الحياة. يبرهن الأولون على ضعفهم وتخنيثهم فيما يسْلمون أنفسهم بسرور للانخداع، إلى حينٍ، وينسجمون بلاشك مع النشوة والشطح، لكنهم لايرضون على العموم، ويعانون من عدم رضاهم العضال؛ بالاضافة إلى ذلك يفضلون كل أولئك الذين يصطنعون عَزاءاتٍ أفيونية ومنوِّمة، ولأنهم لايملكون إلاّ مقت أولئك الذين يفضلون الطبيب عن الكاهن فإنهم يغذّون *استمرارية* الضيق الحقيقي! لو أنه وُجد في أوربا منذ العصر القروسطي وفرةٌ لاتحصى من غير الراضين من هذا الصنف، لربما ماكان من الممكن أبدا أن تتطور الموهبة الاوربية الشهيرة الدائمة التحوّل: ذلك أن مقتضيات المستائين الرجوليين فظة جدا وفي العمق بسيطة حتى لايمكن إشباعها نهائيا. فالصين تقدم المثال عن بلدٍ حيث عدمُ الرضى على نطاق واسع وحيث ملكةُ التحول مطفأَن منذ قرون؛ والاشتراكيون، المولعون بالدولة في أوربا، باستعمال كل قدرتهم بهدف إصلاح وسلامة الحياة يمكنهم بسهولة أن ينتهوا عندنا إلى شروط صينية، إلى «سعادة» صينية، شريطة أن يستأصلوا مسبقا عدم الرضى هذا، الرومانسية هذه، المرْضِيّيْنِ أكثر، الرهيفْين أكثر، المتأنثيْن أكثر، واللذين لايزالان حتى الآن تحت وجوه متعددة. فأوربا مريضةٌ مدينةٌ بأسمى عرفانٍ جميلٍ لاستحالة شفائها وللتحول الأبدي لألمها: هذه الحالات، هذه المخاطر، هذه الآلام وهذه السبل قد خلصت، بفعل تجددها الدائم، إلى بعث هذا النزق الثقافي الذي يشبه النبوغ تقريبا، وفي كل الحالات هو كل نبوغ.

25 غيرُ مهيأ سلفاً للمعرفة

هناك نوع سخيف من الخضوع، وهو أمر غير نادر جدا، والذي منه أن يصاب المرء نهائيا بعدم القدرة على أن يكون طالبا للمعرفة. الحقيقة أنه في اللحظة التي يدرك فيها انسان من هذا النوع، شيئا مدهشا، يعود على أعقابه تقريبا، مخاطبا نفسه: «خطأ! ولكن أين كانت نباهتي إذن؟ يستحيل أن تكون [هذه هي] الحقيقة»! ـ ومنذ ذلك الحين، عوض أن يولي الأمر مرة أخرى عناية كبيرة وأن يرهف السمع باهتمام بالغ، يفرّ كأنه ارتعب أمام موضوع الغرابة ويحاول بأسرع ما يمكن أن يبعده عن أفكاره. ذلك أن شريعته الباطنية تأمره: «لن تلتمس رؤية ما يخالف الرأي السائد! هل خُلِقْتَ، *أنت*، لاكتشاف حقائق جديدة؟ فثمة [أخرى] قديمة عديدة».

26 ماذا يعني أن نحيا

أن نحيا ـ معناه : أن نلقي باستمرار بعيـدا عنا شيئا ما ينزع إلى الفناء ، أن نحيا ـ معناه : أن نكون قسـاة وبلارحمة بالنسبة لكل ما هو ضعيف وبـالٍ فينا ، وليس فينا فحسب . أن نحيـا ـــ سيعني إذن : أن نكـــون عـديمي الشفقـة تجاه المحتضرين ، البؤسـاء والعجّز؟ أن نكون قاتلين بـاستمرار؟ ـ ومع ذلك قال العجـوز موسىٰ : «لن تقْتُل قطّ» .

27 الذي يرفض

ماذا يفعل ذاك الـذي يرفض؟ [إنه] يتوق الى عـالم علوي ، يريد أن يتـابع تحليقه أعلى وأبعـد من كل أنـــاس الموافقـة ـ ***يتخفّف مـن الكثير*** من الأشيـــاء التي تُثْقِل انطلاقه ، ومن بينها العديد من الأشيـاء القيّمة العزيزة عليه : يتخلّى عنها طمعا في السمو. إن طريقة التضحيـة هذه ، طريقة الإلقاء [بالاشيـاء] من فوق الحافة ، هي ما يمثل المظهـر الوحيد الظـاهر من شخصيته : وانطلاقـا من هذا المظهر نقـول إنه يرفض ، وبهذا الشكل يقف قدّامنا ، في ثوب راهب ، كأنه هيكل مِسْحٍ . لعلّه راض بهذا التأثير المماثل علينـا : يريـد أن يخفيَ طمعـه ، فخره ، نيتـه في التّحليق ***فوقنـا*** بعيـدا! ـ نعم ، هـو محتال أكثـر ممّا نتصـوّر ، ولطيف بالنسبـة إلينا ـــ هذا الانسـان الواقعي! ذلك أنه في الحقيقة كذلك ، رغم رفضه .

28 أن نؤذي لاننا نتفوّق

أحيانـا تدفعنا قـوانا بعيدا جـدا حتى لانكاد نتحمل نقائصنـا أبدا فنُهلَك بها : لاشك أننا نتوقع منفذا مماثلا ، ولانقبل بغيره قطّ . آنئذ فقط نمسي قساة اتجاه كل ما يطلب أن يُصَـان بـداخلنا نحن ، وقـوام عظمتنـا في هـذا الانعدام للشفقـة . هـذه التجـربة المماثلـة التي أدّينا ثمنهـا من حيـاتنا هي صـورة لكل التأثير الذي يمارسـه العظماء على الأخرين وعلى عصرهم : ـ وبواسطة ما يجعلهـم متفوقين ، بواسطة ماهـم قادرون وحدهم عليه ، به بالضبط يهدمون العديد من الكائنات الضعيفة ، المتردّدة ، [التي هي] في غمرة التحـول ولاتملك إلاّ إرادتها . من هنا إذن يكـون هؤلاء الـرجال مؤذين ، وعند اللزوم يمكن أن يحدث ، بعد كل تفكير، ألاّ يكونوا سوى : أن الشيء الذي يجعلهم يتفـوقون لايُتَلَقّىٰ ولايُمْتَصّ تقريبـا إلاّ من لدن أولئك الـذين يفقدون صواب وحسّ الـذات وكأنهم تحت وطأة مفعول شراب قوي : هـؤلاء مأخوذون كما

بنشـوة بحيث أنـه لايمكنهم أن يفعلوا أكثـر من تكسير اعضـائهم في كل الـدروب المضلِّلة، حيث تقودهم النشوة.

29 إضافات الكذب

حينما بدأتْ في فرنسا محاربـةُ الوحدات الأرسطية الثلاث، وبالتـالي الدفاع عنها كذلك، أصبح من الممكن مجددا أن نـرى ما يمكن رؤيته غالبا، ولكننـا لانشاهده إلا بانـزعاج : بدأنا نفترض بـواعث يمكن بها أن تبقىٰ قوانين مشابهة قـائمة، حتى لانسلّم فقط بأننا اعتدنـاها وأننا لانريد أبدا تغييرهـا. إنها الطريقة ذاتها التي نعمل بها في كنف كل أخـلاق وكل ديـانة سـائدتين، وذلك مـاكـان دوما : أن البـواعث والنيات التي تكون خلف عادةٍ ما، لاتسند إليهـا إلاّ بكذبة رَجْعية، منذ اليوم الذي بدأ البعض ينكر عـادة ما ويطالب بمعرفـة مقاصدها وبـواعثها. هنا تكمن أكبرُ عدمِ نزاهِة محافظي كل الأزمنة : تكَلّفهم بإضافات الكذب.

30 كوميديا الرجال المشهورين

إن الذين ـ من بين الرجـال المشهورين ـ هم بحاجة لمجدهم، كـالساسة مثلا، لايختارون حلفاءهم وأصـدقاءهم أبدا دون نية سيئة : من فلان يـريدون نصيبا من الجلال وصدى من فضيلتـه، ومن فلان آخر المظهر المخيف لخاصيـات محيّرة معينة يميّـزه بها كل واحد، فيما يصيّرون أنفسهم منتحلين لثـالث عُـرِفَ بكونـه عاطـلا، وليتخذوا وضعـا مريحا أن يحسبُوا من حين لآخر سـاهين وكسالى، لأنه أمـر يناسب مصالحهم الخاصة : وهو ما يسمح لهم بإخفاء أنهم كامنون، تارة بحاجة إلى غريب الأطوار بـالقرب منهم، طـورا إلى الخبير، تارة للبـاحث الحائر، وطورا للمتحـذلق، كحضور أناهُم الخاصة تقريبـا، لكن يمكن كذلك أن يستغنوا عنهم! وهكذا تفنىٰ حاشيتهم ومظاهرهم الخارجية بـاستمرار، بينما يبدو أن كل شيء يتعجل باتجاه هذه الحاشية ويسعىٰ ليصبح «طَبْعـ» ها، الشيء الـذي يجعلها تشبه أكبر العواصم. إن شهـرتهم مثـل طبعهم تظل في تحول دائم، ذلك أن وسـائلهـم المتغيّرة تقتضي هـذه التغيّرات وتبرزهذه النوعيـة أو تلك، الواقعية أو الخيالية، لكي يدخلـوها في المشهد [المسرحي] : وأصـدقـاؤهم وحلفـاؤهـم يسـاهمون، كما قلت، في هــذه الأنـواع المسرحية. وبـالمقابل يجب أن يبقىٰ مـا يريدونـه صلبا، صلابـة برونـزية، [وعظيما] عظمة مستديمة ـ وذلك يقتضي أيضا تصنّعا وألعابا تمثيلية أحيانا.

31 تجارة وأرستقراطية

أن تشتري وأن تبيع يعتبران الآن شيئا مألوفا كأن تقرأ وتكتب : ومع أن كل واحد قد تمرّن الآن، فلن يكون تاجرا أبدا، ولا زال يتمرن كل يوم على هذا النوع من التقنية كسالف الزمان تماما : في الأزمنة البشرية البدائية، كل واحد كان صيّادا ويتدرب مع تقادم الزمن على تقنية الصيد. لكن، ولو أن الصيد أصبح امتياز الأقوياء والنبلاء وفقد سمته المألوفة والعادية ـ من جرّاء أنه لم يعد ضروريا ليكون قضية نزوة أو ترف ــ من الممكن في حقبة معينة أن يحصل نفس الشيء بالنسبة لفعل الشراء والبيع. يمكن أن نتصوّر ظروفا اجتماعية حيث لانشتري ولانبيع كثيرا وحيث ستتلاشى ضرورة هذه التقنية شيئا فشيئا : ربما سمح بعض الأفراد الأقل خضوعا للظروف العامة حينئذ لأنفسهم فعل الشراء والبيع *كترَف الإحساس*. ابتداءً من هذه الفترة، وحدها التجارة ستكتسب امتيازا، وربما سيكرّس الارستقراطيون أنفسهم بسرور للتجارة عوض الحرب والسياسة اللذين مارسوهما سابقا : بالمقابل يمكن من الآن فصاعدا أن تصبح السياسة قليلة القيمة تماما، والتي كفّت منذ الآن عن أن تبقىٰ مهنة النبيل : وربما سنعتبرها يوما أحقر من أن نصنّفها، ككل أدب حزبي وصحفي، تحت عنوان«عهارة الفكر».

32 مريدان غير مرغوب فيهما

ــ ماذا سأفعل بهذين اليافعيْن! صرخ بتبرّم فيلسوف كان يفسد الشبيبة مثلما أفسدها سقراط قديما، ـ إنهما بالنسبة لي مريدان غير مرغوب فيهما. فذاك لايعرف أن يقول لا، وهذا يقول في كل لحظة : «من زاوية ما». . . لنفترض أنهما أدركا مذهبي، سيعاني الأول منه كثيرا، ذلك أن طريقة تفكيري تقتضي نفسا شرسة، إرادة التعذيب، رغبة في قول لا، جلدا صلبا ـ سيستسلم لجراحاته الظاهرة والخفية. وأما الثاني فكل قضية يدعمها سيكون مستعدا ليُجعل منها قضية بيْن بيْن ـ إن مريداً مماثلا أتمناه لعدوي!

33 خارج قاعة الاجتماعات

لكي أبرهن لكم على أن الانسان ينتمي إجمالا لجنس الحيوانات اللطيفة، سأذكركم بكل السذاجة التي برهن عليها منذ زمن بعيد. الآن فقط، أي مؤخرا جدا، وبعد جهود خارقة لكي ينتصر على نفسه بنفسه، أصبح ***حيوانا حذرا*** ـ

«نعم! إن الإنسان اليوم شرّير أكثر من أي وقت مضى» ـ هذا ما قلّما أفهمه : لماذا يكون الانسان اليوم أكثر حذرا وأكثر شرا؟ ـ لأنه الآن يملك علما ـ «إنه بحاجة إلى علم!».

34 Historia abscondita (*)

كل إنسان عظيم يمارس تأثيرا زمنيا : بسببه يعاد النظر في كل التاريخ، وآلاف أسرار الماضي تنبثق من مختبآتها وتعرض لشمسه. ـ لانستطيع أن نتنبأ يوما بكل ما سيكون ثانية من التاريخ. ربما لا يزال الماضي، جوهريا، محجوبا. إن العديد من التأثيرات الزمنية ما تزال ضرورية!

35 بدعة وشعوذة

أن نفكر بخلاف ماجرت به العادة ـ فذاك مالا يعني من بعيد قطّ فعلَ أحسن عقل لاولا فعلَ اندفاعات قوية، فظة، اندفاعاتٍ تفرّق، تُفْرد، اندفاعاتٍ متعجرفة، خادعة، والتي تتوصل إلى التمتع بضرر الآخرين. إن البدعة هي ندّ الشعوذة، وبالتأكيد شيء ما أقل ضررا، أقل وقارا في الذات كذلك. إن أصحاب البدع والمشعوذين يكوّنون نوعين من الكائنات الفظة : يشتركون في أنهم أنفسهم يحسّون بفظاظتهم، لكن رغبةً لاتُقاوم تدفعهم لإجهاد أنفسهم بطريقة مؤذية ضد كل ما يسود (رجالا أو آراء). إن الاصلاح نوع من الازدواج العقلي القروسطي، في حقبة لم يعد فيها لهذا العقل راحة الضمير، أحدثَ أفواجا من النوعيْن.

36 كلمات أخيرة

سوف نتذكر الطريقة التي بدابها الامبراطور أو غست غير متحفظ إزاء نفسه هو بكلماته الأخيرة، هذا الرجل المدهش الذي كان يعرف كيف يصبح عنيفا وكيف يصمت مثل أي سقراط حكيم : لأول مرة سيسقط قناعه عندما أشار إلى أنه كان يرتدي قناعا وأنه كان يتظاهر بما لايضمر : كان يلعب دور أب الوطن والحكمة على العرش، يلعب إلى حدّ الخداع! Plaudite amici, comœdiafinita est (1) ـ إن حكمة نيرون وهو يحتضر : Qualis artifex pereo! (2) كانت هي حكمة أوغست

(*) تاريخ خفي.
(1) تصفيقات أيها الأصدقاء، لقد انتهت الكوميديا!
(2) ياللفنان الفاني!

وهو يحتضر كذلك : غرورٌ ممثل فاشل! ثرثرة بهلوان! الرأي المعاكس بامتياز لسقراط وهـو يحتضر. لكن Tibère مات صمـوتا، وهو الاكثـر عذابا مـن كل أولئك الذين كانوا جلاّدي أنفسهم ـ لقد كـان أصيلا، لم يكن ممثلا على الإطلاق! ماذا يمكن أن يكون قد جال بخاطـره قبل أن يلفظ نَفَسه الأخير؟ ربما كان الشيء التالي : «الحياة ـ ليست سوىٰ موت طـويل! ألم أكن مجنونا عندما قصّرت حيـاة عدد هائل! أَخُلِقتُ لأكون مُحْسِنـا؟ كان عليّ أن أمنحهم حياة سرمـدية : وبـذلك كان يمكن أن *أراهم يتلاشون* باستمرار. لذلك كان لي بريق جميل : (1) "Qualis Spectator pereo!". وبعد احتضـار طـويل عندمـا بـدا أنـه يستعيـد قواه تبيّن أنـه من الحكمـة أن يُخْنَقَ تحت مخدّات، ـ فمات موتا مزدوجا.

37 بسبب أخطاء ثلاثة

لقد شجّعنـا تطور العلوم خلال القـرون الأخيرة، جزئيا لأن معهـا وبها كنا نأمل حسن فهم طيبـة وحكمة الإلـه ــ [هذا] سبَب رئيسي لِخُلُق عظماء الانجليـز (مثل نيوتن) ـ جزئيا لأننا كنا نؤمن بالضرورة المطلقة للمعرفة، لاسيما بالرابط الأكثر باطنية بين الأخـلاق، العلم والسعـادة ــ [هـذا] سبـب جـوهـري لِخُلُق عظماء فـرنسـا (كفولتير)ـ، جـزئيا لأننا كنا نـدّعي أن نمتلك وأن نحبّ في العلم شيئا موضـوعيا، غير ضار، مكتفيـا بذاتـه، بريئـا حقا وحقيقـة، حيث لاوجـود للإغـراءات السيئة للإنسـان على الإطلاق ــ سَبَبٌ أساسي لِخُلُق سبينـوزا الذي، بـاعتباره عـالما، كان يحس بنفسه ربّانيا : ـ إذن بسبب أخطاء ثلاثة.

38 الأمزجة التفجّرية

إذا قـوّمنا عمـوم رغبـة الإنفجار الكـامنة في طـاقـة الشباب، فلن نستغـرب إذا رأيناهم يعزمـون على هذه المصلحة، أو تلك بقليل من الدقـة وبقليل من الرّويّة في اختيـارهم : إن ما يحرضهم هـو الغليـان الذي تثيره مصلحـة ما، أي رؤيـة الفتيل مُشْعَلا تقريبـا ـ لا المصلحة في حدذاتها. كذلك يدرك الغـاوون المرهفون جدا كيف يَعِـدُون بالانفجـار والتغاضي عن تبريـر مصلحتهم : ليس بـالتبريرات قط نـربح براميل من بارود مماثلة!

(1) يا للمشاهد الفاني!

39 تغيرّ الذوق

إن تغيّر الـذوق العـام مهمّ أكثـر من تغيّر الآراء : فـالآراء بمجمـوع أدلّتهـا، دحـوضاتها وبكـل تقنّعها الفكـري مـاهي إلاّ أعراض الـذوق الـذي يتغيّر وليست بالتأكيـد دواعي هذا التغيير، كما مازلنـا غالبا نفترض . كيف يتحوّل الـذوق العام؟ لكون أفراد منعزلين، أقويـاء، ذوي مكانة، يعبرون بلاحياء عن hoc est ridicu-(1) lum, hoc est absurdum ، الحكم إذن عن أذواقهم واشمئـزازهم، ويفـرضـونها بطريقـة مستبدة : بهذا الشكل يجشّمون الكثير إكراهـا يغدو شيئا فشيئا عـادةَ عددٍ أكبر وفي النهاية [يغدو] *ضرورة الكل*. لكن أن يحس هـؤلاء الأفراد المنعـزلون وأن يتذوّقـوا بشكل مخالف، فذاك مـا يعود عادة لتفـرّدٍ في طريقـة عيشهـم، تغذيتهم، هضمهم، [و] ربما لـــ «كثير أو قليل» من الأمـــلاح غير العضـويـــة في دمهم وفي دماغهم، باختصار في Leur Physis (2) : الحال أن لهم جرأة الاستنـاد إلى جسلهـم ورهاف السمع إلى مقتضياته الأكثر دقة : إن أحكـامهم الجمالية والاخلاقية مطابقة لـ «مقتضيات دقيقة» مماثلة .

40 عن انعدام الأصل المتميّز

للجنـودوالقواد دائما سلـوك متبادَل أكبر بكثير من ذاك الـذي يوجـد بين العمال وأرباب العمل. الآن على الأقل مـا تزال كل ثقافة عسكـرية مبررّةٍ، أعلى بكثير من كل ثقافة صناعية مزعومـة : هذه الأخيرة، بصورتها الحالية، هي بصفة عامة شكل الوجود الأكثر ابتذالا والذي لم يُشْهد لـه نظير إلى هذا الحين. هنا، ببساطة، يكون قانون الفاقة هو الذي يفعل فعله : نريد أن نحيا ويجب أن نباع، لكننا نحتقر الذي يستغلّ هذه الفاقـة ويبتاع لنفسه العاملَ. شيء نادر أن الخضوع لشخصيـات قوية تـوحي بـالخوف، بل بـالـرعب، الخضـوعَ لطغـاة ولقـواد عسكـريين، قلّما يكـون الاحساس بـه كطريقة مضنيّـة أكثر من الخضوع لشخصيـات مجهولة وغير مُـرَغّبَةٍ، شأن كل علماء الصنـاعة الكبـار؛ في شخص المستخدم لايـرى العُامل عـادة سوى رجل قاس ماكـر، مستنزِف، مستغِل كل بؤس، حيث لايبـالي بالاسم، بالسيماء، بـالاخـلاق وبالسمعـة . وعلى الأرجح أنـه إلى ذلك الحين كـانت كل أصـولِ وكل خاصيات *السلالة المتفوقة* التي تبدي *الـشخصيات* مثيرة للاهتمام، كانت إلى ذلك الحين مغيَّبة بشكل كبير لدى أصحـاب المصانع ولدى كبار رؤسـاء المؤسسات : لو

(1) عن سخريتهم، عن عبثهم .

(2) في جسدهم .

كان لهم امتيازُ شرفِ الأصل في النظرة وفي السلوك، ربما لن تكون هناك اشتراكية طبقات شعبية قطّ. ذلك أن هؤلاء، إجمالا، مهيأون لأي إخضاع كان، شريطة أن يقرّ الفرد المتفوق عليهم دائما بأنه الأكثر رفعة، بأنه **مرصود** ليقود ـ بتميّز في الأصل! إن الأكثر عاميّة يدرك جيدا أن التميّز لا يُرتجل وأنه جليل بما أنه نتاج قرون طويلة ـ في حين أن غياب الأصول المتفوقة والغلظة الحقيرة لصاحب المصنع ذي اليدين السمينتين والمحمرّتين ينبىء بأن الصدفة والحظ وحدهما من رفعا الواحد عن الآخر: هذا أفضل، يقول في نفسه، علينا أن نجرب الصدفة والحظ بدورنا! لِنَرْمِ النرد! ـ وتبدأ الاشتراكية.

41 ضد الحسرة

يرى المفكر في أفعاله الخاصة محاولات واستفهامات للحصول على إيضاحات حول شيء ما: النجاح والفشل بالنسبة إليه هما أولا *أجوبة*. أمّا أن يغضب أو حتى أن يندم عن فشل ما ـ فذاك ما يتركه لأولئك الذين يعملون فقط لأنهم مأمورون بذلك، وعليهم أن يتوقعوا أنهم سيُضْرَبون [ضربا شديدا متواترا] إذا كان السيد العافي مستاءً من النتيجة.

42 عمل وملل

أن نبحث عن عمل في سبيل الأجرة ـ فذاك تقريبا ما يتساوى فيه الناس في البلدان المتحضرة: فالعمل، بالنسبة إليهم جميعا، ليس سوى وسيلة، لا هدفا في حد ذاته، لذلك فهم أقل رهافة في اختيار العمل الذي لاتكمن أهميته في نظرهم إلاّ بما يتعهّده من أجر، شريطة أن يؤمّن أجرا كبيرا. والحال أنه يوجد بعض الأشخاص النادرين، الذين يفضلون أن يهلكوا عن أن يكرّسوا أنفسهم للعمل دون ابتهاج؛ إن هؤلاء الناس الذين ينزعون إلى الاختيار، والذين من العسير إرضاؤهم هم الذين لايرضون بكسب جسيم، مادام العمل في حد ذاته لايمثل كل مكسب. لهذا الصنف من الناس ينتمي الفنانون ومحبّو التأمل من كل ضرب، بل العاطلون كذلك، الذين يقضون حياتهم في المطاردة، في الاسفار أو في مكائد ومغامرات غرامية، كل هؤلاء يطلبون العمل وضرورة أن تكون المتعة مشتركة فيه، و[ليكن] العمل الأكثر تعبا، الأكثر صعوبة إذا اقتضى الأمر. الحاصل أنهم في تكاسل مُصَمِّم سبّب العوزَ، الخزيَ، وخاطر بالصحة والحياةِ. لايخشون الملل أكثر من العمل بدون متعة: بل هم في حاجة إلى أن يملّوا كثيرا إذا طلبوا النجاح في عملهم

الخاص. إن الملل بالنسبة إلى المفكر، كما هو الشأن بالنسبة إلى كل النفوس الرقيقة هو بمثابة «هدوء رياح» الروح، المزعج، الذي يعقب الإبحار السعيد والرياح المرِحَة: عليه أن يتحمّله، أن ينتظر النتيجة؛ ذاك بالضبط ما لايمكن للناس الوُهُنِ إطلاقا أن يكسبوه من أنفسهم! فأن يطرد المرء الملل عن نفسه بأية وسيلة شيء مبتذل مثلما يحدث أن يعمل بدون متعة. لعل هنا ما يميز الأسيويين عن الأوربيين، أن يكونوا قادرين على هدوء أطول، أعمق من هؤلاء، حتى مخدراتهم تفعل على الهوينا وتقتضي الأناة، على العكس من الفجاءة المنفّرة للكحول، هذا السمّ الأوربي.

43 ماتفشيه القوانين

إنه لمن الخطأ الكبير أن نتوخى دراسة القوانين الجنائية لشعب ما كمعبّر عن خاصيته: فالقوانين لاتكشف عن طبيعة شعب، بل عمّا يبدو له غريبا، فريدا، مخيفا، [كشيء] خارجي عنه. إن القوانين تعنىٰ بشذوذات سيرة الآداب: والعقوبات الأكثر قسوة تؤثر أيضا على ما هو مطابق في آداب شعب مجاور. هكذا لاتوجد عند الوهّابيين إلاّ حالتان من الحكم بالإعدام: أن تعبُدَ إليهاً غير إله الوهابيين و ـ أن تدخّن (أي ما يعيّن عندهم ك «طريقة شرب مشينة»). «وماذا عن القتل والزنا؟» سأل انجليزي مستغربا من نبإ أشياء شبيهة. «وإذن، بعدُ! إن الله يفيض بالعفو وبالرحمة!» أجاب كبير القبيلة العجوز. ـ عند قدماء الرومان أيضا نخال أن المرأة لايمكن أن تكون متهمة بخطيئة مميتة إلاّ بطريقتين: باقتراف الزينة ـ وشرب الخمر. ويزعم الرقيب العجوز أنه من باب السيطرة على النساء في هذه المسألة كنّا قد سننّا عُرف المخادعة بين الأقرباء: مخادعة كانت تعني: تُشتمّ فيها رائحةُ الخمر؟ لقد عوقبت بالموت النساء اللواتي ضبطن في حالة تلبّس؛ وبالتأكيد ليس فقط لأن النساء يفقدن كل قدرة على المقاومة تحت تأثير الخمر؛ ففي حقبة كان الخمر ما يزال حديث الاستعمال في أوروبا، كانت نساء الجنوب الأوربي تُؤسرْن بين الحين والآخر بالظاهرة التهتكية والديونيزية التي كان يخشاها الرومان أكثر من كل شيء، كفظاعة خارجية ستقلب أساس الحساسية الرومانية: كان ذلك بالنسبة إليهم، بمثابة خيانة بخصوص روما، بمثابة إلحاقهم بالخارج.

44 الدوافع التي نؤمن بها

من الأهمية بمكان معرفة الدوافع التي التي بحسبها فعلا عملت الانسانية إلى هذا الحين، يبقى أن *الايمان* بهذا الدافع أو ذاك، أي بما تصورت الانسانية نفسها إلى الحين ذاته أنه بحصر المعنى وسيلةُ نفوذٍ لكل تصرفاتها، ربّما يكوّن شيئا أساسيا أكثر بالنسبة إلى المعرفة. إن الناس في الواقع، قد أحسوا بهناء أو بقلق باطنييْن حسبما آمنوا بهذا الدافع أو ذاك ـ لكن ليس بمقتضىٰ حقيقة الدافع [في حد ذاته]! فكل ما ينطوي عليه هذا الأخير له أهمية ثانوية.

45 أبيقـــــور

أجل أنا فخور بأن أكون موصوما بطابع أبيقور أكثر من أيّ كان، وفي كل ما أتيح لي أن أسمع أو أن أقرأ عنه، أن أنعم بالسعادة المسائية للعصور القديمة: ـ أرى عينيه تشاهدان مليّا بحرا واسعا وفضّيّا، من الجانب الآخر لأجراف الساحل حيث تستريح الشمس، بينما كبير الحيوانات وصغيرها يتلهىٰ باللعب في النور، آمنا وهادئا مثل هذا النور وهذه النظرة. سعادة مماثلة، وحده الذي يكاد باستمرار يمكنه أن يكتشفها، سعادة عين من في نظرته سكن بحر الوجود، والذي لم يتملّ بالمشهد من سطحه ومن هذه البشرة الأوقانية المبرقشة، الخطرة والمرتعشة، بما فيه الكفاية. لم يشهد أبدا بتواضع لذة مماثل من قبل.

46 استغـــرابنا

إن سعادة كبيرة وعميقة تكمن في أن العلم يكتشف أشياء تصمد أمام التجربة ولاتكف عن أن تتيح الفرصة لاكتشافات جديدة: يمكن أن يكون الأمر بخلاف ذلك! أجل، إننا واثقون من كل شكٍّ، من كل استشباحِ أحكامنا كما من التحول السرمدي للقوانين وللمعارف الإنسانية، حتى أننا نظل مستغربين عندما نلاحظ كم ثابتة بقيت نتائج العلم! قديما كنّا نجهل كل شيء عن هذا التغيّر للأمور الانسانية اللامحدودة، كان التقليد الأخلاقي يؤيد الاعتقاد بأن كل حياة الانسان الباطنية كانت مثْبَتَةً بأظفورات خالدة لضرورة فولاذية: ـ لعلنا كنا نحس آنئذ بلذة استغراب شبيهة، لما نسمع أساطير وحكايات خارقة. كان الخارق يمدّ هؤلاء الناس باستراحة كبيرة، في ظروف معينة، على الأرجح عندما ينهكهم الاقتداء والأبدية. أنْ لانعرف بعدُ ماذا نفعل بصفة نهائية! أن نحلق! أن نتيه! أن نكون مجانين! *ذاك* ما ينتمي إلى

الجنة واللـذات الغابـرة : فيها غبطتنا شبيهـة بغبطة الغـريق الذي يضع قـدميه على اليابسة القديمة ـ مستغربا من كونه يشعر بها تهتز.

47 كبت الأهـــواء

إذا منعنـا عن أنفسنـا، بشكل مستمر، التعبير عن الأهـواء، بنـاء على أنها شيء يترك للأمزجة «السـوقية» والخشنة جدا، للأمزجة البرجوازيـة والقروية، ـ بمعنى آن ننوي ليس قمع الأهواء ذاتها، بل فقط لغتها وحـركتها، فلن نبلغ إلاّ ما أردناه : أي كبت الأهـواء نفسها، وإلاّ إلى إضعـافها، إلى تعـديلها ـــ مثلما عرفتْ ذلك بصفـة نموذجيـة محكمةُ لـويس الرابع عشر وكل مـاكان يتعلق بها. من هـذا المنطلق كان مجتمع القـرن الموالي، المؤسس على مراقبـة تعبيره، عديم الأهـواء كلية إلاّ من طبيعـة لطيفة، سطحية، بشـوشة ـ كأنه متأثر من عدم القـدرة على أن يكون وقحا : حتى إهانة [ما] لم تُتلقّ وتُردّ بخلاف كلمات لبقة. لعل زمننا يقدم في ذلك الرأيَ المخالفَ الأكثر فُرادة : أرى في كل مكان في الحياة وفي المسرح، وليس بأقلٍ في كل ما يُكتب، التلذذ الذي ينتـابنا من الانفجارات والتحركات الأكثر خشـونةً للهوى : نقتضي، اليوم، نوعا من مشارطة العاطفي ـ لاستبعاد الهوى نفسه! لكن نكاية بهذا الانحراف سنصل مع ذلك، وسيكون لخلفنـا توحشٌ أصيلٌ، وليس التـوحش وغمارة الأصول فقط.

48 معرفة البؤس

ربما لاشيء يميز بين الناس والحقب مثل درجة المعـرفة المغايرة التي يملكونها على التوالي عـن البؤس : بؤس الـروح كبؤس الجسـد. أما مـا يتعلق بهذا الأخير، فنحن اليوم، رغما عن عجزنا وسرعـة عطبنا، ربما نكون مسيئين ومخالفين للصواب في الآن ذاته، لغيـاب تجربة ذاتيـة غنية : مقارنـةً بحقبة ما للخـوف ـ أطـول الحقب كلها ـ حيث كان على الفرد أن يحتمي ضد العنف بوسـائله الخاصة وأن يكون هو نفسه، لهذه الغايـة، عنيفا. قديما كـان الانسان يمر من تجربة غنيـة بالتعذيب وبـالحرمان الجسدي وكان يتعرف ولو في نوع من القساوة تجاه نفسه، في تدرّب إرادي عن الألم، على وسيلة ضروريـة لبقائه؛ قديما كـان الانسان يكوّن محيطـه على تحمل الألم، كان يعذب إراديا وكان يساعد على أن يخضع الآخرون للأبرح في ذلك، دون أي إحساس آخر عـدا طمأنينته الخاصة. لكن فيما يتعلق بـالبؤس الـروحي سأختبر الآن كل فرد لأرى هل يعـرفــه عن تجربـة أم عن مجرد وصف؛ إذا كـان يعتبر مـع ذلك أنـه من

الضروري أن يتظاهر بهذه المعرفة ليعطي لنفسه مظهر ثقافة مرهفة، أو أنه لايؤمن في قرارة نفسه بحقيقة آلام الروح العظام ويحدث أنه عندما يسمع الحديث عن ذلك كأنه يستمع لتعداد محن بدنية كبيرة، ألاّ يفكر إلاّ في آلامه المتعلقة بالاسنان والمعدة. والحالة هذه، يبدو لي أن الأمر كذلك بالنسبة للأغلبية اليوم. ومن الانعدام العام للتجارب من هذه الناحية المزدوجة، ومن جرّاء أنه أصبح من النادر أن نتبيّن التألم [بين الناس]، نجمت في المستقبل عاقبة مهمة: أننا ننفر اليوم من الألم أكثر مما كان يفعل الناس قديما، نقذفه أكثر من أي وقت آخر، وحده حضور الألم *باعتباره موضوعا للتأمل قد بدا* أنه محتمل بالكادّ، ونحفظ له الضغينة في الحياة كلها حتى نجعل منه أزمة ضمير. إن ظهور الفلسفات المتشائمة ليس إطلاقا علامة على ضيق كبير ومخيف، غير أن طرح قيمة كل حياة للبحث ثانية تلاحظ في حقب حيث يبدو تهذيب وتلطيف الوجود وكأنهما داميّان بإفراط، وأعنف هي لسعات البعوض المحتومة للروح والجسد، [تلاحظ في] حقب ينزع فيها فقر تجارب الألم الحقيقية إلى تأكيد *تصورات تعذيبية* عادية على أنها ألم جنس متفوق. طبعا سيكون هناك علاج ضد الفلسفات المتشائمة، ضد فرط الحساسية الذي يبدو لي أنه «بؤس الوقت الحاضر» الحقيقي: لكن، ربما ستدوّي وصفة العلاج بعنف في الآذان وستُعتَبر من بين العلامات التي بمقتضاها يعتقد أن «الوجود شيء قبيح». هذه الوصفة ضد «البؤس» [هي]: البؤس.

49 الكرم وماشَابَهَهُ

هذه الظواهر الغريبة التي هي اللامبالاةُ الفجائية في سلوك الانسان العاطفي، دعابةُ [الانسان] السوداوي، مثل الكرم الذي يرفض بالخصوص الانتقامَ وإشباع الرغبة فجأة ـ تتولد عند أناس تفعل فيهم طاقة قوية على التبذير، عند أناس ذوي الامتلاء الفُجائي والاشمئزاز الفجائي. إن تعويضاتهم جد سريعة وجد قوية لدرجة أن يتعقبها الضجرُ والنفورُ وفرارٌ مستهامٌ للذوق المناقض مباشرة: في هذا التقابل تنحلّ أزمة الحساسية، عند فلان بلامبالاة فجائية، عند فلان آخر بالضحك، وعند ثالث بدموع وبتضحيات بالنفس. يبدولي أن الكريم ـ على الأقل من هذه الفصيلة من الكرماء التي كان لها دائما احساس مفرط ـ انسان متعطش إلى الانتقام بدرجة عليا، والذي تتاح له إمكانية إرواء الغليل، ومن خلال تصوره لذلك، يستلذّها ويرتوي بها بوفرة وبعمق إلى آخر قطرة، حتى يعقب هذا الجنون المباغث، اشمئزاز رهيب مباغث ـ ومستقبلا يعلو «على ذاته» كما يقال، ويصفح عن عدوه

بل يمجّده ويبجّله. بهذا العنف الذي يمارسه على نفسه، بهذا الشكل الذي يهين به اندفاعه للانتقام الذي كان قويا من قبل، فإنه لايستزيد إلاّ الاستسلام للاندفاع الجديد الذي يهيمن، بدوره، عليه الآن، ويفعل ذلك بنفاذ صبر وبجنون مثلما كان من قبل يحدس لذة الانتقام توهّما، لدرجة استنفاذها تقريبا. إن مدى الانانية الذي يوجد في الكرم نفسه يوجد في الانتقام، غير أنه نوع آخر من الأنانية.

50 حجة التفرّد

إن تأنيب الضمير، حتى عند [الانسان] الأكثر دقة، يبقى ضعيفا بالنسبة إلى الاحساس [التالي]: «إن هذا [الشيء] أو ذاك مخالف للشيم الحميدة لمجتمعك». فتور نظرة أولئك الذين في وسطهم ولأجلهم كنّا قد تربّينا، وسَمْتُهم المقطِّب، ذاك ما *يخشاه* حتى الأقوى. أيُّ شيء يهابه إجمالا؟ الانفراد! الحجة التي تفنّد حتى أحسن الحجج التي تكون لصالح شخص أو قضية! ـ هكذا يتكلم فينا الحسّ القطيعي.

51 حقيقة

أوافق على كل شكوكية حيث سيكون مسموحا لي أن أجيب: «لنحاول!» على ألاّ أسمع أبدا حديثا عن الأشياء والقضايا التي لاتقبل التجربة. ذاك حدّ «حقيقتـ» ي. لأنه فيما وراء الأشياء، فقدت الجرأة حقوقها.

52 ما يعرفه الأخرون عنّا

إن ما نعرفه نحن عن أنفسنا ونحتفظ به في الذاكرة، ليس حاسما قطّ في سعادة حياتنا كما نعتقد. سوف يأتي اليوم الذي سيقع فيه على عاتقنا ما يعرفه ***الآخرون عنا*** (أو يدّعون معرفته)، ومن ذلك الحين سنعرف أنّ ثمة العنصر الذي سيقضي عليه إن الإنسان يتغلب بسهولة على إحساسه بالخطأ أكثر [مما يتغلب] على سمعته السيئة.

53 أين يبدأ الخير

حيثما تكف رؤية النظر الضعيفة عن تبيّن الطبيعة الفاسدة لإغراء ما، بسبب دقته، يظن الانسان أنه في مملكة الخير وأن الاحساس بالدخول إليها فيما بعد يبث إثارته لكل الإغراءات التي هدّدها وكبتها احساسه بالخطأ، كالاحساس بالأمن، بالتسلية، بالرفق. هكذا: كلما تلاشى النظر كلما بدا أن ميدان الخير يتسع أكثر!

من هنا الفرحة الأبدية للشعب والأطفال! من هنا الكآبة والكدر للمفكرين الكبار، من ذاك الاحساس بالخطأ!

54 الوعي بالظاهــر

أي وضع عجيب وجـديـد، مـرعب وسـاحـر في الآن ذاتـه آشعـر أني آحتلـه، بمعرفتي، في مـواجهة الـوجود! لقـد اكتشفت، من جهتي، أن البهيمية الانسـانية القديمة، بل جملة الأزمة الاصلية ومـاضي كل كائن حسّاس، ما تزال تنظم الشعْر، تحبّ، وتبثّ فيّ ـ استفقت فجأة في منتصف هذا الحلم، لكي أعي أنني أحلم فقط وأنه *من الضروري* أن استمـر في الحلـم حتى لاأهلك: مثلما يجب على المتسرنم آن يواصل الحلم حتى لايسقط. مـا معنى الـ «ظـاهر» في عرفي؟ ليس في الحقيقـة ضد كائن ما ـ وماذا عساي أن أقول عن كائن ما لايستأنف الإعلان عن صفات ظاهره! بالتأكيد لايتعلق الأمـر بقناع ساكنٍ يمكن أن نضعه وبـلاريب أن نخلعه أيضا عن فلان مجهـول! إن الظاهـر هو حقيقـة الشيء ذاتها، الفعّالة والحيّـة، والتي في شكل سخريتهـا من نفسهاتدفعني إلى الإحسـاس أن ثمة ظاهرا فقط، وهجـا مستنقعيّا، رقصات الإلفات (*) ليس إلاّ ـ بين كل هؤلاء الحالمين عليّ أيضا، لانني «عارف»، أن أرقص رقصتي الخاصة، إلاّ أن الـ «عارف» ليس مهيأ إلاّ ليكثر تأجيل الـرقصة الأرضية، وأن يُـدْرَجَ بهذا المعنى من بين مديري أعيـاد الوجود، وأن تـؤسِّس نتيجةُ كل المعارف ووثـاقُها الفائقـا الوصف، وسيؤسسـان ربما، الوسيلة السـاميةَ لضمان شمولية الهواجس وتفاهم كل هؤلاء الحالمين المتبادلِ، وبالتالي *لتعهّد دوام الحلم*.

55 معنى النبـالـة

أيّ شيء يكوّن نبالة كائن ما؟ بالتأكيد، ليس أن نضحي: فحتىٰ الفاجر الحانق يقدم تضحيات [ما]. يقيناً ليس أن نستسلـم لهوى ما، فثمة أهواء حقيرة. ويقيناً ليس أن نعمل شيئا ما لصالح الآخرين ودون أنانيـة؛ فربما كانت نتيجة الأنانية هي بالضبط الأقوى لدى النبـلاء. ـ إن ما يصنع نبالة كائن مـا هو أن الهوى الذي يؤلمه تَفَرُّد، دون أن يعـرف، هو نفسـه، عن ذلك شيئا؛ إنه استعمال معيـار نادر وفـريد وممارسة جنون تقـريبا، [إنه] الإحساس بالدفء في الأشيـاء التي تظل باردة بالنسبة لكل الآخرين، [إنه] حدسُ قيم لم يخترع لها ميـزان بعد، [إنه] المُحْرَقَةُ (**) المقدّمة لقدّاس إلـه مجهول، [إنه] الشجاعـة دون طموح في الأمجاد؛ [إنّه] التـواضع الذي

(*) مفردها «إلف» (elfe) جنّي صغير في أساطير إسكندنافيا يرمز إلى الهواء والنار... إلخ

(**) Holocauste: ذبيحة تحرق للتضحية بها...

يفيض بالثروات ويغني النّاس والأشياء. حتى الآن إذن كانت النّدرة واللاوعي بهذه الندرة هما ما يصنع نبالة كائن ما. لكن علينا أن نفهم جيدا أن قاعدة مماثلة تقتضي حكما غير منصف على كل شيء اعتيادي، مباشر، ضروري، وباختصار على كل ما يساهم أكثر في حفظ النوع، وبطريقة مطلقة على *قاعدة* الانسانية نفسها إلى ذلك الحين، [القاعدة] التي نفتريها بهذا الشكل على حساب الاستثناءات. أمّا أن نتخذ من أنفسنا المدافع عن القاعدة، فلربما كان ذلك هو الشكل والنباهة الساميان اللذان ينكشف فيهما معنى النبالة على الأرض.

56 الرغبة في الألم

حينما تخطر ببالي رغبة القيام بشيء ما، مثلما تحمّس [هذه الرغبة] وتثير باستمرار ملايين من الشباب الأوربي حيث لايتحمل أحد الملل أكثر مما يستحمل نفسه هو - أعرف أنه لابدّ أن توجد لديهم الرغبة في ألم ما ليخرجوا بسبب قاطع على الفعل. الضرورة ضرورية! من هنا الصياح الكثير للسّاسة، من هنا «الازمات الاجتماعية» المزعومة لكل الطبقات، الكثيرة بقدرما هي خاطئة، متخيَّلة، مبالَغٌ فيها، وكل هذه الهمّة العمياء التي وجب تصديقها. إن ما يطالب به هذا الجيل الجديد، هو **أن يكون من *الخارج*** ما يأتيه جليّا — ليس السعادة — بل الشقاء: وقد انشغل هواهُ مسبقا بأن يجعل من ذلك غولا، حتى يكون له فيما بعد غول ليصارعه. ولأنهم جد متلهفين للضرورة فإنهم يحسون بالقوة ليحسنوا لأنفسهم داخليا، [يحسون] بالقوة على ممارسة العنف على أنفسهم، [و] يستطيعون كذلك داخليا خلق ضرورات خاصة وشخصية، لأنفسهم. إن اكتشافاتهم ستكون إذن أكثر دقة، وسيكون لإشباعاتهم إيقاع موسيقىٰ ممتازة: بينما يُصْدي العالم الآن لأصواتهم، ولايفعمونه في الغالب الأعم إلّا *بالإحساس بالضرورة*! لايعرفون ماذا يفعلون بوجودهم الخاص - وهكذا يستحضرون شقاء الآخرين: فهُمْ دوما بحاجة للآخرين! ودوما [بحاجة إلى] آخرين أُخَر! — اسمحوا لي، أصدقائي، لقد سمحت لنفسي بأن استحضر ***سعادتي***.

الكتاب الثاني

57 إلى الواقعيين

وأنتم أيها الرجال المتحفظون، الذين تشعرون بالحذر ضد الشغف والجنون، والذين تصنعون من فراغكم عن طيب خاطر موضوع كبرياء وزينة، تدعون بأنكم واقعيون وتزعمون أن كذلك يبدو العالم لكم، وكذلك يكون في الواقع: لكم وحدكم يعرض الواقع نفسه عاريا وأنكم ربما كنتم أحسن ضلع فيه ـ واها ياصور سايس العزيزة! لكن ألستم دائما، حتى في حالتكم الأكثر انكشافا، أناسا هائمين ومظلمين بصراحة، مشبّهين بالاسماك ومشابهين فوق الحد أيضا لفنان عاشق؟ ـ وبالتالي ما «الحقيقة» بالنسبة لفنان عاشق! إنكم لاتكفون قط عن استرجاع طريقة ما في تقييم الأشياء، طريقة لها أصلها في أهواء وشغوفات القرون القديمة! إن تحفظكم ذاته سيظل مشبعا بنشوة خفية متعذر إخمادها! إن حبكم للـ «حقيقة» مثلا ـ ليس سوى شغف قديم، آه كم هو قديم! في كل إحساس، في كل انطباع بالغ يكمن جزء من هذا الشغف القديم، وبعد كل حساب، فقد كان للاستشباح، للحكم المسبق، للجهل، للاّوعي ولاأعرف أية أشياء أخرى، نصيب في تشكيل [ذلك]! انظروا إلى هذا الجبل، وإلى الغيمة هناك! ما الـ «واقعي» فيهما إذن؟ غضوّا النظر عن الاستيهام وعن كل إسهام بشري أيها الرجال المُتحفّظون! آه لو كنتم تقدرون! لو أنكم على الأقل كنتم تستطيعون نسيان أصلكم، ماضيكم، تكوينكم السالف ـ مجموع إنسانيتكم وحيوانيتكم! لاتوجد «حقيقة» قطّ بالنسبة لنا ـ لاولا لكم أيها الرجال المتحفّظون ـ وكلانا غير غريب عن الآخر كما تزعمون، وربما استحق استعدادنا للخروج من النشوة من العناية مقدار إيمانكم بأنكم *غير قادرين* حتى على الانتشاء.

58 لايمكن أن ندمّر إلاّ باعتبارنا مبدعين

هو ذا ما يكلّفني ولايكفّ عن أن يكلّفني دائما المجهودات الأكبر: أن أفهم أن المهم بطريقة لاتوصف هو أن أعرف *كيف تسمّى الأشياء* أكثر ممّا هي عليه. إن التسليم بشهرة الشيء، باسمه وظاهره، بقيمته، بوزنه وقياسه الشائعة ـ التي ليست في الأصل سوى نوع من الخطأ، من الاعتباط اللذين يخال الشيء نفسه أنهما أضفيا عليه كثوب غريب على طبيعته وعلى بشرته بالتمام ـ [هذا التسليم] الذي يورث من جيل لآخر، قد فعل فيه شيئا فشيئا مثل جسم الشيء نفسه، [إذ أن] ظاهر البداية ينتهي دائما بأن يصبح جوهرا ويعمل باعتباره جوهرا! أيُّ جنون كان سيكون في

الزعم أنه يكفي إبطال هذا الأصل، هذا القناع الضبابي من الهذيان *لتدمير* العالم الذي يعتبر أساسيا، [لتدمير] الـ «حقيقة» المزعومة! وحدهم المبدعون قادرون على التدمير! غير أنه لايجب أن ننسىٰ قطّ ما يلي: يكفي أن نبدع أسماء جديدة، تقديرات، احتمالات جديدة لنبدع على التمادي «أشياء» جديدة.

59 نحن الفنانون

عندما نعشق امرأة، نمقت بسهولة كل أنواع الأشياء الكريهة التي أخضعت الطبيعةُ المرأة لها، طواعيةً نبعدها عن عقولنا، لكن عندما يحدث أن تلمس أرواحنا هذه الأشياء، فإنها ترتعش بنفاذ صبر وتنظر للطبيعة بمظهر احتقار: ـ إن الطبيعة تغيظنا، الطبيعة التي يبدو أنها تغتصب ثروتنا، وذلك بأيادٍ جاز لها انتهاك الحرمات. نرفض الاستماع لأدنى مصطلح [من مصطلحات] الفزيولوجيا، ونعلن في أنفسنا: «لاأريد أن أسمع شيئا من جرّاء أن الانسان شيء أخر أيضا غير *روح وصورة!*»، إن [عبارة] الـ «كائن البشري تحت البشرة» قبيحةٌ جدا، وشيءٌ غير معقول بالنسبة لكل العشاق، [إنها] تدنيس في حق العشق. ـ والحال أن هذا النوع من الاشمئزاز الذي لايكفّ العاشق يحس به تجاه المظاهر الدنيئة للطبيعة، كان كل عابد للإله و «جبروته» يحس به فيما مضى: في كل ماكان يقوله الفلكيون، الجغرافيون، الفزيائيون، الأطباء عن الطبيعة، كان يرى فيه تدخلا في قدرته الخاصة العزيزة، فهو اعتداء إذن ـ وفضلا عن ذلك هو عدم حياء من طرف المعتدي! لقد كانت «قوانين الطبيعة» أيضا مخالفة للأخلاق بالنسبة له مثلما هي تجديف: جوهريا، كان بودّه أن يُرجع كلَّ إوالية لأفعال أخلاقية إرادية أو اعتباطية: وبما أنه لم يكن باستطاعة أحد أن يؤدي له هذه الخدمة، فقد اكتتم لنفسه، قدرما استطاع، الطبيعة وإواليتها وعاش كأنما في حلم. آه لقد كان هؤلاء الناس الغابرون يمهرون في الحلم ولهذا لم يكونوا بحاجة إلى أن يناموا! ـ ونحن أناس اليوم، مازلنا نمهر في ذلك أكثر بكثير رغما عن استعدادنا للسّهر ولوضح النهار»! يكفي أن نعشق، أن نكرهٰ، أن نشتهي، وببساطةٍ أن نحس، لكي يوحيٰ إلينا الطيف وقوة الخيال. وها نحن نرتقي بتيقّظ، المسالك الأكثر خطورة، غير آبهين بكلِ مخاطرة، على السطوح على الأجراف وعلى أبراج التخليّل دون أدنىٰ دوار، للتسلّق خُلقنا ـ نحن متسرنمو النهار! نحن الفنانون! نحن كاتمو الطبيعة! نحن غريبو الأطوار والباحثون عن الإله! نحن المسافرون إلى صمت الموت، المسافرون الجلد على أعالي لا نحسبها كذلك، نعتبرها سهولنا، [نعتبرها] يقينياتنا.

60 النساء وتأثيرهن البعيد

أما تـزال لي أذنان؟ ألست بعـد سوى أذن ولاشيء عـدا ذلك؟ في وسط اضطرام ارتداد الامـواج حيث تتدفق ردّة اللهب المزبـدة حتى قدميّ ــ ليس [اللهب] سوى عـويل، وعيـد [و] زعيق يُهاجمني، بينهارجـة الأرض القـديمة، في كهفهـا الأكثـر عمقا، تغني بـلارنين لحنَها كثورٍ خـائرٍ: أثناء ذلك، بقدمهـا الرّاجّ، تعيّن نغما كما يهتز قلبُ شياطينِ هـذه الصخور المفتّتة. حينئذ عند أبواب هـذه المتاهة الجهنميّة، كأنه تدفق من العدم، بعيد بباعَيْن فقط، يظهر مركبٌ شراعي عظيم يعبر بانسياب شبحيّ صامت. أيها الجمال الشبحيّ! أي سحـر لا يمارسه عليّ؟ مـاذا؟ أينقل هذا الزورقُ الصغير راحةَ العالم الصّموت؟أتـرسو غبطتي الخاصة هناك، في ذلك المكان الهادىء؛ أنايَ أكثر حظًّا، [و]أناي الثانية نفسها مخلّدة؟ لم أمت بعد، على أني الآن لست حيا؟ منـزلقا وعـائما، أكون وسيطا، شبحيـا، صامتـا ورائيا؟ شبيهـا بالمركب الـذي يحوم بأشرعته البيضـاء فـوق البحر، كفـراشـة عمـلاقة؟ آه، أن نحلّق فـوق الكائنـات كلها! هـو ذاك، هو ذاك مـايلزم! أتكـون هذه الضجـة إذن قد صيّرتني غريب الأطـوار؟ إن كل هيجان يـرفعنا لتخيّل الغبطـة في السكون والمكـان النائي. حينما يجد الإنسان، الذي كـان مرتعا لضجّته الخاصة، نفسـه في وسط ارتداد أمواج «انبجاسـات» ـه ومقـاصده: سيرىٰ على الارجح حينئـذ كائنات سـاحرة وصـامتة تنساب أمامـه أيضا، حيث يتمنى الغبطة والعزلة ـ وهـذه الكائنات، هي ***النساء***. يودّ أن يعتقـد بأن هناك، بـالقرب من النسـاء، كانت ستقطن أحسـن أناه: أن في هذه الأمـاكن الساكنة كـانت ضجّته الأعنف ستهدأ كما في سكـون الموت، وستغْذُو الحيـاةُ حلم الحيـاةِ بـالـذات. لكن! لكن! أيها المتحمّس النبيل، فحتى على أجمل المراكب ليس هنـاك ضجـة وضـوضـاء أقـل، ولـلأسف [هنـاك] مقـدار كـذا من الضوضاء الرديئة! إن أقوى سحر النسـاء، هو أن نعرّف به إلى مسافة بعيدة، وحتى نتكلم لغة الفلاسفة، إنه actio in distans (*): لكن لبلوغ ذلك يجب أولا وقبل كل شيء ـ بعضُ المسافة!

61 في شرف الصداقة

إن عاطفة الصداقة كانت تقوم في القـديم مقام العاطفة السامية، بل أسمى من الأنفـة الأكثر مبـاهـاة لدى الحكماء وأولئك الـذين يكتفـون بأنفسهم، كـالعاطفـة

(*) الفعل عن بعد.

الفريـدة تقريبا، بل الأكثـر قداسة، التـي تمّ ربطها بالمبـاهاة : هنا مـا يفسّر جيدا حكاية ملك مقـدونيا ذاك الذي بعد أن أهـدى هبة لأحد فلاسفـة أثينا، حَدَثَ أن أرجعها إليه هـذا الأخير، الذي كان يفتخر باحتقاره للنـاس. «كيف؟ ـ يقول الملك ـلاصـديق له قط»؟ كـان يـريد أن يقـول بذلك مـا معنـاه : «أمجّد مباهـاة الحكيم والمستقل هذه، كنت سأمجّد انسانيتَهُ أكثر، لـو كان الصديق فيه قد أحسن التغلب على المباهـاة. إن الفيلسوف قـد فقد اعتبـاره في عينيّ، من إثباتـه أنه يجهـل إحدى هاتين العاطفتين الرفيعتين ـ وبالخصوص الأكثر سموا [منهما]».

62 عـــشــــــق

العشق يغفر حتى الطمع في المعشوق.

63 المرأة في الموسيقىٰ

كيف يحصل أن تقتـاد الـرياحُ السـاخنـة والممطرة معهـا أيضـا الحالـةَ الروحيـة الموسيقيـة والطبعَ الخلاّق للّحن؟ ألايمكن أن تكـون هي الريـاحُ عينهـا التي تفعم الكنائس والتي توحي بأفكار غرامية للنساء؟

64 شكـــو كـــيّون

أخشى ألاّ تكون النساء المسنّات شكوكيات قط في الطيّة الأكثر سريّة من قلوبهن ككل الرجال : فهن يؤمنّ بسطحية الوجود كما بجوهره الحقيقي، وكل فضيلة، كل عمق النفس ليسا في نظرهن سوى إخفـاء لهذه الـ «حقيقة»، إخفاء Pudendum (*) مرغوبٍ أكثر ـ [المسألة] مسألة لياقة إذن، لا أكثر!

65 إخــــــلاص

هناك نسـاء نبيلات ذوات هـزالة فكـرية معيَّنـة، اللواتي لايعـرفن كيف يعبرّن بشكل مخالف عن إخلاصهن الأكثـر عمقا، إلاّ بعرض عفّتهن وحشمتهن : أسمىٰ مـا يملكن. وغالبـا ما يكـون هذا العطـاء مقبولا، دون دعـوة الممنوح بحـرارة مثلما تفترضه المانحات ـ أمر محزن جدا!

(*) محتشم

66 قوة الضعفاء

كل النساء يظهـرن أنفسهن في غايـة الرقة في تعظيم نقـائصهنّ ، بل ولبيبتن في اختراعها ليظهـرن هشّات مثل التزيينات التـي مجرد ذرة عفر تفسدها : فـوجودهن يقتضي أن يُشعر الرجل بثقله الخاص و إرهاق إحسـاسه بذلك . هكذا يدافعن عن أنفسهن ضد «حق القوي على الضعيف» .

67 أن يتظاهر [المرء] بطبيعته الخاصة

إنها تحبه من الآن فصاعدا ، ومنذ ذلك الحين وهي تنظر أمامها بثقة بقرة ، غبية : واحسرتاه! كانت قد فتنته بظاهر مزاج متقلب ومتعذّر ضبطه تماما ، حتى كان بدوره مشبعا زيادة باعتدال مزاجه الخاص! أمـا كان عليها من الأحسن أن تتظاهر بطبعها الخاص؟ أليس ذاك ما ينصحها به ـ الحب؟ !vivatcomoedia (*).

68 إرادة وقبول

جيء بشباب عنـد حكيم : «هذا واحد ـ قيل لـه ـ من الذين أُفْسِـدُوا من طرف النسـاء!» أخـذ الحكيم يبتسم وهـو يهز رأسه : «إن الـرجـال هم الـذين يفسـدون النساء ، وكل ما يغيب عن النساء يجب أن يكفّـر عنه وأن يُصْلَح من طرف الرجال ـ ذلك أن الـرجل يشكل صورة عن المرأة ، والمرأة تظهـر طبقـا لهذه الصورة . » ـــ أنت مفـرط اللّطافـة مع النسـاء ، قـال أحد الحاضرين ، إنك لاتعـرفهن قط! » فأجـاب الحكيم : «إن طبيعة الرجل إرادة ، [بينما] طبيعة المرأة قبول ـ هذا ناموس الأجناس ـ قاس على النساء»! كل الكـائنات البشرية بريئة من وجودهـا ، والنساء كذلك لكن من درجة ثـانية : من إذن يمكنه أن يملك كفـاية من المسح والرأفـة على النساء! » ـ «المسح! الرأفة! ماذا تقول؟ صاح آخر من بين الجمع : الأمر يتعلق بأن نربي النساء أفضل!» «الأمر يتعلق بأن نـربي الرجال أفضل» ، قال الحكيم ، وأشـار على الشاب بأن يتبعه . ـ لكن الشاب لم يتبعه قط .

69 استعداد للانتقام

أن لايستطيع أحدهم أن يدافع عن نفسه وبالتـالي لايريد أن يفعل ذلك إطلاقا ، هو ذا في نظـرنا مـا لن يكون بالنسبـة إليه سبب خجل قط : غير أننـا قلّما نقدّر من

(*) لتحيَ الكوميديا !

ليست له لاموهبة ولاإرادة الانتقام ــ ليس المهم أن يتعلق الأمر برجل أو بامرأة. هل تستطيع المرأة أن تأخذنا (أو كما نقول، أن «تفتن» نا) من حيث لاندري، عند اللزوم، هل تعرف كيف تستعمل الخنجر (أي نوع من الخناجر) ضدنا؟ أو ضد نفسها هي : ذاك ما يكوّن في حالات معينة انتقاما أكثر حساسية (الانتقام الصيني).

70 المهيمنات على السادة

أحيانا في المسرح بمجرد ما نسمع صوتا ألتو (*) عميقا وقويا، نخال أن الستار يرفع على إمكانيات لانتخيلها عادة : [و] فجأة نظن أنه في مكان ما من العالم يمكن أن توجد نساء لهنّ أرواح سامية، بطولية، ملكية، صالحة ومستعدة للقاءات، لإقدام ولتضحيات عظيمة، ذلك أن أحسن ما في الرجل يبدو وكأنه أصبح فيهن، من الجانب الآخر للاختلاف الجنسي، المثلَ الأعلى مجسّدا. صحيح أنه ليس من قصد المسرح أن يقدم فكرة مماثلة عن المرأة بهذا النوع من الأصوات : إجمالا، عليهن أن يصوّرن العاشق الرجولي المثالي، كروميو (Roméo)، غير أن الأمر يبدو لي من خلال تجربتي، أن المسرح والموسيقى، اللذين يتوخيان من هذا النوع من الأصوات تأثيرات شبيهة، يرتكبان عادة خطأ ما. إننا لانصدّق عشاقا مماثلين : [ذلك] أن لهذه الأصوات دائما تفرّدا في الطابع الأمومي الخاص أيضا بربّة البيت، سيما وأن *الـ*حب يكون في أدائهن بإكراه كبير.

71 عن العفة النسائية

ثمة شيء من المدهش والفظيع تماما في تربية النساء الكريمات الشمائل، وربما ليس هناك شيء أشد تناقضا منه. فكل الناس متفقون على تربيتهنّ في أكبر جهل ممكن in erosis (**)، لترسيخ حشمة عميقة في نفوسهن من هذه الاسئلة في نفس الوقت [الذي نرسخ فيه] نفاذ صبر عنيف وشيء يشبه الرغبة في الفرار. باختصار، *هنا* فقط يبدو أن كل عفة النساء قد استُخْدِمَت : ألاّ نوفّر عليهن ذلك أكثر مما ينبغي! غير أننا نحرص على أن يبقين غير واعيات في هذا الصدد حتى أعمق قلوبهن : ينبغي ألاّ تكون لهن عيون، آذان، كلام، أفكار لهذا الـ «أذىٰ» الذي سيكون صالحا لهنّ : [ذلك] أن مجرد المعرفة [به] هي الشرّعينه. ومنذ ذلك الحين

(*) Alto : أخفض الأصوات في غناء النساء (المنهل).

(**) بالإيروسي.

أُلقيت كما بصعقة حب مريعة في الواقع واعتقاد الواقع، في لحظة الزواج ــ وفضلا عن ذلك بالذي يتعلّقن به ويقدّرنه أكثر، ـ الوسيلة لاكتشاف التناقض الفظيع بين الحب و الحشمة، للإحساس في نفس الوقت بالنشوة، بالتبرع بالذات، بالواجب، بالشفقة وبالرعب الناتج عن التعايش اللامعقول للإله والحيوان ولاأعرف أي شيء آخر أيضا! ــ هل سبق أن دبّرنا عقدة أبهْم في النفس من هاته؟ حتى الفضول الشغوف لن يكون كافيا لأحكم عارف بالقلب البشري لكي يحزر الوسيلة التي ستهتدي بها هذه المرأة أو تلك إلى حلّ لغز مماثل، و إلى لغز حلّ مماثل، وأية ريب فظيعة ومجسّية (*) ستفعل في النفس البئيسة التي شُقَّتْ عن نفسها، إلى درجة أن ثمة ترسخ قصارى فلسفة وشكوكية المرأة! ثم، إنه نفس الصمت العميق الشبيه بالآنف: هناك صمت غالبا، طريقةٌ للانكفاء على الذات. ـ إن النساء الصغيرات السن يجهدن أنفسهن ليظهرن سطحيات وطائشات: وأشدّهن نباهة يتظاهرن بنوع من الوقاحة. ــ إن النساء يختبرن أزواجهن بسهولة كعلامة استفهام عن حياتهم الزوجية وابنائهم كتبرير أو توبة ـ إنهن بحاجة إلى أطفال، ويرغبن فيهم بمعنى مخالف تماما لما يمكن للرجل أن يرغب فيهم. باختصار لانستطيع أن نكون أكثر حنوا تجاه النساء!

72 الأمهـــــات

إن الحيوانات تتصور الإناث بخلاف [مايتصوره] الرجال [عليهن]: الأنثى بالنسبة إليها، قيمتها في طبيعتها الإنتاجية. لاوجود عندها [أي الحيوانات] لحبّ أبويّ، هناك شيء يشبه الحب الذي نكنّه لأبناء العشيقة، والطريقة التي نتعوّد عليها في ذلك. تجد الإناث في صغارهن إشباعا لرغبتهنّ في السيطرة، [يجدن فيهم] ملكية ما، انشغالا ما، شيئا واضحا بالنسبة لهنّ تماما، يمكن أن نثرثر معه: كل هذا يكوّن الحب الأمومي ـ مثل حب الفنان لأثره. إن الحَمْل قد صيّر النساء حنونات أكثر، صبورات أكثر، هلوعات أكثر، لقد أعدّهنّ جيدا للإذعان، وكذلك الحمل الفكري ينمّي طبع محبّي التأمّل، حليفي الطبع الأمومي: أولئك أمهات ذكورية. و [عند] الحيوانات يعرف الجنس المذكر بالجنس اللطيف.

(*) Tentacullaire و Tentacule: زائدة لامفصلية قابلة الانغماط والانكماش، توجد عند بعض الحيوانات تمكنها من القبض على فريستها أو التماس طريقها.

73 قساوة ظاهرة

رأى قدّيس رجلا قاصدا إياه وهو يحمل وليدا : «ماذا عساي أن أفعل بهذا الطفل، سأل هذا الأخير، فهو مُعْدِم، مخفِق، ولم يعش كفايةً ليموت». ـ «اقتله»، صاح القديس بصوت عنيف، «اقتله وخذهُ ثلاثة أيام وثلاث ليال بين ذراعيك، حتى تتذكر ذلك : بهذا لن تلدنّ طفلا أبدا إذا لم يكن الوقت ملائما». عندما سمع الرجل هذه الكلمات، رحل خائبا : ولام كثير [من الناس] القديس لكونه نصح بالإقدام على فعل قاس، كقتل الطفل. «لكن أليس أكثر قساوة أن ندعه يعيش؟» قال القديس.

74 النساء غير المحظوظات

إن الحظ لايسعف دائما هاته النساء المسكينات اللواتي يبْدين قلقات وقليلات الحظوة، ويتكلّمن بإفراط في حظرة الذي يعشقنه : ذلك أن رقة خفية وباردة معينة هي أكثر مايفتن الرجال بالتأكيد.

75 الجنس الثالث

«أن يكون الرجل قصيرا فتلك مفارقة، ولكنه رجل بعد كل حساب ـ بالمقابل، إن النساء القصيرات، مقارنةً بالنساء الطويلات القامة، يبدين لي من جنس آخر» كان يقول معلم الرقص العجوز. المرأة القصيرة ليست أبدا جميلة ـ قال الشيخ أرسطو.

76 أعظم مخاطرة

لَوْ لم يكن هناك على الدوام جماعة من الرجال الذين كانت تربية عقولهم ــ «عقليت» هم ـ تكوّن بالنسبة إليهم موضوع فخرهم، واجبهم، فضيلتهم، والذين كانوا، باعتبارهم محبّي «العقل السليم المشترك»، يعتبرون أنفسهم مهانين ومذلّين من طرف كل جنون وكل هذيان فكري، لكانت البشرية قد انقرضت من زمن بعيد! ففوقها يحلق دائما الجنون القابل للإنفجار، كأسوأ خطر ــ أي انفجار التعسف في الاحساس، في البصر، في السمع، في متعة الفوضى العقلية، في لذة اللامعنىٰ، في الجهل البشري. ليست الحقيقة ولا اليقين هما ما يكوّن الرأي المعاكس لعالم الجنون، بل العمومية والضرورة الإجماعيّة لرأي ما، باختصار : اللاّتعسفي في الرأي. وقد

كان أكبر عمل للناس حتى الآن يقتضي الحصول على الموافقة المتبادلة حول عدد كبير من الأشياء، وإلزام النفس *بقانون الإجماع* ـ سواء كانت هذه الأشياء خاطئة أو صحيحة. ذلك هو النظام العقلي الذي حافظ على البشرية ـ غير أن الإغراءات المعاكسة ما تزال من القوة بحيث، جوهريا، لانستطيع قط أن نتحدث بثقة عن مستقبل البشرية. إن الأشياء تتبدل وتتحول باستمرار، وباستمرار تتمرّد العقول الفذة بالضبط ضد هذا الارتباط الإجماعي ـ [العقول] المستقصية للحقيقة في المقدمة! إن هذا الرأي، باعتباره رأي الناس جميعا، يوحي دوما بالتقزز وبرغبات غير محقّقة جديدة لعقولٍ أكثر رهافة، ومسبقا هذا الإيقاع البطيء الذي يتطلبه هذا الرأي من كل التطورات المرهفة العقل، تقليد السلحفاة هذا، الذي أُقِرّ هنا معيارا، يسمح للفنانين والشعراء بأن يظهروا كمُنشَقّين: هي ذي الأذهان المتلهفة التي ينفجر فيها ميل حقيقي للجنون، ذلك أن للجنون إيقاعا مرحا بهذا المقدار! يقتضي الأمر إذن مثقفين باسلين ـ آهٍ، أ حرص على أن أقول ذلك دون أدنى لبس ـ تلزم *الحماقة الشجاعة*، ـ يلزم الأمر رؤساء جوق هادئي الأعصاب قادرين على تعيين نغم بلادة الذهن، حتى يظل الشعب المؤمن بالرأي الكلي موحّدا ومتابعا رقصته: إنها ضرورة من الطراز الأول التي تأمر وتفرض ذلك. [أما] *نحن فالاستثناء والمخاطرة* ـ نحن بحاجة للدفاع عن أنفسنا باستمرار! ـ والحالة هذه، هناك بالتأكيد شيء يقال لصالح الاستثناء: *المهم أن لا يمسي القاعدة أبدا*.

77 راحة الضمير البهيمي

إن المبتذل في كل ما يعجب في أوربا الجنوبية ـ سواء تعلق الأمر بالأوبرا الايطالية (روسيني وبلّيني مثلا) أو بالرواية الشطارية الاسبانية (التي نعثر عليها في التنكر الفرنسي لجيل بْلا (Gil Blas) ـ قلّما يفلت منّي، لكنه لايبهرني أكثر مثل المبتذل الذي نصادفه خلال نزهة عبر بومبي (Pompei) شأن ما [نصادفه] في مطالعة أي كتاب من العصور القديمة: ما سبب ذلك؟ الأمر يعود إلى أن الخجل هنا يتغيّب وكل ابتذال ينجلي بيقين وتأكيد كأي شيء نبيل، محبوب ومشبوب العاطفة في الموسيقى والرواية من نفس الجنس: «إن للحيوان نفس الحقوق مثل الإنسان: هكذا يمكنه أن يتحرك بحرية مثلك، ياندّي العزيز! أنت الذي، رغم كل شيء، لستَ نفسُك في ذلك دون هذا الحيوان!» ـ هي ذي أخلاق وخصوصية البشر الجنوبي. فللذوق القبيح حقه مثل الذوق السليم، وفيما يتعلق بهذا الأخير فإن له

بالـذات امتيازا على قدرمـا يعبر عن الضرورة الكبيرة، عن الارتياح المؤكـد، ويكوّن تقريبـا لغة إجماعية، قنـاعا وموقفـا واضحين تماما : بالمقـابل فإن الذوق السليم، بحكم أن لـه أنـاقته، ينمّ دائما عن تصنّـع، عن ارتجال، عن غموض مـن ناحيـة إدراكيّته ـ لن ولم يكن أبدا شعبيا. لاشيء شعبي إلا *القناع*! فليذهب إذن كل هذا التنكّر ليكدّ في الالحان والأوزان، في سقطـات ودعابات إيقاع هـذه الأوبرات! ماذا يمكن أن نفهم من ذلك، إذا كنا لاندرك شيئـا في إرادة وراحة ضمير التقنّع! هو ذا استحمام وتسليـة الحس العتيق : ـــ وربما كـان ذلك الاستحمام في آسيـا وأوربـا وإفـريقيـا ضروريـا لـلأفذاذ والنبـلاء أكثـر من العـاميّين. غير أن شكـلا مبتـذلا يصدمني بطريقة لاتوصـف في الأعمال [الفنية] الشمالية، في الموسيقى الألمانية مثلا. يمتـزج معهـا الخجل، وينحطّ من قدر الفنـان في عينيـه هـو و لم يتمكّن حتى من الامتنـاع عن الاستحياء من ذلك : نشعـر معـه بالخجل، ونهان إذْ نحس أن الأمـر يعود إلينا عندما يعتقد الفنان أنه مجبول على أن يُذَلّ.

78 أسباب كوننا شاكرين

إنهم الفنانـون أولا، وبخاصة [الفنانـون] المسرحيون، الذين منحوا النـاس أعينا وآذانا للنظر والسماع بشيء من الحبور إلى ما يكونه كل واحد في حد ذاته، مايحس به كل واحـد، مايـريده كل واحـد : إنهم هم الـذين أولا علّمونـا كيف نحترم البطل المتخفّي في كل واحـد من هؤلاء الـرجال العـاديين، هم الذين علمـونا فن اعتبـارّ أنفسنا كأبطال، من بعيد، مغيّري الهيأة تقريبا ـ [علمونا] فن «إخراج» أنفسنا نحن بأمّ أعيننـا. هكذا أتيحت لنـا بوسائلنـا الخاصة، إمكـانية صرف النظـر عن بعض تفاصيلنـا الحقيرة! دون الفن ذاك لن نكون عـدا «صورة مكبّرة» ولن نفتأ نحيـا كلية تحت زاوية هذه البصرية التي تكبّر ببشاعة ما هو مباشر ومتداول وتظهره كحقيقة في حد ذاتـه. ربما كان لها استحقـاق مماثل، هـذه العقيدة التي تأمـر بتفحّص الخطأ مجهريّا عند كل إنسان، والتي تجعل من المذنب مجرما أبديا كبيرا : وبرسم أبعاد أزلية حوله، فإنها تلقّنُ الناس كيف يعتبرون أنفسهم من بعيد، كشيء ماضٍ وحاصل.

79 روعة العيــــب

أرى هنا شاعرا يمارس، كالعديد من الرجال، أكبر فتنة بعيوبه، أكثر من كل ما يتكوّن ويتهيج لـديه، أجل إنه يحُوزُ على تفوقه ومجده مـن قصوره الأخير أكثر بكثير من طاقته الفيّاضة. فنتاجه الأدبي لايعبّر أبداً كليّةً عما كان يريد إجمالا أن يعبر عنه،

عما كان يجب أن نبصر : يبدو أنه كان ذا شعور مسبق برؤية ما، أبدا هـذه الرؤية نفسها : بل إن ظمأ هائلا لهذه الرؤية قد رسخ في نفسه، ومنه يستمد بلاغته التي لاتقلّ هولا في التوق والشراهة. وبها [أي ببلاغته] يسمو بالذي يستمع إليه إلى ماوراء أثره الفني وسائر الـ «آثار»، ويمنحه أجنحة ليبلغ علوا لم يبلغه السامعون أبدا : وإذ يمسون هم أنفسهم هكذا شعراء ورائين، فإنهم ينذرون للكاتب من غبطتهم إعجابا كما لو هداهم إلى رؤية حقائقه الأخيرة الأكثر قداسة، وكأنه أبصر وكشف بالفعل عن رؤيته. إن مجده يستفيد من جرّاء أنه لم ينل في الحقيقة بغيته.

80 فـن وطبيعـة

كان الإغريق (أو الأثينيون على الأقل) يهوون سماع الكلام الفصيح : بل وكان لديهم نزوع طبيعيٌ شرهٌ يميزهم أكثر من أي شيء آخر عن غير الإغريق. هكذا كانوا يطلبون حتى من الانفعال أن يعبّر جيدا على الخشبة، ثم يستسلمون للتهدهد بتلذذ من طرف إيقاع الأبيات الدرامية، المتكلِّف : في الطبيعة يبدو الانفعال شديد الشحّ بالكلام، شديدَ الصمت والتضايق! وحتى حين يتمكن من التعبير عن نفسه فبطريقة جد مرتبكة ولامعقولة وجد مخجلة في نظره! ويحدث، والحالة هذه أننا قد تعوّدنا، بفضل الاغريق، على طبيعة المسرح ـ المضادة، تعوّدنا، بفضل الايطاليين، على هذه الطبيعة المضادة التي هي الانفعال *العذب* الذي نتحمله، ونتحمله عن طيب خاطر. لقد تولّدت فينا رغبة لن نستطيع تلبيتها في الواقع : أن نسمع أناسا، في أشد الحالات جسامة، يتكلمون بفصاحة وجلاء، إنه لنوع من النشوة لنا حين يبدو البطل التراجيدي ما يزال قادرا على اختيار الكلمات، على إيجاد أسباب، على اتخاذ مواقف بليغة، وعلى أن يبدي، على العموم، ذكاء جليا في اللحظة التي تقترب فيهاالحياة من الهاوية ويفقد فيها الانسان الواقعي رشدَه واللغةَ النبيلةَ بكل تأكيد. قد يكون هذا النوع من *الانزياح عن الطبيعة* ألذ غذاء لأنفة الانسان : بفضله، على كل حال، يحبُّ الفنَّ باعتباره تعبيرا عن طبيعة مضادة، عن تعاقدٍ ساميين وبطوليين. ونصيبُ إذْ نأخذ على شاعر درامي عدم تحويل كل مادّته إلى فكر وكلمات، وادّخاره باستمرار لبقية من *الصمت* : ـ مثلما يخيب أملنا في ناظم التمثيليات الغنائية الذي، لكي يترجم قوة الانفعال، لايعرف القيام بأفضل من تعويض اللحن بتمتمات وصيحات ذات تأثير «طبيعي». والحالة أن هناك بالضبط تجب مناقضة الطبيعة! هناك بالضبط يجب أن يتخلّى الجمال المبتذل لجمال أسمى. يذهب الإغريق في هذا المنحى بعيدا ـ بعيدا جدا! فكما يشيّدون المسرح أضيق ما

يمكن، كما يمتنعون عن كل أثر ينتج عن خلفيات في العمق، كما يجعلون لعبة التقليد وسهولة الحركات مستحيلتين على الممثل ويحوّلونه إلى قناع مجمّد في موقفه الاحتفالي كما في قسماته، كذلك حرموا الانفعال من عمق خلفيته وأملو عليه، بالمقابل، قانون الخطاب الجميل، وبصفة عامة لقد اتخذوا كل التدابير ليقاوموا الأثر الأولي للصور التي يحتمل أن تثير الخوف والشفقة: ***ذلك أنهم لم يكونوا يسعون اطلاقا لا الى الخوف ولا إلى الشفقة*** ـ الشرف، بلاريب، الشرف الأسمى لأرسطو! لكنه حين تكلم عن الغاية الأخيرة للمأساة الاغريقية لم يصب بكل تأكيد، [بل كان] بعيدا عن ذلك! لنتأمل التراجيديين الإغريق، بهذا الخصوص، وما يثير حماسهم ومهارتهم ومنافستهم أكثر ـ ليست نية زعزعة المتفرجين بالانفعالات، بكل تأكيد! لقد كان الأثينيّ يذهب إلى المسرح ***ليسمع خطابات مليحة***. كانت الخطابات المليحة هي ما يشغل سوفوكليس! ـ لتغفروا لي هاته الهرطقة! ـ والأمر على خلاف ذلك في ***الأوبرا الجادة***: كل البارعين فيها يتمسكون بمنعنا من فهم شخصياتهم. لتساعد المستمعَ الشاردَ الذهن كلمةٌ استوعبها في الهواء: على العموم، يجب أن تتوضح الحالة من تلقاء نفسها: ـ لايهم نوع الخطاب! ـ تلك كانت أفكارهم جميعا، وكذلك رسموا دعاباتهم بالكلمات. ربما نقصتهم الجرأة ليعبروا عن ازدرائهم الأخير للكلام: لو كان لروسيني(ROSSINI) قليل من الوقاحة لما غنّى سوى: La- La- La- La من الأول إلى الآخر ـ الشيء الذي سيكون كله صوابا، مع ذلك! الواقع أن شخصيات الأوبرا لاينبغي أن تُصَدَّق «بالكلمة» لكن بالنبرة! ثمة يكمن الفرق، ثمة تكمن ***الطبيعة المضادة*** الجميلة التي من أجلها نذهب إلى الأوبرا! حتى recitativo secco (*) لاينبغي أن يسمع في العمق على أنه نص وكلام: هذا النوع من نصف الموسيقى مخصص بالأحرى لإعطاء شيء من الراحة للأذن الموسيقية (راحة ***اللحن*** باعتباره أسمىٰ متعة لهذا الفن والأكثر إرهاقا كذلك!) ـ بل لشيء آخر على التّو: لخلق نفاذ صبرٍ متزايدٍ، نفورٍ متزايدٍ، اشتهاءٍ جديد لموسيقى كاملة، للحنٍ. ماذا سيكون فن ريشارفاغنر (R. Wagner) إذا نظرنا إليه من وجهة النظر هذه؟ ربما يكون بخلاف ذلك؟ غالبا ماكان لديّ الانطباع بأنه تجب معرفة كلمات و موسيقى أعماله عن ظهر قلب قبل عرضها: هذا ـ كما كان يبدولي ـ تحت طائلة ***عدم سماع*** لاالكلمات ولا حتى الموسيقى!.

(*) الإنشاد، المجزأ.

81 الـذوق الهلّيـني

ـ «ما الجميل في هذا؟» سأل أحد المسّاحين عند نهاية عرض *إيفيجيني* (Iphigenie)، ـ «إن هذا لايبرهن على أي شيء إطلاقا!» هل كان الإغريق في منأىً عن هذا الذوق؟ لدى سوفوكليس على الأقل، «كل شيء مبرهن عليه».

82 الـ«عقـل» ليس إغريقيـا

الإغريـق منطقيون وبسطاء في مجمل طـريقة تفكيرهم بشكل لايـوصف : [و] لم يشمئزوا أبدا من ذلك، على الأقل خلال مرحلة ازدهارهم، عكس الفرنسيين الذين هم مشمئـزون أغلب الأحيـان : [إذ] لايقـوم هـؤلاء طـوعـا إلاّ بقفـزة صغيرة نحـو النقيض، ولايتحمّلون روح المنطق إلاّ حين يكشف *اجتماعيته* ونفيه الاجتماعي لذاته بعدد من القفزات الصغيرة نحو النقيض. يبدو لهم المنطق كالخبز والماء لاغنى عنه، وكهاتين المادتين لاغنى عنـه باعتباره نوعـا من قوت السجين بمجرد مـا يتعلق الأمر بابتلاعه وحده، وفي العزلة. في المجتمع المزدهر لايجب على المرء أن يسعىٰ لأن يكون هـو وحده من لـه الحق بشكل مطلق كما يـريد ذلك كـل منطق خالص : من هنـا مصدر الكمية القليلـة من البلادة في كل *عقل* فرنسي. ـ إن اجتماعيـة الإغريق أبعد من أن تكون متطورة كما هي عليـه أو كانت عليه اجتماعية الفـرنسيين : من هنا قلة العقل لدى رجالهم الأكثر روحانية، من هنا قلـة الفكاهة حتى لدى مزّاحيهم ـ من هنا ـ مع الأسف! قلّما تعطى مصداقية لجُمَلي وكم من جمل أخرى من نفس النوع في خاطري! ـ Est res magna tacere (*) ـ قالَ مارسيال مع كل الثرثارين.

83 التــراجـم

يمكننا أن نقدر درجـة الفكر التاريخي الذي يملكه عصر ما من خـلال الطريقة التي بها يترجمُ ويحاول أن يستوعب عصورَ وكتبَ الماضي. لقـد تملّك الفرنسيون من كورني (corneille) حتى فرنسيي الثورة، الحضـارة الرومانية القديمـة بطريقة لانملك نحن اليـوم الشجاعـة [للقيـام بها] ـ بفضل فكـرنـا التاريخي السـامي. وفيما يخص الحضارة الرومانيـة القديمة ذاتها : بأية قسوة وبأية سـذاجة في ذات الوقت وضعت يدها على كل ماكـان ممتازا وساميا في الحضارة اليونانية القديمـة! كم عرف الرومان ترجمتهـا في الراهن الرومـاني! كم مسحوا طوعـا ودون تدقيق غبار جنـاح اللحظة :

(*) إن الأشياء النبيلة لاتتحدث.

هذه الفراشـة! هكذا كان هوارس يترجم مـن هنا وهناك Alcée أو Alchilochus، هكذا Properce يترجم كاليماك و Philète (شاعـر يماثل في القيمة ثيوقـريط، إذا ما *سمحنا* لأنفسنا بإصدار حكم ما) : ما همّهم أن يكـون المبدع المشار إليه قد عاش هذا أو ذاك وسجّل علامـات ذلك في قصيدته! ـ لكونهم شعـراء، قلّما كانوا مهيّئين لفطنة الفكر الاركيولوجي السابق للفكر التاريخي؛ لكونهم شعراء فقد كانوا يهملون التفاصيل الشخصية، الأسماء، وكل مـاكان يميز حاضرةً، ضفّةً، قرنًـا، باعتبارها الكساء والقناع، لكي يعوّضوه براهنهم الروماني. يبدو أنهم يسألوننا : «هل أخطأنا بتجديـددنا للقديم لكي نتعـرف فيه على *أنفسنا نحن*؟ بنفخ حياة في هـذا الجسم الميت؟ لأنه قـدمات إلى الأبد؛ كم هو قبيح كل مـاهو ميت!» ـ لقد كـانوا يجهلون متعة الفكـر التاريخي؛ كان الـواقع الماضي أو الغريب شاقّـا عليهم، ويثير لديهم، [أي] الرومان، الـرغبة في غزو روماني. في الحقيقة، لقـد كان [فعل] الترجمة غزوا في الماضي ـ ليس فقط لأنهم كانوا يزيحون العنصر التاريخي : كانوا يضيفون التلميح إلى الـراهن، كانـوا يحذفـون أولا اسم الشاعـر ليكتبـوا مكـانه اسمهم الخاص ـــ ليس بإحساس سرقة، لكن براحة الضمير التامة لـ L'Imperium Romanum (*).

84 في أصـل الشـعـــر

إن هواة الغـرائبي عند الانســان الذين يـدعّمون مذهب الأخـلاقيات الفطـرية يفكّرون كالتـالي : «لنفترض أننا بجّلنا النافع في كل وقت كقداسـة سامية، من أين إذن جاء الشعـر؟ ـ إيقاعيـة الكلام هذه، التـي تغمّضه عوض أن تسهّل تـواصله، والتي لم تكن، في أي مكان من الأرض، أقلّ انتشـارا ولاتكف عن الانتشار كإهـانة لكل منفعـة! إن هـذه الـلاعقـلانية الجميلـة والمتـوحشـة للشعـر لتنقضكم، أنتم النفعيون! فإرادة *التحرر* من النـافع بالضبط هـو ما سما بـالانسان، هـو ما ألهمـه الأخلاقيـات والفن!» غير أنه يجب عليّ هنـا، لمرة واحدة أن أرضي النّفعيين، فمثير للشفقة ألاّ يصيبوا إلا نادرا! في تلك الأزمنة القـديمة التي ولّدت الشعر، كنا نسعىٰ إلى منفعة كبيرة جـدا ـ حالما سمحنا بـولوج الإيقاع في الخطاب، هـذا العنف الذي يجدد نظام كل ذرّات الجملـة، الذي يطلب اختيـار الكلمات ويلوّن الأفكـار بألوان جديدة ويجعلها أكثر غموضا، أكثر غرابة، أكثر ابتعادا : لاشك أننا أذعنّا *لـمنفعة وهمية*! يتعلق الأمر، بفضل الايقـاع، بأن نرسّخ عميقا في الآلهة ودّا انسانيـا، بعد أن

(*) للامبراطورية الرومانية.

لاحظنا أن ذاكرة الانسان تحفظ بيت شعر أحسن من خطاب عفوي، مثلما كنا نقدّر أن نتكلم إلى مسافة بعيدة من مسافات أبعد بالوزن الايقاعي؛ فالصلاة الموزونة يبدو أنها تبلغ جيـدا آذان الآلهة. غير أنـه فيما مضى كنـا نبحـث عن الانتفـاع من هـذه السيادة الأولية التي يخضع لها الإنسان وهـو يستمع للموسيقىٰ، إن الإيقاع إرغام، يـولّد رغبـة في الخضوع لاتقـاوَم، في تبنّي الإتفـاق؛ ليس التعقب فحسب، ولكن الروح ذاتها التي تتقفىٰ الوزن؛ ـ ربما روح الآلهة أيضا! نستنتج. نحاول إذن أن نُكرههم بالايقاع وأن نمارس عليهم تأثيرا: نطوّق عنقهم بالشعـر كأنشوطة سحرية. ثمة أيضا بيان مذهل أكثر: وربما ساهم هذا أكثر في تكوين الشعر. عند الفيثاغوريين كان الشعـر يبدو مذهبـا فلسفيا أكثر من وسيلـة فن تربـوي: ولكن قبل أن يكون هناك فـلاسفة بـوقت طويـل، كنا نعترف للموسيقـى بميزة تحريـر الأهواء، تطهير الروح، تخفيف Ferocia animi (*) ـ وذلك بالإيقاع الموسيقي بالضبط. عندما يزول التوتر المحقّ، انسجام الروح المحقّ، لايبقى إلاّ أن *نرقص* تباعا لوزن الشاعر ـ كذلك كانت وصفة معالجة الـروح تلك. فبها هدّأ Terpandreفتنة، وسكّن Empédocle مجنونا عنيفا، وطهّر Damon شابـا أسقمه الحب. لقد كانت تطبّق معـالجة الروح ذاتها على الآلهة أيضا حينما يحتنقون ويميلـون للثأر، بإثارة هذيان وانفجـار أهوائهم قبل كل شيء، أي بجعل الإله الغاضب مجنونـا، بتبديل ثأر الاله الميّال للثأر: كل العبادات التهتّكية تريد أن تحرر La Ferocia (**) دفعة واحدة من ألوهية [ما] وأن تجعل منه تهتّكا حتى تشعر بالتالي بأنها أكثـر حرية وسكونا، وتترك الناس وشأنهم. إن melos (***) تعني، بحسب جـذر الكلمـــة، أنها وسيلـة للتسكين، ليس لأن النشيد رخيم في حد ذاته بل لأن فعله اللاحق هو أن يُسَكِّن. ليس النشيد الشعائري وحده هو ما يفترض أن الحركة الايقاعيـة، كاغتراف الماء أو التجذيف، يمارس طاقة سحرية بل كذلك النشيد المدنّس للعهـود القديمة جدا: إن النشيد يفتن الشياطين الذين نعتقد حيويتهم هنـا، يجعلهم خدومين، يطوّقهم ويحولهم أداة للناس. وكلما فعلنا [شيئا ما] كـان لنا داعٍ للغناء ـ كل حركة مقرونـة بمساعدة الأرواح: يبدو أن التعْزيم والـرقية السحرية همّا أصل للغنـاء الشعر. عندمـا استُعْمِل البيت الشعري لينطق بـوحي ـ والإغـريق يرون أن [البحـر] السداسي المقـاطع قد أُبْتُكـر في دلفيس (Delphis) ـ كـان الايقاع، هنا كذلك، يمارس إكـراها [ما]. فأن يصير المرء نبـوئيا

(*) روح العنف.
(**) العنف أو الغضب.
(***) النشيد أو القصيدة الغنائية.

بشيء معيّن يعني (حسب أصل الكلمة المحتمل في نظري للمصطلح الإغريقي) : أن يصير مقرّرا لشيء ما، نؤمن بإمكانية إخضاع المستقبل من جرّاء كسب أبولون(Apollon) لصالحنا : هو الذي يعدّ، حسب البيان القديم جدا، أكثر من إله مبصر بالمستقبل ومثلما تُلْفَظُ الصيغةُ في دقتها اللفظية والايقاعية، مثلما تطوّق المستقبل : على أن الصيغة من ابتكار أپولون الذي يمكن له أيضا، باعتباره إله الإيقاعات، أن يشدّ إلاهات القدر! ـ لكن إذا تأملنا [هذا] الكل : هل ثمة شيء ما أكثر *منفعة* من الايقاع بالنسبة للانسانية القديمة والخرافية؟ لقد كان يسمح بفعل كل شيء : يشجع بشكل سحري على العمل، يرغم إلها على التجلي، على الاقتراب، على السماع : يحرر الروح الخاصة من مغالاة معينة (من القلق، من المسّ، من الشفقة، من الحاجة إلى الانتقام)، ليست الروح الخاصة فحسب بل كذلك روح الشيطان الأكثر ضلالا، ـ دون الايقاع لم نكن شيئا، وبالايقاع، كدنا نمسي إلها. إن إحساسا عميقا مماثلا لايمكن أن يستأصل كلية، اليوم أيضا رغم المجهودات الألفية للمقاومة ضد خرافة مماثلة، يحدث أن الأكثر حكمة بيننا سيصبحنّ مجنون الايقاع، ليس لأنه *سيحس* بفكرة كأنها *أكثر صحة* بمجرد أن لها شكلا بحريا [موزونا] ولأنها تتجلى بانتفاضة إلهية! هل هناك شيء أكثر إثارة من أن نرى الفلاسفة الأكثر رصانة، الأشد صرامة عادة فيما يتعلق باليقين، يرجعون دائما في ذلك إلى *حكَم شعرية*، لمنح أفكارهم متانة وقابلية للتصديق؟ ومع ذلك أليس أكثر إلزاما على حقيقة [ما] أن يمنحها شاعر تصديقها، على أن يخالفها(لأنه كما قال هو ميروس : «الشعراء، يكذبون كثيرا».

85 الخير والجميل

الفنانون *يغيّرون* باستمرار ـ لايفعلون شيئا عدا ذلك ـ : وبخاصة كل الأوضاع، كل الأشياء المفروض فيها أن تعطي للانسان الوسيلة ليحس بأنه طيب أو عظيم، مُنْتَشٍ أو سعيد، أو سليم أو عاقل. هاته الأشياء وهاته الأوضاع *المختارة* والتي تعتبر قيمتها، فيما يخص *سعادة* الانسان، يقينية ولاجدال فيها، تشكل موضوع الفنانين : إنهم دائما يترصدونها ليكتشفوا منها [المزيد] وينقلوا منها إلى ميدان الفن. يعني أنهم دون أن يكونواهم أنفسهم مسعّري (Taxateurs) السعادة والإنسان السعيد فإنهم يسارعون دائما إلى محيط المسعّرين بحصر المعنى بأكبر فضول، بأكبر رغبة في استغلال تقديراتهم في أقرب وقت. بهذا الشكل، ولأن لهم، فضلا عن جزعهم، نَفَسَ المنادين القوي وسرعة الرسل، سيكونون دائما كذلك بين الأوائل في

تمجيد الخير *الجديد*، وغالبا ما *سيبدون* أنهم من أولئك الذين هم الأوائل في تسميته طيبا، في وسمه بأنه طيب. لكن هذا، كما قلت ليس إلاّ خطأ: لن يكونوا إلاّ أسرع من المسعّرين الحقيقيين، ولن يكونوا تكلموا إلاّ بصوت أعلى من صوتهم. ـ لكن من هم إذن هؤلاء المسعرّون الحقيقيون؟ ـ إنهم الأغنياء والعاطلون عن العمل.

86 عن المسرح

يومٌ آخر منحني احساسات قوية وسامية، ولو كان بإمكاني أن أحصل على موسيقى وعلى فنٍ مساء هذا اليوم فإني أعرف جيدا في أي نوع من الموسيقى ومن الفن *لن* أرغب، خاصة في أية موسيقى قد تزعم إسكار سامعيها، إعطاء لحظة *حماس* شديد وسام ـ لذوي الأرواح التافهة، الذين يشبهون عند المساء ليس المنتصرين [وهم] على دبّابات النصر، بل البغال التي بلّدتها دقاتُ سياط الوجود المتكررة. وفضلا عن ذلك ماذا يمكن أن يعرف مثل هؤلاء الناس عن «الحالات المعنوية السامية»!ـ لو لم تكن هناك منشطات من شأنها أن توفر النشوة ودقات السوط المثالية! ـ بهذا الشكل فإن لهم «محمّسيهم» كما أن لهم خمورهم: لكن ماذا يمثل بالنسبة إلي شرابهم ونشوتهم؟ هل المُحَمِّسُ في حاجة إلى خمر؟ إنه ينظر بدل ذلك بنوع من الاشمئزاز إلى المواد المهيّجة والى المهيّجين المطالبين هنا بالتأثير دون سبب كاف ـ يَا لَسَعْدَنَةِ مَدِّ الروح! ـ ماذا؟ نمنح أجنحة وأوهاما أبية لِلْجُلْدِ قبل أن يذهب لينام، قبل أن ينسل إلى جحره؟ نرسله إلى المسرح، نزوّد عينيه العمياوتين والمتعبتين بزجاجات مكبرة؟ هؤلاء أناس ليست حياتهم «حركة» لكن شغلا، جالسون أمام الخشبة يتأملون كائنات غريبة عنهم والحياة لديها أكثر من شغل؟ «هذا شيء مناسب، يقولون، هذا شيء مُسَلٍّ، هكذا تشاء الثقافة!» طيب! وجب الاعتقاد بأنه غالبا ما تنقضي الثقافة: ذلك أن مثل هذه الرؤيةغالبا ما تنفّرني. إن من يقدّر أنه قد شبع من المأساة ومن الملهاة من الأفضل أن يبقىٰ بعيدا عن المسرح: وإلاّ غدت العملية برّمتها ـ المسرح، الجمهور، والشاعر ضمنا ـ في نظره، وبشكل استثنائي عرضا مأساتيا وملهاتيا، بحصر المعنى، لاتهمه المسرحية المعروضة. فالذي هو من طراز فاوست (Faust) أو ما نفريد (Manfred) كان في غنى عن أمثال فاوست وأمثال مانفريد المُسْرَحَيْن ـ والحالة أنه سيجد أن مجرّد الجرأة على نقل مثل هاته الشخوص إلى الخشبة أمر جد قابل للنقاش. عرض *أكثر* الأفكار والانفعالات قوة أمام أولئك الذين هم عاجزون عن الأفكار وعن الانفعال ـ لكنهم قادرون على *الانتشاء*! واستغلال *تلك* الأفكار والانفعالات كوسيلة لتحقيق هذا الانتشاء!

وجعل المسرح والموسيقى تناولا للحشيش ومضغا للتُّنْبُل لدى الأوروبيين! . . من سيحكي لنا إذن تاريخ المخدرات! ـ إنه تقريبا تاريخ الـ «ثقافة»، الثقافة المزعومة بأنها سامية! .

87 عن غرور الفنّانين

أعتقد أن غرورا شديدا يُنسي الفنانين أفضل ما يقدرون عليه : يرمي عقلهم إلى شيء أكثر شموخا من أن يبدو مجرد نباتات صغيرة جديدة، غريبة وجميلة، قادرة على النمو في تربتهم في كمال حقيقي : إنهم لا يقدرون جودة الانتاج الأخير لبستانهم، [ولاجودة] كَرْمَتِهِم إلاّ بشكل سطحي : إن فهمهم ليس من طراز حبهم نفسه. هذا موسيقيّ يتفوق تمكّنه أكثر من تمكّن أي موسيقي آخر في إيجاد النظرات الخاصة بالأرواح المعانية، المضطهَدَة، المعذَّبَة، بل وفي منح الكلام للحيوانات الخرساء. لا أحد يماثله في تفرّد الخريف المتقدم، في نعمة متعة سامية وشاردة تماما، لا توصف؛ إنه يعْلم رجعا خاصا للغرابة الحميمة لمتصفات ليل الروح حيث تبدو العلة والمعلول منفصلين عن بعضهما في حين أنه في كل لحظة يمكن أن يولد شيء ما «من عدم» : بسعادة أكثر من أي كان يغترف من منبع النعمة الانسانية الجوفي وعلى وجه التقريب من كأس هاته النّعمة المفرغة حيث تنتهي القطرات الأكثر لذعا وحموضة بالامتزاج بالأكثر عذوبة؛ إنه يعرف تعب الروح التي تجر نفسها ولاتعرف أن تقفز أو تطير، بل ولا أن تسير : إن له نظرة الألم المكتوم الجفولة، نظرة الفهم الذي يواسي، نظرة الفراق غير المُقَرِّ به، أجل باعتباره أورفيوس كل ضيق سرّي فهو أعظم من أي كان وقد أثرى الفن، بصفة عامة، بأشياء كثيرة كانت حتى الآن تبدو غير قابلة للتعبير بل وغير جديرة بالفن، بتلك التي لم يكن في وسع الكلام سوى أن يتجنبها ـ حقائق ظلت منفلتة، الحقائق التافهة والمجهرية للروح : في الواقع، إنه سيد الحقائق التافهة. لكنه *يأبى* أن يكون كذلك! *مزاجه* يحب بدل ذلك، الجدران الكبيرة والجداريات الجريئة! يغيب عنه أن لفكره ذوقا آخر وميلا آخر ويفضل الإقامة في صمت في زوايا المنازل المنهارة : ـ متنكرا هناك، ومتنكرا من نفسه، يرسم روائعه، بحصر المعنى، التي وبكل إيجاز، لا تدوم في الغالب سوى *مدة إيقاع*، ـ هناك فقط يُظْهِرُ نفسه عظيما وكاملا، ربما هناك فقط. ـ لكنه يجهل ذلك! إنه أشد غرورا لكي يعلم ذلك.

88 الجدية من أجل الحقيقة

شيء من الجديـة من أجل الحقيقـة! كم من أشيـاء مختلفـة يعنيها النـاس بهاتـه الكلمات! والحالة أن نفـس الآراء، نفس أنواع البراهين والتحليلات التـي يشعر بها مفكـرٌ كخفّـةٍ استسلم لها، لخيبتـه، في اللحظـة كذا أو اللحظـة كـذا أو اللحظـة الفلانية، ـ هاته الآراء نفسها قد تعطي للفنان الذي يكتشفها ويعيش معها لمدة ما، شعـورا بأن أعمق جديـة من أجل الحقيقـة قد تملكتـه منذ ذلك الحين وأنـه جديـر بالإعجـاب، وإن كان فنـانا، لكـونه لمْ يُظْهر منهـا الرغبـة الأكثر جـدية في عكس الظاهـر بشكل أقل. بهاته الطـريقة يمكن أن يفشيَ أحـدٌ ما، بتفخيمـه للجديّ، الطريقـة السطحية التي لعب بها عقلـه حتى ذلك الحين في ميدان المعـرفة. ـــ أفلا يخوننـا كل شيء نتناولـه *بجسامة*؟ إنـه يبدي أين تكمن بـلادتنـا، وماتعـوزنا فيـه الكفاءة.

89 الآن وفيـما مضـى

ماجدوى كلُّ فنّ أعمالنا الفنية إذا انتهينا إلى فقـد هذا الفن السامي الذي هو فن الأعياد! فيما مضى كانت كل الأعمال الفنية تُنْصَبُ في شارع أعياد الانسانية الكبير، باعتبارهـا رموزا ومآثر تذكاريـة للحظات الغبطة الكبيرة هاته. منـذ الآن لانريد أن نستعمل الآثار الفنية إلاّ لكي نجـرّ الكائناتِ المسكينةَ المنهكـةَ والمريضةَ بعيدا عن شارع الآلام الانسانيـة لمنحها لحظة وجيزة ذات شهوة عظيمـة حيث نمنحها انتشاء وجنونا.

90 أضواء وظلال

إن الكتب وتحرير نصوصها هي أشياء مختلفة لدى شتى المفكرين: واحد قد ركزّ في كتابه الأضـواءَ التي عرف كيف يختلسها من أشعّةِ معـرفةٍ كان بريقُهـا يومض فيه والتي تمثّلَهـا [أي الأضـواء]: آخـر لايعطي إلاّ الظلال، [إلا] الصـور المعكـوسة بالرمادي والأسود لما نشأ البارحة في نفسه.

91 احـتـيـاط

نعرف أن ألفييري (Alfieri) قد كـذب كثيرا حين حكى قصة حياته لمعـاصريه المندهشين. لقد كان يكذب بموجب هـذا الاستبداد الذي مارسه على نفسه والذي

برهنتْ عليه مثلا طريقتُه في صياغة لغة خاصة وفي اضطهاد نفسه إلى أن صار شاعرا: لقد انتهى بأن وجد شكلا صارما من الأسلوب السامي الذي *طبع* به حياته وذاكرته : الشيء الذي كلّفه كثيرا من العذابات . ــ لن أولي اعتبارا أكثر لسيرة أفلاطون الذاتية : ولالسيرة روسو أو لـ Vita Nuova (*)لدانتي .

92 نثـــر وشـــعـــر

لنعتبر أن كبار أسياد النثر كانوا تقريبا دائما شعراء كذلك، سواء بشكل علني، أو في السرّ وفي «الطوية» فقط . وإننا لانكتب نثرا جيدا إلا بالـ*قياس الى الشعر!* لأن النثر ليس سوى حرب مستمرة مع الشكل الشعري : كل مفاتنه ترتكز على تجنّب الشعر ومناقضته باستمرار : كل مفهوم مجرد يريد نفسه كَعَفْرَتَةٍ مَخَالَفِةٍ للشعر، منْشَدا بنبرة ساخرة؛ كل جفاف، كل برودة ترمي الى الإلقاء بالربّة المحبوبة في يأس لطيف : غالبا ما تحدث تقاربات، تصالحات مؤقتة، متبوعة بزوغان وسخريات فظة، غالب ما يرفع الستار ويدخل نور غضٌّ في اللحظة التي تستمع فيها الربة بظلالها وألوانها الملطّفة؛ غالبا ما نختطف الكلام من شفاهها لنغنيه بلحن يجعلها تضع يديها الرقيقتين في أذنها الرقيقتين، ـ وبهذا الشكل تعرف هاته الحرب آلافا من التسليات لاعلم بها لدى اللاشعريّين، رجال النثر المزعُومون : مع ذلك فإن هؤلاء الآخرين لايكتبون ولايتحدثون إلاّ بنثر رديء : *الحرب أمّ كل الأشياء الطيبة*، كذلك الصراع أب النثر الجيد! ــ لقد وجد أربعة رجال جد متميزين وشعريين بشكل فعلي في إبّان هذا القرن توصلوا إلى التحكم في النثر الذي لم يخلق له، مع ذلك، هذا القرنُ، ـ بسبب من نقص الشعر، كما أشرت إلى ذلك. فبا ستثناء غوته Goethe الذي يطالب به القرن الذي كوّنه كابنه بحق، فإني لا أرى أحدا جديرا بأن يسمىٰ سيد النثر غير Giacomo Leopardi، Prosper Mérimée، Ralf waldo Emerson و Walter Savage Landor مؤلّف Imaginary conversations (**).

93 لكـــن لماذا تكـتـــب؟

ـ أ : لستُ من أولئك الـذين يفكرون والبراعُ في اليد، ولامن أولئك الذين يستسلمون لأفكارهم، أمام الدّواة، جالسين والنظر مثبت على الورق. أغضب وأخجل من كل فعل الكتابة : أن كتب، بالنسبة إليّ، ضرورة ـ أنفر من الحديث

(*) حياة جديدة .

(**) المحادثات المتخيّلة .

عنه حتى بالأمثال. ـ ب : فلماذا تكتب إذن؟ ـ أ : أجل ياعزيزي، لكي أقدم لك اعترافا : إلى حد الآن لم أجد بعد وسيلة أخرى للتـخلص من أفكاري. ـ ب : ولماذا تريـد أن تتخلص منها؟ ـ أ : لماذا أريد ذلـك؟ هل أقول أني أريد ذلـك؟ إنه شيء ضروري بالنسبة إلي. ـ ب : كفى ذلك!

94 نمــو بعـد الوفـــاة

لقد كانت النتـوءات الصغيرة الجريئة حول القضايا الأخـلاقية التي كان Fonte-nelle يسجلها في *حوارات الموتى* الخالدة تعتبر في عصره متناقضـات وألعاب ذات عفْرَتةٍ مشتَبهٍ فيها : حتى أرفعَ حكّام الذوق والفكر لم يكونوا يرون فيها أكثر من ذلك ـ ربما بما فيهـم فونتونيـل. والحال هذه، يحدث في الوقـت الحاضر شيء لايصدق : هـاته الأفكـار تصير حقـائق! يبررهـا العلم! اللعبـة تصبح جـدية! ونقـرأ هـذه الـ*حوارات* بإحساس يختلف عن إحسـاس فولتير وهيلفتيوس (Helvétius)، نرفع كاتبها لاإراديا إلى طبقـة أخرى من العقول *أعلى* بكثير مما كان يتخيلـه هؤلاء، ـ عن خطأ؟ . . . عن صواب؟ .

95 شــومفـــور

أن يقف عارف بـالناس وبالجماهير مثل شـومفور (Chamfort) بجانب الجماهير بالضبط ولايبقى على الحياد بسبب الارتكـاس والتخلي الفلسفي فهذا ما لن أستطيع أن أفسره سوى بـالطريقة التـالية : لقد كانت فيـه غريزة أقـوى من تعقله، لم تُشْبَعْ أبدا، [إنها] الحقـد على كل أرستقراطية بالمولـد : ربما الحقد القديم، ضغينـة أمه، الأكثر قابليـة للتفسير، الضغينة التي جعلها حبه لأمـه مقدسة لديه، غـريزة انتقام تعود إلى سنوات طفولته، التي كانت تنتظر سـاعة الانتقام لأمه. وهاهي ذي حياته وعبقـريتـه، ومع الأسفـ! وبشكل أقـوى ولاشك، الـدم الأبوي في عـروقـه، قـد أغوته[كلها] ودفعته إلى الاندماج تماما في هـاته الارستقراطية والوقوف معها على قدم المسـاواة طيلة سنـوات عديـدة! لكنه في الأخير لم يتحمل مظهـره، مظهر «الـرجل القديـم» تحت النظـام القديم : صار هـدفا لعشق التـوبة العنيف، وفي هذه التوبة ارتدى ثوب الدهماء باعتباره مِسْحًا من النوع *الـصالح له*! كان إحساسه بالذنب قد فاتـه الانتقام. لو افترضنا أن شـومفور بقي فيلسوفـا أكثر بدرجة واحـدة فإن الثورة ستكون قد فقـدت من ضارسها المأساوي وقد حُـرمت من مثيرها القاطع : ستعتبر حدثـا بليدا ولن تمارس إغراء كبيرا على العقول. لكـن حقد وانتقام شومفـور شكّلا

روح جيل بأكمله : و مرّ الرجال الشهيرون جدا من هاته المدرسة. لنتخيل أن مِرابو (Mirabeau) كان يوجه أنظاره إلى شومفور كما لو إلى أناه العليا والأكثر نضجا، التي كان ينتظر دوافعها وتحذيراتها وأحكامها، ويؤيدها، ـ ميرابو، الذي ينتمي الى طراز آخر من العظمة غير طراز الأوائل من بين كبار رجال دولة أمس واليوم. إنه لشيء نادر أن يبقى بالرغم من [وجود] مثل هذا الصديق وهذا الكفيل ـ فتلك فعلا رسائل ميرابو إلى شومفور ـــ أن يبقى هذا المخادع، من ضمن كل الاخلاقيين، غريبا عن الفرنسيين، تماما مثل ستاندال الذي ربما كانت له أقوى أذن وأقوى عين دون سائر فرنسيي هذا القرن. أيعود ذلك إلى كون هذا الأخير يحمل في عمقه الشيء الكثير من الانسان الألماني ومن الانجليزي ليظل محتملا لدى البارزيّين؟ بينما يبدو شومفور، الرجل الغني بأعماق وخلفيات الروح، المعتم، الموجع، النشيط ـ المفكر الذي كان يعتبر الضحك ضروريا كعلاج للحياة والذي كان يعتقد أنه ضاع تقريبا في اليوم الذي لم يضحك فيه، ـــ يبدو كإيطالي، كقريب لدانتي وليوباردي أكثر بكثير مما يبدو كفرنسي! إننا نعرف كلمة شومفورّ الأخيرة : «*آه ياصديقي*، قال لسيّيس (Sieyès)، *راحلٌ أنـا أخيرا عن هـذا العالم الـذي على القلب فيه إمّا أن ينكسر أو أن يُبرنَزَ*». هذه كلمات ليست بالتأكيد لفرنسي يحتضر.

96 خطيبان

من خطيبيْن إثنين لايتوصل واحد إلى التعبير عن الباعث الكلي لقضيته إلاّ إذا استسلم للإنفعال : ذاك وحده يدفع الدم والحرارة إلى دماغه ليرغم ذكاءه السامي على التجلي. أماالآخر فيحاول من هنا وهناك أن يفعل، دون شك، نفس الشيء : يحاول أن يورد قضيته ببريق وقوة وجاذبية ـ لكنه عموما، لاينجح في ذلك إلاّ بشكلٍ رديء جدا. يصبح خطابه غامضا وملتبسا، مليئا بالمبالغات والفجوات، جديراً بجعل باعث قضيته مشكوكا فيه : بحيث أنه هو نفسه يحذره، من هنا مسارعته الى النبرات الباردة والمنفّرة التي تؤدي بالمستمع الى الشك في أصالة طبيعته الانفعالية. الانفعال، لديه، يكتسح العقل كل مرة : ربما لأنه أقوى لديه منه لدى الأول لكنه يبقى في مستوى طاقته بمجرد ما يقاوم هجمات حساسيته العاطفية ويتلاعب بها تقريبا : إذ ذاك فقط يخرج عقله من مخبئه، عقل منطقي، هازىء، مرح، ومع ذلك صعب المراس.

97 عن ثرثرة الكتّاب

هناك ثرثرة من الغضب ـ متواترة لدى لوثر، كما لدى شوبنهاور. [و] ثرثرة يغذّيها رصيد كبير من الصيغ المفهومية، كما لدى كانط. وثرثرة ميّالة إلى تغيّرات ما تفتأ تتجدد في نفس الموضوعة: كما لدى مونطيني (Montaigne). وثرثرة ذات طبائع خدّاعة: من يقرأ آثار عصرنا الأدبية سيتذكر بهذا الخصوص، كاتبين (*) وثرثرة ميّالة إلى الكلمات الخاصة وأشكال البلاغة، الشيء الذي لايعدّ نادرا في نثر غوته. وثرثرة سببُها لذة صرفة في الضجيج وفي فوضى الأحاسيس: لدى كارلايل (Carlyle) مثلا.

98 لمجد شكسبير

إن أجمل ما أُقدّر أنه بإمكاني قوله تمجيدا لشكسبير، تمجيداً *لـلإنسان*، هو ذا: لقد آمن ببروتوس (Brutus) ولم يرد أن يكدّر هاته الفضيلة بمثقال ذرة من الحذر! لقد خصّص له أحسن تراجيدياته ــ التي لازلنا نذكرها الآن تحت اسم خاطىء ــ له ولمضمون الأخلاقية السامية المرعب جدا. لاامتثالية النفس ـ هو ذا ما يتعلق به الأمر! هنا لاتضحية البتة قد تكون كبيرة: يلزم أن نعرف كيف نضحي من أجلها بأعز صديق، حتى وإن كان أروع رجل، [وإن كان] زينة الكون، [وإن كان] العبقري الذي لانظير له ــ بمجرد ما يشكل خطرا على هاته الحرية التي نحبها باعتبارها حرية النفوس الكبيرة ـ هذا النوع من الاحساس هو الذي شعر به شكسبير! إن المرتبة العالية التي وضع فيها قيصرا تشكل أسمى خدمة أمكنه آداؤها لبروتوس: فانطلاقا من هنا يمجّد قضية هذا الأخير إلى درجة كبيرة مثلما يمجد قوة النفس القادرة على قطع *مثل هاته العروة*! ـ هل كانت الحرية السياسية فعلا هي ما دفع هذا الشاعر إلى مشاركة بروتوس هواه وجرمه؟ أم أن الحرية السياسية لم تكن سوى رمز لشيء لايمكن التعبير عنه؟ هل سنجد أنفسنا في حضرة حدث غامض، مغامرة غامضة لنفس الشاعر التي لم يرد أن يتحدث عنها سوى برموز؟ ما كل كآبة هاملت بالمقارنة مع كآبة بروتوس! ـ ربما كان شكسبير يعرف الواحدة كما يعرف الأخرى، عن تجربة؟ ربما كانت له هو أيضا ساعة جحيمه وعفريته، مثل بروتوس؟ لكن مهما كان هذا النوع من التماثل والتطابق السرّيين: فإن شكسبير قد تواضع في إحساس من الذل والتباعد أمام سيماء بروتوس النبيلة وفضيلته: ـ هذا ما تشهد

(*) يقصد أثار E. Duhring وريشار فاغنر.

عليه مأساتـه. لمرّتين يصور فيها شاعرا، وفي كل مرة يـوسعه ازدراء بجزع كبير حتى نخال أننا نسمع شبه صيحة ـ صيحة ازدراء الـذات. بروتوس، بروتوس نفسه يفقد صبره بمجرد ما يـرى الشاعر يعتلي الخشبة، معجبا بنفسه، شجيـا فضوليا مثلما هم الشعراء عادة، ككائن يبدو أنه ينتفخ بإمكانات العظمة، بالعظمة الاخلاقية ذاتها، بينما في فلسفة الفعل والحياة نادرا ما يصل الى مستوى النزاهة العامية. «إن كان يعلم ساعته، *فإني أعرف أمزجته* ـ أبعـدوا المهرّج!» صاح بـروتوس. لنُعِـدْ نَقْلَ هذا إلى روح الشاعر الذي تخيّله.

99 مريدو شوبنهاور

ما نلاحظه إثـر اتصال شعوب متحضرة بأخرى متخلفة، هـو أن الحضارة الدنيا تشرع بشكل منتظم في استعارة رذائل ونقائص وعنف الحضارة المتفوقة، وانطلاقا من هنـا تشعـر بـانجـذاب يمارس عليهـا، وفي الأخير تترك جـزءا من القـوة المشروعـة للحضارة المتفوقة يسري فيها، لصالح الرذائل والنقائص المتمثّلة ـ هذا ما يمكننا أن نـلاحظه أيضـا في محيطنا القـريب بشكل أقل ملموسيـة بلا ريب، لأنـه أكثر دقـة وتساميـا، دون أن يكون علينا أن نستكشف بـالضرورة الأقوام البدائيـة في الحقيقة، ماذا اعتاد مـريدو *شوبنهاور* في ألمانيـا أن يستعيروه من معلّمهم لأول وهلـة؟ ـ المريدون الـذين، باعتبـارهم كذلك، يجب عليهم أن يشعـروا بأنهم متخلفون كثيرا لكونهم أعجبوا به وأغـواهم أولا بطريقة متخلفة، إذا ما قورنوا بثقـافته العالية. هل علمه العنيد بالـوقائع، حسن نيته في الوضوح والفكر هما مـا يجعله في الغالب يبدو انجليزيـا بشكل كبير وألمانيا بشكل أقل؟ أم هل قوة وعيـه الثقافي هي التي **دعّمت** تناقضا بين الكينونة والارادة طيلة حيـاته، والتي أرغمته على أن يناقض نفسه بشكل دائم وتقريبا في كـل المواضيع في كتاباته كـذلك؟ أم هو وضوحه في قضـايا الكنيسة والإله المسيحي؟ ـ لأنه بـدا واضحا في هـذا أكثر من أي فيلسـوف ألماني آخر حتى ذلك الـوقت، إذ عاش ومـات «فولتيريـا». أم هي نظريـاته الخالـدة عن عقلانيـة الحدس، عن قبْلية قانـون السببية، عن الطبيعة الآلية للعقل وعـن لاحرية الإدارة؟ لا، كل هذا لايسحر ولايُشعر به على أنه ساحر: لكن اضطرابات وذرائع شوبنهاور الصوفيـة هاته حيث أُغْـرِيَ مفكِّرُ الوقائع وأُفْسِـد بالطموح العـديم الجدوى ليكون ذاك الذي يفك لغز الكون؛ لكن نظرية *الإرادة الفردية* التي لاتكمن البرهنة عليها («ليست كل الأسباب سوى أسباب عرضيـة لتمظهر الإرادة في هذا الزمان، في هذا المكان»، ـ «إن إرادة الحيـاة حاضرة في كل كائن بل وفي أدنىٰ الكائنـات كاملة وغير

مجزأة، كـاملـة مثلما هي في كل الـذين كـانـوا، في كل الـذين هم كـائنـون أو سيكونون، مأخوذين بالاعتبار في مجموعهم»)، لكن *نفي الفرد*، («كل الأسود ماهي في مجملهـا إلاّ أسد واحـد»، «ليس تعدد الأفـراد سوى مظهـر»، مثلما *التطور* ليس سـوى مظهـر؛ ــ إنـه يصف فكـر لامـارك «بخطأ بـارع وعبثي»)، ــ لكن حماس *الـعبقري* المتحمّس («إن الفرد لم يعد هو الفرد في الحدس الجمالي، بل محض موضوع للمعرفة، موضوع لازمني، دون إرادة ولا ألم»؛ «إن الموضوع بذوبانه التام في موضوع حدسه قد صار هو نفسه هذا الموضوع»، لكن المفهوم العبثي *للـشفقة* وللقطيعة التي صارت ممكنـة فيها، لمبـدأ التفردية بـاعتباره منبع كل أخـلاقية بها في ذلك إثبـاتات كالتي تلي «الموت هـو الغاية من الـوجود على العموم»، لانستطيع إطلاقـا أن ننكر قبليا إمكانية ممارسة ميت لتأثير سحري»، إن *هذيان* الفيلسوف وعيوبه من هذا النوع وما شابهها هي دائما أول ما يُتَبنّىٰ لتصير مبادئً إيمان: ـ إن الهذيان والعيوب هي في الواقع الأكثر سهولة في التقليد ولاتحتاج إلى مراس طويل. ولن نتكلم هنا سوى عن أشهر الشوبنهاوريين الأحياء، ريشار فاغنر. ـ لقد وقع له ما وقع لأكثر من فنان: أخطأ في تأدية الشخوص التي أبدعها وأنكر الفلسفة المضمرة في فنه الأكثر شخصية إن رشار فـاغنر قـد اغتر بهيغل إلى ما يناهـز النصف من حياتـه؛ وقد ارتكب نفس الخطأ حين اعتقد بعد ذلك بكثير أنه يحلّ النظريـة الشوبنهاورية في شخوصه وشرع في تعـريف نفسه بمفـاهيم «الارادة»، «العبقـرية» و «الشفقـة». ولايقل عن ذلك صدقا كون أشـد ما يناقض روح شوبنهاور ما هو فـاغنيري محض في أبطال فاغنر: أعني براءة النهم الأقصى بالذات، الاعتقاد في الشغف العظيم وكأنه الخير في ذاته، باختصار، الطبع السيغفريدي(*) في سيماء أبطاله. «في كل هذا أثـر سبينوزا أكثر مما هو أثري أنا» قد يقول شوبنهاور. لقد كانت إذن لفاغنر دواعي جيدة بأن يستند إلى فلاسفة آخرين عوض شوبنهاور وحده: الافتتان الذي استسلم له، فيما يخص هذا المفكر، قـد أعماه ليس فقط بخصوص كل الفـلاسفة الأخريـن بل بخصوص العلم ذاته، إن فنه كله لايفتأ يـزعم أنه يطرح نفسه كبديل ومتمم للفلسفـة الشوبنهاورية حتى يتخلى بشكل واضح أكثر فأكثـر عن الطموح السامي لأن يصير بـديلا ومتمما للمعـرفة وللعلم الانسـانيين. وليست الفخـامة الغـامضـة لهاته الفلسفـة هي التي تسحره والتي سحرت أيضا كاغليوسترو (Cagliostro): فمواقف وتصنع الفلاسفة الخاصـة تمارس دائما هي الأخـرى إغراءهـا! شوبنهاوري لـدى فاغنر تحمّسـه مثلا

(*) نسبة إلى Siegfried، بطل مسرحيته الغنائية، التي بدأ تؤليفها سنة 1856.

للتنديد بفساد اللغة الألمانية : وحتى حين نستحسن تقليد الفيلسوف في هذا فإننا لن نستطيع أن نضرب صفحا عن كون أسلوب فاغنر نفسه لايخلو من المعاناة من تلك الأورام والدمل التي يغضب شوبنهاور لرؤيتها أشد الغضب، كذلك لانستطيع أن ننسى، فيما يتعلق بالفاغريين الذين يكتبون بالألمانية، أن العادة الفاغنيرية السيئة تبدأ بالظهور بشكل أخطر مما كانت عليه أية عادة هيغلية سيئة. شوبنهاوري لدى فاغنر بغضه لليهود الذين لايعرف حتى كيف ينصفهم بخصوص صنيعهم العظيم : أليس اليهود هم مبتكرو المسيحية في الواقع! شوبنهاوريةٌ محاولة فاغنر تصوّر المسيحية كحبّة طائشة من البوذية، وإعداد عصر بوذيّ لأوربا بواسطة تقارب مؤقت بين صيغ وأحاسيس مسيحية ـ كاثوليكية. شوبنهاوريّ وعظ فاغنر لصالح الإحسان في العلاقة مع الحيوانات، في هذا كان فولتير كما نَعْلَم، سابقا لشوبنهاور بحيث أنه عرف، مثل لاحقيه، كيف يقنّع في احسانه بالحيوانات بغضه لبعض الأشياء وبعض الناس. إن بغض فاغنر للعمل، الذي ينبع من وعظه، ليس مستوحىٰ على الأقل من روح الرحمة والطيبة ـــ ولا من المعنى المطلق للروح، ذلك شيء بدهيّ، ـ ختاما، إن فلسفة فنان ما لاتهم كثيرا مادامت ثانوية ولاتضر بفنه. لانستطيع أن نمتنع عن مؤاخذة فنان على تقنّع عرضيّ، ربما [كان تقنّعا] تعيسا ومتكلفا : لاننسى أن كل فنّا نينا الأعزاء متباهون بدرجات متفاوتة، أن عليهم أن يكونوا كذلك، وأنه دون تباه فإنهم سيتحملون الوجود بمشقة، على التمادي. لنحفظ وفاءنا لفاغنر فيما هو لديه *أصيل* وأصلي ـ وذلك بأن نبقىٰ أوفياء، نحن مريدوه، لما هو فينا أصيل وأصلي. لندع له مزاجاته وتشنجاته الفكرية، لنقيم عوض ذلك، بكل إنصاف، نوع الأغذية والحاجات التي لفن مثل فنه *الحق* في المطالبة بها حتى يستطيع أن يحيا وينمو. لايهم كثيرا أن يكون على خطأ كمفكر أغلب الأحيان : فلا الانصاف ولا الصبر شغله. يكفي أن تكون حياته على صواب وتحفظ الصواب في عينيه : هاته الحياة التي تنادي كل واحد منا : «كن رجلا ولا تتبعني ـــ لاتتبع أحدا غيرك أنت! أنت نفسك!» *حياتنا الخاصة* كذلك عليها أن تحفظ الصواب في نظرنا! نحن أيضا علينا أن ننمو ونزهر من تلقاء أنفسنا، أحرارا ودون خوف، في براءة أنانا! وكذلك نبجل رجلا مثله لاتزال كلماته ترن في أذني اليوم كالأمس : «أن الشغف أفضل من الرواقية والتمثل، أن الصدق حتى في الشر أفضل من أن تضل النفس في أخلاقية التقاليد، أن الإنسان الحرّ قد يكون طيبا بقدر ما يكون شريرا، لكن الانسان العبد يكون عارا للطبيعة ولاحظ له في أي عزاء

سماوي أو أرضي. أخيرا أن ***أي امرىء يريد أن يكون حـرا لا بد له أن يصير كذلك*** بنفسه، وأن الحرية لم تهبط على أحد من السماء كهبةٍ معجزةٍ.»

(ريشار فاغنر في بايروت، ج II ص 94)

100 تـعـلـم الثـنـاء

يتعلم الناس الثناء كما يتعلمون الازدراء. أي امرىء انخرط في سبل جديدة وقاد إليها آخـرين كثيرين يكتشف باندهاش كم يظهـرون حقيرين ورعناء في التعبير عن شكرهم، كم هو نادر *أن يتوصل* هذا الشكر إلى التعبير عن نفسه. يبدو أنه بمجرد مـا يحاول أن يُسمع نفسـه يأتي شيء ليخنقـه، فـلا يملك إلاّ أن يسَعْـوِلَ، وتضيع كلمته في السعال. الظروف التي يتوصل فيها مفكر إلى الاحساس بفعل أفكاره المغيّر والمثير تنحـو منحىٰ الملهاة. أحيـانـا يبدو أن الـذين تعـرّضوا لهذا الفعل قـد يجدون أنفسهم مضـايقين من جرّائه، وأنهم، خـوفا من فقـدان استقلالهم، لن يستطيعـوا إظهاره إلاّ بـوقاحـات متنوعـة. يجب أن ننتظر أكثـر من جيل قبل أن نبتكر ميثـاقا مهذّبا للشكر، قبل أن تحين اللحظة المتأخرة التي يستطيع فيها نوع من الفكر والنبوغ اختراق الشكر ذاته. في هذه اللحظة كذلك يتـواجد عادة امرؤ مهيّأ لأن يكون أكبر جـامع للتشكرات، ليس فقط لما فعلـه من حَسَنٍ هو نفسـه بل في الغالب لما جمعـه سابقوه شيئا فشيئا ككنز مما هو رفيع وممتاز.

101 ڤـــولتـــيـــر

حيثما كانت حيـاة البلاط، فإنها تفرض قـانون اللغـة النبيلة، وبنفس الشكل، قانون الأسلـوب على كل الذين يكتبون. ومع ذلك فإن لغة البـلاط هي لغة المتزلف الذي ***لا اختصاص له*** والذي يمتنع، حتـى في الأحاديث عن مسـائل علمية، عن استعمال كل التعابير التقنية المألوفة، لأنها تفوح منها رائحة المهنة، لهذا كان استعمال التعابير التقنية وكل ما يوحي بالمختص يشكل ***مساسا بالاسلوب*** في كل الدول التي كانت تسود فيها ثقافة البلاط. الآن والبلاطات كلها لم تعد إلا كاريكاتورا لما مضىٰ وسلف، فإننا نندهش لأن فولتير نفسه كان مدقّقا وقاس جدا بهذا الخصوص (مثلا في الحكم الذي يحمله عن أسلـوبيّين أمثال فونتونيل ومونتسكيو)، ـ الـواقع أننا كلنا اليوم متحررون من ذوق البلاط، بينما كان فولتير قد رفعه إلى ***كماله!***

102 كلمة لفقهاء اللغة

أن نوطد باستمرار الاعتقاد بأن هناك كتبا نفيسة جدا ومانعة جدا بحيث أن أجيالا كاملة من العلماء تجد نفسها قد أدت غايتها بمجرد أن تحفظ هاته الكتب بنّصها الكامل وبجلائها بفضل مجهوداتهم ـ هو ذا مبرر وجود فقه اللغة. إنه يفترض أنه لن ينقص مثل هؤلاء الرجال الذين يعرفون حقا استعمال هاته الكتب النفيسة (وإن كنا لا نميزهم على التو)؛ ـ لا ريب أن الأمر يتعلق بأولئك الذين ينتجون ويعرفون كيف ينتجون مثل هذه الكتب. كدت أقول إن فقه اللغة يفترض اعتقادا نبيلا ـ مع العلم أنه لخير بعض الرجال النادرين الذين «سيأتون» دائما وليسواهنا أبدا، أن كمية كبيرة من العمل الشاق بل والقذر، ما يزال يتطلب بذلها قبل كل شيء: كل هذا يشكل شغلا كثيرا (*) in usum Delphinorum.

103 عن الموسيقى الألمانية

الموسيقى الألمانية هي منذ الآن، أكثر من أي موسيقى أخرى، الموسيقى الأوربية بحصر المعنى، لأنها عبّرت عن الاضطراب الذي عاشته أوربا من جرّاء الثورة: وحدهم الملحّنون الألمان يعرفون التعبير عن تهيّج الطبقات الشعبية بهذا الصخب الاصطناعي الرائع الذي ليس في حاجة حتى لأن يكون قويا جدا كي يفعل فعله ـ بينما لاتعرف الأوبرا الإيطالية مثلا سوى جوقة من الخدم والجنود، قليلا من "الشعب". هناك ما يدعو للملاحظة بالإضافة إلى ذلك أنه في كل موسيقى ندرك حسدا بورجوازيا عميقا إزاء النبالة، من جهة النباهة والأناقة باعتبارهما تعبيرا عن مجتمع واثق من نفسه بتقليده القديم الذي هو البلاط والفروسية. ليست هاته موسيقى مثل «*نشيد أمام الباب*»، لغوته، التي يسمعها المجتمع «في القاعة» وخاصة الملك، باستحسان: لم تعد المسألة فيها مسألة «***فرسان كانوا ينظرون بجرأة***» ولا «***حسناوات كنّ يغضضن أبصارهن***». في الموسيقى الألمانية، لايبدو الرضى ذاته دون أن يثير ندامات [ما]: إن الألماني لايشرع في الإحساس بأنه أخلاقي أكثر فأكثر حتى قمة سموه الممجّد، الفقيه والشّرس في الغالب، السمو البتهوفني، إلا لدى اتصاله *بالفتنة*، بالدماثة، الأخت الريفية للرضى. لو حاولنا أن نتمثّل الرجل الذي يستجيب لموسيقى *مماثلة*، فسنفكر إذن بالضبط في بتهوفن

(*) دلفي (Delphi) ـ م. دلفيس [مدينة فوسيد، سرّة الأرض بحسب اعتقاد القدماء، وهي معروفة بضريح وبوسيط وحي الإله آبولوند]. والجملة: على طريقة شغل سكان (Delphinorum)

مثلما كان يظهر بجـانب غوته، مثلا عقب هـذا اللقاء في تبلتز (Teplitz) : [حيث كان يظهر] كنصف البربرية بجانـب الثقافة، كالعامة بجانب النبـالة، كرجل ذي طيبة طبيعيـة بجانب الرجل الذي هـو يفوق الرجل «الطيب»، كالغـريب الأطوار بجانب الفنان، كذلك الذي يحتاج إلى العزاء بجانب المعزّىٰ، ك "المبالغ"، المرتاب بجانب الـرجل العادل، كصـائد البرقانـات ومعذب نفســه، كالمجنـون الشاطح، التعس في سكـون، الرجل الـذي لايـدانىٰ وفاؤه، المتعجـرف والأبلـه ـ و إجمالا كــ "الانسان الجموح" : هكذا كان غوته نفسه يشعر به ويعرّفه، غوته، الألماني النادر الذي لم توجد بعد موسيقىٰ جديرة به ! ـ وفي الختام، لنتساءل إن لم يكن ازدراء النغم وذبول المنحىٰ اللحني المتفشي أكثر فأكثر لدى الألمان كنوع من العيب الديمقراطي، الناجم عـن الثورة. في الواقع، إن النغم يبرهن على رغبـة طاهـرة في سيادة القـانون وعن نفور شـديد من كل مـا هو في صيرورة، قبيح الشكل وتعسفي، بحيث نبصر فيه مثل رجْع نظـام الحقائق الأوربيـة الـقديم، ومثل إغـواء قمين بأن يرّدنـا إلى هذا النظام.

104 عن نبرة اللغة الألمانية

نعرف من أين تصدر الألمانية التي تشكل اللغة الألمانية المكتوبة منذ بضعة قرون. إن الألمان، باحترامهم لكل مـا كان يصدر عن **البلاط**، قد سارعوا إلى أخذ أسلوب المستشـاريـة كنموذج، في كل مـاكـان عليهم أن يكتبوه، إذن بشكل خـــاص في الرسائل، في العقود، في الـوصايا وفي أشياء أخرى من هذا النـوع. الكتابة بأسلوب المستشاريـة كانت تعني الكتابـة طبقا لروح البلاط والحكـومة، ـ لقـد كان في ذلك شيء متميز مقارنة مع الألمانية العامية التي كانت تتداول في المدينة حيث اعتاد الناس أن يعيشوا. من ثم بدأ الناس شيئا فشيئا يتحدثون مثلما يكتبون ـ وبهذا كانوا يظهرون تميزا أكثـر في صياغـة الكلمات واختيارهـا وفي تركيب الجمل وفي النبرة أيضـا : كان الناس يتكلفون التحـدث بنبرة البلاط، وهذا التكلف أضحىٰ طبيعـة ثانية. ربما لم يحدث شيء ممـاثل في أي مكان آخـر : سيطرة الأسلـوب على اللغـة المتداولـة وميل شعب بأكملـه إلى التنميق والتكلف كقاعـدة للغـة مشتركة، خـالصة من الفـوارق العاميـة. أعتقد أن اللغة الألمانيـة قد كانـت لها لهجة مزارعيـة وعامية إبـان المرحلة القروسطية وخاصة في نهاية القرون الوسطىٰ : وقد تنبّلت هاته اللهجة خلال القرون الأخيرة، بشكل أساسي، بفعل رؤيـة الناس أنفسهـم مرغمين على محاكـاة عدد كبير من الرنّات الفرنسية والايطاليـة والاسبانية، وبشكل خاص من جانب النبلاء الألمان

(والنمساويين)، الذين لم يستطيعوا قطعا الاكتفاء باللغة الأم . لكن رغم هذا النوع من الممارسة فإن الألمانية قد احتفظت برنة عامية بشكل لا يحتمل في آذان مونطين (Montaigne) أو حتى راسين؛ بل وحتى اليوم ترنّ هذه اللغة في أفواه المسافرين الألمان وسط الدهماء الايطاليين بشكل عنيف وأجشّ يذكر بالانسان البدائي ـ بالغرف الدخينة وبالأقطار ذات التقاليد الفظة . ـ والحالة هذه، ألاحظ أنه في الحاضر يتفشىٰ من جديد بين المعجبين القدامىٰ بالمستشارية ميلٌ مماثل إلى التميز في النبرة وأن الألمان قد شرعوا في الاستسلام لـ «سحر» نبرة غريب تماما يمكن أن يصير على التمادي خطرا حقيقيا على اللغة الألمانية، ـ لأننا سنبحث دون جدوى عن رجع أشنع في أوربا . شيء مزدرٍ، باردٍ لامبالٍ، خرع في الصوت : هذا ما يبدو الآن للألمان «متميزا» ـ وأتبيّن التحمس لهذا النوع من التمييز في أصوات الموظفين والمعلمين والنساء والتجار من الجيل الجديد؛ حتى البنات الصغيرات يقلّدن الآن «ألمانية الضابط» هاته . لأن الضابط، النمساوي بالخصوص، هو مبتكر هاته النبرة : هذا الضابط نفسه، باعتباره عسكريا ورجل حرفة، أبدىٰ بتباه ذوق التواضع هذا الجدير الاعجاب الذي كان على كل الألمان أن يأخذوه كمثال (ربما فيهم الاساتذة والموسيقيون) . لكن بمجرد ما يشرع في الحديث وفي التحرك يبدو أنه الشخص الأقل تواضعا والأكثر تجردا من ذوق أوربا القديمة ـ غير واع ذاته تماما، دون أدنىٰ شك! غير واع مثلما هم الألمان الطيبون بخصوصه، الذين يعتبر في نظرهم رجل المجتمع، الأشد تميزا، والذي يقبلون عن طيب خاطر أن «يمنحهم النبرة» . وذاك ما يفعل هو الآخر! ـ ابتداء من الـ Feldwebel* وضباط الصفّ الذين يقلدونه بشكل فظ . يكفي أن نصغي للأوامر الزاعقة التي تغلف المدن الألمانية بشكل إثباتي، الآن وقد صارت التداريب تجري في أبواب كل الحواضر : يالها من غطرسة، ياله من صعار السلطة، يالها من برودة هازئة تتردد في هاته الزعقات! أيكون الألمان شعبا موسيقيا حقا؟ الشيء الأكيد هو أنهم يعسكرون نبرة لغتهم في الحاضر : من المحتمل، وقد دفعوا الى التحدث عسكريا، أن ينتهوا بالكتابة عسكريا كذلك . لأن التعود على بعض النبرات يدخلها بعمق في المزاج : ـ سريعا تكون للناس الكلمات والعبارات وأخيرا الأفكار الخاصة بهذا النوع من الرجع! ربما يكتب الناس منذ الآن ضمن النوع «ضابط»، لعلني أقرأ قليلا جدا مما يكتب في ألمانيا . لكنني بالأحرى

(*) Feldwebel : رقباء نقيبون (رتبة في الجيش : Sergents majoris) ـ (عن معجم Langenscheidts Jubilaums - Wôrterbuch, Deutsch / Französich 1984)

متأكـد من شيء واحـد : المظـاهر الشعبيـة الألمانيـة التي تتسرب إلى الخارج كـذلك ليست مستوحاة من الموسيقىٰ الألمانيـة ، بل من هاتـه النبرة الجديدة ذات الغطـرسة المضادة للذوق السليم . هناك تقريبا في كـل خطاب لرجل الدولة الأول في ألمانيا نبرة حتى حين يُسْمِعها [للنـاس] الناطقُ باسمه الامبراطـوري فإنها تؤذي سمع الأجنبي الذي يرفضها باشمئزاز : لكن الألمان يؤازرونه : إنهم يتآزرون .

105 الألمان بصفتهم فنانين

حين يحدث للألماني أن يكـون فعلا تحت تأثير الشغف ، الهوى (وليس فقط تحت تأثير نـزوة الهوى الصـادقـة ، كما جرت العـادة) فإنـه يتصرف إذاك كما ينبغي لـه أن يفعل ، دون أن يعبأ بتصرفـه . الحقيقـة أنـه يتصرف حينئـذ بكثير من السماجـة ومن القبح وكما [لو كـان] دون ميزان ودون نغم ، بحيث ينـزعج المشاهـدون من ذلك أو يهتزون له ، ولاشيء سواه : ـ **إلاّ إذا** تسامىٰ إلى حدود الرفعة والغبطة ، الشيء الذي تقدر عليه كثير من الأهواء . وقتئذ حتى الألماني يصير **جميلا** . إن ملكة استشعار من ***أي علو*** يرضىٰ الجمال بسكب مفاتنه حتى على الألمان يرفع مفاتنهم إلى حدود العلو ، حتى العلو الشاهق وحتى إفراطات الهوى : طموح فعلي وعميق إذن لتجاوز القبح والسماجـة ، على الأقل لـلإبصـار من ورائهـا ــ بعـالم أفضل ، أكثـر خفـة ، أكثـر استوائية ، أكثر إشماسا . وهكـذا فإن تشنجاتهم لاتدل على شيء آخر غير حاجتهم *إلى الرقص* : دِببَةٌ مسكينة تضطرب فيهـا حورٌ وآلهةٌ غابيّة مختبئة ـ وأحيـانا معبودات اسمىٰ كذلك .

106 الموسيقىٰ التي تتوسط

قال أحـد المبدعين لأحد مريـديه : «أنا متعطش لأستاذ في فن الأصـوات يعرف كيف يتعلم أفكاري ويعبر عنهـا في المستقبل بلغته الخاصة : بـذلك سأنفذ بشكل أفضل إلى آذان وقلوب النـاس . الأصوات تمكّن من إغـوائهم في كل خطأ كما في كل حقيقة : مَنْذَا سيفكر في *إبراز خطأ صوت؟*» ـــ «هكذا تـريد أن تعتبر غير قـابل للدحض؟» قـال المريد . ردّ المبـدع : «أود أن أرى البذرة تصير شجـرة . ولكي تصير نظرية ماشجرة ، يجب أولا أن يعتقد فيها ، أن تُعتبر غير قابلة للدّحْض . العاصفةُ ، الشك ، الهامـة ، الخبث تمتحن الشجرة لكي يظهـر نوعُ وقـوةُ بذرتها ، لتنكسر إن لم تكن قوية ! لكن فيها يخصّ البذرة فإنه لايمكن أبـدا سوى أن تباد ـ لا أن تدحض ! » ـ حين انتهىٰ من قول هذا ، صرخ مريده بـاندفاع : «لكني أنا الذي أومن بقضيتك

اعتبرها متينة جدا بحيث سأجرؤ على قول كل ما ينطوي عليه قلبي و إن كان ضدها» ــ ضحك المبدع في سره ثم قال مهددا إياه [وهو يشير] بأصبعه : «لن نستطيع أن نجد مريدين أفضل ، غير أنهم هم الأخطر، وثمة نظريات عديدة لن تؤيدهم» .

107 شكرا لنا النهائي للعلم

لو لم نستحسن الفنون ونبدع هذا النوع من عبادة اللاحقيقي فلن نستطيع إطلاقا تحمّل الملكة التي يمنحنا إيّاها العلم، ملكة فهْم الروح الكونية للّاحقيقة وللكذب ـ فهْم الهذيان والخطأ باعتبارهما شرطين للوجود العارف والحساس. ستكون عاقبة *النزاهة* هي الاشمئزاز والانتحار، ويحدث، والحالة هذه أن نزاهتنا تمتلك ملاذا قويا لتتهرب من عاقبة مماثلة : الفن ، باعتباره *موافقة* للظاهر. إننا لانمنع دائما نظرنا من أن يحدّ وينهي ما نتخيّله : وآنئذ ليس النقص الابدي هو ما نحمل ما وراء نهر الصيرورة ـ لكننا نعتقد أننا نحمل إلهة ونظهر أنفسنا فخورين و طفوليين بإسدائنا هاته الخدمة لها. باعتبار الوجود ظاهرة جمالية فإنه دائما *ممكن التحمّل* لدينا، وبموجب الفن فإن العين واليد وقبل كل شيء راحة الضمير قد وهبت لنا كي *نستطيع* أن نتحول إلى مثل هذه الظاهرة. إنه لمن الضروري أن نروّح عن أنفسنا من حين لآخر لصالح الفن الذي يمكّننا من تأمل أنفسنا ، من أعلى، وأن نضحك علاوة على ذلك، من *أنفسنا* أو نبكي *علينا* : أن نكشف البطل وكذلك *البهلول* اللذين يختبئان في شغفنا للمعرفة، أن نستمتع من حين لآخر بجنوننا كي نستمر في الاستمتاع بتعقلنا ! ـ ولأننا في العمق عقول خطيرة، ولنا جسامة الوزن بدل جسامة الرجال، فلاشيء يستطيع أن يحسن إلينا أفضل من *قبّعة المجنون* : إننا في حاجة إليها حاجتنا إلى دواء ضد أنفسنا ـ نحن في حاجة إلى كل فن مرح ، طاف، راقص، ساخر، طفولي وجدّي، ، حتى لانفقد أي شيء من هاته *الحرية التي تعلو على الأشياء* التي تنتظر منا نحن أن نكون مثلنا الأعلىٰ. ستكون انتكاسة لنا أن نسقط كلية في الأخلاق بفعل نزاهتنا النزقة ذاتها، وبتلبية مطالب مفرطة فإننا ننتهي بأن نصير مسوخا [و] فزّاعاتِ فضيلةٍ. يجب *أن نكون قادرين* كذلك على البقاء *مافوق* الاخلاق : وليس فقط أن نمكث بالتصلب القلق لأمرىء يخشىٰ أن يزلق ويسقط في كل لحظة، بل أن نتجاوزها ونمرح بعيدا ! كيف إذن سنحرم أنفسنا من الفن، كيف سنحرم من *المجنون* [فينا]؟ ــ وطالما أن فيكم شيئا من الخجل من أنفسكم فلن تكونوا منّا بعد!

الكتاب الثالث

108 صراعات جديدة

بعد أن مات بوذا أُظْهِرَ ظلّهُ في مغارةٍ طيلة قرون ـ [وكان] ظلا رهيبا ومخيفا. لقد مات الإله: لكن هاته هي طبيعة الناس بحيث ستكون هناك، ربما طيلة ألفيات، مغارات يُعْرَض فيها ظله. ـ أما نحن ـ فيجب علينا أن نهزم ظلّه كذلك!

109 تحـــذيـــــر

لنحذر التفكير في كون العالم كائنـاً حيّا. إلى أين سيتوسّع؟ بأي شيء سيتغذى؟ كيف سيستطيع أن ينمـو و يتكاثـر؟ إننـا، من جهـة أخرى، نعلم تقـريبـا ما هـو العضوي: ومـا ندركه متفـرعا للغايـة، متأخرا، نادرا، عـرضيا على قشرة الأرض، أسنذهب إلى حد تفسيره على اعتبار أنه الأساسي، الكوني، الأزلي، كما يفعله أولئك الذين يسموّن الكل جهازا عضويـا؟ هذا شيء يثير اشمئزازي. لنحذر الاعتقاد من أول وهلة أن الكل عبارة عن إوالة. إنه لم ينشأ لغاية ما بكل تأكيد، وإننا نشرّفه كثيرا إذ نمنحه اسم «إوالـة». لنحذر أن نفترض، بشكل قطعي وبأية حـال من الأحوال شيئا ذا شكل مكتمل مثل الحركات الدائرية للكواكب المجاورة لنا: نظرة واحدة إلى مجرّة التبانـة تجعلنا نشك في ذلك، فهي توحي بحـركات غير متقنة ومتنـاقضة، كما توحي بكـواكب مُسارعـة في انحدار مستقيم أبدا وبأشيـاء أخرى مشـابهة. النظام الكواكبي الذي نعيش فيه استثناء: هذا النظام والمدة النسبية التي يحددها قد جعلا استثناء الاستثناءات ممكنا مرة ثانية: تكوّن العضوي في المقابل، إن طبيعة كل العالم هي منذ الأزل طبيعة الفوضىٰ ليس بسبب غياب الحاجة لكن بسبب غياب النظام، التمفصل، الشكل، الجمال، الحكمـة، و [ذلك] مهما تكن مقـولاتنـا الجماليـة الانسانيـة. من وجهة نظـر فهمنا فإن الدقّـات التافهـة تشكل القاعـدة من بعيد، الاستثناءات لاتخضع لغاية سريّة، وقطع الساعات برمتها تعيد أبدا مقامها الذي لن يستحق أبدا اسم نغم ـ وفي الختام، إن عبارة «الـدقة التافهة» ذاتها ليست إلاّ تهذيبا يتضمن لـومـا. والحالـة أنـه كيف سنجرؤ على لـوم الكل أو الثنـاء عليـه! لنحـذر مؤاخذته على قلة مروءته أوقلة غباوته أو عكسهما: فما هو بكامل ولاجميل ولانبيل، ولايريد أن يصير شيئـا من هذا القبيل، إنه لايطمح إطلاقـا لأن يحاكي الانسان. إنه ليس مصابـا نهائيا من أحكامنا الجماليـة أو الاخلاقية. وزيـادة على ذلك ليست له غريزة البقاء و [ليست له] قطعا دوافع ما: إنـه لايعرف قانونا قطّ. لنحـذر أن نعلن أن هنـاك قوانين في الطبيعـة. ليست هناك إلاّ حـاجـات: هناك، لاأحـد يحكم،

لاأحد يطيع، لاأحـد ينتهك [القانون]. منـذ أن تعْلَم أنه ليست هناك غـاية فإنك ستعلم أن لاصدفة هنـاك. لأن كلمة الـ*صدفة* ليس لها معنىً إلاّ بـالقياس إلى عـالم الغايات. لنحذر القول أن الموت نقيض للحيـاة. الحي ليس إلاّ نوعا مما هو ميت، ونوعا نادرا جدا. ـ لنحذر الظن أن العالم أبدا يخلق شيئا جديدا. ليست هناك مادة دائمة بشكل أزلي؛ المادة خطأ مثل إله الإيليين (*). متى إذن ستتلخص من حذرنا ومن همومنا؟ متى تكف كل ظـلال الإله هاتـه عن حجب النور عنّـا؟ متى سنزيل صفة الألـوهية كلية عن الطبيعـة؟ متىٰ سيسمح لنا بأن *نتطبّع*، نحن النـاس، مع الطبيعة الخالصة المكْتشفة من جديد، المحرَّرة من جديد؟.

110 أصـــل المعــرفـــة

لم يُـوَلِّد العقلُ خـلال مُدد زمنيـة هـائلة سـوىٰ أخطاء: وقـد بدت في بعضهـا مفيدة، وصـالحة لحفظ النوع: أيّ واحـد يتبنّاهـا أو يرثهـا كان يقـوى على خوض صراع ما بمزيد من الحظ من أجله هو ومن أجل خَلَفِهِ. مثل هاته الأخطاء، التي لم تفتأ تنتقل وراثيـا ككثير من أقسـام العقيـدة الـدينيـة إلى أن تصير الغـايـة المشتركـة للجنس البشري، هي مثلا ما يلي: هنـاك أشياء دائمة، أشياء بذاتها؛ تـوجد فعلا أشياء، مـواد، أجسام؛ الشيء هـو ما يبـدو أنه هـو؛ إرادتنا حـرّة، ما هو صـالح بالنسبـة إلي فهو ذو صـلاح أصلي كذلك. ولم يظهـر الذين كـذّبوا مثل هـاته الأراء وشكّكوا فيهـا إلاّ متأخرين جدا ـــ ولم تظهر الحقيقـة كشكل المعرفة الأقل إلـزاما إلاّ متأخرة جدا. كان يبدو أننا لن نستطيع أن نحيـا معها وأن جسمنا قد بُنِيَ لمناقضتها: كل وظائفه العليـا، كل الإدراكات الحسية وكل الاحساس على الاطـلاق، كانت كلهـا تعمل بهاته الاخطـاء الاساسيـة المتأصلـة في المصادر. أفضل من ذلك، لقـد صـارت هـاتـه الاقتراحـات، حتى داخل المعـرفـة، المعـايير التي بمـوجبهـا نثبت «الصحيح» و «غير الصحيح» حتى في مناطق المنطق الخالص الأكثـر انزواءً. هكذا إن **قوة** المعارف لاتكمن في درجة صحتها لكن في أقدميتها، في درجة تمثلها (**)، في طبعهـا [المتعلق ب] شرط الحيـاة. هنـاك حيث كـانت الحياة والمعـرفـة تبـدوان في تناقض، لم نَخُضْ أبـدا صراعا ذا شأن: كـان الشك والنفي يعتبران إذن جنونـا. هؤلاء المفكـرون الاستثنائيـون الإيليّون، الذيـن أقاموا تنـاقضات الاخطـاء الطبيعية

(*) Eleates (إيليون ـ متعلقون بمدرسة إيلة الفلسفية).

(**) Assimilation (عملية يقوم بها الفكر للكشف عن التشابه القائم بين الظواهر المتشابهة، كما تعني الانتقال من المختلف إلى المشابه).

وحافظوا عليها، كانوا مع ذلك يعتقدون بإمكانية *أن يعيشوا* هذا التناقض أيضا : لقد ابتكروا الحكيم باعتباره رجل الاستقرار، رجل اللاشخصية، رجل كونية الحدس، بمثابة الواحد والكل في نفس الوقت، مزوّدا بملكة خاصة لهذه المعرفة المقلوبة : إنهم كانوا يعتقدون أن معرفتهم كانت، في الوقت ذاته، مبدأ *الحياة*. لكن لكي يستطيعوا إثبات كل ذلك كان لابدّ أن ينخدعوا بخصوص وضعهم الخاص : كان عليهم أن يضفوا على أنفسهم اللاشخصيةَ والديمومةَ دون تغيّر، أن يتجاهلوا طبيعة الذات العارفة، أن ينكروا عنف الدوافع التي لاتقاوم في المعرفة وأن يتصوّروا العقل بشكل قاطع باعتباره عملية حرة تماما، وكما لو كانت تحدث من تلقاء نفسها، لقد كانوا يتغاضون عن كونهم لم ينتهوا إلى أطروحاتهم إلاّ لكونهم كذلك قد ناقضوا المشروع، قد طمحوا إلى الراحة، إلى الملكية الخاصة، إلى الهيمنة. إن التطور الدقيق للنزاهة والشكوكية قد جعل أخيرا مثل هؤلاء الرجال لايطاقون : لقد بدت حياتهم وحكمهم متوقفين على الإغراءات والاخطاء الاساسية التي تؤثر، انطلاقا من الأصول، في كل وجود حسي. ـ لقد تطورت هذه النزاهة وهذه الشكوكية الدقيقتان حيثما كان اقتراحان متناقضان يبدوان *ملائمين* للحياة، لأنهما كلتاهما كانتا متساوقتين مع الأخطاء الأساسية، أي حيثما كان التباحث في كون درجة المنفعة الأكبر تقريبا نسبة للحياة، ممكنا، كذلك هناك حيث كانت اقتراحات جديدة، دون أن تكون نافعة للحياة، فإنها لم تكن كذلك ضارة بها، بصفتها تعبيرا عن غريزة لعبةٍ ذهنيةٍ، وبالتالي كانت تظهر الطبع البريءَ والرضيَ لكل لعبة في الوقت ذاته. شيئا فشيئا امتلأ الدماغ الانساني بقناعات وأحكام من هذا الصنف، وأوجد هذا المزيج المعتد الذي هو في طور التخمّ، الصراعَ والرغبةَ في القوة. ليس حس المنفعة والمتعة وحده بل سائر أنواع الاندفاعات دافعت عن الـ «حقيقة» في الصراع ؛ أمسىٰ الصراع الفكري، فتنة، وظيفة، واجبا، كرامة ـ : أخيرا اندمج فعلُ المعرفة والطموح إلى الصحيح باعتبارهما حاجة من ضمن الحاجات الأخرى. وانطلاقا من ذلك لم تشكل العقيدة والقناعة وحدهما *قوة*، بل الامتحان، النفي، الحذر والتناقض كذلك، الغرائز «القبيحة» أصبحت تابعة للمعرفة وجُعلت في خدمتها واكتسبت هيبة المشروع الموقر، النافع، واكتسبت آخيرا نظرة وبراءة المنفعمة. صارت المعرفة إذن جُزءاً مكملا للحياة نفسها، و [غدت] باعتبارها حياة، قوة متنامية باستمرار : إلى أن تنتهي المعارف وهاته الأخطاء الأساسية القديمة بالصدام المتبادل، باعتبار الواحدة والأخرى حياة، باعتبارهما قوة، في داخل الفرد

الواحد. المفكر: هو الآن الكائن الذي يخوض فيـه الطموح الدافع إلى الحقيقة وهاته الأخطاء المحافظـة على الحياة صراعهما الأول بعد أن *ظهر* الطموح إلى الحقيقة بدوره كقوة محافظـة على الحياة. كل ما تبقـى غير مهمّ بالقياس إلى خطـورة هذا الصراع : السؤال الأخير بخصوص شرط الحيـاة يُطرح هنا، والمحاولة الأولى للإجـابة على هذا السؤال بالتجربة تتم هنا. إلى أي حد تتحمل الحقيقةُ التمثُّلَ؟ ـ هو ذا السؤال، هي ذي التجربة المتعين خوضها.

111 أصـــل المنطـــق

من أين نشأ المنطق في رؤوس النـاس؟ لاشك من الـلامعقـولية التي كـان مجالها شاسعـا في الأصل. لكن كائنـات لاتحصى كانت تستنتج بطـريقة غير التي نستنتج بها الآن قـد هلكت : ربما يكون هـذا أصحّ ممـا نظنـه! مثلا، من لم يكن يعـرف في غالب الأحيان تمييز الـ «مماثـل» فيما يخص الغذاء أو الحيوانات الخطيرة عليه؛ الذي كان بالتـالي بطيئا جدا في الترتيب، متيقظا جدا في الترتيب، قد كـانت له حظوظ في البقاء أقل من الـذي يقع مباشرة على المماثل (*)ضمن كل أنواع الحقـائق المتشابهة. لكن الميل السائد إلى اعتبار الشبيه كالمماثل ــ ميل لامعقول، لأنه لايوجد شيء مماثل في ذاته ــ هذا الميل قـد خلق أساس المنطق نفســه. كان لابد كـذلك، لكي يمكن تطور مفهوم الجوهر الذي لاغنى للمنطق عنه ألاّ يناظره شيء واقعي بحصر المعنى، أن تبقىٰ تغيّريةُ الأشيـاء لمدة طويلة خفيةً وغيرً مضبـوطة؛ لقد كان للكـائنات غير المزوّدة بنظـر دقيق سبْقٌ على الذين كـانوا يـرون كل الأشياء كما لـو كانت «في تـدفق أبدي». كلّ تيقّظٍ بالغ في الاستنتاج [و] كلّ ميلٍ شكـوكي يشكّلان لوحدهما خطرا كبيرا على الحيـاة. لم يكن أي كائن حي ليبقىٰ لـو أن الميل المعاكس لإثبـات الحكم بـدلا من تعليقه، للتيـه والتخيل بـدلا من الانتظار، للمـوافقـة بدلا من الإنكـار، للحكم بدلا من الإنصـاف ـ [لـو أنه] لم يثر بشكل قـوي جدا. إن سيـاق الأفكار والاستنتـاجات المنطقيـة في دماغنـا الحالي تطـابق سياق وصراع دوافع هي بنفسهـا لامعقـولة وجـائرة : إن الإواليـة القـديمة تجري فينـا الآن بشكل سريع وخفي جـدا بحيث لانتتبه أبدا إلاّ إلى نتيجة الصراع.

(*) L'identique : (هناك من يترجمه بالهووي) أي الواحد مع ذاته ، المحقق لوجوده وماهيته في آن .

112 العلـــة والمعلــــول

نقول إنه «التفسير»، لكن في الـواقع «الوصف» هو ما يميزنا بـالنسبة إلى درجات المعرفة والعلم القديمة. إننا نصف أحسن، ـ نفسر قليلا مثل أسلافنا. هناك حيث لم يكن الباحث الساذج في الحضارات القديمة يرى إلاّ شيئين اثنين، الـ «علة» و الـ «معلول» كما كان يقـال، اكتشفنا نحن تعاقبا متعددا، أتممنـا صورة الصيرورة لكننا لم نذهب إلى ماوراء هـاته الصورة ولا أبعد منها. في كل حالـة نجد سلسلة «العلل» تامـة أكثر أمام أعيننـا فنستنتج : يجب أن يحدث الشيء كذا أولا لكي يحدث الشيء الآخر بعد ذلك، ـ أما أن *نفهم* أي شيء كان، فلسنا متقدمين في ذلك أكثر. في كل سيرورة كيمائية تبـدو الكيفية، من قبـل ومن بعد، أشبه بــ «معجزة»، كـذلك كل حـركة مستمـرة؛ لاأحد البتـة «فسّر» الصدمـة. وفضلا عن ذلك كيف يمكننـا أن نفسر؟ إننـا نعمل بـواسطة كميـات من أشيـاء غير مـوجـودة، بواسطـة خطـوط، مسـاحات، أجسـام، ذرات، زمن، فضاءات يمكن تقسيمهـا، ـ كيف سيكـون التفسير ممكنـا عنـدما نجعل مـن كل هذا تمثيـلا لنـا؟ يكفي أن نعتبر العلم أنسنـة للأشيـاء مخلصة نسبيا؛ إننـا نتعلم أن نصف أنفسنا بشكل دقيق أكثـر فأكثر، فقط بوصفنا الأشياء وتعاقبها. العلة والمعلول : ربما لاتـوجد مثل هذه الثنائية أبد ا ـ إننا في الحقيقة أمام مجموعةٍ Continu (*) نعزل منها بعض الأجزاء، كذلك لاندرك أبدا إلاّ نقطا معزولـة من حركة لانراها في جملتها، لكننـا نفترضها فقط. إن الفجاءة التي يحلُّ بها عدَدٌ كبيرٌ من المعلومات محلَّ البعض تخدعنـا : لكنها بالنسبة لنا ليست إلاّ فجـاءة. هناك مجمـوعة لامتنـاهية من السيرورات التـي تفوتنـا في هاتـه الثانيـة من الفجاءة. إن الفكر القادر على رؤية العلة والمعلول ليس على طريقتنا [أي] باعتباره الكائن المقسّم والمجزّأ عسفاً، لكن بـاعتباره مجموعةً continuum ، القادر إذن على رؤية مجرى الأحداث ـ سيرفض مفهوم العلة والمعلول وينكر كل شرطية.

113 من أجل علم السّموم

لكي ينشأ فكـرٌ علمي لابد من التحـام كثير من القوى : وقد وجـب ابتكار كل هـاته القـوى الضروريـة وممارستهـا والاعتنـاء بها كل واحـدة على حدة! غير أنـه في عـزلتها؟ كـان لها مـرارا أثـرٌ غير الذي لها الآن داخل الفكـر العلمي حيث تتحـدد وتنتظم بشكل متبادل : ـ لقـد فعلت باعتبارها سماًّ، مثلاً الـدافعُ الارتيابي، الدافع

(*) إتصالية.

النافي، الدافعُ المتـوقَّع، الدافعُ الصّنافي [و] الدافعُ الهدّام. لقد كان لـزاما التضحية بمئات الرجال قبل أن تشرع هاته الدوافع في فهم تعايشها وتشعر بكونها توابع سلطة منظّمة في فـؤاد نفس الفرد! وأنه لايـزال هناك فرق كبير قبل أن تلحقَ القـوى الفنية والحكمـة المعياريـة للحياة بـدورهما بالفكـر العلمي، ويتكوّنَ نظـامٌ عضويٌ سـامٍ سيظهـر العـالمُ بـالنسبة إليـه والطبيبُ والفنـانُ والمشرّعُ مثلما نعـرفهم اليـوم رِثّـاثٍ حقيرة!.

114 ضخامة العنصر الأخلاقي

إننا نؤسـس الصورة التي نراها لأول مـرة مباشرة بمساعدة كل تجاربنـا القديمة، كل مرة حسب درجة نزاهتنا وإنصافنا. حتى في مجال الإدراك الحسي لاتوجد تجارب أخرى معيشة غير التجارب الأخلاقية.

115 الاخـــطاء الأربعـــة

لقد رُبِّي الإنسان بأخطائه: فهو لم ير نفسـه أولا إلاّ ناقصا؛ ثانيا، ادّعى ميزاتٍ وهميـة؛ ثالثـا، أحس أنه يَشْغَـلَ في تراتبيـة الحيوانـات مـرتبة خـاطئة بين الحيـوان والطبيعة؛ رابعا، لقد ابتكر باستمـرار سلالم جديدة للقيم، اعتبرها لبعض الوقت، أزلية ومطلقـة، بحيث أن الدافع الانساني كذا و الحالـة الانسانية كذا، كـانا يجدان نفسيهما بالتناوب في المرتبة الأولى، معظّمين بهذا التقدير. لو غضضنا الطرف عن أثر هـاتـه الأخطاء الأربعـة سنكـون قـدغضضنـا النظر عن مفـاهيم الانسـانيـة، عن الاحساس الانساني وعن «الكرامة الانسانية».

116 الغريزة القطيعية

أينما توجد الأخـلاق يوجد تثمينٌ وتراتبيـةُ الاندفاعات والأعمال الإنسـانية. مثل هذا التثمين وهاته التراتبية يعبران دائما عن حاجيات جماعة، [عن حاجيات] جمهور قطيعي: فما يعود عليه بالنفع بالدرجة الأولى ـ كما الذي بـالدرجة الثانية أو الثالثة ـ يشكّل أيضا المعيار الأسمى لقيمة كل الأفراد. بـالأخلاق يجد الفرد نفسهُ مستدرَجاً ليكون تـابع القطيع وإلى عدم ادعاء أيـة قيمة إلا بـاعتباره تابعـا. بما أن شروط بقاء طائفة كانت شـديدة الاختلاف عن شروط بقاء طائفة أخـرى، فقد وُجدت أخلاق شديدة الاختلاف؛ و إذا ما تأملنا اعادة الصهر الجوهرية التي ستصدر عن الشرائح القطيعيـة وعن الطـوائف، عن الـدول وعن المجتمعـات، فإننـا سنستطيع أن نتنبّأ

بمجيء أخلاق شديدة الاختلاف. فالأخلاقية ليست سوى الغريزة القطيعية الفردية.

117 تبكيت الضمير القطيعي

إبان عهود الانسانية الغابرة والطويلة كان هناك نوع من تبكيت الضمير غير الذي هو في الحاضر. فالناس لايشعرون بالمسؤولية اليوم إلا عما يريدون وعما يفعلون، ويحملون في ذاتهم موضوع أنفتهم: كل مشرّعينا ينطلقون من هذا الاحساس باللذة والرضى الذي يلمسه الفرد في ذاته كما لو كان هذا منبع القانون منذ الأزل. ولكن خلال أطول مدة من تاريخ الإنسانية لم يكن هناك أبشع من إحساس الفرد بكونه معزولا. فأن تكون وحيدا، أن تكون لك طريقتك الخاصة في الإحساس، ألاتطيع ولاتسود، أن تشكل فردا، ـ هذا الذي لم يكن في الماضي لذة، بل عقوبة؛ لقد كان محكوما على الناس «بالفرد». فحرية التفكير كانت تُعتبر الشقاء ذاته. وبينما نحس نحن بالقانون والاندماج كإكراه وحرمان، كان الناس يحسون بالأنانية كمسألة مضنية، كضيق حقيقي. أن تكون ذاتك، أن تقيّم ذاتك تبعا لوزنك ومقاييسك الخاصة ـ هو ذاما. كان في الماضي منافيا للذوق. لربما اعتبر الميل لهذا الإتجاه جنونا: لأن مجرد أن تكون وحيدا كان يستتبع كل المصائب، كل المخاوف. فيما مضى كان الإحساسُ بالخطأ جارَ الـ «قدرية» القريب؛ فكلما تصرف الناس بحرية أقل، كلما تجلّت الغريزة القطيعية، لا المنحى الشخصي، في الفعل، كلما حسب الناس أنهم أخلاقيون. فكل ما يُلحِق الضررَ بالقطيع، سواء شاء الفرد أم أبى، كان يسبب تبكيت الضمير ليس فقط للفرد ذاته ـ لكن لجاره، بل للقطيع كله! ـ وهذا ما غيّرنا فيه حكمنا أكثر.

118 إرعــــاء

هل هناك من فضيلة في أن تتغير خليّة تبعا لتغيرات خليّة أقوى؟ إنها لا تستطيع فعل غير ذلك. وهل هناك خُبث في أن تتمثل القويةُ الضعيفةَ؟ هي أيضا لاتستطيع فعل غير ذلك. إنه شيء ضروري بالنسبة لها، لأنها تطمح إلى تعويض وافر وتريد أن تتجدد. وبناء عليه يسعنا أن نميز في الإرعاء بين: الدافع إلى التمثل والدافع إلى الخضوع، (إلى أن يُتَمَثَل)، بحسبما يحس فيه الأقوى أو الأضعف من الإرعاء. إن اللذة والاشتهاء تختلطان لدى الأقوى الذي يريد أن يحوّل شيئا إلى تابعه الخاص: وتختلط لدى الأضعف، الذي يرغب في أن يصير تابعا، لذة وإرادة أن

يكون مشتهى. ـ الشفقة عند رؤية الأضعف هي، أساسيا، أول إحساس يحس بلذة من الدافع التمثيلي. يجب أن لاننسى أن مفهومي «ضعيف» و «قوي» نسبيان كلاهما.

119 لاغيـــريّة

ألاحظ لدى كثير من الأشخاص فائضا من القوة ومن اللذة ينزع بهم ليصيروا تابعين: لهم فطنة ثاقبة لكل المواضع التي يمكن أن يكونوا فيها هم *أنفسهم* تابعين، فيسارعون إلى شَغْلِها. في هذا الصنف نجد النساء اللائي يتحولن إلى تابع للرجل الذي لم يتطور لديه هذا التابع إلا قليلا؛ على هذا النحو يصرنَ إما بورصة هذا الرجل، إما سياسته وإما اجتماعيته. مثل هاته الكائنات تحافظ على نفسها بالاندماج في جسد غريب: وإذا لم تفلح في ذلك، تغتاظ، تغضب وتأكل بعضها.

120 صحة الروح

لكي تكون وُصْفَة الإيثار الخاصة بعلم المداواة الأخلاقي «الفضيلة صحة الروح» (والتي وقّعها Ariston de Chios) عمليةً، كان يجب أن تُعدَّل على الأقل لتصير بهذا المعنى: «فضيلتُك هي صحة روحك». لأنه لاتوجد صحة بذاتها، وكل المحاولات لتعريفها قد باءت بالفشل على نحوٍ محزنٍ. وما يهمّ هنا لتحديد *الذي* يشكل حالة صحية، حتى بالنسبة *لجسدك*، هو هدفُك، أفقُك، هي قواك، دوافعُك، أخطاؤك، وخاصة مُثُل روحِك وخيالاتها. هكذا توجد حالات صحة لاحصر لها؛ وكلما سمحنا للفرد المتفرد، والذي لاشبيه له، برفع رأسه، كلما نسينا معتقد «مساواة الناس»، وكلما وجب على أطبائنا أن يستغنوا عن مفهوم صحة عادية، وفي نفس الوقت عن مفهوم حِمية عادية، وعن السير العادي للمرض. إذ ذاك سيكون الأوان قد حان للتفكير في صحة *الروح* وفي مرضها ولمقارنة الفضيلة الخاصة بكل واحد مع صحته الخاصة. وفي نهاية المطاف سيبقى السؤال الكبير لمعرفة هل سنستطيع *التخلص* من المرض إطلاقا، حتى من أجل تطور فضيلتنا، ولاسيما معرفة إن لم يكن تعطشنا للمعرفة ولمعرفة ذاتنا بحاجة إلى الروح المريضة كما إلى الروح السليمة: باختصار، [معرفة] إن لم تكن الإرادة الفريدة للصحة حكما مسبقا أبدا، [إن لم تكن] جبنا وربما بقية من بربرية ومن حالة مشتدية من أكثر الحالات دقة.

121 الحياة ليست برهانا

لقد ابتَنَيْنـا عالما نستطيع أن نحيا فيه ــ بافتراض أجساد، خطوط، مسـاحات، أسباب ونتائج، [بافتراض] الحركة والسكون، الشكل والمضمون : فدون مثل أقسام العقيدة هاته لن يطيق اليوم أي واحد أن يحيا! غير أنه لم يُبَرْهن عليها حتى من أجل هذا ـ فالحياة ليست برهانا : إذ أنه ضمن شروط الحياة قد يردُ الخطأ.

122 الشكوكية الأخلاقية في المسيحية

لقـد ساهمت المسيحيـة أيضـا بقسط وافر في الــتنوير : لقـد لقنت الشكوكيـة الأخلاقيـة، بطريقـة نفاذة وفعـالة، من فـرط الإتهام والإغاظـة، ولكن بصبر ودقة لايعرفـان الكلل : لقد دمّـرت في كل متفرد اعتقادَه في «فضائلــ»ـه الخاصـة؛ لقد وارت الى الأبد تلك الوجوه الكبيرة الفاضلة التي كـانت تزخر بها العصور القديمة، أولئك الناس الشعبيين المشربين بقـداستهم، الذين كانوا يسيرون بسرعـة مصارعي الثيران. ونحن الذين تكوّنا في المدرسة المسيحيـة للشكوكية، حين نقرأ اليوم الأعمال الأخلاقية للقـدماء، مثل أعمال Sénéque و Epictète فإننـا لانفتأ نشعر بتعـال آني ونُفعَم بالتفهم وبلمحـات سرية؛ حين نقرأهـم نشعر وكأننا نسمع طفـلا يتحدث أمام شيخ مسن، أو شـابة حسناء متحمسة تتحـدث أمام لاروشفوكو : إننـا نعرف جيدا ممّ تتكون الفضيلة! غير أننا في نهاية المطاف، قد مارسنا هاته الشكوكية نفسها على كل الحالات والسياقات *الدينية* مثل الذنب، تبكيت الضمير، المغفرة، التطهير، وتركنا الدودة تنخر بحيث أنه انطـلاقا من الآن، عند قراءة أي كتاب مسيحي نشعر بنفس التعـالي، بنفس نفـوذ البصر الـدقيق : ـــ نعـرف جيـدا كـذلك ممّ تتكـون الأحـاسيس الدينيـة! وقـد آن الأوان لنعـرفها ونصفهـا جيـدا، لأن رجال العقيـدة القديمة الأتقياء هـم أيضا سيتوارون : لنحافظ على الأقل على صورتهم وطرازهـم من أجل المعرفة!.

123 المعرفة أكثر من وسيلة

حتى *بدون* هذا الشغف الجديد ـ أعني شغف المعرفة ـ فقد يُدفع بِرُقيّ العلم قُدُمًا : فلقد استطاع حتى الآن أن يتطور وينمو دون هذا الشغف. إنَ حُسْن الظن بالعلم، الرأي المسبق المؤيّـد الذي يحظى به، والغالب على دولتـا الآن (والذي كان غالبا حتى على الكنيسة في السابق) يرتكـز في العمق على حقيقة مُؤداها أن هذا الميل

المطلق، والـذي لايقـاوم، نـادرا مـا تكَشَفٌ في العلم، وأن العلم لا يتحـول *على الاطلاق* ليكون شغفـا، بل حالـةً، «مزاجَ شعب». غـالبا مـا يكفي من المعـرفة: *الحب ـ الرغبة* (الفضول)، يكفي *الحب ـ الغرور*، تكفي ألفـة العلم، مع فكـرة الأمجاد والأمن المادي المبطّنة، بل يكفي الكثيرين ألا يفعلوا شيئا بفائض وقت الفراغ غير أن يقـرأوا، أن يجمعوا، أن يـرتبوا، أن يـلاحظـوا ويواصلـوا السرد: «حماسهم العلمي» هو غمّهم. كان البـابا ليون العاشر (في le Brefa Béroald) قد أثنى على العلم؛ إنه يصفـه بأجمل زينة، بأكبر مـدعاة للفخـر في حياتنا، بـالعمل النبيل في السراء والضراء؛ «بـدونـه، يقـول في الأخير، لن يكون لأي مشروع إنسـاني مُـرْتَكَـزٌ صلبٌ ـ بل يبقى هو ذاته محكوما بقـدر غامض لايستقر على حال!» لكن هذا البابا المتشكك بما فيه الكفـاية يعـرف كيف يخفي طريقتـه الحقيقية في الحكم على العلم، مثل سائر الكنسيين الآخرين المادحين للعلم. ومع ذلك سنحزر من كلماته أنه يجعل العلم فوق الفن، وهـذا شيء شاذ لدى صـديق لربّـات الشعر مثله: إنها لمجـاملة محضـة، في نهاية المطـاف، إن لم يتكلم إطلاقـا عما يضعه عـاليا فـوق كل علم عن «الحقيقـة الموحاة» وعن «خـلاص الروح الأبـدي» ـ مقـابل هذا مـاذا تمثل الزينـة، الفخرُ، اللهـوُ، أمنُ الحيـاة، بالنسبة إليـه؟ «ما العلم إلا شيء ثـانوي، ليـس شيئا نهائيا ومطلقا، ليس شيئـا يستحق الشغف» ـ لقد بقي هذا الحكـم مكتوما في نفس ليون: ومجمـل القول إنه الحكـم الذي تقـوم عليه المسيحية تجاه العلـم! في العصور القديمة كـانت تُنتقص كرامتها واعتبارها بقـدر ما كان أشد حواريّيها حماسـا يولون الأفضلية للتسامي نحو *الـفضيلة*، وبقدر مـا كان الناس يظنـون أنهم يضفون على المعرفة أسمى المديح بمجرد أن يبجلوهـا كأحسن وسيلة للفضيلة. والحال أن ماهو جديد في التاريخ هو أن المعرفة تريد أن تكون أكثر من مجرد وسيلة.

124 عـلى أفـق المطلـق

لقد غادرنا الأرض، أبحرنا! لقد قطعنا كل الجسور ـ فضلا عن ذلك، لقد تركنا وراءنا الأرض! ومنذ الآن خذ حذرك أيها المَرْكَب الصغير! على جانبيك يمتدّ المحيط لاريب أنـه لايصخب دائما، وأنه يهدأ أحيـانـا مثل الحرير والـذهب ومثل هـاجس الحسن. غير أنـه ستأتي ساعـات تعرف فيهـا أنه غير ذي حدود وأنـه لاشيء مخيف أكثـر من المطلق: أيها الطائر المسكين الـذي أحسّ بنفسه طليقـا والذي منـذ الآن تصطدم بقضبان مثل هـذا القفص! ويل لك إن استولى عليك الحنين إلى الوطن كما لو كان هناك فيه حرية أكثر ـ والحالة أنه لم تعد هناك «أرض!».

125 الأخــــــرق

أما سمعتم بـذلك الرجل الأخرق الذي، بعـد أن أوقد فانوسـه في وضح النهار، صار يجري في ساحة السوق ويصيح دون توقف : «أبحث عن الاله! إني أبحث عن الإله!» ـــ ولما كان كثير ممن لا يـؤمنون بـالإله متـواجدون هنـاك بالضبط فقـد أثار ضحكـا كثيرا. هل فقدنـاه؟ قال أحـدهم. هل شرد مثل طفل؟ قال آخـر. أم هل يختفي في مكـان ما؟ هل هـو خـائف منا؟ هـل أبحر؟ هل هاجر؟ـــ هكـذا كانـوا يصيحون ويضحكـون جميعا في ذات الـوقت. سارع الأخـرق إلى وسطهم واخترقهم بنظراتـه. «أين الإله؟ صاح فيهم، أنا سأقـوله لكم! لقد قتلناه ـ أنتم وأنـا! نحن كلنا هم قتلتـه! ولكن كيف فعلنا ذلك؟ كيف استطعنـا أن نفرغ البحر من أعطـانا الإسفنجة لمحْـوِ الأفق كله؟ مـاذا فعلنا بإبعادنـا هاتـه الأرض عن شمسها؟ إلى أين تسير الآن؟ إلى أي شيء تقـودنا حـركتهـا؟ أبعيدا عن كـل الشموس؟ ألم ننـدفع في منحـدر طويل؟ وذلك إلى الخلف، إلى الجانـب، إلى الأمام، إلى كل الجوانب؟ أمـا يزال هناك أعلى وأسفل؟ ألَسْنَانتيـه كما لو عَبْر عدم مطلق؟ ألا نحس نفس الفراغ؟ اليس الجو أبرد ممـا كان؟ أليس الـوقت ليلا باستمـرار ويصير ليلا أكثـر فأكثر؟ ألا يجب أن نوقـد الفوانيس منذ الصبـاح؟ ألا نسمع شيئا بعـدُ من ضوضاء الـرمّاسين الذين دفنوا الإله؟ ألا نشمّ شيئا أيضا من التدعص الإلهي؟ ـ فالآلهة أيضا تتدعّص! مات الإله! [و] يظل الإله ميتا! ونحن هم الذين قتلناه! كيف سنعزي أنفسنا نحن أكبر القتلة؟ إن أقـدس وأقوى ما ملكَ العالمُ إلى الآن قـد نزف دمَه بطعنات مُـدانا ـ من سيمسح هـذا الدم عن أيـدينا؟ أي مـاء سيطهّرنـا؟ أية مـراسيم تكفيرية، أيـة ألعاب مقدسة يجب علينا أن نبتكر؟ وعِظَمُ هاتـه الفعلة، أليس شيئا يفوق طاقتنا؟ ألا يجب علينا أن نصير نحن أنفسنـا آلهة كي نبدو جديرين بهاتـه الفعلة؟ لم تحدث أبدا فعلة أعظم مـن هاته ـ وكل من سيـولد بعدنا سينتمي، بمقتضى هـاته الفعلة نفسها، لتاريخ أسمى ممـا كان عليه التاريخ حتى الأن!» هنا تـوقف الرجل الأخرق وتأمل مستمعيـه : هم بـدورهـم ركنـوا الى الصمت وصـاروا ينظـرون إليـه دون أن يفهموا. وأخيرا ألقى بفانوسه على الأرض حتى أنه انكسر وانطفأ. «لقد حَلَلْتُ قبل الأوان، قال إثر ذلك، لم يحِنْ أواني بعدُ. هذا الحدث الرائع ما يزال يمشي ويسافر ـ لم يبلغ آذان الناس بعـد. يلزم الصـاعقة والـرعدَ بعضُ الـوقت، يلزم ضـوء النجوم بعض الوقت، يلزم الأفعال بعض الوقت، يلزمها كلها بعض الوقت، بعد تمامها، لتُرى وتُسمع. هاته الفعلة أبعد عنهم من النجوم الأشّد بعدا ـ ***ومع ذلك فإنهم هم***

الذين قاموا بها!» ويحكى أيضا أنّ الرجل الأخرق دخل في نفس اليوم مختلف الكنائس حيث رتل (*) Requiem aeternam Deo ولما طُرِدَ خارجا وأرغِم على تبرير سلوكه لم يكف عن تكرار : «ما هي هاته الكنائس إذن إن لم تكن مدافن وقبور الإله؟» .

126 التفسير الصوفي

تشتهر التفسيرات الصوفية بكونها عميقة : الحقيقة أنها ليست حتى سطحية .

127 الآثار البعدية لأقدم تديّن مفرط

يخيل لكل إنسان نزق أن الإرادة هي الحقيقة الوحيدة الفاعلة : أن الإرادة شيء بسيط، معطى محض، لأيستنبط، ويمكن فهمه في ذاته. إنه مقتنع أنه حين يفعل شيئا ما، كأن يضرب ضربة مثلا، يكون هو الذي يضرب، وأنه يكون قد ضرب لأنه *أراد* أن يضرب. إنه لايلاحظ شيئا من الطبيعة الإشكالية للظاهرة، لكن إحساس *الإرادة* يكفيه ليس فقط للإقرار بحقيقة العلة والمعلول، بل أيضا ليعتقد أنه *فهم* العلاقة بينهما. إنه لا يعلم شيئا عن إوالية الحدث ولا عن العمل الدقيق ذي مئات الفروق الذي يجب أن يُنْجَزَ لكي يفضي إلى الضربة، كما لا يعلم شيئا عن الإرادة في حد ذاتها عن إنجاز ولو جزء من هذا العمل. الإرادة بالنسبة إليه قوة فاعلة بشكل سحري : الاعتقاد في الإرادة، كما في علة الآثار هو اعتقاد في قوى فاعلة بشكل سحري. والحالة أن الإنسان كان في البدء يعتقد في وجود إرادة مسبِّبة حيثما شاهد وقوع حادثة ما، مثلما كان يعتقد في وقوفه شخصيا خلف العمل ــ لقد كان مفهوم الإوالة غريبا عنه تماما. غير أنه نظرا لكون الإنسان لم يعتقد، لمدة طويلة جدا، إلا في وجود الأشخاص (وليس في وجود المواد، القوى، الأشياء، إلخ)، فقد صار عنده الاعتقاد في حقيقة السبب والنتيجة عقيدة أساسية يطبقها الآن أيضا على أية حادثة، في كل مكان، ـ بشكل غريزي، بنوع من التأسلية، ذي مصدر غابر. إن الأطروحات : «لامعلول دون علة» كل معلول علة جديدة» تبدو كتعميات لأطروحات أكثر محدودية : «حيثما قمنا بالفعل فقد أردنا»، «لايمكن إن نمارس الفعل إلا على كائنات مريدة»، «ليست هناك أبدا معاناة خالصة ودون عاقبة، ليس هناك فعل دون عاقبة، كل معاناة هي انفعال مصدره الإرادة» (إرادة الفعل أو

(*) ترانيم صلاة الله الأبدية .

الانتقام أو الدفاع عن النفس أو الإفتراء) ـ لكن في العصور البـدائية للإنسانية كان نوعا الأطروحات متشابهين، لم تكن الأولى تعميمات للثـانية، لكن هاته كانت تبيينا لتلك. ـ إن شوبنهاور، بإقراره بأن كل ما هـو موجود إن هو إلا من خلْقِ مُريد، قد أقر واحدة من أقدم الميثولوجيات: يبدو أنه لم يحاول أبدا تحليل الإرادة، لأنه، مثل أي إنسان، كان *يعتقد* في بساطة ومباشرة كل إرادة: ـ بينما الارادة ليست سوى إوالية متقنـة التـدبير لدرجـة تكـاد معهـا تخفى عن نظـر الملاحظ. أعارض شـوبنهـاور بـالأطـروحـات التـاليـة: أولا: لكي تـولـد الإرادة لا منـدوحـة من تمثيل اللـذة والاشمئـزاز. ثانيـا: لكي يتم الإحساس بـإثارة عنيفـة كلذة أو اشمئـزاز فإن ذلك يتوقف على تـفسير الفكـر الـذي، في أغلب الأحيـان ولا شك، يـراودنـا في ذلك بطريقة لاشعورية؛ فنفس الإثارة يمكن أن تفسر بكونها لذة أو اشمئزازا. ثالثا: إن اللذة والإشمئـزاز والإرادة لاتنتج الا لدى الكائنات الـذكية، أما الأغلبية السـاحقة من الكائنات فلاحظ لها في ذلك.

128 قيـــــمة الصـــلاة(*)

لقـد وضعت الصـلاة لهذا الصنف من الأشخـاص غير القادرين إطـلاقـا على التفكير بأنفسهم، الذين لايعـرفون للروح تسـاميا، أولا يشعرون بتطوره؛ تُـرى ماذا سيفعل مثل هـؤلاء الناس في أمـاكن مقـدسة وفي كل حـالات الحياة الجسيمـة التي تتطلب شيئـا من الهدوء ونوعـا من الكرامـة؟ وحتى لا *يزعجوا* على أي حـال فإن حكمة كل واضعي الديـانات، للصغار كما للكبار، قـد وصفت لهم صورة الصلاة كعمل طويل وآلي تمارسه الشفاه، موصـولا بجهد الذاكرة، مع وصف وضع الأيدي والأرجل والعيـــون أيضـا! ولايهم أن يجتروا منـذ ذلك الحين، مثـل التبتيّين، مـرات لاحصر ها، قولهم"Om mane padme Rum"، أو كما في Bénarès، أن يعدوا على أصابعهم اسم الإلـه رام ـ رام ـــ رام (وهلم جرا إنْ بسحنة أنيقـة أو لا)، أو ليعظموا Vichnou أو الإله، متضرعين إلى الـواحد بآلاف أسمائه، وإلى الآخر بـاسمائه التسعة

(*) لابد من الإشـارة إلى أن نيتشه لايعني في هـذا السياق أو غيره الثقـافة العـربية الاسـلامية، بل ثقـافة العقائد الأخرى وقد لحقتها تحريفات وتشويهات، والـديانات الأرضية؛ يقول في « المسيح الدجال»: «لقد حـرمتنا المسيحيـة من جني ما أثمـرته الثقافـة القديمـة؛ وفيما بعد حـرمتنا كذلك مـن جني ما تمخضت عنه الثقافة الاسلامية (...) ـ إنها حاربت ثقافة ينبغي على قرننا التاسع عشر ذاته أن يشعر أمامها بالضعف و « التأخر »؛ والأمر بيّن واضح، أنهم كـانوا يجرون وراء الغنائم: فالشرق كان غنيا ثريا.. لقد كانت الغزوات قرصنة متقدمة ولاشيء غير ذلك »... ويمكن الرجوع كذلك إلى فصل « بين غادتين في الصحراء » من كتابه: « هكـذا تكلم زرادشت »، أو الترجمة العربية لنفس الكتاب لفليكس فارس، دار القلم ـ بيروت.

والتسعين؛ أو أن يستعملوا ذاكرتهم الحافظة للصلوات أو السبحات؛ ـ المطلوب هو أن يشغلهم هذا النوع من العمل لمدة ما ويمنحهم مظهرا مُطاقا؛ لقد وُضعت صلاتهم لصالح الناس الورعين الذين لهم تجربة حميمية في الأفكار والسمو. وحتى هؤلاء يعرفون لحظات من التعب يشعر ون فيها، رغم كل شيء، بالعملية الناجعة لإوالية ورعية مكونة من سلسلة من الكلمات والأصوات الجليلة. غير أنه إنْ عرف هؤلاء الرجال النادرون، ـ في كل دين يكون الرجل المتدين استثناء ـ كيف يكتفون ذاتيا: فإنه يبقى أن الفقراءروحيا لن يعرفوا ذلك، وأن حرمانهم من تتمة صلواتهم يعني حرمانهم من دينهم: هذا ما تبرهن عليه البروتستانية أكثر فأكثر. أي أن الدين لايتطلب من هؤلاء شيئا غير أن *يهدأوا* بأعينهم، بأيديهم، بسيقانهم وبمختلف الأعضاء: بهذا يكون لهم شيء من الحظ في أن يظهروا جميلين مؤقتا و ـ أكثر شبها بالإنسان!

129 شروط الإلـــه

«إن الإله ذاته لن يستطيع البقاء بدون الناس العقلاء» ـ قال لوثر، وبحق، غير أن «قدرة الإله على البقاء ستكون أقل بدون الخُرق» ـ هذا ما لم يقله لوثر الشجاع!.

130 حلّ خطيـــر

إن الحلّ المسيحي القاضي باعتبار العالم ذميما وقبيحا قد صيّر العالم ذميما وقبيحا.

131 المسيحية والانتحار

لقد جعلت المسيحية من الرغبة الكبيرة في الانتحار التي كانت سائدة وقت ظهورها عماد قوّتها: فبينما كانت تحرم بشكل صارم كل أشكال الانتحار الأخرى لم تترك سوى شكلين ألبستهما أسمى كرامة وغلفتهما بأغلى الآمال: الاستشهاد، وقتل الزاهد لنفسه ببطء.

132 ضـد المسيحيـة

منذ الآن لن تكون حججنا هي التي تقرر ضدّ المسيحية، بل ذوقنا.

133 مبـــــدأ

إن الفرضيـة الحتمية التي يجب أن ترجع إليهـا الإنسانيـة باستمرار تبـدو على مر الأيام *أقوى* من العقيدة الأكثر تشبثا بشيء غير حقيقي (مثل العقيـدة المسيحية). على مر الأيام: أي في هذه الحالة، بعد مائة ألف سنة.

134 المتشائمون باعتبارهم ضحايا

حيثما يشرع اشمئزاز عميق من الـوجود في الاتضاح تبـدو للعيان الآثار البعـدية للخطإ الجسيم في التغذيـة الذي جعل شعبٌ عظيم من نفسـه مرتكبـه. هكذا فإن انتشار الوذية (و *ليس* ظهورهـا) يُعزى بقـدر كبير إلى إفراط الهنـدوس في استهلاك الأرز و الاقتصار عليـه تقريبـا، و إلى الخمول التام الـذي ينتج عنه. لـربما كان من الملائم تفحص عدم الرضىٰ الأوربي في العصور الحديثة من جهة المشروب الذي كان يتعاطـاه أسلافنا، خاصـة من عاش منهم في القرون الـوسطى، تحث تأثير الميولات الجرمـانية: القـرون الوسطى، هـذا يعني تسمّم أوربـا بالكحـول. ـ إن الإشمئـزازَ الألماني من الحيـاةِ ذبولٌ شتـويّ محض، دون نسيان آثـار جوّ القبْـوِ وفوحـان المقلاة الخاّصْين بالمساكن الألمانية.

135 أصــــل الإثـــــم

الاثم، كما هو محسـوس به الآن أينما تسود المسيحيـة أو أينما سادت زمنا مـا، الـ «إثم» إحساس يهودي، إبتكـار يهودي، وقد كـانت المسيحية ترمـي في الواقع، من خلال خلفية كل الأخلاقية المسيحية هاته، إلى «تهويد» العالم. إلى أي مدى نجحت في ذلك بأوربا، هذا مـا نشعر به بدقـة أكثر في مدى إحساسنا بـالغربة تجاه العصر اليونـاني القديم ـ العالم الخالي من الإحسـاس بالإثم ـ، رغـم كل النيـات الحسنة في المقاربة والتمثل التي مـافتئت تبديها أجيال بكاملهـا وكذلك كثير من الشخصيات الممتازة، «إن الإله لا يغفر لك إلا إذا تُبْتَ» ـ هذا موضوع استهزاء وفضيحة بالنسبة لليوناني؛ لقد كان يجيب: «أنه هكذا كـان عبيدٌ يتخيّلونه». إننا في الواقع، نفترض هنا كائنا قويا، قديرا، ومع ذلك ناقماً: إن قوته من العظمة بمكان حيث لن يلحقه أي ضرر إن لم يكن في شرفه. كل إثم إسـاءة للإجلال، crimen laesae majetatis divinae* ـ لاغيرا التوبة، الإذلال، الإحتقار، ـ هذا هو الشرط الأول والأخير الذي

(*) جريمة في حق الجلالة الإلهية.

يربط به غفرانه : إنه ترضية لشرفه الإلهي إذن! بينما معرفة إن كان الإثم يسبّب أضراراً أخرىٰ، إن كان يـزرع شرا عميقا ومتناميا ينتشر بين الناس، مثل مـرض ما، يستولي عليهم ويقتلهم واحدا تلو الآخـر، ـ هذا ما لا يبالي به هذا الإلـه الشرقي الذي يغار على شرقه : الإثم جريمة في حقه، ليس في حق الإنسانية! إنْ أسبغ مغفرته على أي كان فإنه يهبه أيضا لا مبالاته الخاصة تجاه العواقب الطبيعية للإثم. الإله والإنسانية هنا شديدا التباعد، شديدا التعارض بحيث أنه في العمق لايستطيع أن يعرض نفسه لشبهـة ارتكـاب إثم في حق النـاس ـــ يجب أن لا يُحكم على أي فعل إلا ***من خلال عواقبه الفوطبيعية***، وليس الطبيعية : هكذا يريده الإحساس اليهودي الذي يشكل كل شيء طبيعي لديه الشائن ذاتَه، مقابل ذلك كان ***الإغريق*** أقرب إلى التفكير في أن انتهاك المقدسات قـد يكون أمرا نبيلا أيضا ـ حتى السرقة، كما في حـالة بروميثيوس، حتى ذبح المواشي كتعبير عن غيرة جنـونية، كما في حـالة أجـاكس : ولحاجتهم إلى إضفاء النّبل على انتهاك المقـدسات و إدماجه فيـه فقد ابتكروا ***التراجيديا*** ـ وهي فن وذوق بقيا غـريبين عن اليهودي في عمق طبيعته، رغـم كل مواهبه الشعـرية، وكل نزوعه نحو ما هو سامٍ.

136 الشـعـب المـخـتـار

إن اليهود الـذين يشعرون أنهم الشعب المختـار من بين الشعوب، خـاصة لأنهم يمثلون العبقريـة الأخلاقية بين الشعوب (بفضل القـدرة التي كانت لهم ***على احتقار الإنسان بشكل أشد*** مما لم يفعلـه أي شعب قط) ـ يشعـرون، حين اتصالهم بمَلِكهم الربـاني والمقدس، بغبطة ممـاثلة لغبطة الأرستقـراطية الفرنسيـة حين تتصل بلويس الـرابع عشر. لقد صـارت هـاته الأرستقـراطية مُهمَلـة لتركهـا نفسِها تجرّدُ من قـوّتها وسيادتها، وحتى لا تشعـر بذلك، لكي تنساه، كان لابـد لها من مجد، من سلطة، من كمال قـوة ***لامثيل له*** لاتبلغه إلا الأرستقـراطية. فبقدر مـا ترفع، بمـوجب هذا الامتياز، إلى المقام العالي للبلاط، من حيث تنظـر إلى كل من دونها بازدراء، بقدرما تتغلب على كل نـزق في شعورها الخاص وبهذا الشكـل كانت، عن قصـد، تدرج برج القـوة الملكية أعلى فأعلى، إلى أن يـلامس السحـاب وتضيف إليه آخـر احجار قوتها الخاصة.

137 على سبيل المثل

لم يكن المسيح متصوَّرا إلاّ ضمـن أحد مشاهـد يهوذاـ أعني داخل مشهـد كانت تخيم عليه بـاستمرار عـرّاصة عاصفـة يهوه القاتمة والمهيبة. هنـا فقط كانت البـارقة النادرة والفجائيـة لشعاع الشمس عبر عتمة الليل النهاري الفظيعـة والدائمة تُحَسُّ كمعجـزة الـ «حب»، كشعاع الـ «نعمـة» الـلامستحَقّة. هنـا فقط كـان المسيح يستطيع أن يحلم بقوس قـزحه وبسلّمـه السماوي الذي يهبط عبره الإلـه الى الناس، بينما في كل الأماكن الأخـرى لم يكن الجو الصحو والشمس يشكلان سوى القـاعدة والتفاهة اليومية.

138 خطأ المسيح

لقد كـان منشيء المسيحية يخال أنه لم يكـن هناك شيء يجعل الناس يعـانون غير ذنوبهم: ـ لقد كان هذا خطأه، خطأ من يشعر أنه غير مذنب ومن تنقصه التجربة في هذا المجال! هكذا كانت روحه تتنسم هاتـه الرحمة العجيبة الغريبة بالنسبة لضيق كان حتى شعبه، وهو مبتكر الذنب، نادرا مـا يعاني منه كما يعاني من ضيقٍ شديد! لكن المسيحيين عرفوا لاحقا كيف يُنصفون معلمهم ويكرسـون خطأه على اعتبار أنه «حقيقة».

139 صبغة الشهوات

إن طباعـا مثل طبع الحواري بولـس لاتملك إلا عينا لامّة تجاه الشهـوات: فهي لاتسعى لأن تعرف منها إلا مـا يوسّخ، ما يشوه، مـا يقطع القلب، ـ فأمنيتها المثلى بالتـالي هي تحطيم الشهـوات: إنها لاتشعر بنفسهـا مطهّرة تمامـا إلا فيما هو إلهي. وعلى عكس بولس واليهـود تماما فإن الإغـريق قد خصصـوا أمنيتهم المثلى للشهوات بالضبط وأحبوهـا، مجّدوها، زخرفوهـا، وألّهوها. لم يكونوا، بكل بـداهة، يشعرون فقط بسعـادة أكثـر في الشهـوة، بل أيضـا بطهـارة وبـربّـانيـة أكثـر من المعتـاد. ـ والمسيحيون؟ هل كـانوا يـريدون أن يصيروا يهودا بهذا؟ تـرى هل كانـوا سيصبحون كذلك؟.

140 يهودي مفرط في يهوديته

لـوشـاء الإلـه أن يصير مـوضعـا للحب لكـان عليـه أولاأن يترك دور القـاضي والقضـاء: ـ فـالقـاضي ليس مـوضعا للحب، حتـى وإن كان عـادلا. إن منشيء المسيحية لم يكن له فهم دقيق لمثل هذا، ـ باعتباره يهوديا.

141 شرقي مفرط في شرقيته

ماذا؟ إلـه لايحب الناس إلا إذا آمنـوا به، ويلقي نظرات وتهديـدات مرعبـة ضد ذلك الذي لا يؤمن بهذا الحب! ماذا؟ أيكـون حبٌّ مشروطٌ شعورَ إله على كل شيء قـديـرا! حب لم يعـرف حتى كيف يتغلب على إحسـاس الشرف وعلى روح الإنتقـام النزقـة؟ كم هو شرقي كـل هذا! «إن كنت أحبك، فهل يعنيك هـذا؟» هذا مـا قد يكون نقدا كافيا للمسيحية كلها.

142 تقـــريـظ

كـان بوذا يقـول: «لا تتملق وليّ نعمتك» لنـردد هـاته الحكمـة داخل كنيسـة مسيحية: ـ في الحين سيطْهُر الهواء من كل ما هو مسيحي فيه.

143 عن أكبر فائدة لتعدد الآلهة

أن يستطيع الفرد وضـع مَثَلِهِ الأعلى *الخاص*، أن يجعل قوانينه، أفـراحه وحقوقه تنتج عنـه، ـ هـذا ما كـان يعتبر حتى ذلك الحين أفظع الضـلالات الإنسانيّـة دون شك، كان يعتبر الوثنيـة ذاتها: في الواقع، إن بعض الرجال النادرين الـذين كانوا يجرؤون على التصرف هكذا كانـوا دائما في حاجة، في نظرهم، الى آعتـذار كان معناه عادة: «لا لست أنا! لا لست أنا! لكن إلها من ورائي!» لقد كان لهذا الدافع الذي لايقاوم متسع من الـوقت ليَصرف نفسه في فن وقوة خلق الآلهة الرائعيْن، ـــ في تعدد الآلهة ـ، حيث يَتطهـر، يَكتمل، يَتنبّل: لأن الأمر يتعلق في الأصل بـدافع مبتذل ومستتر، مُزج بـالأنانيـة، بالعصيـان وبالحسـد. لقد كـان قانـون كل أخـلاقية في الماضي: ***أن تكون معاديا*** لدافع المثل الأعلى الخاص هـذا. لم يكن هناك إذاك سوى نموذج واحد: «الإنسان» ـــ وكان كل شعب يعتقد أنه ***يمتلك*** منه الشكل الوحيد والأخير. لكنه كـان مسموحـا، فوق الـذات، في الخارج، في ماوراءٍ بعيـدٍ، بتخيل ***تعدد النماذج***: الإله كذا لم يكن يُنكر ولم يكن يسبّ الإلـه كذا! هنا كان الناس لأول مرة يجرؤون على تخيل كائنـات فردية، كانـوا يوقرون حق الأفراد. لقـد كان اختلاقُ الآلهة والأبطال وكل أشكال الكـائنات الفوبشرية، على هـامش الكائن الإنساني أو دونه، كان اختلاق الأقزام، الجنيات، كائنات السنتور، كائنات السّتير، العفاريت والشياطين، كـان يشكل المقدمـة النفيسة لتبريـر طموحـات الأنا وسيـادة الفرد: فالحريـة التي كان يعترف بها لإله مـا ضدّ آلهة أخـرى ينتهي الفرد بإعطائهـا لنفسه

ضد القوانين، ضد التقاليد وضد الجيران. مقابل ذلك، ربما كان التوحيد، هذه النتيجة الصارمة لعقيدة الرجل الفريد السوي - وبالتالي الإيمان بإله سوي لاتوجد غداه سوى معبودات خداعة وكاذبة - ربما كان يشكل أكبر خطر على الإنسانية إلى ذلك الحين : إذ كانت مهددة بسبب ذلك بهذا التعلق البكّير الذي وصلت إليه، على قدرما نستطيع أن نتصوّر، أغلبية الأصناف الحيوانية الأخرى منذ وقت طويل ؛ وهي كلها، بما هي حيوانات، تؤمن فعلا بحيوان فريد سويّ وبمثل أعلىٰ من صنفها، وقد تمثلت أخلاقية التقاليد بشكل نهائي في لحمها ودمها. إن تعدد الآلهة قد جسّد مقدّما زندقة وتعددية فكر الإنسان : [أي] قوة إيجاد عيون جديدة وشخصية، جديدة وشخصية أكثر فأكثر، بحيث أنه، من بين كل الحيوانات، يفلت الإنسان وحده من ثبات المنظورات والآفاق الأبدية.

144 حروب الدين

لقد شكلت حروب الدين حتى الآن أكبر تقدم للجماهير : لأنها تبرهن على أن الجمهور قد شرع في تأمل المفاهيم باحترام. إن حروب الدين لاتبرز للوجود إلا ابتداء من الوقت الذي يكون فيه هدف المشاداة الحادة بين الطوائف هو تهذيب الحس الجماعي : بحيث أنه حتى الدهماء تتشدد وتستعظم بعض الجزئيات لدرجة احتمال أن يتوقف «خلاص الروح الأبدي» على أدنى الاختلافات في المفاهيم.

145 خطر النباتيين

إن الاستهلاك المفرط للأرز يدفع إلى تعاطي الأفيون والمخدرات مثلما يدفع الاستهلاك المفرط للبطاطس إلى تعاطي خمرة السنابس ؛ - لكن أثره البعدي الدقيق جدا هو أن يخضع [الإنسان] لاشكال من التفكير والإحساس تفعل فعل المخدرات. والحالة أن متعهدي أشكال التفكير والإحساس هاته، كالأطباء الهندوس مثلا، يشيدون بالضبط بتغذية نباتية خالصة يريدون أن يجعلوا منها قانونا للجمهور : إنهم بهذا يريدون أن يثيروا الحاجة التي يقدرون هم *أنفسهم* على تلبيتها وأن يزيدوا منها.

146 آمال ألمانية

يجب أن لاننسى أن أسماء الشعوب عادة ماتكون كُنىً جارحة. فالتتار، مثلا، هم الـ «كلاب» حسب اسمهم : هكذا عمّدهم الصينيون. أما اسم الألمان "die

"Deutschen" فيعني في الأصل الـ «وثنيين» : هكـذا سمى القوط المهتـدون الأغلبيةَ الكبيرة من إخـوانهم في العرق غير المعمّـدين ، راجعين إلى تفسيرهـم الخاص للروايـة الإغريقية عن السبعين حيث يشار إلى الوثنيين بالمصطلح الذي يعني : «الشعوب» في اليونانية ، لنراجع Ulfilas . ـ وقد يكون معقولاً أن يجعل الألمان لاحقا من اسمهم الإفترائي اسم شرف ، وذلك بتحولهم إلى أول شعب غير مسيحي في أوربا : لقد كان شوبنهاور مفخـرة لهم باستعداده لذلك بدرجة كبيرة . هكـذا يكون قد اكتمل عمل لوثر الـذي علّمهم ألا يكـونـوا رومانيين وأن يقـولـوا : «هأنـذا! مـا استطعتُ غير هذا!» .

147 سؤال وجواب

مـاذا تقتبس العشـائر المتخلفة من أوربـا قبل كل شيء؟ الكحـول والمسيحيـة ، المخدرات الأوربية . ـ وبم تهلك بأسرع ما يمكن؟ ـ بالمخدرات الأوروبية .

148 عن أصل الإصلاح

إبان فسـادها الكبير، كانت الكنيسة في ألمانيـا أقل فسادا : لهذا كان بـدء ظهور الإصلاح هناك دليلا على عدم تحمل مجرد بدايـات الفساد . في الواقع ، لم يكن هناك شعب أكثـر مسيحية ، نسبيا ، من الشعـب الألماني زمن لوثـر : لقد كانت ثقـافتهم المسيحية على وشك ازدهار رائع ومتنـوع ـ كان يجب انتظار ليلة أخـرى : كانت ليلة العاصفة التي ستدمر كل شيء .

149 فشل الإصلاحات

إن فشل المحاولات المتكررة لإنشـاء ديانات هلينية جديـدة يعود إلى مجد حضارة الإغريق الراقية ، حتى إبان عهد بدائي نسبيا : ويعود لمجد هاته الحضارة أن وجدت في اليونـان ، في وقت مبكر جـدا ، جماعةٌ من الأفـراد من طراز متنـوع ، لم يكن ممكنا علاج مختلف أشكال ضيقهم بوصفة فريدة من الإيمان والأمل . لقد كان فيثا غورس وأفلاطون ، ربما أومبيد وكُل أيضا ، و قبلهم بـزمن طويل المتحمسون الأورفيوسيون ، كانوا يرومون إنشاء ديانات جـديدة ؛ وقد كان للأوليان منهم أرواح ومواهب مُنشئي الدين ، وكانـت جد أصيلـة بحيث أننا لانملك إلا أن نندهش أمام فشلهما : فهما لم يتجاوزا إنشاء الطوائف . في كل المرات التي تفشل فيهـا إصلاحات شعب بأكمله ، وتتوصل الطوائف وحدها إلى إثبـات ذاتها ، يمكن أن نستنتج أن الشعب يوجد منذ

الآن في حالة تخلّق متعدد ويبدأ في التخلص من عـرائز قطيعية فظة، ومن أخلاقية التقاليـد : إنها حالة التقلب، البـالغة الدلالة، التي اعتـدنا نعتها افتراءً بـانحطاط التقاليد وفسادها، بينما هي تعلن عن نضج البيضة وقرب انكسار قشرتها. إن نجاح الإصلاح اللـوثري في البلـدان الشمالية لهو دليل على تخلفهـا عن البلدان الجنـوبية، وعلى ماكان الشمال يعـرفه أيضا من الحاجيات الكثيرة التماثل والقليلـة التنوع : فلو أن الحضارة الجنوبية القديمة لم تَتَبَرْبَـر تدريجيا بتمثل مفرط للدم الجرماني الهمجي، ولو أنها لم تفقد بهذا الشكل تفوقها الثقـافي، لما تم تمسيح أوربا إطلاقا. كلما كان في مقـدور فـرد أو فكـرة فرديـة أن يتصرفـا بشكل عـام ومطلق، كلما وجب أن يكـون الجمهـور الـذي سيمارَس عليـه هذا التصرف متجـانسـا ومتسـاويـا؛ بينما تكشف طموحـات متعارضة عن حـاجيات متعارضـة تبحث هي كذلك عن أن تشبع ذاتها وتثبتهـا. بالمقـابل، يمكن دائما أن نحكم بتفوق حقيقي للثقـافة بمجـرد أن تفضي طباعٌ قويـة ومبتلهفة إلى السيطرة إلى ممارسة فعـل طائفي ومحدود فقط : ويصح هذا أيضا في مختلف ميادين الفن والمعرفة. حيثما يسيطر أحد ما فلايوجد غير الجماهير : وحيثما توجد الجماهير تسـود حاجة إلى الاستسلام للعبـودية. حيثما توجد العبـودية لايوجد إلا عدد ضئيل من الفرديات التي تواجهها الغرائز القطيعية والشعور.

150 من أجل نقد القديسين

هل يجب إذن، لكي نتـوفر على فضيلـة، أن نريـد امتلاكهـا في شكلها الأكثـر فظاظـة ـ مثلما كـان يريـدها ويحتـاج إلى امتلاكهـا قديسو المسيحيـة؟ إنهم، بماهم كذلك، لم يكونوا *يطيقون* الحياة دون فكـرةِ أن مظهرَ فضيلتهم وحـده سيجعل كل واحد يفنى. إنني، والحالة هذه، أعتبر الفضيلة التي تعمل بهذا الشكل فظة.

151 عـن أصـل الديـن

ليست الحاجة الميتافزيقية، كما يريـد ذلك شوبنهاور، هي أصل الديانات، بل إنها هي الإبن المتأخر لهاته الأخيرة. لقد تعودنا، تحت سيطـرة الأفكار الدينية، على تمثيل «عالم آخر» (عالم خلفي، سفلي، علوي) بحيث أن غياب الهذيان الديني يخلق إحساسا بالحرمان وفراغا مزعجيْن ـ ومن ثمة يولّد هذا الإحساس بالقلق «عالما آخر» ميتافزيقيا وليس دينيـا. فالذي كان يدعو إلى قبـول حقيقة «عالم آخر» بشكل مطلق في العصور البدائية، والحالة هذه، لم يكن لارغبة و لاحاجة، بل كان *خطأً* في تفسير بعض الظواهر الطبيعية، كان إذن حيرة الفكر.

152 التغيـــر الأكبـــر

ياله من تغيّر في إضاءة وألوان كل الأشياء! إننا لم نعد قادرين على الإلمام بالكيفية التي كان يشعـر بها القدماء بالحقـائق الأشد مباشرة، التي تتكرر كثيرا ــ مثل النهار وحالة اليقظة : وبما أنهم كانوا يؤمنـون بالرؤىٰ فإن الحياة اليقظة كانت تُسلَّط عليها أضواءً أخـرى. وكذلك الحياة كلها، مـع انكسار الموت ومع دلالته؛ فـ«مـوت» نا نحن موت آخـر تماما. كـانت كل تجربة تنشر نـورا آخر لأن إلها كـان يسطع فيها : كذلـك كل قرار، كل منظـور المستقبل البعيد : لأن النـاس كانـوا يكتفون بـوسطاء الوحي وبإنذارات سرية، وكـانوا يؤمنون بالتكهنات. كـان الإحساس بالـ«حقيقة» مختلفا، لأنه كـان بإمكان *المعتوه* فيما مضى أن يعتبر وسيلتهـا ــــ الشيء الـذي يثير قشعريرتنا **نحن** أو يضحكنـا. لقـد كان لكل جـور تأثير مخالف على الـروح : لأن الناس كـانوا يخافون الانتقـام الإلهي لا العقوبات والفضيحـة المدنية فقط. فمن أي طبيعة كانت الفرحة زمن الإيمان بـالعفريت والمغوي! من أي طبيعة كان الهوى حين كان الأبـالسة يـراقبونك في الظل! من أي طبيعة كـانت الفلسفة حين كـان يُنظر الى الشك كجـرم جدّ مـريع، وذلك بـاعتباره انتهـاكـا للمقدسـات بالنظـر إلى الحب الأبدي، باعتباره حـذرا بالنظر إلى ماكان جيدا، ساميـا، طاهرا ويستحق الرحمة! ـ إننا قـد أضفينا صبغة جـديدة على الحقائق، ولانفتـأ نصبغها ـ لكن مـاذا كانت إلى الآن مهارتنا إزاء بهاء لون هذا المعلم القديم! أعني الإنسانية القديمة.

153 Homo poeta (*)

«أنا الذي نظمت مأساة المآسي هاته بنفسي وبطريقة شخصية جدا، وها هي ذي بذلك تـامة؛ أنا الذي عقـدت، في قلب الوجود فقط، عقـدة الأخلاق وأحكمت عقدهـا لدرجة لايستطيع أحـد غير الاله حلهـا ـ هكذا أراد هـوراس! ـ وهأنذا قد ذبحت كل الآلهة في الفصل الرابع ـ بـالأخلاقية! فممّ سيتكون الفصل الخامس إذن؟ من أين آتي بحل مأسـاوي للعقـدة! ـــ هل سيكون عليّ أن أفكـر في حلّ ملهـاتيّ لها؟».

(*) الإنسان الشاعر.

154 عن الحياة المتنوعة الخطورة

إنكم لاتعـرفون إطـلاقـا ما يتفـق لكم أن تعيشوه، تهرولـون كما لـو أن الوجـود أسكـركم، وإن سقطتم أسفل السلم من حين لآخـر. لكن أعضـاءكم تبقى سـالمة بفضل سُكْـركم؛ جدّ واهنـة هي عضـلاتكم وجـدّ معتمة هي رأسكم لكي تحسـوا مثلنا بصلابة حجر هـاته الدرجات! أن نحيا، بالنسبة لنا، هـو في غاية المخاطرة: فنحن من زجاج - وويل لنا عند أدنى *صدمة*! *سقطة* واحدة وتكون نهاية كل شيء!

155 الذي ينـــقـُصـنـــا

إننـا نحب الطبيعة العظيمـة، لقـد اكتشفناهـا: ذلك لأن رؤوسنـا خاليـة من الرجـال العظام. بالعكس لـدى اليونان: إحسـاسهم بالطبيعة مخالف تمامـا لما هو عليه عندنا.

156 الشيء الأكثر تأثيرا

أن يبُدي رجل مقـاومة لعصره كله، أن يـوقفه عنـد الباب ويحاسبه، هـذا الذي يجب أن يمارس تأثيرا! أن يشـاء ذلـك أم لا، لايهم؛ أن يكـون *قادرا* عليه، هذا هو الحاسم.

157 أن نـــكـــــذب

خذ حـذرك! - إنه قد شرع في التفكير: للتّـو سيخرج بكذبة. هنـا تكمن درجة من الثقافة وصلت إليها شعوب بأكملها. لنتفكر فقط في كل ما كان الرومان يعبرون عنه بفعل mentiri (*).

158 خاصية مُتْعِبَة

أن نحكم بعمقٍ كل الأشياء - تلك خاصية متعِبة: إنها تريد منا أن نُجهد بصرنا باستمرار، وأن ننتهي إلى العثور على أكثر مما كنا نرغب فيه.

159 لكل فضيلة أوانها

من يُظهر نفسه الآن عنيـدا فإن نزاهته غالبا مـا تسبب له الكثير من الندم: لأن العناد فضيلة لاتنتمي لنفس عصر النزاهة.

(*) كذب

160 لدى ملامسة الفضائل

يحدث أن تعوز الكرامةُ أحدَنا فيظهر نفسه متملقا إحدى الفضائل .

161 إلى هـــواة الـزمــــن

يحاول، باستمرار، تارك الرهبانية والمحكوم بالأشغال الشاقة المستريح أن يصطنعا وجهاً : ما يريدانه هو وجهٌ دون ماض . ـــ لكن هل سبق لكم أن لقيتم أشخاصا شاعرين بانعكاس المستقبل على وجوههم، [وكانوا] لطيفين بما فيه الكفاية معكم أنتم هواة «الوقت الحاضر» حتى تصطنعوا وجهاً دون مستقبل؟ .

162 أنـانيـــــــة

الأنانية هي قانونُ منظور الإدراك الحسي الذي يجعل الشيءَ القريبَ يبدو كبيرا وثقيلا : بينما ينقص حجم ووَزن كل الأشياء حسَبَ البعد .

163 بعد فوز عظيم

إن أفضل نتائج الفوز العظيم هي كونه يحرر المنتصر من خشية الهزيمة . « لم أستسلمُ عند الحاجة؟ ـ يقول لنفسه . فأنا منذ الآن ثري بما فيه الكفاية كي أتحمّل ذلك» .

164 الذين يبحثون عن الراحة

إنني أتعرف على العقول التي تبحث عن الراحة من كثرة الأشياء المظلمة التي تضعها حولها : فالذي يريد أن ينام يظلم غرفته أو ينسل داخل كهف ـــ[هذا] تحذير للذين يجهلون ما يبحثون عنه أكثر ويودون أن يعرفوه! .

165 عن نصيب الذين يتخلّون

إن من يتخلى عن شيء بشكل أساسي ولمدة طويلة سيعتقد، حين يصادف الشيء الذي تخلى عنه، أنه يكتشفه لأول مرة تقريبا ـ لكن [هذا الإكتشاف] ليس نصيب الذي يكتشف! لنكن أشد مكرا من الثعابين التي تبقى معرّضة لنفس الشمس لمدة طويلة .

166 دائما فيما بيننا

كل ما يمتّ إلى بصلة، في الطبيعة كما في التاريخ، يحدثني، يمتدحني، يدفعني إلى الأمام، يواسيني ـ : بينما الباقي لا أسمعه أو أنساهُ على الفور. إننا نبقى دائما فيما بيننا.

167 بعض البشر والحب

لانقول إننا مُتخمون بالناس إلا حين لانستطيع هضمهم وقد امتلأت بهم معدتنا عن آخرها. ما بغض البشر إلا نتيجة حب جد شره للبشرية، نتيجة «أدامة» ـ لكن من الذي حثك إذن، أيها الأمير هاملت، على ابتلاع الناس مثلما تبتلع المحار؟.

168 مـريــــض

ـ «إنه في حالة خطرة! ـ ممّ يعاني؟ ـ من الرغبة في أن يُمدح، ولا يملك ما يلبي به رغبته. ـ إنه شيء غير معقول! فالكل يحتفي به، يشيد به، ولا يأخذونه بالأحضان فقط، بل إن اسمه على كل لسان! ـ لاشك في ذلك، غير أنه لا يصغي للمديح. فإن كان الذي يمدحه صديقا فإنه يبدو أنما يريد أن يمدح نفسه وإن كان عدوا كان كأنه لا يرتضي ذلك إلا لينال الثناء؛ وأخيرا إن كان الذي يمدحه واحدا من الآخرين ـ وما بقي منهم إلا القليل، فهو جد مشهور! ها هو ذا نكد: لايرغب الناس أن يكون لهم صديقا ولاعدوّا. وقد اعتاد أن يقول: لايهمني ذاك الذي يدّعي أنه مُنصِفي!».

169 أعداء مُعلنون

إن الشجاعة أمام العدو شيء لذاته؛ لكن لايمنع أن يكون مظهر الشجاعة جبانا ورَيِكاً مترددا. هكذا كان نابوليون يحكم على Murat، أشجع رجل عرفه على الإطلاق ـ ينتج عن ذلك أنه لاغنى لبعض الرجال عن أعداء معلنين، بقدر ما يتحتم على هؤلاء الرجال أن يرتفعوا إلى مقام بسالتهم *الخاصة*، إلى مقام رجولتهم ومرحهم.

170 مــع العـامــة

لقد سار وراء العامة الذين جعل من نفسه مادحهم حتى الآن : لكن اليوم الذي سيصبح فيه عدوهم آتٍ! لأنه يتبعهم معتقداً أن بلادته قد تجد فيهم ضالتها : إنه لم يتنبه بعد إلى أن العـامة ليسوا أغبياء حسب رغبته! إلى أنهم يسيرون قـدما إلى الأمام! وإلى عدم سماحهم لأحد بالتأخر! ـ في حين أنه يهوى كثيرا أن يتأخر! .

171 المـجــــد

حين يتجرد اعترافُ جمعٍ كبير بواحد من كل احتشام، إذاك يولد المجد.

172 مفسد الذوق

أ : «لستَ إلا مفسد الذوق ! ـ هذا ما يروج في كل مكان!» ب : «بكل تأكيد! أفسد ذوق كل واحد على فريقه : ـ وما من فريق يغفر لي ذلك».

173 أن تكون عميقا وتبدو عميقا

إن من يعلم أنه عميق يجِدُّ في النور : أمّا من يريـد أن يبدو عميقا في أعين العامة فإنه يجدّ في الظلام. لأن العامة يعتبرون كل مالا يستطيعون رؤية قعره عميقا : لشدّ ما يخشون الغرق!

174 علـى الحيـــاد

إن البرلمانية، أي الترخيص العمومي بـالاختيار بين خمسة آراء سياسيـة أساسية، تتملق العدد الكبير من أولئك الذين يودون أن *يبدوا* مستقلين وأن يُناضلوا من أجل آرائهم. غير أنه لافرق، في نهاية المطاف، بين أن يُفرض على القطيع رأيٌ واحدٌ وبين أن يُسمح له بخمسة آراء ـ فكل من يحيد عن الآراء الأساسية الخمسة سيجد القطيع كله دائما معارضا له.

175 عن الفصاحة

من الذي ملك الفصـاحة الأكثر إقنـاعا حتى الوقت الحاضر؟ إنـه قرع الطبل : ومادام تحت نفوذ الملوك فإنهم سيظلون أجود الخطباء ومهيجي الشعوب.

176 أن تشفــــق

مسـاكين هـؤلاء الأمـراء الحاكمون ! كل حقـوقهم تتحـول الآن شيئـا فشيئـا إلى ادعاءات ، وهاته الادعاءات سرعان ما تدوي كالغطرسة ! يكفي أن يقولوا «نحن» أو «شعبي» لتبتسم أوربـا القـديمـة الشريـرة . حقـا ، إن رئيس تشريفـات من العـالم الحديث لن يحتفل معهم إلا قليـلا : ولـربّما أصـدر مـرسومـا : «الملـوك يخضعـون لحديثي النعمة» .

177 لفائدة « نظام التربية »

في ألمانيا ، تنقص الرجـل المتفوق إحدى أعظم وسائل التربية : ضحـك الرجال المتفوقين ؛ إن هؤلاء لايضحكون في ألمانيا .

178 من أجل التنوير الأخلاقي

يجب تحريـر الألمان من تسلط ميفستـو فِليس وفـاوست في الـوقت ذاتـه . فهما حُكمان أخلاقيان مسبقان ضد قيمة المعرفة .

179 أفـكــار

الأفكار ظـلال أحاسيسنـا ـ فهي دائما مظلمة و أكثـر فراغا وبسـاطة من هـاته الأحاسيس .

180 أيام عز العقول الحرة

العقول الحرة تأخـذ حريـاتها بخصوص العلم أيضا ــ وتعطى لها هاتـه الحريات مؤقتا ـ مادامت الكنيسة قائمة ! ـ من هاته الناحية فإن لها الآن أيام عزها .

181 الاتبـاع والتـقـدم

أ : «لن يفعل الواحـد من هذين الإثنين شيئـا غير الإتباع ، أما الآخـر فسيتقدم دائما ، حيثما قادهما القدر . *ورغم كل شيء* يبقى الأول فوق الثـاني ، حسب فضيلته وعقله !» ب : «ورغم كل شيء؟ هذا ما يقال للآخرين ، لا لي أنا ، لا لنا نحن ! ـ Fit secundum regulam» (*) .

(*) حسب القاعدة .

182 في الوحـــدة

حين نحيا وحيدين فإننا لانتكلم جهرا مثلما لانكتب جهرا، لأننا نخشى الصدىٰ المقعّر ــ نخشى نَقْدَ ربّة الصدىٰ. ــ وكل الأصوات تُصدي في الوحدة بشكل مخالف!.

183 موسيقى المستقبل الأفضل

الموسيقي الأول في نظري، هو ذلك الذي لن يعرف غير كآبة أعمقِ غبطةٍ دون سائر الكآبات: مثل هذا الموسقي لم يوجد قط حتى الآن.

184 عـــــدل

أن لاتُبدي أيةَ مقاومةٍ وأنت تُسْرَقُ أفضل من أن تحاط بفزّاعات ما ـ هذا يناسب ذوقي. والمسألة، في كل الحالات، مسألة ذوق لاغير.

185 فـقيــــر

هو الآن فقير: ليس لأنهم جرّدوه من كل شيء، ولكن لأنه رفض كل شيء ـ فما همّه! فهو متعود على العثور. ـ الفقراء هم الذين يسيئون فهم فقره الإرادي.

186 إحساس بالخطإ

كل ما يفعله في الوقت الحاضر جريء ومنظّم ـ لكنه يحس بالخطإ رغم ذلك. لأن الخارق هو ما يشكّل مهمته.

187 الجارح في العرض

يجرحني هذا الفنان بالطريقة التي يعرض بها أفكاره: أفكاره الجيدة: يعرضها بكثير من الغلظة والإلحاح، وبحيَلِ إقناع بذيئة كما لو كان يخاطب الدهماء. ففي كل مرة نخصص فيها وقتا لفنه نجد أنفسنا صحبة «رفقةٍ سيئة».

188 العمـــل

ما أقرب العمل والعامل حتى إلى أكثرنا بطالة في الوقت الحاضر! والأدب الرائع لكلمات: «نحن كلنا عمال» لم يكن سوى وقاحة وقلة حياء إبان حكم لويس الرابع عشر.

189 المفكــــــر

إنه مفكر : أي أنه ماهر في اعتبار الأشياء أبسط مما هي عليه.

190 ضــد المدّاح

آ ـ «لانُمدح إلا من طرف أندادنا!» ب : «طبعا! فالـذي يمدحك يقول لك : أنت ندّي».

191 ضد دفاع معين

الطريقة الأكثر خداعا للإساءة إلى قضيةٍ ماهي الدفاع عنها بحجج خاطئة، عن قصد.

192 الخــيّرون

ما الـذي يميز هؤلاء الأشخـاص الخيّرين الذين تشع وجوههم بـالخير عن سائر الناس؟ إنهم يشعرون بـالراحة لدى حضـور شخص جديد، ويولعـون به بسرعة : لهذا يريـدون له الخير، وحكمهم الأول يعنـي : «إنه يـروق لي.» وتتتابع لـدى هؤلاء الأشخـاص رغبـة التملك (فهم لا يـدقّقـون كثيرا فيما يخص قيمـة الغير)، التملك السريع، فرحة التملك والعمل لصالح الشيء المتملّك.

193 حيلة كانــط

كـان كانط يـريد أن يبرهن، بطـريقـة تبهر عين «الكل»، أن «الكل» كـان على حق : ـ هنا كانت تكمن الحيلة السرية لهاته الروح. فقد كتب ضد العلماء، لصالح الحكم الشعبي المسبق، لكنه كتب للعلماء لا للشعب.

194 بقلب مفتوح

من المرجح أن هـذا الـرجل يتصرف لأسباب غير معترف بها : لأنـه يحرص دائما على أن تكون له أسباب يمكن الاعتراف بها، ويكون مستعدا لإطلاعك عليها.

195 ما يثير الضحك

انظروا! انظـروا! إنه يفـر *بعيدا* عن النـاس. ــ لكن هـؤلاء يتبعونـه لأنـه يجري *أمامـهم*، ـ لشد ما هم قطيعيون.

196 حدود سمعنا

إننا لانسمع إلا الأسئلة التي نقدر أن نجد لها جوابا .

197 لهذا، حذار!

ليس هناك شيء نود كثيرا أن نطلع عليه الآخرين غير خاتم السر ـ بما في ذلك ما يوجد تحته .

198 غيظ الرجل الفخور

الرجل الفخور ممتلىء غيظا حتى تجاه الـذين يسيرون به إلى الأمام : فهو يستقبح خيل عربته .

199 ســـخــاء

ليس السخاء لدى الأغنياء ، في غالب الأحيان ، إلا نوعا من الخجل .

200 أن نسخــر

أن نَسْخَرَ معناه : أن نشمت بضررٍ لكن براحة ضمير.

201 رضــا

في الرضا يكون دائما نوع من الصخب : حتى في حالة تفاخرنا .

202 مبـــذّر

إنه لم يبلـغ بعد فقر الغنـي الذي سبق وأن أحصى كنـزه كله ، ــ إنه يبـذر عقله بغباوة الإنسان المبذر.

203 * Hic niger est

عادة ، ليست له أفكار إطلاقا ـ ولكن بصفة استثنائية تأتيه أفكار رديئة .

(*) معتّم هنا .

204 المتسولون والأدب

«ليس من سوء الأدب أن نضرب الباب الذي ليس فيه حبل الجرس بحجر»، هكذا يفكر مختلف المتسوّلين والمعوزين؛ لكن لا أحد يقول إنهم على صواب.

205 الحاجة

تعتبر الحاجة سببا لما يتكوّن : في الحقيقة، غالبا ما تكون نتيجة لما قد تكوّن.

206 أثناء المطر

المطر يهطل، وأنا أفكر في الفقراء المتزاحمين وفي الكم الهائل من همومهم التي لم يدربوا على إخفائها، كل واحد منهم مستعد، والحالة هذه، أن يحزن جاره عن طيب خاطر، وأن يحصل، بالجور الرديء، على إحساس برغد العيش يدعو للرثاء. ـ هذا، ولاشيء غير هذا، هو فقر الفقراء.

207 الحسود

هذا حسود ـ يجب أن لانتمنى له أطفالا : سيحسدهم على مالم يعد قادرا أن يكونه هو نفسه : الطفل.

208 رجل عظيم

لاينبغي أن نستنتج من كون أحد ما «رجلا عظيما» أنه رجل بفعل هذا : فلربما لم يكن سوى غلام لاغير، أو حرباء كل العصور، أو امرأة صغيرة مسحورة.

209 عن طريقة معينة لطلب حججنا منا

هناك طريقة لطلب حججنا منا لاتنسينا أحسن حججنا فقط، بل تثير فينا اشمئزازا من أية حجة كيفما كانت : ـ طريقة السؤال الخابلة جدا، أسلوب الناس المستبدين.

210 اعتدال في الحماس

يجب أن لاتسعى لتجاوز حماس أبيك ـ فهذا يجعلك مريضا.

211 أعـــداء سرّيــــون

أن تستطيع القيـام بأود عدو سري ــ فهذا تـرف حتى أخلاقيـة العقول السـامية لاتكون، عادة، غنية بما فيه الكفاية لتقوم به.

212 لاتثـق بالمظاهـــــر

إن له تصرفـات قبيحة، إنـه فظ ويتلعثم دائما، من قلة صبره: على هـذا النحو لانكاد نشك في سعة روحه وفي نَفَسِها القوي.

213 طريـق السعـــادة

سأل أحد الحكماء أحمقـا عن طريق السعادة فأجـابه فـورا كمن سئل عن طريق أقرب مـدينة: «أُعْجِبْ بنفسك وعِشْ في الشارع!». «كفـاك، قال الحكيم، إنك تطلب الكثير، يكفي أن يعجب المرء بنفسه!» فرد عليه الأحمق: «ولكن كيف لنا أن نُعجب باستمرار إن لم نَحتقِر باستمرار؟».

214 العقيدة هي التي تُنجي

إن الفضيلـة لاتمنح السعـادة ونـوعـا مـن الخلاص إلا لأولئك الـذين يـؤمنـون بفضيلتهم: ـ وليس لهاته الأرواح الشفافـة التي تقتضي فضيلتها الاحتراس التام من الذات ومن كل الفضائل. إذن هنا أيضا نلاحظ جيداً أن «العقيدة هي التي تنجي» ـ *وليس* الفضيلة!.

215 المثـل الأعـلى والمادة

أمـــامك الآن مثل أعلى نبيل: لكـن هل أنت *نفسك* من طينـة جد نبيلـة حتى تتشكّل منها مثل هاته الصورة الرائعة؟ وفضلا عن ذلك ـ هل كل عملك إلا نحت همجي؟ تدنيس لمثلك الأعلى؟.

216 خطر في الصوت

بتوفـرنا على صـوت جهوري لا نكـون قادريـن، تقريبـا، على التفكير في أشياء دقيقة.

217 السبب والأثر

قبل الأثر نؤمن بأشياء غير التي نؤمن بها بعده.

218 نفوري

أنفرُ من الأشخاص الذين، لكي يَبْهروا فقط، يوجبون على أنفسهم أن ينفجروا مثل القنابل التي نوشك أن نفقد، بالقرب منها، حاسة السمع - بل وأكثر من ذلك.

219 الغاية والعقاب

الغاية من العقاب هي إصلاح *الذي يعاقِب* - إنها من آخر حجج المدافعين عن العقاب.

220 قُربان

للحيوانات القربانية تصور للقربان وللتضحية مغاير لتصور الذين يحْضُرونها: ومع ذلك، فما تعلق الأمر أبدا بالسماح لها بالتعبير.

221 مراعاة

يراعي الآباء والأبناء بعضهم أكثر مما تراعي الأمهات والبنات بعضهن.

222 الشاعر والكذاب

يرى الشاعر في الكذاب أخاه من الرضاعة الذي حرمه [أي حرمه الشاعر] من الحليب الذي كان مخصّصا له: بهذا بقي الثاني بئيسا ولم يتمكن حتى من بلوغ الإحساس بالارتياح.

223 نيابة الحواس

«لنا عيون أيضا لكي نسمع بها»، - قال مُعَرِّف أصبح أصما؛ «ويكون مِلِكا وسط العميان من كانت له أذنان طويلتان».

224 نقـد الحيوانـات

إني أخاف أن تعتبر الحيواناتُ الإنسانَ كائنا من جنسها فقَدَ فطرته الحيوانية بأكثر الأشكال خطورة، ـــ أن تعتبره بمثابة الحيوان الغريب الأطـوار، الحيوان الضاحك، الحيوان الباكي، الحيوان الذي مآله التعاسة.

225 الرجال الطبيعيون

لقـد كـان الشر دائما متأكـدا من أكبر الأثـر! والطبيعـة شريـرة! فلنكن إذن طبيعيين!» هكذا يستنتج سرّياً كبار مشخصي أثر الإنسانية الذين كثيرا ما عددناهم ضمن الرجال العظام.

226 العقول الحذرة والأسلوب

إننا نعبر عن أصعب الأمور ببساطة، شريطة أن نكون محاطين بأشخاص يؤمنون بقوتنا: فلمثل هـذا المحيط مزية التدريب على «بساطـة الأسلوب». [بينما] العقول الحذرة تعبر عن نفسها بمغالاة، العقول الحذرة تجعل سامعيها مُغالين.

227 استنتاج خاطىء، مشروع فاشل

إنه لايستطيع السيطرة على نفسه: من هنا تستنتـج المرأة الفلانية أنه سيكون من السهل السيطرة عليه، فتلقي عليه حبالها؛ ـ المسكينةُ ستصير أَمَتَهُ في أجل قصير.

228 ضـد الوسطـاء

مـوصوم بـالضعف من أراد التوسط بين مفكـرين وطيدي العـزم؛ ليس له نظـر ثاقب ليميز مالا يحدث إلا مرة واحدة: فأن لاترى سوى تشابهاتٍ وتساوي بين كل شيء فتلك ميزة البصر الضعيف.

229 تحـدٍّ ووفـاء

إن تشبّثه بقضيةٍ قد توضحت له لهُوَ محض تحدٍّ، ـ لكنه يسمي ذلك «وفاء».

230 نقـص السرية

ليس في كينونته كلها شيء مقنع ـ وينجم ذلك عن كـونه لم يُخْفِ أبدا أدنى فعل حَسنٍ قام به.

231 الذين يريدون أن يعرفوا «حق المعرفة»

إن العقول البطيئة في اكتساب المعرفة تظن أنه لاغنى عن البطء في اكتسابها.

232 أن نحلـــم

قلما نحلم، وإلاّ فبطريقة مفيدة. ـ ينبغي تعلم السهر بهذا الشكل: ألاّ نسهر إطلاقا وإلاّ فبطريقة مفيدة.

233 وجهة النظر الأكثر خطورة

كل ما أفعله الآن أو أغفل فعله يوازي في أهميته، بالنسبة لـكل ما سيطرأ، أعظم حدث في الماضي: كل الأفعال عظيمة وبسيطة كذلك في هذا المنظور الرائع للأثر.

234 تأملات موسيقي معزية

«لاصـدى لحياتك في آذان النـاس: فأنت بـالنسبة لهم تحيـا حيـاة صامتـة، إذ لايـدركـون كل رهـافـة اللحن وكل تصميم دقيق في الاصطحـاب أو في المقـدمـة. صحيح أنك لاتسير في وسط الشارع على انغام موسيقى عسكـرية ـ لكن هذا ليس مبررا ليقول هـؤلاء الجريئون أن الموسيقى تنقص سيـاق حياتك. من كـانت له آذان فليسمع».

235 عقـــل وطبـــع

كم من رجلٍ يصل إلى أوجِـه بطبعـه، لكن عقلـه بـالتحـديـد يبقى مـا دونـه ـ والعكس هو ما يحدث لآخرين كثيرين.

236 للتأثير على العامة

ألا ينبغي لمن يريد أن يـؤثر على العامة أن يكون كوميـديَ أناه الخاصة؟ وأن يعبر عن نفســه أولا بصورة ذات دقـة مضحكة ويـمثل كل شخصيته وكـل قضيته بهذا الشكل البذيء والمبسّط؟.

237 الرجــل المــؤدب

ـ «إنـه جد مؤدب!» ـ في الـواقع، إنه يحرس دائما على أن تكون معه قطعـة سكر ليعطيها لسيرْبيروسْ (*)، وهو فَزِعٌ جدا لدرجة أنه يعتبر كل واحد سيربيروس، وكذلك أنت، وأنا نفسي ـ هنا يكمن «أدبُ»ـهُ.

238 بدون حســـد

إنه طاهر من الحسد، لكن لا مزية في ذلك إطلاقا: إنه يريد غزو بلد لم يمتلكه أحد بعد، بل ولم يره.

239 تعاســـة

إن شخصا واحـدا تعيسا يكفي ليسمّم منـزلا بأكمله ويكـدّر الجوّ فيه: ولكي يغيب هذا الشخص وحـده يلزم أن تحصل معجزة على الأقل! ـ قلّما تكـون السعادة مرضا معديا بهذا القدر ـ ما سبب ذلك؟.

240 علـى البحـر

لن أشيد لنفسي بيتا قط (ويسعدني ألا أمتلكه إطـلاقا!) لكن إن كان لامفر من ذلك فسأشيّده، صنيـع بعض الرومان، ممتـدا في البحر، ـــ وليس من المستبعد أن بيني وبين هذا الوحش الجميل بعض القرابات الخفية.

241 الفنـــان وآثاره

هذا الفنان طَموح، لاشيء غير ذلك: ولنجمل القول، فآثارُهُ ليست إلا زجاجا مكبرا يهديه لكل من يقدّره.

242 Suum cuique (**)

مهما كـانت شراهـة معرفتي: فإننـي لا أستطيع أن أُفيدَ شيئـا من الأشيـاء التي ليست في ملكيتي بعُد، ـ فملك الغير يبقى فيها كاملا. [إذ] كيف يمكن أن يكون إنسان مالِصّاً أو قاطعَ طريق!.

(*) كلب ذو ثلاث رؤوس، حارس الجحيم في الميثولوجيا الإغريقية.

(**) عن فضائلهم عنّي.

243 أصلُ مفهوميْ «حسن» و «قبيح»

وحده من يستطيع أن يحس بأن : «هذا ليس حسنا» يبتكر تحسيناً ما .

244 أفكار وكلمات

حتى أفكارنا الخاصة لانستطيع أن نترجمها إلى كلمات .

245 الثناء في الإختيار

الفنان يختار مادته : هنا تكمن طريقته في الثناء .

246 الرياضيات

إننا نحاول بأي ثمن ، مادام ذلك في مقدورنا ، أن نُدخل دقة الرياضيات وصرامتها في كل علم ؛ لا لإعتقادنا بأننا سنفهم الأشياء أفضل بهاته الوسيلة ، لكن بُغيةَ توضيح علاقتنا الإنسانية بالأشياء . فالرياضيات ليست إلا وسيلة معرفة الكائن الإنساني الكونية والأخيرة .

247 العادة

كل عادة تجعل يدَنا أكثر مَكرا ومكرنا أقل حذقا .

248 الكتب

ماقيمة كتاب ليست له حتى ميزة حملنا إلى ماوراء كل الكتب؟

249 تأوه العارف

«واها أيتها الشراهة الملعونة! لم يعد كفران الذات يقيم في هاته الروح ـ بل *ذات* تشتهي كل الأشياء ، تتمنى أن ترى من خلال كثير من الأفراد كما لو بـ*أم* عينيها ، وأن تمسك كما لو بيديـ*ها* ، *ذات* مسترجعة للماضي كله كذلك ، لاتريد أن تفقد شيئا من كل ما قد يكون ملكا لها تماما! واهاً ياشُعلة شرهي الملعونة! ليتني أستطيع أن أولد من جديد في مئات الكائنات!» ـ إنّ من لا يعرف هذا التأوه عن تجربة لا يعرف شغف العارف أيضا .

250 جُـــرْم

حتى ولـو اقتنع أكثـر القضـاة [الـذين حكمـوا على] السـاحـرات وضـوحـا، والسـاحـرات أنفسهن، بالطبع الأثيـم للسحر، فإن الجرم لم يكن منعـدمـا في غير ذلك. كذلك الأمرُ بالنسبة لكل جُرم.

251 الذين يعانون في صمت

إن أصحـاب الطبـاع العظيمة يعـانـون بشكل مغـاير لما يتصـوره أولئك الـذين يبجلـونهم: إنهم يعـانـون الأمـرّين مـن الاكتئـابـات البشعـة والحقيرة في كثير من اللحظات الشاقة، بإيجاز، إنهم يعـانون من شكهم فيما يخص عظمتهم ـ وليس من التضحيـات والاستشهـاد الـذين تتطلبهم مهمتهم. مـادام بـرومثيـوس يشفق على الناس ويضحي من أجلهم فهو سعيد وعظيم في ذاتـه: غير أنه حين يحسد جوبيتر على الولاء الذي يقدمه له البشر فإنه آنذاك يعاني.

252 أفضلُ أن تظل جانياً

«أن نظل جُنـــاة أفضل من أن نـدفع عملـــةً لاتحمل صـورتَنـــا!» هكـذا تقضي سيادتُنا.

253 دائـــما في بيتـــك

يأتي اليـوم الذي نقترب فيـه من *غايتـنا*، ــ ومنذ ذلك الحين نظْهر بـافتخارٍ كم كانت أسفارنا طويلة كي نَبْلُغَها. والحقيقة هي أننا لم نلاحظ قط أننا كنا مسافرين، فحيث أننا سافرنا بعيدا جدا كنّا نظن، عند كل مرحلة جديدة، أننا لازلنا ا*في بيتنا*.

254 ضـد الإحراج

الذي يكون دائما جدّ منشغلٍ يكون بعيدا عن أي إحْراج.

255 المقلـــدون

أ: «ماذا يعنيّ هـذا؟ ألاتريـد مقلدين؟» ب: «لاأريد إطـلاقا أن أكـون مَثَلاً يُحتذى: أريد أن يحدِّدَ كلّ واحد لنفسه شيئا ما كمثال: مثلما أفعل *أنا* تماما».

أ: «إذن ـ؟»

256 تـسأدُمٌ

يجد كل واحد من رجـال أغوار البحر سعـادته البـالغة في مضاهـاة خطافِ الماء واللعب على ذرىٰ الأمواج : وأحسن ما يُعْجَبُ به لدى مـلامسته للأشياء ، ـ هو أن لها سطحا : هو أدمتها ـ Sit venia verbo (*).

257 عن تجربة

كم من واحد يجهل ثرواته حتى اليوم الذي يعلم أن بعض الرجال ، حتى الأثرياء منهم ، يصبحون لصوصا عند الإتصال به .

258 مُنْكِر الصّدفة

لايؤمن أي منتصر بالصدفة .

259 عن الجنة

«الخير والشر هي أحكام الإله المسبقة» ـ تقول الأفعى .

260 واحدٌ مرة واحدة

الواحد دائما على خطإ : لكن مع اثنين تبـدأ الحقيقة . الواحد لايستطيع أن يقيم الدليل لنفسه : لكن يكفي اثنان لنعجز عن إبانة خطإهما .

261 الأصـالـة

ما الأصالة؟ *أن ترى* شيئا ليـس له اسم بعـد ، لايمكن تسميته بعـد ، وإن كان هذا [الشيء] تحت أنظار الكـل . هكذا هم الرجال عادة بحيـث يلزم أولا أن يكون للشيء اسم لكي يكون مرئيا لهم . ـ وغالبـا ماكان الأُصلاَء هم أولئك الذين أطلقوا الأسماء على الأشياء .

262 Sub specie œterni (**)

أ : «إنك تبتعد عن الأحيـاء بسرعة متزايـدة : قريبـا سيكونون قـد شطبوك من لائحتهم!»

(*) إن صح التعبير .
(**) نحو جنس خالد .

ب : «إنها الوسيلة الوحيدة لمشاركة الموتى امتيازهم»

أ : «وما هو هذا الامتياز؟» ـ ب : «أن لاتموت قط» .

263 بكل تواضع

حين نتحابّ نـرغب أن تظل نقائصنا خـافية عن الأعين ، ــ ليس خيلاءً ، لكن لئلا نجعل الكائن المحبوب يعاني . والمحب يريد ، في الواقع ، أن يبدو إلهيا ، ـ وهذا أيضا ليس خيلاءً .

264 مانفعلـــه

ليس هناك إدراك لما نفعله ، ليس هناك سوىٰ التقريظ أو اللوم .

265 آخر شكوكية

ماهي إذن حقائق الإنسان ، في النهاية؟ ـ إنها أخطاؤه *المتعذر دحضُها* .

266 أين تكون القساوة ضرورية

إنّ من يملك الرفعة يكون قاسيا تجاه فضائله واعتباراته الثانوية .

267 ميزة الهدف الكبير

يعلينا الهدف الكبير حتى فوق العدالة ، ليس فقط فوق أفعالنا وقُضاتِنا .

268 ما الذي يصنع البطولة؟

أن نسير في الوقت ذاته قدّام أقسىٰ معاناتنا واسمىٰ أمنيتنا .

269 بـم تؤمـــن؟

بما يلي : أن يحدَّد وزن كُل الأشياء بطريقة جديدة .

270 ماذا يُملي عليك ضميرك؟

«عليك أن تصير من أنت»

271 أين تكمن مخاطراتك العظمى؟

في الشفقة .

272 ماالذي تحبه لدى الآخرين؟

أمنياتي .

273 من الذي تعتبره خبيثا؟

الذي يريد دائما أن يُخْجل الآخرين .

274 ما الأكثر انسانية في نظرك؟

أن توفّر الخجل على شخص ما .

275 ماخاتم الحرية المكتسبة؟

ألاّ تخجل من نفسك أبدا .

الكتاب الرابع

(*) SANCTUS JANUARIUS

أنت يامن بُرِمْحٍ من اللهب
تذيبُ جليد روحي
حتى تَنسابَ هادرة
إلى بحر رجائها الأسمى،
سليمة أبدا وجدّ صافية
في إكراهها الودود، حرة ـ
كذا تحتفل [هي] بمعجزاتك
أنت يا أجمل يناير!

جنوة، يناير **1882**

(*) يناير المقدس .

276 في العام الجديد

لازلت حيا، لازلت أفكر : لايزال علي أن أحيا لأنه لايزال علي أن أفكر. Sum, ergo cogito : Cogito, ergo sum(*). يسمح كل واحد لنفسه اليوم بابداء رغبته، إبداء أعز أفكاره عليه : طيب، سأعبر أنا أيضا عما كنت أبغيه اليوم من نفسي، وعن نوع الفكرة التي كانت السّبّاقة، هاته السنة، إلى اختراق قلبي، ـ عن نوع الفكرة التي يجب أن يأتيني بها العقل ورهان كل حياة لاحقة وعذوبتها! أريد أن أتعلم أكثر فأكثر كيف أقدّر اللزوم في الأشياء، كالجميل في ذاته : وهكذا سأكون من الذين يجمّلون الأشياء. ليكن حبي منذ الآن : Amor fati (**)! لن أخوض حربا ضد القبح؛ لن أتّهم إطلاقا، لن أتّهم حتى المتّهمين. ليكن إنكاري الوحيد : *صرف النظر!* وبالجملة : أريد، ابتداء من لحظة ما، ألا أكون سوى التزام تام!.

277 عناية شخصية

هناك ذروة في الحياة : بمجرد ما نصل إليها إذا بنا، رغم حريتنا كلها، رغم رفضنا إضفاء صلاح وحكمة سماويين على فوضى الوجود الجميلة، نوشك مرة أخرى على السّقوط في أكبر عبودية روحية ونُرْغَمُ على القيام باختيارنا المضني. في الواقع، إن فكرة عناية شخصية تغمرنا الآن، والمظهر أفضل لسان حال لها، بمجرد أن نلمس أن كل الأشياء، كل الأشياء التي تقع لنا على الإطلاق، ***تتحول لصالحنا باستمرار***. تبدو الحياة اليومية باستمرار وكأنها لاتميل إلا إلى تأكيد هذا التفسير بأدلة جديدة، بأي شيء تعلق الأمر، بالطقس الرديء أو الجميل، بفقد صديق، بمرض، بوشاية، بعدم مجيء رسالة، برِجْلٍ مدعوسة، بنظرة خاطفة في دكان، بحجة مضادة، بكتابٍ فُتِحَ صدفة، بحلم، أو بخدعة : فالحدث يظهر عاجلا أو آجلا بعد شيء «لم يكن من وقوعه بد» ـ إنه مترع بمعنى عميق وبالنّفع ***لنا*** بالتحديد. هل هناك إغواء أخطر من جحودنا آلهة أبيقور، هاته الخليّة البال المجهولة، لنؤمن بأي معبود حقير ومدقّق يعرف شخصيا أدنى شعرة في رأسنا، ولن يشعر بأي اشمئزاز من إظهار خدوميّةٍ تثير الشفقة؟ طيب ـ أريد أن أقول : رغم كل هذا ـ لنترك الآلهة والعباقرة الخدومين وشأنهم ولنكتف باحتمال أن تكون مهارتنا النظرية والتطبيقية في تفسير وترتيب الأحداث قد بلغت ذروتها هنا. لانغالينّ كثيرا

(*) أنا موجود، إذن أنا أفكر : أفكر إذن أنا موجود.
(**) حبّا قدريا.

في لباقة تعقّلنا إن كان في التناغم الذي ينشأ من عـزفنا على آلتنا ما يدهشها أحيانا : إنه تنـاغم ذو رنين شديد الإتقـان لكي نجرؤ على نسبته إلى أنفسنـا . في الواقع ، إن أحدا ما يعزف معـنا هنا وهناك ـ إنها الصّدفة العزيزة : إنها تهدي يدنا عند الحاجة ، وإن أعقل عنايـة لن تستطيع ابتكار موسيقى أروع من التي تـوفّق فيها يدُنـا الخرقاء إذّاك .

278 فكــرة المـوت

تغشاني سعادةٌ كئيبة لأعيش في قلب هـذا المزيج من الأزقة ، من الحاجات ، من الأصوات : فكم من متعة ، من جزع ، من اشتهاء ، من حياة ظمآى ومن نشوة حياة تحدث فيها كل لحظة في واضحة النهار! غير أنه ، بـالنسبة لهاته الكائنات الصّخِبة ، الحيّة ، الشرهـة لأن تحيا ، قريبـا سيصير الصمت! مثلما نرى الظل ينتصب وراء كل واحد رفيقـا غامضـا له في الطـريق! إن ذلك يشبه دائما اللحظـة الأخيرة التي تسبق انطلاق سفينة المهاجرين : نجد ما نقـوله أكثر من أي وقت مضى ، فالوقت يزحف علينا والمحيـط ينتظر في سكون كئيب على أحـر من الجمر وراء كل هـذا الضجيج ـ كلـه طمع ، وجدّ واثق من فـريسته! والكل ، الكل يظن أن الحيـاة السالفـة لم تكن شيئا ، وإلا فهي شيء قليل ، وأن المستقبل القريب سيكـون كلّ شيء؟ ومن تم هاته المسارعة ، هـذا الصياح ، وهاته الطـريقة في التّصامم والتغريـر بالنفس! كل واحد يريـد أن يكون الأول في هذا المستقبل ـ غير أن الموتَ وسكـونَ الموت يشكلان اليقين الوحيد والقاسم المشترك بين الكل في هـذا المستقبل! كم هو غريب ألا تكون لليقين الـوحيد ، للمصير الـواحد المشترك أيـة سيطـرة تقريبـا على الناس ، وأن الـذي هم ***بعيدون عنه أشد البعد*** هو أن يشعروا بشيء مثل أخويّة الموت! إن ما يسعدني هو أن أرى الناس يرفضون أن يفكروا فكرة الموت بتاتا! وسأساهـم عن طيب خاطر لأجعل فكرة الحياة ***أجدر*** مائة مرة ***بأن تكون فكرةً*** بعدُ! .

279 صداقات النجــوم

كنـا أصدقـاء فصار واحـدنا غـريبا عن الآخـر : بيد أنـه أفضل أن يكون الأمـر كذلك ، ولن نسعى لأن نخفيه عن أنفسنا ولا إلى تعتيمه كما لو كان علينا أن نخجل منه . مَثَلُ ذلك سفينتـان تتبع كل واحدة منهما طـريقها وهدفهـا الخاصين : هكذا يمكننـا أن نلتقي ونحيي حفلات فيما بيننـا كما فعلناه من قبل ـــ وقد كـانت السفن الجيـدة وقتذاك تـرسو جنبـا إلى جنب في نفس المينـاء ، تحت الشمس ، هادئة جـدا

بحيث قلنا إنها قد وصلت إلى هدفها وانه لم يكن لها سوى اتجاه واحد. لكن نداء مهمتنا الذي لايقاوم دفعنا بعد ذلك بعيدا عن بعضنا البعض، كل واحد على بحار مختلفة، نحو أنحاء مختلفة، تحت شموس مختلفة ـ ربما لكي لانتلقي أبدا وربما لكي نلتقي مرة أخرى لكن دون أن يتعرف واحدنا على الآخر: ستكون قد غيرتنا بحار وشموس مختلفة! نصير غرباء عن بعضنا، ذاك ماكن يريده القانون الذي *فوقنا*: من هناك بالذات يلزمنا أن نصير أكثر احتراما لبعضنا! من هناك بالذات يجب أن تكون فكرة صداقتنا الماضية أكثر قداسة لدينا! من المحتمل أن هناك منحنىً خفيا هائلا وطريقا نجميا ضخما حيث توجد طرقنا وأهدافنا المتباعدة *مدوّنة* مثل مسافات ضئيلة ـ لنسم إلى هاته الفكرة! إلا أنّ حياتنا جد وجيزة وبصرنا جد ضعيف لكي نستطيع أن نكون أكثر من أصدقاء بمعنى هاته الإمكانية السامية! ـ وهكذا نريد أن *نؤمن* بصداقتنا النجمية وإن لزمنا أن نكون أعداء على الأرض.

280 هندسة محبي التأمل

قد يكون ضروريا أن نفهم يوما، وربما يكون هذا اليوم قريبا، ما ينقص مدننا قبل كل شيء: أماكن للصمت، رحبة وممتدة كثيرا، مخصصة للتأمّل، مزودة بأروقة عالية وطويلة للوقاية من تقلبات الطقس أو من الشمس المحرقة، لاتنفذ إليها ضوضاء السيارات ولاضجيج الصائحين إطلاقا، وفيها سيمنع أدبٌ لطيفٌ القسّ من الصلاة جهرا: [تنقصها] صروح وحدائق ستعبّر في مجموعها عن سمو التفكير وعن الحياة على الحياد! لقد ولّت العهود التي كانت فيها الكنيسة تحتكر التأمل، التي كانت فيها (La vita contemplativa (*) vita religiosa (**) في المقام الأول: وكل ما شيّدته الكنيسة في هذا المضمار يجسد هاته الفكرة. لاأستطيع أن أقول كيف سيمكننا أن نرضى بهاته البنايات حتى وهي مجردة من مقصدها الكَنَسِي: إن هاته البنايات، باعتبارها بيوتا لإله وأماكن فخمة للمتاجرة مع الما وراء، تتكلم لغة جد مؤثّرة ومرغمة لكي نستطيع نحن الذين لانؤمن بأي أله أن نفكر فيها *أفكارنا الخاصة*. إن رغبتها هي أن نرى *أنفسنا* نحل في الحجر والنبات، أن نتجول *داخل ذواتنا*، عندما نذهب هنا وهناك داخل هاته الأروقة والحدائق.

(*) الحياة التأملية.
(**) حياة دينية.

281 معرفةُ الإهتداءِ إلى النهاية

إن الأساتذة من الطراز الأول يجعلون الآخرين يتعرفون عليهم من خلال معرفتهم الإهتداء إلى النهايـة بطريقة محكمة، في المسـائل الكبيرة كما في الصغيرة، سواء تعلق الأمـر بنهايـة لحن أو فكرة، بـالفصل الخامس من مأسـاة أو بعملية سيـاسية. أمـا موسيقيو الطراز الثاني فإنهم يبدأون في الاضطـراب عند اقتراب النهاية ويجهلون هذا الانسجام الجليل والهادىء الذي ترسم به سلسلة جبـال بورتوفينو مثلا انحدارها في البحر ـ هناك حيث يُنهي خليجُ جِنَوَة شدوَ لَحْنه.

282 المشيـــــة

هناك من أسـاليب العقل ما يكشف الأصل العـامّي أو الشّبه عـامّي حتى لدى المفكرين ـ : إن مشيـة وخطوة أفكارهم هما اللتان تفضحانهم بصفـة خاصة : فهم لايعرفون أن *يمشوا*. وهكذا لم يكن نـابليون، نظرا لغمّـه العميق، يعرف أن يمشي كليـة بطـريقة أميريـة و «شرعيـة» في الظـروف التي تتطلب هـاته الطـريقـة بشكل خاص، كمـواكب التتويج الكبيرة وحفلات أخـرى مماثلة : هناك أيضـا لم تكن له سرعة أخرى غير سرعة قائد فيلق ـ فخـور ومسرع في الوقت ذاته، وهو الشيء الذي كان، فضلا عن ذلك، واعيـا به تماما. لاشيء يدعو للسخريـة مثل هؤلاء الكتّاب الذين ينشرون حولهم أجواخ المرحلة : يرجون إخفاء *أرجلـ*هم.

283 الرجال المهدّون

أحيّي كل العلامات التي تعلن مَقْدم عصر أكثر رجولية وشراسة، عصر سيعرف قبل كل شيء كيف يرد الاعتبار للشجاعة! لأنـه سيمهد الطريق لعصر أرفع منزلة، وسيركز القـوة التي سيحتاجهـا هذا العصر الآتي ـــ عصر سينقل البطولـة إلى داخل ميدان المعرفة و *سيخوض حروبا* حبّا في الفكـر وفي آثاره. ويحتاج الأمـر في هذا إلى كثير من الرواد الشجعان الـذين لن يستطيعوا أن ينبعثوا ببساطـة من العدم ـ ولا من حضـارة مدننـا أو من تربيتهـا المائعـة والدّبقـة : رجـال يعرفـون، وهم صامتـون، وحيدون، وثابتـو العزم، كيف يجدون رضاهم في الاستماتة في نشـاط خفي : رجال يبحثون في الأشياء، تبعا لـرغبة داخلية، عمّا ينبغي *تجاوزه* فيها : رجال يتـوفّر فيهم المرح والصّبر والبساطـة وازدراء التفاهات الكبيرة مثلما يتوفّـر فيهم السخاء في النصر والحلم عن تفـاهـات كل المهـزومين الصغيرة : رجـال وُهِبـوا حكما نـافـذِ تجاه كل

منتصر، وواعــون بنصيب الحظ في كل نصر، في كـل مجد : رجــال لهم أعيــادهم الخاصة، لهم أيام عملهم الخاصة، لهم أوقات حزنهم الخاصة، متعودون على الحكم بثقـة، ومستعـدون كـذلك ليطيعـوا حين يقتضي الأمـر ذلك، فخـورين في كلتـا الحالتين، خادمين لقضيتهم كـذلك : رجال أكثر عـرضة للخطر، أكثر خصـوبة، وأكثر فـرحا! إن سرّ تحصيل الخصـوبة الكبرى ومتعة الـوجود الكبرى، صـدقوني! يتطلب *أن نحيا بطريقـة خطرة!* شيّدوا مـدنكم عند سفح بـركان فيـزوف! أرسلوا سفنكم إلى بحارٍ بِكْر! عيشوا في حالة حرب مع أشباهكم ومع أنفسكم! كونوا قطاع طرق وفاتحين مالم تستطيعوا أن تكونوا مُهيمنين ومَلاّكين، أنتم يا رجال المعرفة! قريبا ستمضي العهود التي قد يكفيكم فيها أن تعيشوا مختفين في عمق الغابة مثل حيوانات الأيل المجفّلة! أخيرا ستضع المعرفة يدهـا على كل ما هو لها : ـ سترغب في أن *تسود وتملك*، وستسودون معها وتملكون!.

284 الثقــة في النفـس

الحاصل أن قليـلا من الأشخـاص لهم ثقة في أنفسهـم : ـ وضمن هـذا العـدد الضئيل يتلقاهـا البعض، بطريقة فطـرية، كعميً نافع أو كتعتيم جـزئيٍ لعقولهم ـ (كم سيبصرون لو أنهم استطاعوا أن يروا *في عمق* أنفسهم!) أمّا البعض الآخر فعليه أن يكتسبها أولا : فكل ما يفعلونه من خير، من عمل ذي قيمة، من عمل عظيم، يصلح أولا كحجة ضدّ الشكوكيّ المقيم فيهم : يتعلق الأمر بإفحام *هذا* [الشكوكي] أو إقناعه، وهذا يتطلب عبقرية تقريبا. إنهم أكبر اللاراضين عن أنفسهم.

285 نُجَــــارة

«إنك لن تصلي أبدا، لن تعبد أبدا؛ لن تستريح أبدا في ثقة لانهاية لها ـ إنك تمنع نفسك هنا من الوقـوف أمام حكمة أخيرة، أمام طيبـة أخيرة، أمام قوة أخيرة، ومن فكّ رباط أفكارك ـ لم يعد لك صديق ولاحارس دائم لوحدتك المتعددة ـ تعيش دون أن تستمتع بمنظر سلسلة مـن الجبال على قنّتها ثلج وفي قلبها توهّـج، ـ لم يعد لك منتقم ولا محسّن اللمسات الأخيرةـ لم تعد هنـاك حكمة في ما يحدث، ولم يعد هناك حب في ما سيحـدث لك، ـ لم يعد أي مكـان للاستراحة مفتـوحا لقلبك حيث لن يكـون عليـه إلا أن يجد فيه دون أن يبحث، إنك تمتنع على سـلام أخير، تتشـوق إلى العودة الأبـدية للحرب والسلم : أتـريد أن تتخلى عن كل هـذا يارجل التخلي؟ من سيمنحك القدرة على ذلك؟ لاأحد كانت له هاته القدرة حتى الآن!» ـ هناك بحيرة

امتنعت عن الجريان ذات يوم وصمّمت سدّاً في المكان الذي كانت تجري منه سابقا : ومنذ ذلك اليوم لم يفتأ مستوى هاته البحيرة يرتفع . ربما سيمنحنا هذا النوع من التخلي القدرة التي تمكّن من تحمّل التخلي ذاته : ربما يكف الإنسان عن الإرتفاع بشكل دائم إلى الأعلى انطلاقا من حيث ***يكف عن الجريان*** في إله .

286 فاصل زمني

هاته أماني : لكن ماذا سيكون حظكم فيها مادامت أرواحكم تجهل الرفعة والوهج وأوقات الفجر جهلا مطبقا؟ إني لا أملك إلا أن أذكّركم ـ لاغير! أتنتظرون مني أن أبعث الحياة في الأحجار وأجعل من الحيوانات أناسا؟ آه إن لم تكونوا غير أحجار وحيوانات ، جِدُوا أو رفيوسكم(*)أولا! .

287 متعة العمى

يجب على أفكاري أن تدلني على أين أنا : لا أن تكشف لي إلى أين أسير، قال المسافرُ لظله . إني أحب تجاهل المستقبل ، ولا أريد أن أستسلم للجزع ولا للطعم المتوقَّعِ للأشياء الموعود بها .

288 النبرات العليا للروح

يبدو لي أن أغلبية الناس لاتؤمن إطلاقا بنبرات عليا للروح إلاّ إذا تعلق الأمر بلحظات أو بأرباع الساعة على الأكثر ـ باستثناء هاته الكائنات النادرة التي تعرف مدةً أطول من الشعور السامي ، عن تجربةٍ . لكن أن تكون رجلَ تحميسٍ فريد ، أن تكون تجسيدا لحالة معنوية سامية ـ فإن هذا لم يكن حتى الآن سوى حلم ، سوى إمكانيةٍ محمِّسة : والتاريخ لا يعطينا مثلا ثابتا من ذلك . ومع ذلك فربما يكون [التاريخ] قد أوجد مثل هؤلاء الرجال ـ بمجرد أن تصاغ وتوضع مجموعة من الشروط الأولية التي لاتستطيع حتى رميةُ نردٍ أسعدِ الحظوظ أن توجدها . ربما ستعرف هاته الأرواح المستقبلية ، كحالة عادية ، ذاك الذي لم يكن يحدث حتى الآن في أرواحنا إلا أحيانا كاستثناء نشعر معه بقشعريرة : حركة لاتفتر بين العلو والعمق الشديد وبين الإحساس بالعلو والإحساس بالعمق الشديد ، كصعود مستمر على درجات وكاستراحة على السحب في نفس الوقت .

(*) هو في الأسطورة الإغريقية موسيقي تبع زوجته يوربديس إلى «مثوى الأموات» فأجاز له بلوتو (إله الموتى والجحيم) ، وقد سحر بألحانه ، أن يخرجها من ذلك المثوى شرط أن لاينظر إلى الوراء ، ولكنه فعل في اللحظة الأخيرة ففقدها .

289 لنرفـع المرسـاة

حين نتأمل كيف يؤثرُ على كل فرد تبريرهُ الفلسفي الكامل لطريقة عيشه وتفكيره ـ كـالشمس التي تدفئه وتبـاركه وتخصبـه ، وهاته الشمس التي لا تسطع إلا لـه هو تعفيه من الثنـاء ومن اللّوم ، تمكّنـه من كفايـة نفسه بنفسـه ، تجعله غنيـا وسخيا في الغبطة والإحسـان ، ولها فضل تحويل الشر إلى خيرٍ وقيـادةِ كل القوى إلى ازدهـارها ونضجهـا و إلى قلع زؤان الكـآبـة والغم الصغير والكبير ـــ [حين نتـأمل ذلك] لانستطيع أن نمنع أنفسنا من الهتـاف بحنين : لو تخْلَق كثيرٌ من الشمـوس الجديدة المشابهة لهاتـه ! يجب أن تكون للـرجل الكريـه ، للرجل التعس ، للـرجل الاستثنائي فلسفتهم هم أيضـا ، أن تكـون لهم حقـوقهم الخاصـة وشعـاع شمسهم ! ليس لأن الشفقـة تجاههم هي مـا ينقص ! ـــ يجب أن ننسى هـذا الإيحاء بالتكبر بـالـرغم مما تعلّمَتْهُ منه الإنسانيةُ حتى الآن لتَمَرَّسها به منـذ أمد طويل ـ ليس المعرّفون والمعزّمون ومانحو المغفرة هم من يجب أن نعيّن لهم ! بل ما ينقص هي *عدالة* جديدة ! هو شعار جديد ! هم فـلاسفة جدد ! الأرضُ الأخلاقية دائرية هي الأخـرى ! الأرض الأخلاقية لها نقائضها هي أيضا ! النقائض لها الحق في الوجود هي أيضا ! لايزال هناك عالم آخر يجب اكتشافه ـ بل أكثر من عالم واحد ! لقد آن الأوان أيها الفلاسفة ، فلنرفع المرساة !

290 شيء لابـدّ منـه

«أن نضفي إبداعـا فَنيّا» على طبعنا ـ فهـذا فن عظيم ونادر ! يمارسه الـذي يعانق كلَّ ما يمنحه طبعُه من قوة ومن ضعـف ! و الذي يعرف بعد ذلك ، كيف يدمجه في مشروع فني بشكل جيد يبـدو معه كل عنصر مثل قطعـة فن وعقل ، حتى الضعف تكون له ميزة سِحْرِ النظرِ . هنا زِيـدَ كمٌّ كبير من طبيعةٍ ثانوية وهناك نُقِصَ جزءٌ من طبيعة أولية : وكل مرة[يتم ذلك] لقاءَ تمرين يُمَارَسُ بطـولِ أناةٍ ولقاء كدٍّ يومي . هنا قد أُخْفِيَ قبحٌ لم يمكن حـذفه وهناك حُـوِّل ليتّخذ معنى ساميـا . كثير من الأشياء المبهمة والعصية على الشكل استُبْقيت واستُغِلّت من أجل الرؤية الخلفية للوحة : ـ وظيفتهـا هي أن تـوحي بـالفضاءات التي لانهايـة لها . وفي النهـايـة ، حين يكتمل العمل ، يظهر أنّ إكراهَ نفسِ الذوق هو الذي كان يسود في الأشياء الصغيرة والكبيرة ويهيّئها : أنّ كون الذوق سليما أو غير سليم لا يهم بالقـدر الذي كنا نظنه ، ـ يكفي أن يكـون ذوقا ! ـــ إن الطباع القـويـة والمحبة للسيطـرة هي التي ستتلـذّذ بفرحتهـا الدقيقة ، في مثل هـذا الإكراه وهذه التبعية وهذا الإتقان ، في إطـار قانونها الخاص ،

إن شهوة إرادتها العنيفة تخفّ لدى تأمل كل طبيعة منمنمة وكل طبيعة ذُلِّلت وصارت خدومة، حتى حين يكون عليها أن تشيّد قصورا أو تهيء حدائقا فإنها تنفر من إطلاق العنان للطبيعة. ـ في المقابل، الطباع الضعيفة التي لم تستطع أن تتمالك نفسها هي التي *تكره* التبعية للإبداع الفني: تشعر أنها لو تحمّلت إكراهه المر لصارت *عامية* بسببه: عبيدا يأنفون من أن يُخدموا بمجرد أن يَخدُموا. إن مثل هاته العقول ـ وقد تكون من الطراز الأول ـ ترمي دائما إلى إبداء الرأي وإلى تفسير نفسها ومحيطها باعتبارهما طبيعة *طليقة* ـ متوحشة، تعسفية، غريبة الأطوار، غير منظّمة ومفاجئة ـ وحَسَناً تَفعل، لأنها إذّاك فقط تحسن إلى نفسها! لأن هناك شيئا واحدا لابد منه: أن *يصل* المرء إلى الإعجاب بذاته ـ سواء بالصّنف كذا أو بالصنف كذا من الفن أو من الشعر: إذّاك فقط يبدو الإنسان بمظهر محتمل! وكل من كان مستاء من نفسه فهو مستعدّ دائما للانْتقام منها: وسنكون نحن ضحاياه، وإن لم يكن ذلك إلا لكي نستطيع تحمل مظهره البشع! لأن رؤية شيء بشع تجعل الإنسان مريضا وكئيبا.

291 جنــــوة

لقد تأملتُ هاته المدينة خلال مدة طويلة، تأملتُ منازل باديتها وحدائق النزهة فيها، تأملت الضواحي الفسيحة لمرتفعاتها وتلالها المأهولة؛ وفي الأخير لَزِمني القول: إنني أرى *سيماء* الأجيال السالفة ـــ هاته البلدة موشاة بصور إنسانية جسورة وسامية. هاته الكائنات *عاشت* وأرادت أن تبقى حية ـ هذا ما تنطق به مقارّهم المشيدة والمزخرفة لعدة قرون وليس فقط للساعة المتصرّمة: لقد كانوا مفعمين بالطيبة تجاه الحياة، أخبث ما يكونون تجاه أنفسهم في الغالب. لا أفتأ أرى البنّاءَ وكيف يقع نظره على كل ما بُنِيَ بعيدا عنه أو حواليه، على المدينة، على البحر، وعلى صفوف الجبال، وكيف يعنّف الطبيعة ويُدير الغزوات بهذا النظر: يريد أن يدخل كل هذا في مشروعه ويجعل منه، في الختام، مِلكه بحيث يصير جزء مكملا له. البلدة كلها مشكّلة بهاته الرغبة الرائعة والشرهة في إثبات الذات بالتملك وبالغنيمة لم يكن هؤلاء الناس كذلك يعرفون حدّا للاكتشافات البعيدة، وفي تعطشهم إلى الجديد وضعوا عالما جديدا بجانب القديم، كذلك في البلد الأصلي كان كل واحد يثور ضدّ كل واحد، كان كل واحد يبتكر طريقة ليعبر عن تفوقه وليضع لاتناهيه الشخصي بينه وبين جاره. كان كل واحد يعيد لنفسه ثانيةً غزوَ بلده، وذلك بالتحكم فيه بفكرته المعمارية الخاصة ليحوّل ملامحَه إلى دار نعيمٍ لداره هو. إن ما

يسترعي الإنتباه في الشمال هـو القانـون، هي المتعة الجماعية، هي طـاعة القـانون، وحين نتأمل معمار المدن : نحززُ فيها هذا الميل إلى التساوي و إلى التنسيق الذي كان دليلَ كل البنّـائين. بينما هنـا نكتشف في كل منعطف رجـلا لـذاتـه يعـرف البحـر والمغامرة والشرق، رجلا يضايقه القـانون والجار ويفقدانه صبره، رجلا ينظر إلى كل الأشياء القديمة والمقامة من قبل نظرة حاسدة؛ إنه يود، بواسطة عفرتةٍ خياليةٍ رائعة أن يعيد تشكيل كل هـذا، في ذهنه على الأقل، يود أن يباشر العمل فيـه، أن يدس فيـه شعـوره الشخصي، ــ وإن لم يكن ذلك إلا لمدة مـا بعـد ظهيرة مشمسـةٍ حيث يمكن أن تشبع روحه الشرِهة والكئيبة، وحيـث لايعرض لنظره أيُّ شيءٍ غريب غير ما يعود له هو.

292 إلى دعاة الأخلاق

إنني لن أعظ قـط، لكنني سأسـدي هــذا النصح للـذين يعظــون : إن كنتم تحرصون أشد الحرص على إفقاد الأوضـاع الإجتماعية والأشياء الجيدة كل شرف وكل قيمة فـاستمروا، كالسـابق، في إجرائها على ألسنتكم بـاستمرار. أجعلوهـا في قمة أخلاقكم ولاتتكلموا من الصباح حتى المساء إلا عن سعادة الفضيلة، عن طمأنينة الروح، عن العدالة الثابتة(*) وعن الإنصاف : إذا ظللتم هكذا فستنتهي كل الأشياء الجميلـة بأن تصبح لها شعبية الشـارع وعلنيتـه؛ بيـد أنه ابتـداء من هـاته اللحظـة سيصير كل مـا هو فيهـا من ذهبٍ بـالياً، بل الأدهـى من ذلك : سيتحول كل مـا *تحويه* من ذهب فيهـا إلى رصـاص. في الحقيقـة، لقد صرتـم أساتـذة في الخيميـاء المضادة، في الحط من قيمة كل ماهـو ثمين! جربوا علاجا آخر ولـو مرة واحدة لئلا تحصلوا على عكـس ما تبحثـون عنه : *أنكروا* هاته الأشياء الممتـازة، أحرموها من تصفيقـات الدهماء، أوقفـوا مجراهـا السهل، إجعلوا منهـا من جـديد حيـاء بعض الأرواح الوحيـدة المستتر [ثم] قـولوا : ***لتكن الأخلاق شيئـا ممنوعا!*** ربما تنضمّـون بذلك إلى هـذا الصنف من الرجـال، أعني *البطوليين*، الذين يهمـون قضيّتكم هُمْ وحدهم. لكن يجب أن يكون فيها آنذاك ما يُخشىٰ وليس ما يثير الإشمئزاز، كما كان الأمر آنفـا! ألن نقول اليـوم بخصوص الأخـلاق مثلما كان المعلم إيكهـارت يقول : «أدعو الإله أن يخلّصني من الإله»؟.

(*) عدالة يرتكز مبدؤها على الأشياء نفسها.

293 جونـــا

إننا نعرف ذلك جيدا! نعرف أن الذي لا يعـدو أن يلقي نظرة شبه عابرة في اتجاه العلم، على طـريقة النسـاء، ولسـوء الحظ، على طـريقة كثير من الفنـانين: يحس بشيء دواريّ ورهيب في الـدقة التي يتطلبهـا العلمُ في الخدمـة، في هذا التشـدد في الأشياء الصغيرة كما في الكبيرة، في هاته السرعة في التقييم، في الحكم وفي الذم. وما سَيُحَيّر فيـه بشكل خـاص هي الطـريقـة التي يُتَطلب بها الأصعب والتي ينفـذ بها الأفضل دون طمع في الثنـاء أو في الامتيازات، بينما لا يُسْمَعُ فيه، في مقـابل ذلك، كما في الحياة العسكرية، إلا اللـوم والزجر القاسيين *بنبرة متجبرة* ـ لأن النجـاح هنا يعتبر قـاعـدة والفشل استثنـاء: غير أن القـاعـدة هنـا، كما في أي مكـان آخـر، لا تنطق. و«قسوة العلم» هـاته، مثل أشكال المجـاملة لدى الطبقة الأرستقـراطية ـ تُرْهِبُ غير المتمرّسين. لكن الذي تعـوّد عليها لا يرغب في العيش في أي مكان غير هذا الهواء النقي، الشفـاف، المقوي، هـذا الهواء المشحون بـالكهربـاء، هذا الهواء *الرجولي*. في كل الأماكن الأخـرى يبدو له الجو غير نقي وغير صـالح للتنفس: إنه يخشى ألا يكون الأجود مـن فنه ذا نفع لأي أحد *هناك* ولا ذا متعة لـه هو، يخشى أن يَمْـرُق نصفُ حيـاتـه من بين أصـابعـه في سـوء تفـاهـمٍ، يخشى أن يـوشك على أن يستعمل فيه الاحتياط والإخفـاء والاحتياطيات باستمرارٍ ـــ كلّ أنواع الإنفاق الكبيرة واللامجديـة في الطاقـة! لكن هنا، في *هذا* العنصر القاسي والصـافي، تبقى طـاقته كاملة: هنـا يستطيع أن يطير! فما الفائدة من الهبوط ثانيـة إلى تلك المياه العكرة التي يسبح فيهـا الناس ويتخبطون، مـع احتمال أن يجرّ جناحيـه في الوحل! ـــ لا! هناك يصعب علينا أن نعيش: فما نملك إن وُلِدْنَا للهواء النقي، نحن أنداد شعاع الضوء الذين نفضل امتطاء جزء من الأثير، مثله، لكن في الاتجاه المعاكس، ***مسارعين نحو الشمس***! هـذا مستحيل: ـــ لنفعل إذن ما نستطيعـه: لنحمل الضـوء إلى الأرض لنكن «ضوء الأرض»! لأجل هـذا نحن مجنّحون وسريعون وقسـاة، نتيجة لهذا نحن رجـوليون، بـل شديـدو المراس مثل النـار. لِيَخْشَنَـا أولئك الذين لا يعـرفـون كيف يصطلون ولا كيف يستنيرون قرب النار التي هي نحن!.

294 ضدّ المفترين على الطبيعة

في رأيي أن أولئك النـاس الـذين يصير كـل ميل طبيعي فيهم مَـرَضيـا ويتصرف بطريقة مشوّهة، إن لم نقل مخجِلة، هم رجال بغيضون ـ إنهم **هم** الذين أوحوا لنا بأن

الميول والدوافع الإنسانية كانت منحرفة : إنهم هم المسؤولون عن ظلمنا الكبير لطبيعتنا، ولكل طبيعة! هناك كثير من الناس يملكون حق الاستسلام لدوافعهم بلطافة ولا مبالاة : وإن لم يفعلوه إطلاقا فخوفا من «جوهر» الطبيعة «المنحرف» الوهمي. *من هنا* تنجم قلة النبالة بين الناس : النبالة التي ستكون ميزتها دائما ألا نخشى أنفسنا، ألا ننتظر شيئا مخجلا من نفسنا، وأن نطير دون تردّد إلى حيث يقودنا اندفاعنا ـ نحن العصافير المولودة حرة! حيثما يقودنا طيراننا فسيكون دائما في حضن فضاء طليق ومشمس!

295 العادات القصيرة

أحبّ العادات القصيرة وأعتبرها أنفسَ وسيلة لمعرفة *عدد* من الأشياء والحالات حتى عمق عذوبتها ومرارتها : طبيعتي كلها مخلوقة لعادات قصيرة *بقدرما* أستطيع رؤيته : من أخمصها إلى أعلاها، حتى من جهة متطلبات صحتها الجسدية، وبشكل مطلق. أنا أعتقد دائما أن *هذا* يملك ما يرضيني بشكل دائم ـ فللعادة القصيرة هي الأخرى إيمانُ الشغف، إيمان بالأبدية ـ وأتخيّلُني محسودا لأني عثرت عليها وتعرّفتُ عليها : ومنذ ذلك الحين وهذا الاعتقاد له الفضل في إطعامي صباح مساء وفي نشر اعتدال عميق حوله هو وفي أنا حتى أنني لا أشتهي شيئا دون أن يكون علي أن أقارن أو أحتقر أو أبغض. يأتي اليومُ الذي يكون فيه الشيء الحسن قد أدّى مهمته : فيفارقني، ليس كما لو صار موضع اشمئزاز ـ لكن بهدوء، وقد شبع مني كما شبعت منه، وكما لو وجب علينا عرفانٌ متبادلٌ بالجميل، *إذن* نكون مستعدين لنتصافح لحظة نتوادع! والشيء الجديد ينتظرني بعدُ بالباب، وكذلك الاعتقاد ـ الأحمق الرصين، الحكيم الرصين! ـ الاعتقاد بأن هذا الشيء الجديد سيكون الشيء العادل، العادل قطعا. بالنسبة لي فإن الأمر كذلك في الوجبات والأفكار والرجال والمدن والقصائد والموسيقى والعقائد وبرامج اليوم وأساليب العيش. ـ في المقابل، أبغض العادات *الدائمة*، وأحس كأن طاغية يقترب وكأن جوّي قد تسمّم بمجرد أن تأخذ الظروف منحىً من شأنه أن يوجِد بالضرورة عادات دائمة : بواسطة وظيفة مثلا، أو بواسطة حياة في صحبة دائمة لنفس الأشخاص، بواسطة سكنٍ مستقر أو بواسطة نمط واحد من الصحة. نعم، أعرف، في عمق روحي وإرضاءً لصحتي الرديئة ولكل ما هو على غير ما يرام فيّ، كيف أوفّر لنفسي مئات المسالك الخفيّة من حيث أستطيع الإفلات من العادات الدائمة. ـ إن الذي

لا يُطاق دون شك، وما سيكون فظيعا بالنسبة لي هي حياة خالية تماما من العادات، حياة ستتطلب ارتجالا متواليا : ـ ستكون منفايَ وسيبِرْيَايَ.

296 السّمعة الرّاسخة

كانت السمعة الراسخة ذات فائدة قصوى في الماضي : وحيثما لا يزال المجتمع اليوم محكوما بغرائز قطيعية يكون أنفع لكل فرد أن *يُظْهِرَ* مزاجه كما لو كان، مثل حرفته، لا متغيرا ـ حتى حين لاتكون الحالة كذلك. فالثَّناء الذي له أهمية أكثر في كل حالات المجتمع الخطيرة هو ـ «يمكن أن نعتمد عليه، إنه يبقى عَدِيلَ نفسه». إن المجتمع يحس بارتياح إذا استطاع امتلاك *أداة* أمينة ومستعدة في كل لحظة، في مثل فضيلة فلان وكبرياء فلان آخر وتأمّل وشغف ثالث، ـ فهو [المجتمع] يشرّف *طبيعة الأداة* هاته، يشرّف ميلها للبقاء مخلصة لنفسها، يشرّف ثباتيتها في الآراء، في الطموحات وحتى في اللافضيلة، ويمنحها أرفع التشريفات. إن مثل هذا التقدير الذي يزدهر والذي ازدهر في الوقت ذاته مع أخلاقية التقاليد يربي «الأمزجة» ويحكم على كل تغيرّ، على كل إعادةِ تمرُّنٍ، على كلِ تفسير جديد وعلى كل تحول في الذات *بفقد قيمته*. والحالةأنه مهما عظُمَت ايجابيةُ هذه الطريقة في التفكير فإنها لاتشكل أكثر أنواع الحكم إضرارا *بالمعرفة*: لأن الذي يُدان وتُفْقَد سمعته بهذا الفعل هو بالضبط استعداد العالم، دون خشية وفي كل لحظة، *لرفض* ماكان حتى ذلك الوقت يشكل رأيه الخاص، وبصفة عامة أن يعبر عن حذره بخصوص كل ما قد يميل فيه *إلى الجمود*. وبقدر ما تكون حالة العالِم المعنوية في تعارض مع «السمعة الراسخة» فإنها ستعتبر *مخربة*، بينما لتحجير الآراء كل الشرف : ـ تحت لعنة مثل هذه القيم يجب علينا أن نحيا اليوم! وما أصعب أن تحيا وأنت تشعر حولك وفوقك بثقل أحكام عديد من الألفيات! من المحتمل أن تكون المعرفة قد أُثقلت بالإحساس بالخطإ، ومن المحتمل أن هناك الكثير من ازدراء الذات ومن البؤس الخفي في تاريخ المفكرين.

297 أن نعرف كيف نعارض

كل واحد يعلم اليوم أن القدرة على تحمّل المعارضة دليل بارز على الثقافة. بل يعلم البعض أن الإنسان المتفوق يرغب في المعارضة ويثيرها كي يحصل منها على علامة موازية لظُلمِه الذي كان يجهله حتى ذلك الحين. بينما *أن تعرف* كيف تعارض، أن تحافظ على *راحة* الضمير المكتسبة في معاداة كل ما هو معتاد وتقليدي

ومقـدس ــ فهذا شيء أكثـر من تحمل المعـارضـة و إثارتها، هـذا هـو الشيء الكبير والجديـد والمدهش بشكل جـوهـري في ثقـافتنا، هـاتـه هي خطـوةُ العقل المحـرِّرِ العظيمة: فمن يعرف ذلك إذن؟ـ

298 تــــأوّه

أمسكت هـذا الفهم على الفـور، وبسرعـة أخـذت أولى الكلمات القبيحـة التي حَضَرَتْني لأستبقيه. وهـا هو ذا قـد مات من جفـاف هاتـه الكلمات، وبقي معلقا فيهـا، متأرجحا ــ ولاأكاد أعـرف، حين أتأملـه، كيف واتتني مثل هاتـه الفرصـة لأصطاد هذا الطائر.

299 ما يمكننا تعلّمه من الفنّانين

أيّ الوسائل نملك لنجعل الأشياء جميلة وفتّانة ومشتهاة حين لا تكون كذلك؟ ـ وأزعم أنها لاتكون كذلك أبدا من تلقـاء نفسها! في هذا قد نستطيع أن نتعلم الكثير من الأطباء، مثلا حين يلطّفون المرّ أو حين يمزجون الخمر والسكّر؛ لكن قد نتعلم أكثر من الفنـانين الذين يرمـون باستمرار، على العموم، إلى ابتكـارات مشابهة وإلى تغلّبٍ مشابه على العقبات. أن نبتعـد عن الأشياء إلى الحد الذي تمّحي فيه كثير من جزئياتها، أن نـدقق النظر إليها كثيرا كي *نراها مرة أخرى* ـ أو ننظـر إلى الأشياء من انحراف زاويـة معينة ــ أو نموضعهـا بحيث لن تعـرض نفسها إلا في فتحـة وتكون [الأشياء] مستَتِرة جزئيا ـ أو نتأملها مـن خلال زجاج ملوّن أو على ضوء المغيب ـ أو أخيرا أن نمنحها ظاهرا وبشرة لا يكونان شفـافين تماما؛ هذا كل ما سيكون علينا أن نتعلمه من الفنـانين، مع احتمال أن نكون أحكمَ منهم فيما يخص الباقي. لأن هـاته القوة الدقيقـة تنتهي لديهم عادة حيث ينتهي الفن وتبدأ الحيـاة؛ غير أنه فيما يخصنا *نحن*، لنكن شعراءَ حياتِنا، في أدق التفاصيل وفي أكثرها تفاهة قبل كل شيء.

300 مقدمات العلـم

هل تعتقـدون أن العلوم كـانت ستتطـوّر وتنمو إطـلاقـا لو لم يكن في طليعتهـا السحرة والخيميائيـون والمنجمون والساحرات، الذين كـان على وعودهم و أوهامهم في أول الأمر أن تثير عطش وجـوع القوى *الخفية والمحرومة* وتذوّقها الأولي الشهي؟ ألا ترون أنه قـد لزم أن *تعطى وعود* أكثر ممـا كان تحقيقـه ممكنا حتى يتسنّى تحقيق شيء ما فقط في ميـدان المعرفة؟ نفس الشيء ينطبق على ما يبـدولنا *نحن* ككثير من

مقدمات العلم وتمارينه التمهيدية، والتي لم تمارس مع ذلك ولم تجرّب باعتبارها كذلك *أبدا*، وربّما سيبدو *الدين* كله كتمرين وكمقدمة في نظر عصر لايزال بعيدا : ومن المحتمل أنه لم يكن وسيلة غريبة تمكن بعض الرجال المتفردين من التمتع بالحالة الإلهية التي هي كفاية أنفسهم بأنفسهم وبقوة افتداء النفس التي هي خاصة بالإله. بل أكثر من ذلك ـ يمكن أن نتساءل ـ خارج هاته المدرسة وهذا الماقبل ـ التاريخ الديني، هل تعلّم الإنسان أن يشعر بجوع *ذاته* وبعطشها، وأن *يجد في ذاته* الشبع والإرتواء؟ ألم يلزم بروميثيوس، بنوع من الهذيان، أن يتخيل نفسه في أول الأمر وقد سرق النور، وأنه عليه أن يكفّر عن هاته الجريمة ـ لكي يكتشف في النهاية أنه خلق النور *برغبته في النور ذاتها*، وأنه لم يكن الإنسان فقط، بل حتى *الإله*، كانا من عمل يديه، من الطين الذين شكّلته يداه؟ ما الكل سوى صور من خالق الصور؟ كذلك الهذيان والسرقة والقوقاز والنسر، وكلّ Promethia (*) المأساوية لكل الباحثين عن المعرفة؟.

301 جنون محبّي التأمل

يتميز الناس المتفوّقون عن الأراذل بما يسمعونه ويرونه بطريقة لاتوصف، وإنهم لايرون ولايسمعون إلاّ وهم يتأملون ـ وهذا ما يميز الإنسان عن الحيوان، مثلما يميز الحيوانات الراقية عن الدّنيا. إن العالم يغتني أكثر باستمرار في نظر الذي يتطور وهو يسمو في أعالي الإنسانيّ؛ تُلقىٰ إليه إغراءاتُ الفائدةِ المتكاثرة : تزداد كميةُ إثاراته باستمرار متزامنة مع مختلف أصناف متعته واشمئزازه ـ [هكذا] يصير الإنسان المتفوق سعيدا أكثر وتعسا أكثر في الوقت ذاته. بينما هو دائما مرفوق **بجنون** ما : فهو يعتقد أنه وضع في الحقيقة، بكونه *مشاهدا ومستمعا*، أمام العرض السمفوني الكبير، الحياة؛ إنه يسمي طبعه *تأمليا* دونَ أن يتنبه لكونه هو نفسه شاعر الحياة كذلك الذي يتتبع تبلورها الشعري ـ وأنه يتميز دون شك عن *ممثل* هاته المأساة الذي يزعم أنه رجلُ الفعلِ، بل يتميز، أكثر من ذلك، عن المتأمّل البسيط المدعو إلى الحفل ليجلس في صدر المسرح. إن Vis contemplativa (**) [أي] النظرة الإستعادية لعمله، خاصة بالشاعر بكل تأكيد، كما هي خاصة به أكثر من ذلك، وقبل كل شيء، vis creativa (***) التي *تنقص* رجل الفعل تماما، رغم المظاهر

(*) البروميثيوسية. وبروميثيوس في الأسطورة الإغريقية هو من سرق النار من الآلهة ليحمي بها إنسانا صنعه من طين. رُبط في جبال القوقاز ينهش نسر كبده إلى أن خلّصه هرقل.

(**) القوة التأملية.

(***) القوة الإبداعية.

ورغم الرأي السـائد. إننا نحن المولعون بـالتأمل ـ الرقيقـو الطبع، هم في الواقع من ينتج باستمرار شيئا لا يوجد بعد: كليةَ العـالم النامية أبدا، ننتج تقديرات، ألوانا، أوزانا، منظورات، درجات، تأكيدات ونفيا. إن هذا الخلف الشعري الذي هو من ابتكارنا يُدْرَس بـاستمرار ويُتَمَرّن عليه كي يُمَثَّل من طرف ممثلينا الـذين هم الرجال العمليون المزعومـون، كي يجسَّد ويخرج من طرفهم بل ويترجم إلى تفاهـات يومية. إن كل ما له بعض *القيمة* في العالم الحالي لايملكها في ذاتـه، لا يملكها من طبيعته ـ فالطبيعة دائما بدون قيمة ـ بل تلقّى شيئا من القيمة يوما كمنحة، و*نحن* هم من كنا المانحين! *نحن* هم الذيـن خلقنا *العالم الذي يهمّ الإنسان*! ـ غير أنه ثمـة بالضبط تكمن المعـرفة التي تنقصنـا، وإن حدث أن استـوعبناهـا في لحظة فإننـا ننساهـا في اللحظـة التي بعـدهـا: إننـا نجهل أفضل قـوة فينـا ونقلل من شأن أنفسنـا بعض الشيء، نحن محبّو التـأمل ـ *لسنا فخورين ولاسعداء بالقدر* الذي كنـا نستطيع أن نكون عليه.

302 خطر السّعيد جداّ

أن نمتلك حواسـا فطنة وذوقـا مهذّبا؛ أن نتعـود على كل ما هـو في الذهن رفيع وممتـاز كما نتعـود على الطعام الطبيعي المنـاسب؛ أن نتمتع بـروح قـوية، جـريئـة وجسورة، أن نسير في الحيـاة بخطى ثابتـة والعين هادئة، أن نكـون مستعدين لكل شيء بلغ قصاراه مثلما نكـون مستعدين لحفلـةٍ، مفعمين باشتهاء العـوالم، البحار، الناس والمعبودات المجهولين، أن نصغي لكل موسيقي مـرحة كما لو كانت تدل على جوار رجـال شجعان، جنودا أو بحارة، تستبـدّ بهم الكآبة الأرجوانيـة للنّعمة حتى انهيار الـدمـوع خـلال الاستمتاع بلحظـة التـوقف والمتعـة القصيرة التي يمنحـونها لأنفسهم: منذا لا يودّ أن يكون هذا عافيته وحالته الشخصيتين! هذه كانت *سعادة هوميروس*! حالة ذلك الذي ابتكر للإغريق آلهتهم ـ ماذا أقول، الذي ابتكر لنفسه آلهته *الخاصة*! لكن لانخفينّه بعد الآن: بسعادة هومـروس هاته في الروح نكون أيضا أقدر مخلـوق على المعاناة يمكن مصـادفته تحت الشمس! وبهذا الثمن فقط نحصل على أثمن محارة قذفتها أمواج الوجود على الشـاطىء حتى اليوم! وبامتلاكها نجعل أنفسنـا أدق في الألم، وفي النهـاية، مفـرطـة في الـدّقة: لقـد كـانت سَـوْرَةُ غضب واشمئـزاز كافيـة لإفساد حيـاة هوميروس. لنقل أنـه لم يعرف حل لغـز عبثي بسيط طرحه عليـه صيادون شباب! حقا، إن الألغاز البسيطـة تشكل خطرا على السعداء جدا!.

303 كائنان سعيدان

في الواقع إن هذا الرجل، رغم شبابه، يتقن *ارتجال الحياة* ويفاجيء حتى *المراقب* المحنّك: ـــ يبـدو في الـواقع أنـه لايتعثـر، مع أنـه لايكف عن لعب الجزء الأكثـر مخاطرة. نتذكـر هؤلاء المعلمين، مرتجلي فن الأصوات، الـذين يعتقد المستمع نفسه أنـه يجب أن يضفي عليهم **عصمة** إلهية في اليـد، مع أنهم يلمسون الأوتـار خطأ هنا وهناك، مثما يحدث لأي إنسان. لكنهم ممرّنون ومبدعون بحيث تجدهم مستعدين، في كل لحظـة، لأن يدمجوا النغمـة التي يقودهم إليهـا، اعتباطـا، مزاجهم أو نـزوة أصبعهم في التركيبـة المضمونـاتيـة مبـاشرة، وهكذا يبعثـون روحـا ودلالة جميلـة في الصّدفة. ـ إننـا هنا أمام رجل آخر تماما، إنه يفشل جملة في كل مـا يباشره وما يعتزم فعله. فما كان محبوبـا لديه، عند الحاجة، قد قـاده من قبل قاب قوسين أوأدنى من الهلاك: ولئن نجا منه فإنـه لم يخرج منه بـ «عين مكدومة» فقط. فهل تظنـونه تعسا لهذا؟ لقد قرر منذ مـدة طويلة أن لايولي اهتماما كبيرا لرغباتـه أو مشاريعه الخاصة. «إن لم أوفّق في الحاجة الفـلانية، يقول لنفسـه، فلربما سأوفّق في الحاجـة الأخرى: وعلى العموم، لاأستطيع أن أقول إن لم أكن مدينا لخيباتي أكثر منه لأي نجاح. فهل خلقت لكي أكون عنيدا وأحمل قرنيْ ثور؟ إن ما يشكّل قيمةَ وفائدةَ الحياة، *في رأيي*، يكمن في موضع آخر، أَنَفَتِي، مثل بُؤسي، يكمنـان في موضع آخر. إني أعرف الحياة أكثر لكـوني كثيرا ما كنت على وشك فقـدها؛ ولهذا السبب بـالذات *أعطتني* الحياة أكثر مما أعطت أيّا منكم!».

304 نهمل ونحن نفعل

في الـواقع، إني آنف من كل هاتـه الأخـلاق التي تقول: «لاتفعل هـذا! تبتَّلْ! تجاوز ذاتك!» ـ في المقابل سأطيع، عن طيب خـاطر، الأخلاق التي تدفعني إلى أن أفعل، وأفعل مرة ثانية، مع احتمال ألا أحلم من الصباح حتى المساء وخلال الليل إلا بهذا، وألا أفكّـــر في شيء وإلا ففي أن *أنجح* وبأفضل ما يمكنني أن أفعلـه أنا *وحدي*! إنّ الذي يحيا هكذا ينفصل بـاستمرار عن الشيء الفلاني أو الشيء الفلاني الذي لا يدخل في مثل هـاته الحياة: إنه، دون حقد ولاكره، يـرى اليوم هذا الشيء ينفصل عنه وغداً ذلك، مثل الأوراق المصفرّة التي تزيحها عن الشجرة أدنى هبّة غير شديدة: أو أيضـا، إنه لاينتبه حتى إلى هذا الانفصال مـادامت عينه لاتحدّق بشدة إلا في الهدف، مادام لاينظر إلا أمـامه، لا إلى الجانب ولا إلى الوراء ولا إلى الأسفل.

«يجب أن يجدد عملنُا ما نهُمله؛ نهمل ونحن نفعل» ـ هكذا يحلو لي، هكذا تقول) mon placitum (*) . لكنني أرفض أن أطمح شعوريـا إلى إفقار نفسي، إني لاأحب أيّا من هاته الفضائل السلبية ـ الفضائل التي جوهرها جحود الذات والتضحية بها .

305 السّيطرة على الذّات

إن هـؤلاء الأخـلاقيين الـذين يحضُّـون الإنسـان قبل كل شيء وبـالأسـاس على السيطرة على نفسه يثيرون لديه مرضـا شاذا : سرعة انفعال دائمة من كل الميول وكل الحركات الطبيعية، نوعا من الحكة تقـريبا . ومهما يكن الدافع الذي دفعه أو جرّه أو جذبه أو حملـه، من الداخل أو الخارج ـ فسيبدو لهذا السريع الإنفعـال أن سيطر ته على نفسه تـوشك أن تنحلّ : يلزمه ألا يستسلم لأيـة غريزة أو لأي انـدفاع طليق، لكنه يبقى دائما في موقف دفاعي، مسلّحا ضدّ نفسه، والعين حادة وحذرة، حارساً أبديا للقلعـة التي أصبحها طوعا . ورغما عن ذلك فلاشك أنه قـد تكون فيه ***رفعة!*** لكن كم هـو غير مطـاق لـدى آخرين منـذ ذلك الحين، كم يصعب عليـه إرضـاء نفسه، كم هو مُفْقَـرٌ ومقطوعٌ عن كل مغامرات الـروح الجميلة، بل كذلك عن كل ***تعليم*** جـديد! إذ يجب أن نعـرف كيف نغيب عن الأنظـار لمدة طـويلة إذا أردنـا أن نتعلم شيئا من الحقائق التي لسناها نحن .

306 الرواقيون والأبيقوريون

يختار الأبيقوري الحالة والأشخاص وحتى الأحداث التي تناسب تكوينه الثقافي، ولأنه إنفعالي إلى أقصى حد فإنه يتخلى عن الباقي كله ـ أي عن أغلبية الأشياء تقريبا ـ لأن ذلك سيكـون طعاما حـارا وثقيلا بالنسبة إليـه . بالمقابل، يتمـرن الرواقي على ابتلاع الأحجار والهوام وأطراف الزّجـاج والعقارب، وعلى عدم الاشمئزاز من ذلك، فمعدته يجب أن تصير غير آبهة بكل ما تُفْـرغ فيها صدفةُ الوجود، إنه يـذكّر بطائفة عيساوة العـربية التي نجدها في الجزائر : ومثل فـاقدي الإحساس هؤلاء يحلـو له أن يكون له جمهور مدعوّ لمشاهدةِ عرض فقْـد ـ حساسيتهِ، وهو بالضبط مالاينصح به الأبيقـوري عن طيب خاطـر : ـ في الحقيقـة إن لهذا «حديقـة»! قد تكـون الرواقيـة منصوحـا بها كثيرا لرجـال يرتجل معهم القدر ويعيشـون في منتصف عهود قـاسية، عالة على رجال أجلاف ومتقلبين . لكن الذي ***يتنبأ*** إلى حد ما بأن القدر سيسمح له

(*) رغبتي .

أن يغزل **غزْلا طويلا** فحسناً سيفعل باتخاذه إجراءات أبيقورية : فقد فعله كل رجال العمل الروحي حتى الآن! ستكون بالنسبة لهم أفدح الخسائر أن يفقدوا انفعاليتهم الرقيقة وأن يتلقوا في المقابل جلد الرواقيين الشائك واللاسع.

307 لصالح النّقد

يبدو لك في الوقت الراهن كخطإ شيءٌ كنتَ تحبه في الماضي باعتباره حقيقةً أو استلاحة : ترمي به بعيدا عنك إذن وتتصور أن عقلك قد يكون بهذا حقّق نصرا. غير أن هذا الخطأ ربّما كان ضروريا لك في الماضي، وقد كنت لاتزال شخصا آخر ـ ومازلت شخصا آخر ـ كان ضروريا مثل كل حقائقك «الحالية»، كان تقريبا كجلد يُخفي ويغلف كثيرا ممّا لم يكن لك الحق في رؤيته بعد. إن حياتك الجديدة، وليس عقلك، هي التي قتلت هذا الرأي القديم لحسابك أنت؛ *إنك لم تعد في حاجة إليه*، وهو ينهار منذ الآن والغباوةُ تعجّ فيه وتظهر كالهامّة في واضحة النهار، إننا حين نمارس حسّنا النقدي فليس في ذلك شيء تعسّفي أو شخصي ـ وغالبا ما يكون هذا على الأقل دليلا على أن قوى حية فينا تعمل مستعدة لتفجّر قشرة ما. إنّنا ننفي، يجب أن ننفي، بقدرما *يريد* شيء فينا أن يحيا ويثبت نفسه، شيء ربّما نجهله، شيء لانراه بعد! ـ فذلك لصالح النّقد.

308 تاريخ كل الأيام

ما الذي يصنع لديك تاريخ كل الأيام؟ تأمّل العادات التي تكوّنها : هل هي نتاج تكاسل وجبن صغيرين متعددين، أم نتاج شجاعتك وعقلك العبقري؟ مهما يكن تَغَايُرُ هذين الاحتمالين كبيرا : فمن الممكن أن يُثني عليك الناس نفس الثناء وأن تكون لهم، فعلا، ذا نفْس النفع، بطريقة أو بأخرى. لكن النفع والثناء والمحترميّة يمكن أن تكفي الذي لايريد أن يكون له إلا راحة الضمير ـ ولن تكفيك أنت ياسابر الكُلىٰ الذي تملك *علم الضمير*!

309 عن ماهية الوحدة السابعة

أغلق المسافر بابا وراءه بعنف ذات يوم، توقف وأخذ يبكي. ثم قال : «كم أحقد على هذا النزوع، على هذا الدافع إلى الحقيقي، إلى الواقعي، إلى غير الظاهر، إلى الأكيد! لماذا يتعلق بي *أنا* بالضبط هذا المطاردُ الغامضُ والولِهُ؟ أود أن آخذ قسطا من الراحة، لكنه لايسمح بذلك! وكم من الأشياء تغريني بغواية الراحة! بالنسبة

لي، فإنه لايوجد في كل مكان سوى حدائق عرميد : من ثم تنتج في القلب غموم وتمزقات جديدة، باستمرار! لايزال علي أن أتقدّم، أن أرفع هاته الرّجل المتعبة، هاته الرّجل الجريحة؛ ولأنه علي أن أتقدم فإنه لايكون لي إلى الأشياء الجميلة التي لم تستطع استبقائي سوى نظرة مليئة حنقا ـ لانها لم تستطع استبقائي!».

310 الإرادة والموْجة

يالها من شراهة تلك التي تتقدم بها هاته الموجة، كأنها يتعلق الأمر ببلوغ شيء ما! بأية سرعة مقلقة تنساب في أعمق زوايا الشقوق الصخرية! يبدو أنها تريد أن تسبق أحدا إليها : يبدو أن شيئا نفيسا مخبأ فيها! ـ وهاهي ذي ترجع بشيء من التثاقل، وهي لاتزال كلها بيضاء من الانفعال ـ ترى هل خاب أملها؟ هل وجدتْ ضالتَها؟ هل تتصنّع الخيبة؟ ــ لكن موجة أخرى تقترب الآن، إنها أكثر شراهة وشراسة من الأولى وروحها تبدو مليئة بالعجائب، كلها طمع في الكنوز المستعبدة! هكذا تحيا الأمواج ـ هكذا نحيا نحن، نحن الكائنات المريدة! لاأقول عن ذلك أكثر. ماهذا؟ أتحذرنَني؟ ممتلئات حنقا علي أيتها المسوخ المتعجرفة؟ أتخشين أن أفشي سرَّ كُنَّ كاملا؟ طيب! كنّ إذا حنقات! كوِنَّ حائطا بيني وبين الشمس بنصب أجسامكن الهائلة الضاربة إلى الخضرة أعلى ما تستطعن ــ كما تفعلْنَ الآن! في الحقيقة، لم يتبق من العالم شيء سوى الأخضر الشفقيّ، وومضات خضراء. ارقصن على هواكنّ، أيتها الجميلات الصاخبات، اصرخن من اللذة ومن الخبث ـ ومن جديد اغطسن، وفي قعر الهوة أفرِغْنَ زمرّداتكنّ، وفوق ذلك ألقين تخريباتكنّ البيضاء اللاّمنتهية من الرغوة والزّبَدِ ـ أصفق للكل لأن الكلّ يلائمكن كذلك، أنتن اللائي أدين لكنّ بكل شيء : فكيف أغدر بكنّ يوما؟ لأنني ــ إِعْلَمْنَ هذا جيدا ـ أعرفكن أنتن وسرّكنّ، أعرف عرقكن! ألسنا، أنا وأنتن، من نفس العرق الواحد! أليس لنا، لي ولكُنّ، نفس السرّ الواحد!.

311 ضوء منكسر

إننا لانُظهِر الشجاعة دائما، وحينما نتعب يشتكي أكثر من واحد منا كالتالي : «إنه لمن الصعب ألاّنسيء إلى الناس ــ آه، ماضرورة هذا! ما الفائدة من أن نحيا مختبئين منذ اللحظة التي لانريد فيها قط أن نخفي ما يسبب الفضيحة؟ ألن يكون أكثر حكمة أن نعيش داخل المعمعة ونُصلِح في شخص كل واحد الذنوب التي يجب أن تُرتكب، التي يجب أن نرتكبها في حق كل الناس؟ الأخرق مع الخرق،

المغـرور مع المغرورين، المتحمس مع المتحمسين؟ أَلَنْ يكـون ذلك عادلا إذا تأمّلنـا اختـلافنا الحاد عن المجمـوع؟ أليست حـركتي الأولى هي أن أطلب الترضية ـــ حين أسمع افتراءات الغير عليّ؟ هـذا شيء حسن! ـ يبدو أني أقـول لهم ـ ليس لي قـاسم مشترك معكم، ولـديّ الكثير من الحقـائق في صـالحي : لكم الخيـارُ في أن تنعمـوا بالتسلي على حسـابي قدرما تستطيعـون! هاتـه نقائصي وزلاّتي، هذا جنـوني، غياب ذوقي، ارتباكي، دموعي، غروري، وسري، سر البُوم، وهـاته تناقضاتي! هذا يثير السخـرية! اضحكـوا إذن واستمتعوا! لن تثـور ثائرتي ضـد قانـون وطبيعة الأشيـاء اللذان يـريدان أن تكـون النقائص والأخطـاء مسلية! ـــ لاريب أنه كـانت هناك في الماضي عهود «أجمل» حيث كان بإمكاننا، لدى فهم فكرة جديدة شيئا ما، أن نشعر بأنه ***لاغنى عنّا*** فنهبط إلى الشارع لننـادي على كل واحد : «هـذا هو! ملكـوت الله قريب منكـم! ـ بينما أنا لن أنتبـه إلى غيابي إذا غبت. فـلا أحد منـالا غنىً عنه!» ـ لكننا، كما أسلفت، لانفكر هكذا حين نكون شجعانا : إننا لانفكر ***في ذلك***.

312 كَلْبَـــتي

لقد أطلقتُ اسما على ألمي وأنـاديه «كَلْبَةً» ـــ إنها وفية، فضولية، قليلـة الحياء، مسلية وذكيـة، مثل أي كلب آخر ـ وأستطيع أن أوبخها وأمـرر عليها سخطي مثلما يفعله آخرون مع كلابهم، مع خدَمِهم ومع زوجاتهم.

313 لالوحةَ شهيدٍ قط

سأفعل مثل رافائيل ولن أرسم لوحة شهيد قط. إنّ هنـاك قدرا كافيا من الحقائق السامية حتى لانذهب للبحث عن السّمو هناك حيث يعيش مع القسوة كما لو مع أخته : ولن تجد كبريائي أيَّ رضىً في أن تجعل مني سفّاحا ساميا.

314 حيوانات أليفة جديدة

أريد أن يكون أسدي ونسري حواليّ حتى تأتيني أخبارٌ وتوقعاتٌ بالحالة القوية أو الضعيفـة لقـوّتي في كل لحظـة. هل يجب علي اليـوم أن أخفـض عيني تجاههم وأخشاهم؟ وهل ستعود الساعة التي يرفعون فيها النظر تجاهي من الخشية؟.

315 عن ساعة الوفاة

العواصف خطري : فهل لي عاصفتي التي سأستسلم لها ، مثلما استسلم أولفير كْرومـويل لعاصفتـه؟ أم سأنطفيء كمشعِل لاينتظـر أن تطفئه الريح ، لكنـه تعبٌ وشبعــانٌ مـن نفســه ـــ كمشعلٍ مستهلـكٍ؟ أم : سأنتهي بإطفـــاء نفسي حتى لاأُسْتَهْلَك؟

316 رجال نبوئيـّـون

إنكم لاتشعرون إطـلاقا أن الرجـال النّبوئيين يتعـرضون لمعانـاة كبيرة : تعتقدون بكل بساطة أنهم تلقّوا منحة «جميلة» وتـوّدون أن تمتلكوها أنتم كذلك ـ لكن سأعبرّ هنا بالمثَل . كم تعاني الحيوانات من الجو ومن السّحب المشحونة بالكهرباء! نرى أن بعض الأَصنـاف لها قدرة نبـوئية بخصـوص الزّمن ، كـالقِرَدة مثـلا (كما نستطيع أن نـلاحظـه حتى في أوربـا وليس فقـط في معـرض الـوحـوش ؛ لكن في جبل طـارق كذلك) . لانشك في أنه حتى لـديها ـ فإن الأنبياء هي *آلامها* ! حين تتحول كهرباء عالية موجبة فجأة ، وتحت تأثير سحابة تقترب دون أن تكون مرئية قبل وقت طويل ، إلى كهرباء سالبة ويتهيأ تغير في الجو ، فـإن الحيوانات تتصرف كما لدى اقترابِ عدوٍّ وتتهيأ للـدفاع أو للهـرب : انها تتخفّىٰ في الغالب ـــ ذلك لأنها تدرك الجو الـرديء لافقط باعتباره كذلك ، لكن باعتباره العدو الذي قد **شعرتْ** بيَدِه .

317 نظرة استعادية

إننا لانعي التفخيم الخاص بكـل مرحلة من الحيـاة إلا نادرا ، مـادمنا منغمسين فيه ، ونظن على العكس أن الأمر قد يتعلق هنا بالحالـة الوحيدة الممكنة لنا منذ ذلك الوقت ، الوحيدة المعقولة ، الوحيدة التي ليست pathos (*) بل هي كلها ethos (**) ـ حتى نتكلم ونميز مثل الإغريق . اليوم أثـارت في بعضُ أنغام الموسيقى شتاءً ومنزلا ، وفي نفس الوقت ، وجودا شديد النُّسكِيّةوإحساسا بحياتي آنذاك : ـ كنت أعتقد أني سأحيـا كـذلك إلى الأبـد . ولكنني في الـوقت الحاضر أفهم أن ذلك لم يكن سوى تفخيما ، سوى عشقا ، مثل هـاته الموسيقى المتهورة والمواسية بتحسُّرٍ ـــ هذا النوع من العشق الذي يجب أن نمتنع عـن التوفر عليـه طيلة سنين أو آبـاد : [لأننا] سننتهي بأن نصير «آخِريّين» بافراط بالنسبة لهذا الكوكب .

(*) تفخم

(**) مزاج شعب .

318 حكمة في الألم

يوجد في الألم من الحكمة قدر ما يوجد في المتعة : وهو، مثلها، ينتمي إلى القوى الأساسية لحفظ النوع. ولو لم يكن كذلك لماتتْ هاته القوة منذ أمد طويل : وكونه يؤذي ليس حجة ضده، فتلك طبيعتُه. إني أسمع في الألم أمرَ قبُطان السفينة : «انشروا الأشرعة!» إن معرفةَ إعدادِ الأشرعة بألفِ طريقة هي ما ينبغي للبحار الجريء «الرجل» أن يتمرن عليه، ودون ذلك سَيكون مصيره قد حُدد بسرعة، ولن يلبث البحر أن يبتلعه. ينبغي لنا أن نعرف كيف نحيا بطاقة مخفّضة. فبمجرد ما يعطي الألم إشارة إنذاره فقد آن أوان تخفيض الطاقة ـ [فهناك] خطرا كبيرا، عاصفة تقترب، وحسناً نفعل أن نقوم بما من شأنه أن يجعل «الخسارة» أقلّ ما يمكن. حقيقة أنه يوجد رجال يطيعون الأمر النقيض عند قرب حدوث ألم كبير، وهم لايظهرون كثيرا من الأنفة، من المزاج العدواني ومن السعادة إلا حين تهب العاصفة : أجل إنهم مدينون بأسمى لحظاتهم للألم نفسه. إنهم الرجال البطوليون، ***رسُل ألم*** الإنسانيةِ الكبار : إنهم بعض الرجال النادرين الذين يحتاجون بالضبط إلى نفس التمجيد الذي يحتاجه الألم بصفة عامة ـ و، في الحقيقة، لانستطيع أن نرفضه لهم! إنهم القوى الأساسية لحفظ النوع وتطويره، وإن لم يكن ذلك سوى بكونهم يقاومون لين العيش وبكونهم لايخفون اشمئزازهم من هذا النّوع من السعادة.

319 باعتبارنا مترجمي تجاربنا المعيشة

هناك نوع من النزاهة لم يعرفه أيّ من منشئي الديانات ولا من أمثالهم : إنّهم لم يجعلوا من سبر تجاربهم المعيشة مشكلةً ضميرية. «ما الذي عِشْتُه إجمالا؟ ما الذي كان يحدث في هاته اللحظة فيّ أنا وحولي؟ هل كان عقلي واعيا بما فيه الكفاية؟ هل كانت إرادتي تعرف أن تقاوم خداع الحواس، هل كانت تُظهر الشجاعة في رفض الأوهام؟» لاأحد منهم سأل نفسه بهذا الشكل، واليوم أيضا، لاأحد من العقول الدينية الجميلة يفكر فيه : إنهم متعطشون بالأحرى إلى أشياء ***تناقض العقل***، ولايريدون أن يتحملوا كبيرَ عناء لإرواء هذا العطش ـــ وهكذا يحدث أن يعيشوا «معجزات» و «نهضات» وأن يسمعوا أصوات الملائكة الصغار! لكننا نحن المتعطشون إلى العقل، نريد أن نتقصى تجاربنا المعيشة بمثل دقةِ تجريبٍ علمي، ساعة بساعة، يوما بيوم! نريد أن نكون نحن أنفسنا تجريباتنا، [أن نكون] مواضيع تجريباتِنا.

320 لحظـة الإلتقـاء

أ : لم أعد أفهمك تماما؟ تبحث؟ أين إذن؟ وسط هـذا العالم، الذي يعتبر الآن واقعيا، ستـوجد لك زواية حيث ستـوجد نجمتك؟ أين إذن سيكـون مكانك تحت الشمس بحيث تستمتع، أنت أيضـا، بفـائض من العيش الـرغيـد، وبحيث يبَّرِر وجودُك؟ ألاّ يجدُ كل واحد العلاج إلا لنفسه ـ هذا يبدو أنك تقوله ـ وأن يكف نهائيا عن التحـدث عن المنفعة العـامة، عن الانشغـال بمصير الغير ومصير المجتمع! ـ
ب : طموحي أكبر من هذا، وإني لم أَعُـدْ باحثا، ما أريـده هو أن أخلق لي شمسا شخصية.

321 حــذر جديـــد

أُعْفونـا، رحمةً بنا، من التفكير باستمـرار في أن نعاقب، أن نـؤنب، أن نؤدب! فنـادراً ما نصل إلى تغيير فـردٍ معزول : وحين ننجح في ذلك، فـربما سيكون نجـاحَ شيء آخر بالتدريج : *نحن أيضا* سنكون قـد تغّير نا به! لنحرص بـالأحرى على أن يعادل تأثيرنا على *كل ما سيأتي* تأثيرَه هو ويتفوقَ عليه! لانُصارِعنّ في معركةٍ مباشرة! ـ هذا الذي يؤول إليه كل تأنيب، كل عقاب، وكل رغبة في التحسين. لكن لنرتفع نحن أنفسنـا إلى أعلى! لنزين صـورة مثلنا الأعلى بـالألوان الدائمـة الإشراق! لنعتّم الأخرى بضوئنا! لا! لانـريد قط أن نصير نحن أيضا *معّتمين* بسببه، على غرار كل المعاقبين وكل الساخِطين! لنتنحّ جانبا! لنصرف النظر!.

322 مـثـــل

إن المفكـرين الذيـن حسَبَهم تتحرك النجـوم بشكل دوري ليسـوا هم الأعمق : فالذي ينظـر في نفسه كما في داخل كون هائل ويحمل في ذاتـه مجّرات يعرف أيضاً كمْ هي لامنتظمة كلّ المجرات : فهي تؤدي حتى عمق فوضى الوجود ومتاهته.

323 حـظ في القـــدر

لقد مَنَحَنا القدر أرفع إمتياز حين سمح لنـا بأن نُقَاتِلَ إلى جانب أعدائنا إلى حين من هنا فإننا *مهيأون* لنصرٍ كبير.

(*) In media vita 324

لا! لم تخيّب الحياة ظني! على العكس، فقد وجدتُها، سنة عن سنة، حقيقية أكثر، مرغوبة أكثر، وغامضة أكثر ــ إنطلاقا من اليوم الذي جاءتني فيه المحرّرةُ الكبرى، فكرةُ أنه مسموحٌ لنا بأن نرى في الحياة تجريباً للمعرفة ـ لاواجبا، لاقدرا، لامغالطة! ـ وفيما يخص المعرفة نفسها : قد تكون بالنسبة للغير شيئا آخر، شيئا مثل فراش الراحة، أو الطريق المؤدية إلى فراشٍ للراحة، أو تسلية، أو وقت فراغ ـ بالنسبة لي، إنها عالم من المخاطر ومن الانتصارات تستطيع فيه الأحاسيس البطولية أن تمارس رقصاتها ومرحها. «*الحياة كوسيلة للمعرفة*» ـ بهذا المبدإ في القلب نستطيع لافقط أن نحيا بشجاعة، بل كذلك ***أن نحيا بمرح ونضحك بمرح!*** ومنذا إذن سيمهر في أن يضحك جيدا ويحيا جيدا إن لم يمهر أوّلا في أن يحارب وفي أن ينتصر؟.

325 ما يمتّ إلى العظمة

من سيستطيع أن يصل يوما إلى العظمة إن لم يستشعر في نفسه القوة والإرادة في أن يسبب آلاما كبيرة؟ فأن تعرف كيف تعاني هو أبسط الأشياء : وغالبا ماصارتْ نساءٌ ضعيفاتٌ، بل وحتى بعضُ العبيد، أساتذة في ذلك. لكن أن لاتستسلم أبدا للكآبة وللاّيقين الداخليّيْن بفعل التسبب في معاناة كبيرة وسماع صيحتها، ـ هو ذا الشيء العظيم، هو ذا ما يمتّ إلى العظمة.

326 الألم وأطباء الروح

إن في كل دعاة الأخلاق، كما في كل اللاهوتيين، وقاحة مشتركة : إنهم يتوخّون إقناع الناس أنهم في أشد المرض وأنه لاغنى لهم عن علاج أخير، صارم وجذري. ولأن الناس كلهم، دون استثناء، قد كانت لهم أذن صاغية لمثل هؤلاء المعلمين لعدّة قرون فقد انتهى شيء من هاته الخرافة التي تقول أنهم في أشد المرض بالتسرب إليهم : بحيث أنهم صاروا منذ الآن مهيّإين أكثر للتأوّه، لأنْ لايجدوا في الحياة شيئا جميلا، ولأن يتخذ هؤلاء وأولئك مظاهر حزينة كما لو كانت الحياة لاتطاق. في الحقيقة، إنهم جد واثقين من حياتهم، إنهم يحبونها حبا جمّا، ـ وكلهم حِيَلٌ لاتوصف وأفكارٌ دقيقة لتحطيم العنصر الكريه وإزالة شوكته من الألم ومن الشقاء. يبدو لي أننا نعتقد

(*)في خضم الحياة.

أنه يجب علينا أن نتحدث دائما عن الألم وعن الشقاء بشكل *مبالغ فيه*، كما لو كانت المسألة هنا مسألة لياقة لامسألة مزايدة : إننا نحرص على أن نكتم عمْداً وجودَ علاجات عِدة للألم، مثل المخدرات، مثل السرعة الحمّية للأفكار، مثل وضع هادىء أو مثل ذكريات، نيّات، آمال، جميلة كانت أو قبيحة، ومثل كل أشكال الأنفة والشفقة التي لها ميزة ممارسة تأثيرٍ مخدِّرٍ تقريبا : بينما تشكل أقصى درجات الألم كثيرا من حالات العجز. إننا نمهر في سقْي مراراتنا بالعُذوبة، خاصة مرارات الروح : إننا نتوفر على موارد في شجاعتنا وسمونا، وكذلك في جنون الخضوع والاستسلام النبيل. إننا لانشعر بخسارة على أنها خسارة إلا مدة ساعة أو تكاد : يحدث، في نفس الوهلة، أن تنزل علينا، بشكل من الأشكال، هبة من السماء ـ قوة جديدة مثلا : وإن لم تكن سوى فرصة جديدة للقوة! كم من العروض الخيالية قدّم دعاة الأخلاق في موضوع «بؤس» الرجل الشرير! كم من *الكذب* قدموا في موضوع شقاء الرجل الشهواني! ـ نعم، *كذبٌ* هي الكلمة المناسبة هنا : لاريب أنهم قد علموا بنعمة مثل هؤلاء الرجال الوفيرة لكنهم كتموها منهجيا لأنها تُشَكِّلُ دحْضاً لنظريتهم التي تريد أن لا تبدأ أيةُ نعمة إلا مع اندثار الهوى وسكوت الإرادة! أما فيما يخص العلاج الموصُوف من طرف أطباء الروح هؤلاء واحتكارهم لعلاج صارم وجذري فيمكننا أن نتساءل : هاته الحياةُ التي هي حياتنا، هل هي مؤلمة ومزعجة حتى تكون مفيدة مبادلتها بطريقة عيش رواقيةٍ ومحجّرة؟ *إننا لانشعر بأننا مرضى بما فيه الكفاية* حتى نلفي أنفسنا مرضى من النوع الرواقيّ.

327 الحمل محمل الجد

العقل لدى الأغلبية آلة مُرْبِكَةٌ، كئيبة وصارّة، ييأسون من تشغيلها : يتحدثون عن «*حمل* الأشياء *محمل الجد*» بمجرد ما يتنبهوا، بواسطة هذه الآلة، لأن يعملوا ويفكروا جيدا ـــ آه! كم من جهود مضنية سيتطلبها منهم فعلُ التفكير جيدا! إن الإنسان، الحيوان المحبوب، يفقد ابتهاجه كل مرة، فيما يبدو، حين يشرع في التفكير جيدا! إنه يصير «جديا»! و «حيث لا يسود إلا الضحك والمرح يفكر الناس عشوائيا» ـ هذا هو حكم هذا الحيوان الجدّي المسبَق بخصوص كل «علم مرح». طيب! لِنُبيِّنَ أنه حكم مسبق!.

328 معرفة الإضرار بالغباوة

لاشك أن الإيمان بالطبيعة الذميمة للأنـانية، الذي نُودِيَ به بكثير من التصلب والإقناع، قـد أضر بالأنـانية على العمـوم (*لفائدة الغـرائز القطيعية*! مثلما سـأردده مئات المرات)، خاصة بفعل تجريـده لها من كل راحة ضمير وحثّه على البحث فيها عن المنبع الأساسي لكل شقاء. «أنانيتك هي كارثـة حياتك» هذا كان مضمون كل وعظ طيلة ألفيـات: الشيء الذي أضرّ بالأنـانية، كما قلت، وحـرّمها من كثير من الروح، من الرقـة، من الجمال: الشيء الذي خبل الأنانية وقبّحها وسمّمهـا! ـ لقد عرف القدم الفلسفي، بالمقابل، كيف يكشف منبعا رئيسيا للشقاء من طراز مختلف تمامـا: فـابتـداء من سقـراط لم يكـلّ المفكـر من المنـاداة بما يلي: «إن طَيشكم وغبـاوتكم، إن طـريقتكم الوديعـة في العيش حسب القـوانين، إن تبعيتكم لـرأي الجار، هي سبب كـونكم نـادرا مـا تصلـون إلى السعـادة، ـ إننـا نحن المفكـرون، باعتبارنا مفكرين، هم السعداء أكثـر» لانبحث هنا عن معرفةٍ إن كانت لهذا الوعظ ضدّ الغباوة أسبـاب أفضل من أسباب الوعظ ضد الأنانية: الشيء الأكيـد هو أنه [الوعـظ] قد جرّد الغبـاوة من راحة الضمير: ـ لقد عـرف أولئك الفلاسفـة كيف *يضرّون* بالغباوة!.

329 فـراغ وبطالــة

هنـاك همجيـة خـاصـة بـدم «البشرة الحمـراء» في التعطش إلى الـذهب لـدى الأمريكيين: وقد بدأت الآن مسارعتهم إلى العمل بلا انقطاع، ـ رذيلة العالم الجديد بحصر المعنى ـ تُبَرْبِـرُ أوربا القديمـةَ عن طريق العدوى وتنشر فيهـا عقما عجيبا في العقل. فالناس يشعرون فيها، منذ الآن، بالخجل من الراحة: [و] التأمل الطويل يسبب الندامة تقـريبا. لم يعد الناس يفكرون إلا والساعـة في اليد، كما لايفطرون إلا والنظر مركز على نشرات البورصة ـ إن النـاس يعيشون كشخص «قد يفوته» شيء ما باستمرار. «أن نفعل أي شيء عوض لاشيء» هذا المبـدأ هو أيضا حبل صالح لخنق كل ثقافـة وكل ذوق رفيع. وكذلك تموت عِيانـاً كل الأشياء بمسارعة النـاس الذين يعملون، كذلـك يموت الإحساس بالشكل في ذاته، يمـوت السماع والنظر إلى نغم الحركات. الدليل على ذلـك هي هاته *الدقة الفجة* التي يطـالبُ بها النـاس في كل مكان في الوقت الحاضر، في كل الحالات التي يـود فيها الإنسان، لمرة واحدة فقط، أن يكون نزيها مع الناس، في الاتصالات مع الأصـدقاء، مع الناس، مع الأطفال،

مع الأساتذة، مع التلاميذ، مع الرؤساء ومع الأمراء ـ لم يعد للناس الوقتُ ولا الطاقةُ للتصرفات الاحتفالية، للمنّة مع بعض المواربات، لدأب الحديث كله ولكل Otium (*) بصفة عامة. لأن الحياة في مطاردةِ الربح ترغم [الناس] دائما على إجهاد العقل، في حين أننا ننشغل دائما بأن نخفي، بأن نتحايل أو أن نحرزَ بعض الامتياز: إن الفضيلة الأساسية الآن هي أن ننفّذ شيئا في وقت أقل من الذي سينفذه فيه [شخص] آخر. وهكذا نادرا ما تتبقى ساعات تكون فيها النزاهة *مسموحابها* : غير أن الناس يجدون أنفسهم، في مثل هاته الساعات، متعبين ويودّون ليس فقط أن «يسترخوا» ولكن أيضا أن *يستلقوا* بسعة وببطء. و *الرسائل* تحرّر الأن طبقا لهذا الميل: رسائل سيكون أسلوبها وروحها دائما «علامة العصر» الكاشفة بدقة. لئن كانت لاتزال هناك بعض المتعة في الحياة الجماعية وفي الفنون فهي من نوع تلك التي يحتفظ بها لأنفسهم عبيد خبلتْهم السُّخْرَة. ياله من ألم تواضعِ «الفرحةِ» هذا لدى أناسنا المثقّفين والجاهلين! ياله من ألم هذا الشك المتنامي بخصوص كل فرحة! إن *العمل* واثق منذ الآن أن راحة الضمير كلها ستكون بجانبه: فالميل إلى الفرحة، يسمى الآن «حاجة *للراحة*» وقد بدأ الإحساس به كموضوع مخجِل. «يجب أن نفكر في صحتنا» ــ هكذايعتذر الناس حين يضبطون في حالة تلبّس أثناء نزهة في البادية. أجل، يحتمل أن نصل إلى عدم الاستسلام لميل إلى la vita contem-plativa (**) (أي إلى الذهاب للتنزه مع الأفكار والأصدقاء) دون إحساس بالذنب وازدراء للذات. ـ طيب! فيما مضى، كان العكس تماما: كان العمل هو الذي يجلب الإحساس بالذنب. فقد كان الرجل النّبيل الأصل يخفي عمله حين تضطره الحاجة للعمل. [و] كان العبد يعمل متملّكا بشعور أن يعمل شيئا مُسْتَقبحاً في ذاته: الـ «فعل» ذاته كان شيئا مستقبحا. « النبل والشرف وحدهما يُقبلان في Otium وفيbellum (***)» : هذا ما كان ينادي به صوت الحُكم المسبَق القديم.

330 استحسان

لايحتاج المفكر لا إلى الإستحسان ولا إلى التصفيقات شريطة أن يكون واثقا من كونه سيُسرُّ بنفسه: لكن هذا هو ما لن يستطيع الاستغناء عنه. وهل هناك، فضلا عن ذلك، رجال يستطيعون أن يستغنوا عنه مثلما يستطيعون الاستغناء عن أي نوع من الاستحسان العام؟ أشك في ذلك: وحتى فيما يتعلق بالرجال الحكماء،

(*) تبطّل
(**) الحياة التأملية.
(***) حرب.

فطَاسِيتْ الذي لايشتبه في كونه لايفتري على الحكماء يقول : quando etiam sapien- tibus gloriæ cupido novissima exuiter (*) ـ الشيء الذي يعني، بـالنسبة له : أبدا.

331 أصـم ولامذهـولا

كان الناس فيما مضى يحاولـون أن يجعلوا لأنفسهم **سمعة** : وهـذا لن يكفي في الوقت الحاضر وقد صارت السوق شـاسعة جدا؛ ـ ينبغي أن يكون ذلك *ضجيجا*. والنتيجة هي أن حناجر جميلة تزعق هي كذلك، وأن أفضل السلع تُعرض بأصوات مبحوحـة : فبدون صياح السوق، بـدون بحة، لن يُعتَرف بأية عبقريـة منذ الآن. ـ بئس هذا العهد بالنسبة للمفكر، عليه أن يتعلم كيف يجد صمته بين ضجيجين وأن يقلـد الأصمّ حتى يصير أصمّ فعلا. ومـالم يتعلم ذلك فإنه يـوشك، ولاريب، أن يموت من الجزع ومن الصداع.

332 الوقـت العصـيب

لاشك أنه قـد كان لكل فيلسوف وقـت عصيب فكر فيه [هكـذا] : سأكون ذا شأن قليل إن لم يصـدق النـاس حججي الـرديئـة كذلك! ـــ وحـدث إذّاك أن مـرّ عصفور محتال بالقرب منه مزقزقا : «لاأهمية لك! لاأهمية لك!».

333 ماذا يعني أن نعرف

قال (**) Non ridere non Lugere, neque detestari, sed intelligere! سبينوزابهاته الطريقة البسيطة والرائعة الخاصة به. ومع ذلك، فما هذه -intel (***) ligere في العمق إن لم تكن الشكل ذاتـه الذي من خـلاله تصبح الثـلاثة الأخـرى ملموسة لنا على الفور؟ [إن لم تكن] نتيجة هاته الدوافع المختلفة والمتناقضة التي هي إرادة أن نهزأ، أن نتحسر، أو أن نُشنّع؟ لقـد وجب، قبل أن يكـون أي فصل من المعـرفة ممكنـا، أن يُظهر كـل واحد من هـاته الـدوافع، قبليـا، رأيَه الجزئي حـول الموضوع أو الحدث؛ ثم حدثَ خلافٌ، لاحقا، بين هاته الجزئيات، ومن ثم تكون بين الدوافع الثـلاثة أحيانا حـالة متوسطة، أحيـانا هدوء، وأحيانـا تنازلٌ متبادَل،

(*) حتى الحكماء حين يرغبون في المجد يتخلّون عن الرغبة الأخيرة.
(**) ألا نسخر، ألا نتحسر وألا نبغض، ولكن أن نعرف.
(***) المعرفة.

يكون نـوع من العدالـة والميثاق بينهـا : إذ بواسطـة العدالـة والميثاق تستطيع هـاته الدوافع الثلاثة أن تثبت نفسها في الـوجود وتحافظ على الصواب بشكل متبادل. إننا نحن الذين لانتبـه إلاّ للمشاهد الأخيرة من المصالحة، لتصفيـات الحساب الأخيرة من هـذا التسلسل، نظن بفعل هـذا أن intellegere تشكّل شيئا مُصـالِحا، عادلا وخيّرا، شيئا مضادا للدوافع بشكل أساسي : بينما لايتعلق الأمر سوى ***بتصرف معين فيما بين الدوافع***. لقد اعتبرنـا، خلال فترات طويلـة، أن الفكر الواعي هـو الفكر بالمعنى المطلق : [و] ابتداء من الآن فقط تبدو لنـا الحقيقة واضحة للعيان بأن الجزء الأكبر من نشاطنـا الذهني يحدث دون أن نعيـه أو نحس به : لكنني أدرك أن هـاته الدوافع التي تتصارع فيما بينها بشكل متبادل ستصير محسوسة تماما وستضر ***إحداها بالأخرى*** : ـ وفي هـذا قد يجد هذا الإنهاك البـالغ والفجائي الـذي يحدث لدى كل المفكرين سببه (الانهاك في ساحة المعركـة). أجل، ربما كان في داخلنا، الذي هو في صراع، ***بطولةٌ*** مختبئة، لكن ليس فيـه بالتأكيـد شيء إلهي، شيء يبقى في الذات إلى الأبد، كما كان سبينوزا يتصوره. إن الفكر ***الواعي***، خاصة فكر الفيلسوف، هو أكثر أنواع الفكر تجردا من القوى، ولهذا أيضا فهو، نسبيا، نوع الفكر الأكثر رقة وهدوء : وهكذا يمكن أن يسيء الفيلسوف بالضبط فهم طبيعة المعرفة بسهولة بالغة.

334 أن نتـعلم أن نـحب

هـذا مـا يحصل لنـا في الميـدان الموسيقي : ينبغي قبل كل شيء أن ***نتعلم كيف نسمع*** حركة الأقدام [في الرقص]، كيف نسمع لحنا، أن نعرف كيف نميزه بالسمع، كيف نتبينه ونعزلـه ونحددهُ باعتباره حيـاة في حد ذاته : ثم يلزمنـا مجهود واستعداد ***لنتحمله*** رغم غرابته، يلزمنا أن نتحلى بـالصبر إزاء نظره وتعبيره، وبالحنان إزاء ما هو فريد فيـه؛ ـ تأتي في الأخير اللحظة التي ***نعتاده*** فيها، ننتظره فيهـا، نحس فيها أننا سنفتقده إن غاب؛ ومنذ هاته اللحظة لايكف عن ممارسة إكراهه وسحره علينا حتى يجعل منا عشاقه المتواضعين والمفتونين الذين لايتصورون أن في العالم شيئا أجمل منه، ولايرغبون في أكثر منه، ولا في شيء غيره هو. ـ بيد أنه ليس في الموسيقى فقط يحصل لنا هذا : فبهاتـه الطريقة بالضبط ***تعلمّنا أن نحب*** الأشياء التي نحبهـا الآن. إننا ننتهي دائما بأن نُجازىٰ على استعـدادنا، على صبرنا، على عدالتنـا، على حناننا تجاه الغـرابـة، بحيث تنكشف الغـرابـة شيئـا فشيئـا وتهب لنـا نفسهـا كجمال جـديـد لايوصف : ـ هنا يكمن ***امتنانها*** لكرم ضيـافتنا. إن الـذي يحب نفسه لن يكـون قد

وصل إلى ذلك إلا من هاته الطريق : ليست هناك طريق غيرها . فالحب أيضا يجب أن يُتَعَلَّم .

335 لتحيى الفيزياء

كم يوجد من الرجال الذين يتقنون الملاحظة! ومن بين النادرين الذين يقدرون على ذلك ـ هل يوجد من يستطيعون أن يلاحظوا أنفسهم؟ إن سابري الروح كلهم يعرفون، لسوء حظهم، أن «كل واحد بعيد عن ذاته أشد البعد» ؛ وحكم «اعرف نفسك بنفسك» الموجّه إلى الناس من فم إله هو خبث تقريبا . لكن أن يمضي إليها المرء [إلى معرفة نفسه] بيأس من ملاحظة نفسه، فلاشيء يدل على ذلك مثل هاته الطريقة التي اعتاد *كل واحد تقريبا* أن يتحدث بها عن طبيعة الفعل الأخلاقي! هاته الطريقة السريعة، العجِلة، المقتنِعة، المسْهِبة، و المصحوبة بهاته النظرة، بهاته الابتسامة، بهذا الحماس اللطيف! يبدو أنه يريد أن يقول لكم : «لكن ياعزيزي، هذا شغلي بالضبط! إنكم تتوجهون بالضبط لـ*من يعنيه الأمر* : يتفق أن لايوجد شيء لي فيه كفاءة مثل هذا! وهكذا، حين يحكم المرء : « *هذا شيء صحيح*» ويستنتج من ذلك : «*لذا يجب أن يُفعل*»، و*يفعل*، منذ تلك اللحظة، ما اعترف بكونه صحيحا وعرّفه بكونه ضروريا، ـ فإن طبيعة فعله تكون *أخلاقية!*» لكن، ياصديقي، إنك تتحدث لي هنا عن ثلاثة أفعال وليس عن فعل واحد : فحكمك : « هذا شيء صحيح» واحد منها ـ ثم ألا يحتمل أن نحكم بشكل لاأخلاقي مثلما نحكم بشكل أخلاقي؟ *فلماذا* تعتبر هذا، وهذا بالضبط، صحيحا؟ ـ لأن ضميري يمليه علي؛ والضمير لاينطق أبدا بشكل لاأخلاقي بما أنّه يحدد قبلاً ما يجب أن يكون أخلاقيا!» ـ لكن لماذا *الاستماع* إلى لغة ضميرك؟ إلى أي حد لك الحق في اعتبار مثل هذا الحكم حقيقيا ومعصوما؟ ألن يكون هناك إذن ضمير قط ـ بالنسبة لمثل هذا *الاعتقاد*؟ أليست لك أية معرفة بضمير فكري؟ بضمير وراء «ضمير» ـ ك؟ إنّ لحكمك : «هذا شيء صحيح» ماقَبْلَ تاريخ في دوافعك التي لاتُقاوَم، في ميولك، في كرهك، في تجاربك وفي نقص تجاربك. عليك أن تتساءل، «*كيف* أمكن لهذا الحكم أن يحدث؟» ، ثم «*ما الذي* يدفعني على العموم للإستماع إليه؟» يمكنك أن تطيع أمره مثل جندي شجاع يسمع أمر ضابطه . أو كامرأة تحب الذي يأمر. أو أيضا مثل متملق جبان يخشى الذي يأمر. أو أخيرا مثل أبله يطيع لأنه لم يجد ما يقوله ضد الأمر. باختصار، يمكنك الاستماع إلى ضميرك بمائة طريقة مختلفة . *لكن أن* تسمعَ الحكم كذا أو الحكم كذا باعتباره

صوت ضميرك، *إذن أن* تشعرَ بشيء بـاعتباره صحيحا فهـذا ما قد يكـون أصله في كونك لم تتفكـر أبدا في نفسك وقبلتَ قبـولا أعمى كل ما وصف لك منـذ طفولتك على أنه **صحيح**: أو أيضا في كون الخبز اليـومي والتشريفات قد ضمنا لك، حتى اليوم، بذلك نفسه الذي تسميه واجبك ـــ الذي يعتبر «صحيحا» في نظرك، لكونه يبدو أنه يشكل «شرط وجود» كـ(أن يكون لك *الحق* أنت نفسك في الوجود، هذا ما يبدو لك غير قـابل للدحض) إن *متانة* حكمك الأخلاقـي يمكن دائما أن تكون برهـانا بالضبط على البـؤس الشخصي ودليلا على الـلاشخصية، إن مصدر «قـوَّتِـ(كَ) الأخلاقية» قد يكون في عنادك ـــ أو في عجزك عن استيعاب مثل عليا جديدة! باختصار، لو فكرت بشكل أدق، لولاحظت أحسن وتعلمت أكثر، لما أسميت هذا «الواجب» وهـذا «الضمير» اللذين تدّعي أنهما لك لاواجبا ولاضميرا بأيـة حالٍ من الأحوال: *ففهم الطريقة ذاتها التي أمكن أن تنشأ بها الأحكام الأخلاقية* سيقززك من هاتـه المصطلحات المثيرة للشفقة مثلما تقززت من قبل من مصطلحـات أخرى مثيرة للشفقة ومشـابهة لها مثل «الذنب»، «خـلاص الروح»، «خـلاص البشر». ـ والآن لاتحدثني، ياصديقي، عن الأمر المطلق! ـ فهاته الكلمة تدغدغ أذني، ينبغي لي أن أضحك رغم حضوركم الموقر: إني أفكر في العقاب المخصص للشيخ كانط الذي، لكونه رصـد «الشيء في ذاته» وتلقفه خلسة ـ شيء مضحك كـذلك ـ فقد **رُصِدَ** هو بدوره **وفوجيء** بـــ «الأمر» المطلق، وفي باطنـه وقع في الأخطاء التي هي «الإله»، الـ «الروح»، الـ «حرية» والـ «خلود»، مثل ثعلب يتيـه في قفصه من جديد: ـ والحالة أن قوته وذكاءه هما اللذان حطّما هذا القفص! ـ وهأنتم أولاء تُعجبون بالأمر المطلق في داخلكم؟ بـ «متـانة» حكمكم الأخلاقي المزعـوم هذه؟ بـ «مطلقيةِ» الإحسـاس أنه «في هذا يجب على الآخـرين أن يحكموا مثلي أنـا»؟ عظّموا بـالأحرى أنـا نيتكم هنا! [عظموا] عمىً وخسةَ ونقصَ متطلّبِ أنانيّتكم! إنه لمن الأنانية حقا أن يشعر الواحد بحكمـه *الخاص* كقانـون كوني: وإنها لأنانيـة عمياء، خسيسـة وبلامُتطلّبِ، لأنها تكشف أنك لم تجد نفسك بعد، أنك لم تخلـق لنفسك مثلا شخصيا محضـا: ـ ولن يكون مَثَل امـرىء آخر أبدا، حتى لانتكلم عـن الكل، عن كل الآخرين! . . . إن الذي لايزال يحكم بأنه «في الحالة كذا يجب على كل واحد أن يفعل كذا» لم يتقدم بعد في معرفة ذاته ولو قليلا: وإلا فإنه كان سيعرف أنه ليس هناك، ولن يمكنه أن يكون هناك، أفعال متطابقة أبدا ـ أنّ كلّ فعل تـمَّ فقدْ تمَّ بطريقة فريدة ولايمكن الاهتداء إليها ثانية، وأنّ نفس الشيء سينطبق على كل فعـل مقبل ـ [سيعرف] أن كل قوانين الفعل لاتهم إلا المظهـر الخارجي الفجّ (حتى القوانين الـداخليـة الأكثر دقـة في كل

الأخلاق حتى الآن) ـ [سيعرف] أنه يمكن أن يتحقق بها، ولاشك، مظهر تطابق، *لكن لاشيء بالضبط غير المظهر*، ـ أن *كل* فعل هو شيء لايخترق ويبقى كذلك بمجرد أن نفحصه أو نعيد تأمله ـ أن آراءنا حول ماهو «جيد» و «سام» و «عظيم» لن *يُبرهن عليها* أبدا بأفعالنا، لأن كل واحدة منها غير معروفة ـ [سيعرف] أنه إن كانت آراؤنا وتقييماتنا وجداول قيمنا من ضمن أقوى الركائز في دولاب أفعالنا فإنه يبقى أنه في كل حالة خاصة يكون قانون آليتها متعذّر الإثبات. *لنقتصر* إذن على تطهير آرائنا وتقييماتنا، لنقتصر *على خلق جداول قيم جديدة وخاصة*: ـ لكن لانقْدحنْ زناد فكرنا في «القيمة الأخلاقية لأفعالنا»! أجل، ياأصدقائي، ها نحن قد تقززنا في هذا الوقت من ثرثرة البعض الأخلاقية بخصوص البعض الآخر! إن النطق بالأحكام بإسم الأخلاق لابد أن ينفّر ذوقنا السليم في النهاية! لتدع هاته الثرثرة لأولئك الذين لاهمّ لهم سوى جر الماضي بعيدا شيئا ما في الزمن، لأولئك الذين لا يصيرون أنفسهم في الحاضر. ـ إذن لأكبر عدد! بينما نحن *نريد أن نصير أولئك الذين نحن هم* ـ الجدد، الأفذاذ، الذين لامثيل لهم، أولئك الذين هم مشرّعوا أنفسهم، أولئك الذين هم خالقوا أنفسهم! ولهذا الغرض يلزمنا أن نصير أفضل المريدين وأفضل مبتكري كل ما هو مطابق للقانون وللحاجة في العالم: يلزمنا أن نكون *فزيائيين* لنكون بهذا المعني *مبتكرين* ـ بينما كانت كل تقديرات القيم وكل المثل ترتكز، حتى الآن، على *الجهل* حتى بالفيزياء، أو كانت في *تناقض* معها. ولهذا، لتحيَ الفيزياء! ولْتَحْي أكثر تلك التي *ترغمنا* على اللجوء إليها ـ نزاهتُنا!.

336 شح الطبيعة

لماذا كانت الطبيعة خسيسة جدا مع الإنسان حتى أنها لم تدعه يلمع، فلانٌ يلمع أكثر، فلان آخر يلمع أقل، كل حسب وفرة نوره الداخلي؟ لماذا ليس للرجال العظام وضوح جميل كوضوح الشمس وقت انطلاقهم كما في وقت أفولهم؟ كم ستكون الحياة أقل غموضا بين الناس [إذاك]!.

337 «إحساس الإنسانية» المستقبلي

لو تأملتُ هذا القرنَ بعيون قرن سحيق فلن أعرف في طبيعة الإنسان المعاصر شيئا أغرب من هاته الخاصية الغريبة، هذا المرض الغريب الذي ندعوه «الحس المؤرّخ». إنه ترسبُ شيءٍ جديد تماما وغريب في التاريخ: لنُهمل هاته البذرة بعض

القرون ونيف، فقد تنتهي إلى إنتاج نبات رائع ذي رائحة لاتقل روعة، جدير بجعل الأرض ممتعة للسكن أكثر مما كانت عليه حتى الآن. إننا نحن المعاصرون قد شرعنا تماما في تشكيل سلسلةِ إحساسٍ مُستقبلي قوي، حلقة حلقة ـ [و] لانكاد نعرف هذا الذي نفعله. قد يبدو تقريبا أن الأمر يتعلق بإحساس جديد بل بتقليل من كل الإحساسات القديمة ـ فالحس المؤرخ لا يزال شيئا جد فقير، جد بارد، ويوجد من بيننا كثيرون أصيبوا به مثلما يصابون بجمود، ويجدون أنفسهم من جرائه أكثر فقرا وبرودة. [بينما] يبدو لآخرين كعلامة الشيخوخة الزاحفة شيئا فشيئا، ويبدو لهم كوكبُنا كمريض مُترع بالكآبة، ولكي ينسى حاضرهُ يشرع في كتابة تاريخ شبابه. ليس هذا، في الواقع، سوى درجة من الإحساس الجديد: فكل من يستطيع أن يشعر بتاريخ الناس في جملته *كتاريخه الخاص* سيشعر، بنوع من التعميم الكبير، بمرارة المريض الذي يفكر في الصحة، بمرارة الشيخ الذي يفكر في أحلام الشباب، بمرارة العاشق الذي انتزعت منه معشوقته، بمرارة الشهيد وهو يرى مثله الأعلى ينهار، بمرارة البطل عشية المعركة غير الحاسمة والتي كلفته مع ذلك جروحا وفقد الصديق؛ ــ لكن أن يتحمل هذا الكم الهائل من المرارات من كل الأصناف، أن يستطيع تحملها ويكون مع ذلك البطل الذي، عند طلوع اليوم الثاني من المعركة، يحيي الفجر ويحيى حظه، بمقدار ماله أفق من الألفيات أمامه وخلفه، باعتباره وارث كل نبل العقل من الماضي، لكن وارث مُكلَّف بواجبات، باعتباره أنبل كل النبلاء القدامى، لكنه المولود الأول للأرستقراطية الجديدة، حيث لم يشهد أيُّ عهدٍ مثيلاً له ولم يحلم به أبدا: أن يتحمل كل هذا في روحه، أن يتحمل ما هو قديم جدا وماهو جديد جدا؛ [أن يتحمل] الخسائر والآمال والغزوات وانتصارات الإنسانية، أن يملك كل هذا في روح واحدة في الأخير، أن يركزه في إحساس واحد: ــ هذا ما ينبغي مع ذلك أن يشكل سعادةً لم يعرفها الإنسان قط حتى الآن، ـ سعادة إله، كلها قوة وحب، كلها دموع وضحكات، سعادةً توزِّع باستمرار، مثل الشمس عند المساء، ثروتها التي لاتنضب وتُفرِغ منها في البحر الذي لايشعر، مثل الشمس، أنه الأكثر غنى إلا حين يجدف [فيه] أفقرُ صيادٍ بمجاديف مذهَّبة! إذاك سيسمّىٰ هذا الإحساس الإلهي ـ إنسانية!.

338 الشقاء وإرادة المعاناة

هل يفيدكم أنتم أن تكونوا أناسا شفقاء قبل كل شيء؟ هل يفيد الناس الذين يعانون أن تكونوا كذلك؟ لكن لِنَدَع السؤال الأول دون جواب. ــ فهذا نفسه الذي

نعاني منه بشكل جد بالغ وجد شخصي غير مفهوم لدى كل الآخرين تقريبا ومتعذر عليهم : هـذا مـا نبقى فيـه متـوارين عن القـريـب حتى وإن أكل معنـا من نفس الطنجرة. بالمقابل، أينما *لوحظنا* على أننا مُعانـون فإن معاناتنا تفسَّرُ بـأكثر الطرق سطحية؛ شيء خـاص بطبيعةَ العـاطفة الشفـوقة أن *تعري* المعانـاة الغريبة ممـا هو شخصي فيهـا بالأسـاس : ـ فـ «المحسنون» إلينـا هم الـذين ينتقصون من قيمتنـا وإرادتنا أكثر من أعدائنـا. لو تفحصنا أغلب المعروف الذي نُسديـه للأشقياء فإننا سنجد فيـه شيئا ممقوتـا في الوقاحـة الفكريـة التي يطيب للشَّفوق أن يلعب بها دور القَـدر. إنه يجهل كل شيء عن هـذا التشـابك وعن هاتـه العـواقب الداخليـة التي تسمى شقـاء بـالنسبـة لي *أنا* ولـك *أنت*! فمجمـوع مُدّخَـرِ روحي وتعويضـه بالـ «شقاء»، واقتحـام مصادر وحـاجيات جديـدة، واندمـال جروح قـديمة، ورفض الماضي بمختلف أنـواعه ــ كل هذا الـذي يمكن أن يُـربَط بالشقـاء لايزعج الـروح الشفوقة العزيزة بتـاتا : فهي تريد أنْ *تنجد*، ولاتفكر في أية لحظـة في وجود احتياج شخصي لـلألم، في كـون أشكـال الـرعـب، أشكـال الحرمـان، أشكـال الإفقـار، منتصفات ليـل الروح، مغـامرات، مجازَفات، كبـوات، [في كونها] ضروريـة، مثل أضدادها، لك كما هي ضرورية لي، وأنه، لكي أعبِّر بطريقة صوفية، حتى السبيل التي تـؤدي إلى سمائنا الشخصيـة تمر دائما عبر لذة جحيمنـا الخاص. لا، إن الروح الشفوقـة لاتعرف شيئا من ذلك : «دين» الشفقـة (أو الـ «قلب») يأمر بـالإنجاد، ويعتقـد النـاس أنهم يحسنـون الإنجـاد حين ينجـدون في أسرع وقت! إن كنتم أنتم يامُعتنقي مثل هذا الدين تطبقون على أنفسكم هـاته الحالة المعنوية التي تبدونها تجاه أمثالكم، انتـم الذين تأبـون حتى أن تتركوا معانـاتكم الخاصة تستريح فيكـم قليلا لتستقبل بـاستمرار كل شقـاء محتمل، إن كنتم تشعـرون إطلاقـا بالمعـاناة والكـرب باعتبـارهما قبيحيْن وكريهيْن وجديـريْن بالإزاحة، بـاعتبارهما عيب الوجـود : فلأن لكم، خارج دينكـم، دين الشفقة، دينا آخر في القلب أيضا، وربما يكون هذا أصل ذاك : ـ *دينُ لين العيش*! آه، كم هـو قليل ماتعرفنـه عن *غبطة* الإنسان أنتـن أيتها الأرواح المرفّهة والـرؤوفة! ــ لأن السعادة والشقـاء أخوان تـوأمان إمـا يكبران كلاهما وإما، كما هـو الحال عندكم، *يظلان صغيرين كليهما*! لكن لنعـد الآن إلى السؤال الأول. ــ كيف يمكن أن يبقى الإنسـان في *طريقه*! فدائما يلهينـا عنها صُيـاح ما : ويندر إذّاك أن تكتشف عيننا حالة لاتأمـرنا بترك أمرنا الخاص لنسرع [إليه]. أعرف ذلك جيـدا : هناك ألف طـريقة شريفـة وحميدة لتضليلي *بعيدا عن طريقي*، وهي

طرق جد «أخلاقية»، هذا صحيح! أجل، يذهب دعاة أخلاق الشفقة الحاليون إلى حد ادعاء أن هذا، ولاشيء غير هذا، سيكون أخلاقيا : ـ أن يتيه المرء بهذا الشكل عن طريقه *الخاص* ويسارع إلى قريبه. أعرف أيضا بيقين لايقل عن الأول : أنني لا أملك إلا أن أتأمل بؤسا حقيقيا لأكون قد *تهت*! ولو أن صديقا معانيا قال لي : «هذا هو الأمر، سأموت عما قريب؛ عدني إذن أن تموت معي» ـ لوعدته بذلك، تماما كما ستجعلني رؤية عامة الناس الجبليين المقاتلين من أجل حريتهم أمد لهم يد العون وأهبهم حياتي : ـ حتى لاأختار هنا سوى بعض الأمثلة السيئة ذات الأسباب المعقولة. أجل، إن كل هاته المخلوقات التي تثير الشفقة وتطلب الإنجاد تمارس إغواء سرّيا كذلك : «طريق (نا) الخاص» في الواقع قضية شاقة ومكلفة، وبعيدة جداً عن حب الآخر ومعرفته، ـ لانفلت منها، وكذلك من شعورنا الشخصي جدا، دون بعض الارتياح، ونبحث عن ملجأ بقرب شعور الآخرين، في رحاب معبد «دين الشفقة» المريح. ما أن تنفجر حربٌ في الوقت الحاضر فإن ذلك لايكون أبدا دون هجمة شهوة حسيّة أبقيتْ سريّة بداهة بالضبط لدى أنبل رجال شعب ما : فهم يسارعون، مفتونين، إلى خطر *الموت* الجديد، لانهم يظنون أنهم سيجدون في التضحية في سبيل الوطن هذا الإذن الذي بحثوا عنه طويلا ـ الإذن *بتحاشي هدفهم الخاص* : ـ فالحرب توفرلهم منعطفا ليصلوا إلى الإنتحار، لكنه منعطف مع راحة الضمير . وإن تعلّق الأمر هنا بكتمان بعض الأشياء فلن أكتُم مع ذلك أخلاقي التي تقول لي : عش مختبئاً حتى *تتمكن* من العيش لنفسك! عش في *جهل* ما يبدو لقرنك هو الأهم! ضعْ بين الحاضر وبينك سُمْكَ ثلاثة قرون على الأقلَ! لتكن صيحات الحاضر، لتكن ضوضاءُ الحروب والثورات بالنّسبة لك همْساً فقط! أنت أيضا تود أن تنجد! لكن أن تنجد فقط أولئك الذين *تدرك* ضيقهم تماما، ـ [إنهم] *أصدقاؤك*، لأن معك ستكون لهم معاناة، وأمل : وألا تنجدهم إلا بالطريقة التي تنجد بها نفسك أنت : ـ سأجعلهم أكثر شجاعة، أكثر تحمّلا، أكثر بساطة، وأكثر فرحا! سأعلمهم ما يفهمه الآن قليل من الناس، ما يفهمه دعاة التضامن الشّفوق أقل : *التضامن في الفرح*! .

(*) Vita femina 339

لكي نتبين روائع عمل ما ـ فإنه لاتكفي أية معرفة، لايكفي أي استعداد : يستلزم الأمر أندرَ حظٍ وأسعدَه كي يُرفع خمارُ السحب مرة واحدة عن هاته القمم

(*) الحياة امرأة .

فتبدو لنا مضطرمة بالشمس. لكي نراه، لاينبغي فقط أن نتواجد في المكان المرغوب: فلا بد أن تكون روحنا نفسها قد نزعت الخمار عن قممها، وأن تكون في حاجة إلى تعبير ومثال خارجيين كأنها ليكون لها سند فتصير سيدة نفسها. غير أنه يندر جدا أن يتصادف كل هذا حتى لقد أظن عن طيب خاطر أن أعلى قمم كل ثروة، سواء تعلق الأمر بنتاج أدبي، بعمل، بالإنسان أو بالطبيعة، قد ظلتْ مخبأة ومحجوبة عن أنظار الأغلبية، بل حتى عن النّخبة: لكن الذي ينكشف لنا، **لا ينكشف لنا إلا مرة واحدة!** - لقد كان الإغريق ولاشك يصلّون: «ليَعُدْ كل ما هو جميل مرتين أو ثلاثا!» - واها! لقد كان لهم سبب معقول للتّضرع إلى الآلهة، لأن الواقع اللاإلهي لايمنحنا الجمال إطلاقا أو لا يمنحه إلا مرة واحدة! أريد أن أقول أن العالم يفيض بالأشياء الجميلة، لكنه فقير، فقير جدا من حيث اللحظات الجميلة ومن حيث التجليّات الجميلة لمثل هاته الأشياء. لكن ربما يكون هذا هو سحر الحياة الأقوى: إنها مغطاة بخمار منسوج من ذهب، بخمار من الإمكانيات الجميلة يعطيها هيأة واعدة، متحفظة، محتشمة، ساخرة مستعطفة وساحرة. أجل، إن الحياة امرأة!.

340 سقراط محتضِرا

أُعْجَبُ بشجاعة سقراط وبحكمته في كل ماكان يفعله، في كل ماكان يقوله، وفي كل ما لم يقله. هذا الشيطان وملتقط فئران أثينا الساحر والمُحِبّ، الذي كان يجعل أكثر الشبان تكبرا يرتعشون وينتحبون، لم يكن فقط أحكم ثرثار وُجِد على الإطلاق: لقد كانت له عظمة بنفس القدر في الصمت. وقد وددتُ أن يكون بقي صامتا في اللحظات الأخيرة من حياته :- ربما كان إذّاك سينتمي إلى طراز أسمى من العقول. هل كان ذلك الموت أم السم، التقوى أم المكر - شيء ما أطلق لسانه في هاته اللحظة وقال: «ياكْريتونْ، إني مدين بديك لإيسكيلاب» هاته «الكلمة الأخيرة» المضحكة والفظيعة تعني للذي يعرف أن يسمع: ***«ياكريتون، إن الحياة مرض!»*** هل ممكن [أنّ] رجلا مثله كان متشائما - وقد عاش مرحا ومثل جندي في أعين الكل! إنه لم يفعل شيئا إذن سوى إظهار رباطة الجأش تجاه الحياة، سوى إخفاء حكمه الأخير وشعوره الأكثر حميمية يوم كان حيا. سقراط، سقراط ***عانى من الحياة*** إذن! ولقد انتقم منها بواسطة هاته الكلمة الغامضة، الفظيعة، التقية والتجديفية! هل كان لابد أن ينتهي سقراط إلى الانتقام؟ هل كانت ذرةُ سخاء تنقص فضيلتَه الوفيرة! - آه ياأصدقائي! يجب علينا أن نعلو حتى على الإغريق!.

341 أثقــــل وزن

ماذا عساك تقـول لو أن شيطانا تسلل يوما أو ليلـة حتى داخل وحدتك الأكثر انـزواء وقال لك : «هـاتـه الحياة ، مثلما تحيـاهـا الآن ، ومثلما حييتها ، سيلـزمك أن تحياها مـرة أخرى ومرات لاحصر لها ؛ ولن يكون فيها شيء جـديد ، سوى أن كل ألم وكل متعة ، كل فكرة وكل تأوه وكل ما هو مُتَنَاهٍ في الصّغر والكبر في حياتك لابد أن يعود إليك ، والكل في نفس النظام ونفس التتابع ـ تلك الرتيلاء أيضا ، وضوء القمر هذا بين الأشجـار، وهاتـه اللحظة وأنـا نفسي . إن ساعـة الوجـود الرمليـة الخالدة لاتفتأ تُعكَس من جديد ـ وأنت معها ، يـاذرة غبارٍ من الغبار! » ـ ألن تلقي بنفسك أرضا ، تصر أسنانك وتلعن الشيطان الـذي قد يكلمك بهذا الشكل؟ أم سيحدث أن تعيش لحظة رائعة قد يمكنك فيهـا أن تجيبه : «أنت إله ، فما سمعت أشياء أروع من هـاته قط ! » لـو سيطرتْ عليك هـاته الفكرة فستحـوّلك ، جاعلـة منك ، مثلما أنت ، شخصـا آخـر، ربّما طـاحنـةً إيـاك : والسـؤال المطـروح بخصـوص الكل ، بخصوص كل شيء : «هل تريد هـذا مرة أخرى ومرات لاحصر لها؟» سيهبط بثقله على تصرفك كأثقل وزن! أو كـم سيلـزمك من إظهـار الإحسـان تجاه نفسك وتجاه الحياة حتى لاترغبَ في شيء غير هاته الأخيرة [التي هي] إثبات أبدي ، هاته الأخيرة [التي هي] عقاب أبدي؟

342 Incipit tragœdia (*)

لما بلغ زرادشت الثـلاثين من عمره غـادر موطنه الأصلي وبحيرة إيـرمي (Urmi) وصعد الجبل . هنـاك تمتع بحكمته ووحـدته ولم يَعْيَ بـذلك قط طيلة عشر سنين . لكن قلبـه تغير في الأخير ـــ وذات صبـاح استيقظ مـع بـزوغ الفجـر وذهب قـدّام الشمس وخاطبها قـائلا : «أيها الكوكب العظيم! ماذا كانـت ستكون غبطتك لو لم يكن هؤلاء الذين تُنيرهم! لقد طلعتَ هنا ، في اتجاه مغارتي ، طيلة عشر سنين : وقد كنت متخما بضـوئك وبطـريقك ، بـدوني أنـا ، بدون نسري وأفعـواني : لكننـا كنـا ننتظرك كل صبـاح ، كنا نخلِّصُكَ من اشمئـزازك ، ونباركك في المقابل . هـذا ما في الأمر. إني أتقزز من حكمتي ، مثل نحلة جمعـتْ من العسل الكثير، أنا في حاجة إلى بسط يـداي ، أريد أن أعطي وأوزع إلى أن يستمتع العقـلاءُ من بين الناس بجنـونهم

(*) مستهل التراجيديا .

مرة أخرى، ويستمتع الفقراء بغناهم مرة أخرى. فيما يخضي أنـا، أريد أن أهبط إلى الأعماق: مثلما تفعل أنت في المسـاء حين تمر وراء البحـر وتجلب النـور حتى للعـالم الجهنّمي، أيها الكوكب الفياض! ـ لابدلّي، مثلك، أن *أميل*، كما يقول الناس، في اتجاه أولئك الـذين أريـد أن أنزل وسطهـم. هكذا أبـاركك أيتهـا العين الهادئة التي تتحمّل، دون حقد، رؤية غبطة عظيمة جدا! فباركي الكأس التي ترغب أن تطفح حتى يسيل منها الماء بحـرا ذهبيا فينشر انعكاس مُتَعِكِ في كل مكان! هـو كذلك! هذه الكأس تُريد أن تُفـرغ من جديد، وزرادشت يريد أن يعود إنسـانا.» هكذا بدأ أُفولُ زرادشت.

الكتاب الخامس

نحن الرجال الذين لا يخشون شيئاً

أترتعش أيها الهيكلُ؟ كنت سترتعش أكثر لو أنك علمت أين أقودك .

تورينو .

343 ما آل إليه مرحنا

يبدأ منـذ الآن أكبر حدث حديث العهـد في بسط ظله على أوربا ــ إذا علمنا أن «الإله قـدمات»، أن الاعتقـاد في الاله المسيحي قـد فُقدت فيه الثقـة ـ يبـدو فعلا لبعض النادرين، على الأقل، المزوّدين بـشك نفّاذ بما فيه الكفاية، بنظر جد دقيق لرؤية هذا المشهد، أن شمسا قـد أفلت، أن ثقة عميقة قديمة قد تحوّلت إلى شك : لهؤلاء سيبدو عالمنا يوما عن يوم شفقياً أكثر؛ حذرا أكثر، غريبا أكثر، «قديما أكثر». لكن في التقريـر الأساسي يمكن أن نقول : إن الحدث في حد ذاتـه كبير جدا، بعيد جدا، ويتجـاوز كثيرا القدرة المفهـومية للعدد الكبير [مـن الناس] لكي نستطيع أن نزعم أن الخبر قد *وصل* منه بعـدُ، بل أقل من ذلك، أن نزعم أن أحـدا قد فطن *لما* وقع فعلا ــ كما لم يفطن لكل ما يجب أن ينهـار منذ الآن بمجرد أن ينهـار الاعتقاد، لأنه أُسس وبُني عليـه، بل تشابك فيه تقريبـا : أخلاقنا الأوربية في كليتهـا مثلا. هذا التـوالي الطويل والغـزير من القطيعـة، من التدمير، من الأفـول، من الهزات، الـذي يجب توقّعـه من الآن فصـاعـدا : مَنْذَا إذن يتنبأ بـه بكثير من اليقين ليظهـر كالمعلم المعلِن عن منطق الرعب الـرائع هذا، كنبيّ التّعتيم، نبيّ خسوفِ شمسٍ لم يحدث مثله قطّ في هـذا العالم؟ . . . حتى نحن حـازرو الألغاز، نحن الذين ولـدنا متنبئين، الذين نعيش نوعا مـا في انتظار فوق الجبال، متموضعين بين *اليوم والغد*، وكما لو كنـا متوترين بسبب التنـاقض بين اليوم والغد، نحن الطـلائع، نحن ذرية القرن القادم السـابقة لأوانها، الذين *علينا* منذ الآن أن نكـون قادرين على مـواجهة الظـلال التي هي على وشك تغطيـة أوربـا : كيف يحدث انـه حتى نحن نفكـر في تصاعد هذا التّعميـم دون أن نكون قد تأثرنا به حقيقةً، وخـاصة دون همّ ولا خوف على *أنفسنا*؟ ربما سنتحمل بشدة أثر *العواقب المباشرة* للحدث ـ العـواقب المباشرة التي ليست بالنسبة *لنا*، عكس ما قد يُنتظر منها، لامكدّرة ولامعتّمة إطلاقا، بل إنما كنور، كغبطـة، كارتيـاح، كإبهاج، كطمأنة، كفجـر من نـوع جديد لايـوصف إلاّ بصعوبة . . . في الواقع إننا نحن الفلاسفة، نحن «العقول الحرة» عند سماع خبر أن «الإله القديم قدمات» نحس وكأنّ أشعة فجر جديد قد لمستنا : يفيض قلبنا، لهذا الخبر، بالشكـران، بالـدهشة، بالتـوجس، بالانتظار ــ ها هـو ذا الأفقُ صافٍ من جديـد، وإن لم يكن صافيا تمامـا، هاهي ذي سُفُنُنـا حرة في استئناف سبـاقها، في استئنـاف سباقهـا مهما كلّفهـا الأمر، هـاهي ذي كل جـرأة المعـرفة قـد سُمِحَ بها،

والبحر، بحرنا، هاهـو ذا مفتوح من جديـد، ربما لم يكن هناك أبداً «بحـر مفتوح» بمثل هذا الشكل.

344 بأي معنى لازلنا نحن أيضا أتقياء

في العلم، ليس لليقينيـات حق المواطنية، هـذا ما يقـولونه بحـق: وحين تقرر النزول بتواضـع إلى مستوى الفرضية لتتبنىٰ وجهـة نظر محاولةٍ تجريبية مـؤقتة، وجهة نظرِ خيـالٍ تنظيمي، حينذاك فقط يمكن أن نمنح لها منفـذا، بل نوعـا من القيمة داخل مجال المعـرفـة ـ مـع اقتصارهـا على البقـاء تحت الحراسـة البوليسيـة للحـذر بالمقابل. ـ لكن لو أمعنا النظر في هذا ألا نجده يعني أن اليقينية لاتقبل في العلم إلا حين *تكف عن كونها* يقينية؟ ألن يبدأ انضباط العقل العلمي بفعل امتناعه عن كل اليقينيات من الآن فصاعدا؟ . . . ربما كـان الأمر كذلك: بقي أن نعرف إن لم يكن ضروريا، لـكي *يتمكن مثل هـذا الانضباط من أن ينشأ*، أن يكون هنـاك يقين من قبل، يقين جـد إلـزامـي ولامشروط حتى لأنـه يضحـي بكل اليقينيـات الأخـرى لصالحه. إننـا نرى أن العلم ينبنىٰ على اعتقاد ما، فليـس هناك علم إطـلاقا «دون افتراض». لاينبغي فقط أن يكـون السـؤال عمّا إذا كـانت *الحقيقة* ضرورية قـد وَجَدَ جـوابَه الإثبـاتي مقدَّمـا، فـلايزال على هـذا الجواب أن يثبته بشكل يجعلـه يعبر عن المبدأ، عن الاعتقـاد، عن اليقين بأن «*لاشيء ضروري* مثل الحقيقة وأن البـاقي كله ليس بالنسبة إليها إلاّ ذا أهمية ثانوية». ـ هاته الإرادة المطلقة للحقيقة: ماهي؟ هل هي إرادة *ألاّنقبل بأن ننخدع*؟ هل هي إرادة *ألاّ نخدع أحداً قط*؟ بهذا المعنى الأخير يمكن، في الـواقع، أن تفسّر إرادة الحقيقـة: بشرط أن نعلق على هـذا التعميم: «لاأريـد أن أخدع أحـدا.» بل حتى الحالة الخاصـة: «لاأريد أن أخـدع نفسي». لكن لماذا لانخدع؟ لكن لماذا لانقبل أن ننخدع؟ ــ لاحظوا أن أسباب الحالة الأولى تكمن في مجال مختلف عن أسباب الحالـة الثانيـة: لانريد أن نقبل الانخـداع لأننا نفترض أنه ضـارّ وخطير وقاتل أن نكون كذلك، ــ بهذا المعنى سيشكّل العلمُ حدّة ذهنٍ مستمرةً، سيشكّل احتياطـا ومنفعة يحق لنا مع ذلك أن نعارضها: مـا عسانا أن نقـول؟ هل ستكـون إرادةُ ألاّ نقبل بأن ننخـدع فعـلا ضـارةً أقل، خطيرةً أقل، وقاتلةً أقل؟ ماذا تعرفون مقدّما عن طبيعـة الوجود حتى تتمكنوا من تقرير إن كانت هناك امتيـازات كبيرة في جانب الحذر المطلق أو في جـانب الثقة المطلقـة؟ ولكن في الحالة التي سيكون لاغنى فيهـا عن كليهما، كثير من الثقة و كثير من الحذر: فمن أين إذن سيأخـذ العلم اعتقاده المطلق ويقينـه اللذين يـرتكز عليهما، إذا علمنـا أن

الحقيقة ستكون أهم من كل شيء آخر، بل أهم من كل يقين آخر؟ لم يكن هذا اليقين بالضبط لينشأ لو أن الحقيقة واللاحقيقة كانتا تظهران نافعتين كليهما في نفس الوقت باستمرار: كما هو الأمر فعلا. بالتالي ـ فإن الاعتقاد في العلم الموجود بشكل لايرقىٰ إليه الشك لن يكون قد تأصّل في مثل حساب المنفعة هذا، إنما نشأ رغم كون اللامنفعة وخطر «إرادة الحقيقة» والـ «حقيقة بأي ثمن» يبرهن عليها باستمرار. «بأي ثمن»: آه! نفهم هذا جيدا لأننا ذبحنا وضحينا باعتقادٍ بعد آخر على هذا المذبح. ـ بالتالي فإن «إرادة الحقيقة» **لا تعني**: «لاأريد أن أقبل بأن أنخدع» إنما تعني ـ وليس هناك خيار آخر ـ «لاأريد أن أخدع أحدا، ولاحتى أن أخدع نفسي»: ***ها نحن أولاء على ساحة الاخلاق***. لنتساءل إذن بجدية: «لماذا لاتريد أن تخدع؟» حتى ولو ظهر ـ وهناك تجلٍّ ـ أن الحياة ما جعلت إلاّ للمظهر، أعني للخطأ، للمكر، للرياء، للخداع و للإنخداع الذاتي؛ بينما، من ناحية أخرى، لقد ظهر أكبر شكل للحياة دائما بجانب (πολύτροπος) الأقل ترددا. ربما أمكننا تفسير هذا العزم برقةٍ كدُونكشوتية، كدعابة حماسية صغيرة: من المحتمل أيضا أن يتعلق الأمر بأقبح شيء، بمبدأ هدام معاد للحياة. . . يمكن أن تكون «إرادة الحقيقة» إرادة موتٍ سراً. ـ هكذا يعيدنا السؤال المطروح: لماذا العلم؟ إلى المسألة الأخلاقية: ***مجمل القول، ما فائدة الأخلاق؟*** متى تكون الحياة والطبيعة والتاريخ «لاأخلاقية؟» دون أدنى شك، فالعقل الصادق بهذا المعنى الجريء والنهائي، كما يقتضيه الاعتقاد في العلم، ***يثبت بهذا نفسه عالما آخر*** غير عالم الحياة والطبيعة والتاريخ، وهو بقدر إثباته لهذا «العالم الآخر»، ألا ينفي ضده، هذا العالم، عال*منا*؟ . . . لكن قديكون فهم ما أريد أن أنتهي إليه، يعني أن اعتقادنا في العلم لايزال وسيبقىٰ مرتكزا على ***اعتقاد ميتافيزيقي***، ـ وأننا نحن الذين نبحث اليوم عن المعرفة، نحن الذين هم دون إله وضد الميتافيزيقيين، ما نزال نستمد نار*نا* من الحريق الذي أشعله اعتقادا أَلْفِيٌّ، هذا الاعتقاد المسيحي الذي كان أيضا اعتقاد أفلاطون، الاعتقاد بأن الاله هو الحقيقة، بأن الحقيقة إلهية. . . لكن ما عسىٰ أن يقال إذا كان هذا نفسه يفقد المصداقية أكثر فأكثر، إذا كان كل شيء يكفّ عن أن يبدو إلهيا، و إلاّ فالخطأ والعمىٰ والكذب ـ و إذا كان الاله يبدو أكذوبتنا المستمرة؟ـ

345 الاخلاق باعتبارها مشكلة

إن نقص الفرديات الشخصية يُستشعَر في كل مكان؛ فشخصية موهنة، رقيقة، هامدة، تنكر نفسها، وتستدرك قولها، لم تعد صالحة لأية مهمة جيدة ـ وصلاحها

للفلسفة أقل. ليس للـ«لامبالاة» قيمة لافي السماء ولافي الأرض: فالمشاكل الكبرى كلها تتطلب *الحب الكبير*، ووحدها النفوس القوية، الكاملة الصفات والجريئة، والحازمة، هي القادرة عليه. إنه لمن أهم الفوارق لو أن مفكرا اندمج بشكل عميق في مشاكله لدرجة أنه يجد فيها قَدَرَه وكآبته، بل حظّه أيضا، أو أن يتناولها بطريقة «لاشخصية» أي، بكل بساطة، إن لم يعرف ملامستها واستيعابها سوىٰ بهوائياتِ فكرٍ فاتر وفضولي. في الحالة الأخيرة، يمكن أن نكون على يقين أنه لن ينتج من ذلك شيء: لأن المشاكل الكبرى، بقدرما تسمح لنا باستيعابها، بقدر ما تأبىٰ أن تحتفظ بها الضفادع والعاجزون، هذا هو ذوقٌ المشاكل السليم ـ ذوق تتقاسمه فضلا عن ذلك، مع كل النساء الصغيرات الباسلات. كيف يحدث إذن أني لم ألتق أحدا بعدُ، حتى ولو في الكتب، يكون قد اتخذ موقفا شخصيا مماثلا. بخصوص الأخلاق، يكون قد عرف الأخلاق كمشكلة وعرف هذه المشكلة ككآبته، كعذابه، كشغفه الشخصي؟ بكل بداهة، لم تكن الأخلاق مشكلة قطّ حتى الآن؛ بل كانت ذلك الذي كان الناس ينتهون بأن يتوافقوا حوله بالتبادل بعد مَظَنّاتٍ وانشقاقات وتناقضات، كانت المكان المقدّس للسلم حيث يستريح المفكرون، الذين أنهكهم طبعُهم، يتنفّسون ويستعيدون الحياة. إني لاأعرف أحدا تجرأ على *انتقاد* أحكام القيمة؛ أبحث عبثا، في هذا المضمار، عن محاولات الفضول العلمي، عن محاولات خيال علماء النفس والمؤرخين المتذبذب والفاسد الذي يحدس مشكلة بسهولة ويستوعبها في الهواء دون أن يعلم بالضبط ما قد استوعبه. لقد عثرت بالكادّ على بعض البدايات الهزيلة الصالحة *لتاريخ أصول* هاته الأحاسيس وهاته التقييمات (وهو ما يمثل شيئا آخر غير نقد هاته، وثانية شيئا آخر غير تاريخ المناهج الأخلاقية): إنني فعلتُ، في حالة فريدة، كل ما ينبغي لتشجيع الميل إلى هذا النوع من التاريخ وملكته ـ دون جدوى كما يبدو لي الآن. إن مؤرخي الأخلاق هؤلاء (الانجليز بخاصة) مخيبون للأمل: هم أنفسهم معتادون على أن يتلقوا بشكل ساذج أمر أخلاق معينة يجعلون من أنفسهم، دون أن يعلموا ذلك، فرسان موكبها: بالخضوع مثلا لحكم أوربا المسيحية المسبق هذا الذي جُدّد بناؤه بشكل ساذج جدا، والذي يريد أن يتميز العمل الأخلاقي بجحود الذات، بالتنكر لها، بالتضحية بالنفس، أو بالاحساس بالتضامن، بالعطف، بالشفقة. إن عيب فرضيتهم المعتاد يهدف إلى إثبات *إجماع* الشعوب، على الأقل إجماع الشعوب المدجّنة، المتعلق ببعض تعاليم الأخلاق، وبالحكم بإلزاميتها المطلقة لكل واحد

منا؛ أو على العكس من ذلك، بالحكم بغياب إلزاميةِ *أية* أخلاق، بعد تفهّم هاته الحقيقة القاضية باختلاف التقييمات **بشكل حتمي** حسب الشعوب : حكمان سخيفان كلاهما. ويعود عيب الأكثر دقة منهم إلى اكتشاف وانتقاد آراء شعب قد تكون خرقاء حول أخلاقه، أو آراء الناس حول أية أخلاق إنسانية، وبالتالي حول أصل هاته الأخيرة، حول عقوباتها الدينية، حول أسطورة القدرية وأشياء أخرى من هذا الطراز، كما يعود إلى تصور أنفسهم وقد انتقدوا هاته الأخلاق نفسها بفعلهم هذا. لكن قيمةَ تعليم مثل «يجب عليك» تبقىٰ مختلفة أساسا ومستقلة عن آراء مشابهة حول هذا التعليم نفسه كما عن زؤان الخطأ، يقينا مثلما تبقى فعالية دواء ما منفصلة عن آراء المريض حول الطب، سواء كانت له أفكار علمية أم أحكام مستبقة لامرأة مسنّة. من المحتمل جدا أن *تنشأ* أخلاق من خطأ : هاته الملاحظة لن تكون قد لامست مشكلة قيمتها. ـ لاأحد حتى الآن استطاع إذن أن يتفحص قيمة أشهر أنواع الطب، المسمّىٰ الأخلاق : الشيء الذي يستلزم أولا أن نقرر جعل هاته القيمة ـ ***موضع سؤال***. وإذن هذا هو بالضبط مشروعنا. ـ

346 علامة استفهامنا

أهذا الذي لاتفهمونه؟ في الحقيقة سيصعب علينا أن نتفاهم. إننا نبحث عن كلمات، وربما نبحث عن آذان أيضا. فمن نحن إذن؟ لو أردنا ببساطة أن نتسمّى بعبارات قديمة من مثل «دون ـ إله» أو «جاحدين» أو أيضا «لاأخلاقيين» فسنكون بعدُ بعيدين عن الاعتقاد بأننا قد عرفنا أنفسنا : نحن هاته الثلاثة كلها في الآن ذاته في مرحلة جد متأخرة، لكي يُفهم، لكي تستطيعوا *أنتم* أن تفهموا، أيها السادة الفضوليون، مانشعر به في داخلنا عندما نكون كذلك. لا! لم يعد مرّا ولامؤلما للانسان الجامح الذي عليه أن يجعل من لاعقيدتِه عقيدةً وغايةً وشهادةً. لقد شُحِذْنَا، لقد صِرنا باردين وقساة من فرط إقرارنا بأنه لاشيء هنا على الأرض يحدث بطريقة إلهية، ولا حتى حسب المعايير الانسانية، بطريقة معقولة، رحيمة أو عادلة نعلم ذلك، فالعالم الذي نحيا فيه لا إلهي، لاأخلاقي، «لاإنساني»، ـ لطالما فسرناه بشكل خاطىء وكاذب، لكننا فسرناه حسب رغبة وإرادة احترامنا للأشياء المقدسة، أي حسب *حاجة* [ما]. لأن الانسان حيوان يحترم الأشياء المقدسة! بيد أنه يحذرها أيضا : إن العالم في الواقع ***لايساوي*** ما اعتقدنا أنه يساويه، هذا هو أيقن شيء تقريبا أمكن لحذرنا أن يفهمه. على قدر الحذر تكون الفلسفة. لاشك أننا نتجنّب القول إن للعالم قيمة *أقل* : بل يبدو لنا اليوم شيئا مضحكا أن يكون

الانسان قد أراد أن يدّعي ابتكار قيم قد *تتجاوز* قيمة العالم الواقعي، ـ هذا بالضبط هو مـا نحن متقززون منه مثلما نتقزز مـن ضلال الغرور والغباوة الانسـانيين المفرط، والـذي لم يُعْترف بكونـه كذلك لمدة طـويلة. لقـد كان آخـر تعبير عنه في التشـاؤم الحديث، وكان أقدم وأقوى تعبير عنه في ديانة بوذا؛ غير أن المسيحية تتضمنه أيضا بشكل أكثر التباسا، صحيح، أكثر غموضا، لكنه ليس أقل إغراء نتيجة لهذا. أما هذا الموقف: «الانسان *ضد* العالم»، الانسان باعتباره مبـدأ «نافيا للعالم»، الانسان باعتباره مقياس الأشيـاء، باعتباره حَكَم العوالم الذي يذهب إلى حـد جعل الوجود ذاته في كفة ميزانـه واعتباره خفيفا جدا ـ أما الـذوق الفاسد المذهل لهذا الموقف فقد وعيناه، إنـه يثير اشمئزازنا ــ ونقهقه لمّا نـرى «الانسان *و* العالم» موضـوعين جنبا إلى جنب، يفصلهما التبـاهي الـرفيع للحـرف الصغير «و»! لكن ماذا؟ ألن نكـون قـد فعلنا شيئـا آخر غير [خطـو] خطوة أخرى في ازدراء الانسـان باعتبـارنا سـاخرين؟ و إذن حتى في التشاؤم، في ازدراء الوجود الممكن أن يُعرف *لنا نحن*؟ ألن نكون بهذا قد وقعنا في شك التنـاقض، التناقض بين هذا العالم حيـث كان الإحساس إلى الآن أننا في بيـوتنا صحبة احترامـاتنا للأشيـاء المقدسة ــ هاته الاحترامـات التي ربما كنا *نتحمل* أن نحيا بفضلهـا ـ وبين عـالم ليس سوى *نحن أنفسنا*: وقعنا إذن في شك قاس، أسـاسي، نهائي فيما يخصنا نحن؛ شك يمارس سيطرتـه علينا نحن الأوربيين بشكل تشتد قسوته، وقد يضع الأجيال القادمة بسهولة أمام البديل المفزع: «إما أن تلغوا احتراماتكم لـلأشياء المقدسة ــ إما أن تلغوا *أنفسكم أنتم!*» العبارة الأخيرة ستكون هي العـدمية؛ لكن الأولى، ألن تكـون هي كذلك ـ العـدمية؟ ــ هذه هي علامة استفهام*نا*.

347 المؤمنون وحاجتهم إلى الإيمان

إن ما ينقص شخصا ما من *الإيمان* لكي ينجح، ماينقص من عنصر «قار» يريده غير مزعـزَع لأنه يستند إليـه ـ يكشف عن درجـة قوته (أو لكي أعبّر بـوضوح، عن ضعفه). يبـدو لي أن المسيحية لاتزال اليوم ضروريـة للغالبية في أوربـا: لهذا أيضا لازالت تحظى بالتصديق. لأن الانسان خُلِـق هكذا: بمجرد أن يحتاج إلى قِسْم من العقيدة، ولو دحضناه له بألف طريقة، فإنه لايكف عن اعتباره «صحيحا»، ـ وفقا لـ «اختبار القـوة» الشهير الذي يتحدث عنه الإنجيل. لايـزال البعض في حاجة إلى الميتافيزيقا، وحتى هاته *الرغبة* الحادة في *اليقين* التي تتفجّـر اليـوم وسط الجماهير، بشكل علمي ـ وضعي، هاتـه الرغبة في *إرادة* امتلاك شيء قـار بشكل مطلق (بينما

حتى في اندفاع هاته الرغبة قلّما ينشغل الناس بالحجج الصالحة لتأسيس اليقين)؛ كل هذا يُظهر الحاجة إلى سند، إلى دعامة، باختصار يظهر **غريزة الضعف** التي لاتخلُق، والحق يقال، وإنما تحافظ على الديانات، على الميافيزيقا، على القناعات بمختلف أشكالها. يبقى أن كل هاته المناهج الوضعية تتغلف بأدخنة تشاؤم أسود، بشيء من العياء، من الجبرية، من الخيبة، من الخوف من خيبةٍ جديدةٍ ـ أو تنمّ بجلاء عن حقد، عن سخط، عن فوضوية الغيظ، كما تنمّ أيضا عن كل أعراض وتقنّعات الإحساس بالضعف الأخرى. حتى هذا العنف التي به سيتيه أذكى معاصرينا في أكواخ حقيرة، في الوطنجيّة مثلا (لنسمّ ما يُدعىٰ في فرنسا بـ*الشوفينية*، وفي ألمانيا «deutsch»)، أو في عقائد جماعات أدبية جمالية مثل الطبيعة الباريسية (التي لا تجلي إلاّ هذا المظهر من *الطبيعة* الجدير بإثارة الاشمئزاز والذهول في ذات الوقت ـ نسمي هذا المظهر اليوم عن طيب خاطر : *الحقيقة الحقة*؛ أو في العدمية حسب نموذج سان بترسبورغ ـ أي في croyance à la vertude de l'incroyance (*) إلى درجة الاستشهاد من أجل هذا الأخير). ، حتى هذا العنف يظهر دائما، من أول وهلة، *الحاجة* إلى إيمان، إلى سند، إلى أس، إلى دعم. . . يكون الإيمان دائما مشتهى باستعجالٍ أكثر في المكان ذاته الذي تنعدم فيه الإرادة : لأن الإرادة، باعتبارها ولعا بإصدار الأوامر، تشكل الرمز المميز للسيادة والقوة. أي كلما كانت مهارة شخص ما في إصدار الأوامر ناقصة كلما أحس باستعجال بالرغبة في حقيقة، في كائن أوسلطة تأمُر، تأمُر بصرامةٍ، ولتكن إلٰها ـ أميرا، وضعا اجتماعيا، طبيبا، مُعرِّفا، عقيدة، أو ضمير حزب. وربما وجب أن نستنتج من ثمة أن الديانتين العالميتين، البوذية والمسيحية، قد تكونان وجدتا سبب ظهورهما وانتشارهما في *ضعف الإرادة* غير المألوف. وكان ذلك ما حدث في الحقيقة : فقد أظهرت الديانتان، بفعل مرض الإرادة، رغبة في «يجب عليك» معظمة بشكل مؤس إلى درجة انعدام المعنى. وبتعليمها التعصب في أوقات فتور الإرادة فإنها وفّرت لعدد لايحصىٰ من الأرواح دعما وإمكانية لأن تريد، ومتعة في أن تريد . فالتعصب هو في الواقع «قوة الإرادة» الوحيدة التي أمكن أن يقاد إليها الضعفاء والحائرون كذلك؛ ونظرا لكونه يُنوِّمُ من الأشكال مجمل النظام الفكري الذي يرتكز على الإدراك الحسّي للعالم المحسوس، فإنه يسبّب تضخم وجهة نظر تصوّرية وعاطفية خاصة تسود منذ الآن ـ ، سيسمّيه المسيحي *إيمانه*. بمجرد أن ينتهي إنسان إلى القناعة الأساسية بأنه

(*) في النص الأصلي، بالفرنسية (الإيمان بفضيلة اللاإيمان).

يجب عليه أن يخضع لأمـر ما فإنه يصبح «مؤمنـا». في المقابل، إن فرحةَ وقـوَة تحديد ماهية الذات، وحرية أن تـريد، ستكـون معقـولة، ومن أجلهـا سيُسرّح عقلٌ كلّ إيمانٍ وكلّ رغبة في اليقين، إذ سيكـون مدرَّبـا على الاحتفاظ بتـوازنه على إمكـانيات بسيطة كما لـو على حبالٍ، بل على الـرقص فضلا عن ذلك على حـافة الهُوىٰ. مثل هذا العقل سيكون *الـعقل الحر بامتياز*.

348 عن أصل العلماء

إن العالِم في أوربا ينمو على سافلة أية دولة وأية حالة اجتماعية، مثل نبتة لاتحتاج لتربة خاصة: لهذا فهو ينتمي أساسا وبلاتعمد إلى حاملي الفكر الديمقراطي. غير أن هذا الأصل يفضحه. فلـو تدرّبنا قليلا أثنـاء مطالعة كتاب أو مقـالة علمية على التحقق من *طبع* العالِم وضبطه في حـالة تلبّس ـ ولايخلو عـالم من طبع ـ فسنكتشف فيه تقريبا دائما «مـا قبلَ تاريخ» العالم، [سنكتشف] عائلته، وبصفةً خـاصة نوعية المهنة والحرفة التي كـانت تمارسها. حيث يظهر الإحساس التالي: «هـذا شيء برهنّا عليه الآن، هذا سؤال أجيبَ عنه بـالنسبة إلي»، فإن السلف عادة هو الذي يتكلم في دم وفي غـريزة العـالِم، وهو الـذي يوافق من وجهـة نظره على «العمل المنجـز»، ـ فليس الإيمان بالدليل لدَى العالم سوى دلالة على ماكان دائما يعتبر عند جنس مثابرِ كـ «عمل جيـد». مثلا يظهر أبناء كتـاب المحكمة أو أبناء الديـوانيين على اختلاف أصنافهم، الذين كـانت مهمتهم تقتضي دائما أن يصنفوا مادة متنوعة، أن يـوزعوها على أدراج خزانة، وبصفة عامة أن يخططوهـا، [هؤلاء الابناء] يُظهِرون، في حالة ما إذا صاروا علماء، ميلا خاصا الى اعتبار مسألة مـا قد حُلّت تقريبا بمجرد أن يكونوا قد خططـوها. هناك فـلاسفة ليسوا إجمالا سوى أدمغـة تخطيطية ـ فـالمظهر الشكلي لمهنة الأباء قـد صار هو المضمون نفسه بالنسبـة إليهم. إن الموهبة في التصنيفات وفي جداول الأصنـاف تكشف شيئا ما؛ لايكون الـواحد إبن والديه دون عقـاب. فابن المحـامي سيكون أيضـا محاميـا حتى وهو رجل علم: سيحـاول أولا أن يحافظ على المنطق في فرضياته، وربما أيضا أن يكون لـديه الحق ثانيا. أبناء القساوسة والمعلمين البروتستانيين يعـرفون أنفسهـم في الضمان السـاذج الذي بـه يعتبرون أن مسألتهم قد برهن عليهـا قبليا، بـاعتبارهـم علماء، بينما هـم لم يفعلـو سوى أن عـرضوهـا بجرأة وحرارة: ذلك لأن لهم عادة أسـاسية بأنْ *يصدّقوا* فيما يقولون ـ طبعـا، فذلك كان جزءا من «مهنة» آبـائهـم! اليهودي في المقابل، أخذاً بعين الاعتبار نشـاطه ذا الطابع التجاري وماضي شعبه، إن كان هناك شيء لم يتعوّد عليه كثيرا فهو أن يصدّقه الناس

ـ ليس أمامنا سوى أن نتأمل العلماء اليهود ـ فهم كلهم يراهنون بشكل غير معتادٍ على المنطق، أي على القوة *المجبرة* للحجج المتعلقة بالتصديق: يعلمون أنهم سينتصرون بالمنطق، حتى هناك حيث يعمل الكره العرقي والاجتماعي على ألاّ يصدقهم الناس عن طيب خاطر. في الواقع، ليس هناك شيء أكثر ديمقراطية من المنطق: فهو لايفاضل بين الأشخاص ويعتبر كذلك الأنوف المعقوفة أنوفا مستقيمة. (لِنَقُلْ بلا إلحاح: إن أوربا، والألمان في المقام الأول، [هذا] الجنس *الأخرق* بشكل يثير الشفقة والذي يجب اليوم أن «يغسل رأسه»، مدينون لليهود بالكثير فيما يخص المنطق وفيما يخص *نقاء كبيرا في العادات الفكرية*. حيثما كان لليهود تأثير فقد علّموا [الناسَ] التمييز بدقة أكثر، علموا الاستنتاج بصرامة أكثر، علّموا الكتابة بكثير من الجلاء والوضوح: كانت مهمتهم دائما أن يهدوا شعبا «إلى الصواب»).

349 في موضوع أصل العلماء مرة أخرى

أن تريد أن تبقىٰ أنت ذاتك فذاك تعبير عن حالة من الضيق، عن تقييد للدافع الحيوي الذي يطمح بطبعه إلى *بسط القوة*، ومن ثمّ غالبا ما يتهِم الحفاظ على الذات ويضحي به. إن كان بعض الفلاسفة، مثل المسلول سبينوزا، يرون في غريزة البقاء مسلمة قطعية، فلنعتبر ذلك شيئا ذا دلالة لديهم: ـ فهم بحق رجال في ضيق، فكون علوم الطبيعة المعاصرة قد اتفقت بشكل كبير مع المسلمة السبينوزية (وفي الماضي القريب وبشكل فظ مع الداروينية بنظريتها الأحادية الجانب بشكل غير مفهوم المتعلقة ب "الصراع من أجل البقاء")، فهذا ما قد يكون على وجه الاحتمال، في الأصل الاجتماعي لأغلبية هؤلاء العلماء: بهذا الاعتبار فهم من «الشعب»، كان أسلافهم فقراء، من الطبقة الدنيا، ولم يكونوا يعرفون شظف العيش إلاّ بشكل جدّ مباشر. من كل الداروينية الانجلو سكسونية تفوح رائحة جوٍّ خانق بالاكتظاظ السكاني البريطاني، كنتانة الطبقة الدنيا، المكونة من البؤس وضيق المجال. لكن على العالم باعتباره عالما في حقل العلوم الطبيعة أن يعرف كيف يخرج من خلوته الانسانية: ففي الطبيعة ليس الضيق هو الذي **يسود**، لكن الوفرة، التبذير حتى درجة العبث. الصراع من أجل الوجود ليس إلا *استثناء*، إلا تقييدا مؤقتا لإرادة الحياة: إن الصراع الصغير مثل الصراع الكبير من أجل الحياة، كلاهما يدوران في كل الجهات حول التفوق، حول النمو، حول التوسع، طبقا لإرادة القوة التي هي بالضبط إرادة الحياة.

350 إكراما لـ "Homines religiosi (*)"

إن الصراع ضد الكنيسة هو ولاشك ـ لأنه يعني ألف شيء مختلف ـ مظهر من مظاهر صراع طباع أشد فظاظة وطيشا وسذاجة وسطحية ضد هيمنة رجال أشد رزانة وعمقا وتأملا، أي أشد خبثا وحذرا، والذين قضوا وقتا طويلا في تفحّص قيمة الوجود وقيمتهم الخاصة كذلك بارتياب كبير: فغريزة الشعب الفظة وفرحه الحسي و «قلب (ـه) الطيب» تثور ضدهم. الكنيسة الرومانية كلها ترتكز على الارتياب الجنوبي بخصوص الطبيعة الانسانية، والذي فسح المجال تقريبا لسوء التفاهم في الشمال: الارتياب الذي كان يشكل، بالنسبة للجنوب الأوربي، إرث الشرق الغامض، إرث آسيا القديمة والملغزة وعقلها التأملي. البروتستانتية وحدها هي الانتفاضة الشعبية لصالح الناس الطيبين، البسطاء، السذج والسطحيين (الشمال دائما يبدي عطفا وسطحية أكثر من الجنوب)؛ لكن الثورة الفرنسية هي التي منحت الصولجان بشكل رسمي وبدون تحفّظ لـ «الانسان الطيب» (للحَمَل، للحمار، للإوزة، باختصار لكل ما يتّصف بسطحية بالغة، لكل ما ينهق، لكل ما هو ناضج ليَلِجَ مارستان «الأفكار الحديثة»).

351 على شرف الطباع الكهنوتية

إن ما يقصده الناس بالحكمة (ومن ليس اليوم من «الناس» إذن؟) هي الدماثة التقية لكاهن القرية الذي يستريح في المروج بطمأنينةِ روح حذرةٍ وبقريّةٍ ***ويشاهد*** انصرام الحياة برصانة مجترّ ـ هذا الذي أظن أن الفلاسفة شعروا دائما ببعدهم عنه، ربما لأنهم كان يحسون أنهم «ناس» أقل مما ينبغي، أنهم أقل كَهَنة قريةٍ مما ينبغي. كذلك سيكونون آخر من يقرّ بأن الناس قد ***يستطيعون*** فهم شيءٍ مما هو غريب جدا عنهم، شيء من هذا ***الولع*** الكبير لدى الباحث عن المعرفة الذي يحيا باستمرار في عاصفة المشاكل العظيمة والمسؤوليات الجسيمة، الذي ينبغي أن يحيا فيها (فهو إذن لايكتفي قط بنظرة خارجية، لامبالية، واثقة وموضوعية. . .) أما الناس فيبجّلون نوعا آخر من الرجال حين يكونون من جانبهم مثالا عن «الحكيم» ولهم الحق ألف مرّة في أن يبجلوا هذا النوع من الرجال بمزيد من التشريف: إن ثناء الناس في طريقة تبجيلهم للحكمة يتوجه لطباع القساوسة الرقيقة والعفيفة هاته، الجدية جدا

(*) الرجال المتديّنين

في بساطة عقلها، ولكل مايمت إليها بصلة. وتجاه من سيكون للناس أكبر مدعاة للاعتراف بالجميل إن لم يكن تجاه هؤلاء الرجال الذين يتتمون إليهم والذين انبثقوا منهم، لكن باعتبارهم رجالا منذورين، موضوعين جانبا، *مضحىً بهم* لأجل خلاص الناس ـ هم أنفسهم يعتقدون أنهم مضحون بأنفسهم لله ـ هؤلاء الرجال الذين يستطيع الناس، دون عقاب، أن يفرغوا ما في قلوبهم في روحهم، أن *يتخفّفوا* من أسرارهم، من همومهم ومما هو أنكىٰ (ـــ لأن الإنسان الذي «يفشي» يتخفف من نفسه؛ وكل انسان «اعترف» ينسىٰ). والحالة أن الأمر يتعلق هنا بضرورة ملحّة: لأن الروح أيضا تحتاج إلى بوالعَ لقاذوراتها و إلى مياه نقية تطهرّها، تحتاج إلى سيول سريعة من الحب ومن القلوب القوية المتواضعة والطاهرة التي ستكون، بمثل هاته الخدمة الصحية غير العمومية، مستعدة لتضحي بنفسها ـ في الحقيقة، إن *الأمر يتعلق* هنا بتقديم قربانٍ القسُ فيه هو الضحية ويبقىٰ كذلك. . . إن الناس يشعرون بهؤلاء الرجال المقدَّمين قربانا والمنغلقين، رجال الـ «إيمان» الوقورين، *كحكماء*، أي كأولئك الذين اكتسبوا المعرفة، كرجال آمنين بالنسبَة لانعدام أمنهم هُم: من ذا يستطيع إذن أن ينزع من الناس هاته الثقة وهذا الاحترام؟ ـــ غير أنه صحيح، في المقابل، أنه بين الفلاسفة حتى القسّ يعتبر من «الناس» *وليس* رجلَ معرفة *قطّ*، ذلك أن الفلاسفة قبل كل شيء هم أنفسهم لايؤمنون برجال «المعرفة» ولأنهم يشتمّون عفونة «الناس» في مثل هذا الإيمان وهاته الخرافة. إن *التواضع* هو الذي ابتكر لدى الإغريق كلمة فيلسوف والذي ترك لمؤرخي العقلِ الزهوَ البهيّ بأن يتسمَّوْا حكماء، ـ تواضع طباع جد مندفعة بالأنفة وبالاستقلال المطلق مثل [طباع] فيتاغورس، مثل [طباع] أفلاطون.

352 بأي معنى لاغنى عن الأخلاق تقريبا

عادة ما يكون مظهر الإنسان العاري مخجلا ـ لا أتحدث إلاّ عنا نحن الأوربيين (وعن الأوربيين على الإطلاق!). لنفترض أنه بعَفْرَتَةِ ساحر تجد أسعد جماعة من المدعويين نفسها فجأة مكشوفة ومجردة من ثيابها، اعتقد جادا أن ذلك لن يثير الابتهاج فقط وإنما الشهية أيضا ـ يبدو أننا نحن الأوربيون لن نستطيع أبدا الاستغناء عن أي من الأقنعة التي تسمىٰ ثيابا. لكن تقنّع «الرجال الأخلاقيين» وتخفّيهم تحت صيغ أخلاقية وتحت مفاهيم اللياقة؛ باختصار، هاته الطريقة الخيّرة في إخفاء تصرفاتنا تحت مفاهيم الواجب، الفضيلة، العقل المدني، الكرامة، الكفر بالذات، ألن تكون لها أسبابها المعقولة كذلك؟ لاأقصد بذلك أن الأمر يتعلق بتقنيع الخبث

والوضاعة الإنسانيين، بتقنيع الـوحش الكاسر فينا؛ فكرتي، على العكس من ذلك تماما، فباعتبارنا *حيوانات مدجّنة* فإننا نبدو بمظهر مخجل ونحتاج إلى تقنّع أخلاقي ـ [فكـرتي] أن «الانسان الـداخلي» في أوربا ليس شنيعا لـدرجة يتجـرّأ معها على أن «يقبل أن يُرىٰ» (وكذلك على أن يكون *وسيما* ـ) يتقنّع الأوربي *بالأخلاق* لأنه أصبح حيوانا هـزيلا وعاجزا؛ ولأنـه شبه سِقْطٍ وضعيف وأخرق فإن له أسبـاباً جيدة لكي «يتدجن» . . وهذا التقنـع لاتقيمه حيوانات الصيد بل الحيـوان القطيعي في ضعفه البالغ، في كرب وضجر طبعه. لنعترف بأن *الأوربي ـ مبهرجاً بالأخلاق* ـ واثقٌ من امتياز أكثـر، من أهميـة أكبر، من تقديـر أكبر : إنه يصير بذلـك «موضـوع عبادة» تقريبا ـ.

353 عن أصل الديانات

إن الابتكار الأساسي لمنشئي الديانة هـو أولا أن يضعوا طريقة معينة للعيش، أن يضعوا ممارسة أخلاقية يومية معينة تكون بمثابة (*) Disciplina volontatis وتُذهب الغمّ في نفس الـوقت؛ ثم بعـد ذلك إعطـاء *تفسير* لهاته الحياة بـالضبط تبدو من خلاله مضاءة بالقيمة الأسمىٰ، بحيث يصير هـذا النوع من الحياة مِلكا نصارع من أجله، ونضحي بحيـاتنا من أجله عنـد الاقتضاء. في الواقع إن الابتكار الثـاني هو الأساسي أكثر : فالأول، [أي] طريقة العيش، كانت عموما موجودة من قبل، لكن ضمن طرق أخـرى للعيش، ودون وعي بقيمتها الضمنيـة. تتمظهر أهمية وأصـالة منشيء ديانة ما عموما في كونه *يتبينّ* طريقة العيش هاته *ويختارها*، في كونه هو أول من *يتنبأ* بالغرض الذي من أجلـه يمكن أن تُمارَس وتفسّر. فالمسيح (أو بولس) مثلا وجد نفسه وجها لـوجه مع حياة الطبقة الدنيا في الإقليم الرومـاني، حياة متواضعة، عفيفة ورازحـة تحت الهموم : ففسر هاته الحيـاة وأضفىٰ عليها أسمىٰ معنى وأسمىٰ قيمـة ـ ومن هنـا أعطاهـا القوة والشجـاعة لاحتقـار أي نوع آخـر من الحياة، هـذا التعصب الصـامت الخاص بـالإخوة مـوراف (Moraves) ، هـاته الثقـة الديماسيـة والسريـة في النفس التي لاتفتأ تنمو حتى تصير قـادرة «على هـزم العالم» (أي رومـا والطبقات العليا في الامبراطورية). بوذا كذلك وجد هذا الصنف من الناس موزعين في كل حـالات التراتبيـة الاجتماعيـة لشعبـه، نـاس طيبـون ومحسنـون مسـالمون بالخصوص) نتيجة للبلادة، ونتيجـة للبلادة كذلك يمارسون التعفّف ويعيشون دون

(*) انضباط طوعي .

حاجيات تقريبا : فقد فهم كيف كانت هاته الكائنات حتما، باسم Vis inertiae(*) ستتعاطى لعقيدة تَعِدُ بتجنّب عودة المصائب الأرضية (أي العمل، الفعل بشكل عام) ـ إن عبقريته كانت في أن «يفهم» ذلك. يحق لمنشىء ديانة ما أن يكون معصوما في المعرفة النفسية لنوعية متوسطة من الأرواح التي تنتظر أن تعي القاسم المشترك بينها. إنه هو الذي يجمعها بهذا الوعي : بهذا الاعتبار فإن إنشاء دين يفسح المجال دائما لحفلة كبيرة لتتعارف الأرواح فيما بينها.

354 عن «عبقرية النوع»

إن مشكل الوعي ([أو] بشكل أدق : مشكل أن نصير واعين) لايُطرح لدينا بشكل جدّي إلاّ حين نبدأ في فهم إلى أي حد يمكن أن ننفلت فيه : وقد وضعتنا الفزيولوجيا وعلم الحيوان في بداية هذا الفهم ـ واللذان استغرقا بالتالي قرنين من الزمن لتدارك السبق الذي كان لريبة لايبنيتز المحذرة عليهما. نستطيع في الواقع أن نفكر، أن نشعر، أن نريد، أن نعاود التذكر، نستطيع كذلك أن «نفعل» بكل ما في الكلمة من معنى : ولن يكون كل هذا، مع ذلك، في حاجة للـ «دخول في وعينا» (كما نقول بطريقة مجازية). ستكون الحياة كلها ممكنة من دون احتياج إلى الانعكاس : زد على ذلك أنه هكذا بالنسبة إلينا يستمر الجزء الأكبر من الحياة في المضيّ فعلا دون مثل هذا الانعكاس ـ بما في ذلك حياتنا المفكرة والمحسوسة والمريدة ـ مهما يكن هذا فظا في أذنيْ فيلسوف قديم. *لماذا* الوعي إطلاقا مادام *زائدا* عما هو أساسي؟ـ لوشئتم، والحالة هذه، أن تنتبهوا للجواب سأعطيه هنا، كذلك للإفتراض الذي يتضمنه والذي قد يكون منحرفا، إن دقة وقوة الوعي تبدوان لي دائما كتابعين *لملكة التواصل* لدى الانسان ـ (أو لدى الحيوان)، وتبدو هاته الملكة نفسها تابعا لـ*حاجة التواصل* : لاأقصد إطلاقا من هذا أن الرجل المتفرد، البارع بالضبط في فن التواصل والتعبير عن حاجياته، قد وجد نفسه بالأحرى مقصورا للوهلة ذاتها على مساعدة أشباهه. هذا ما يبدو لي بالمقابل أنه حالة أجناس بكاملها، حالة أجيال متعاقبة : هناك حيث أكرَهت الضرورةُ والحاجةُ الناسَ لمدة طويلة على أن يتواصلوا، وعلى أن يتفاهموا بسرعة وبدقة، وهناك يكمن أخيرا فائضٌ من قوةِ وفنِ التواصل هذين، هناك ينتظر منذ الآن كنزٌ، تجمّع بالتدريج تقريبا، الوارثَ الذي سيستعمله بإنفاق [نفقات] باهظة (ـ الذين يزعمون أنهم فنانون هم أولئك الورثة ؛

(*) الحياة الخاملة .

وكذلك الخطبـاء والدعـاة والكتّاب، كل الـرجال الـذين هم آخر حلقـاتِ سلسلةٍ طـويلـة، الـذين «وُلـدوا متأخـرين» بأفضل معـاني الكلمـة، والـذين هم بطبعهم مبذّرون). عنـدما تُقبَل هـاتـه الملاحظة على أنها صحيحـة سيتاح لي أن أستمـر في سياق افتراضي، *إن الـوعي لم يتطـور، بصفـة عـامـة، إلاّ تحت ضغط الحاجـة إلى التواصل*ـ ولم يكن الوعي، منذ البداية، ضروريا ونافعا إلا داخل علاقات الانسان بالانسان، خـاصة بين الذي يصدر الأوامـر والذي يطيع، وتبعا لدرجـة هذا النفع كان يتطـور. فالوعي ليس إجمالا إلا شبكـة من الروابط بين الناس، ـــ ولم يتطور إلاّ باعتبـاره كذلـك: فلوعاش الانسـان منعزلا، مثل وحـش كاسر، لـربما استطاع أن يستغني عنه. إنه كون أفعـالنا وأفكارنا و إحساسـاتنا وحتى حركاتنـا، تصير مدركة شعوريا لدينـا ـ أو على الأقل جزء منها ـ ليس إلا نتيجة للسيـادة الطويلة جدا التي مارسها «يجب عليك» على الانسان، لقد كان *في حاجة*، وهو الحيوان المهدّد أكثر، إلى مساعدة، إلى حماية، كان *في حاجة* إلى شبيهه، كان عليـه أن يعرف كيف يكون مفهومـا لكي يعبّر عن ضيقـه ـ ولأجل كل هـذا كان أولا في حاجـة إلى «وعي»، إذا حتى لكي «يعرف» مـاكان ينقصه، لكي «يعـرف» ماكان يشعر بـه، لكي «يعرف» ماكـان يفكر فيـه. لأن الإنسان، لِنقُلْهـا مرة أخـرى، يفكر بـاستمرار، مثـل سائر المخلوقات الحية، لكنه يجهل ذلك، والفكرة التي تصير *شعورية* ليست سوى جزء صغير جدا: الأكثـر سطحية، الأضعف: ـ لأن هـاته الفكـرة الشعورية وحـدها *تحدث بالكلمات، أي بـرموز التـواصل* التي بها ينكشف تلقـائيـا أصل الـوعي. باختصـار، إن تطور اللغـة وتطور الـوعي (*وليس* العقل قطّ) يسيران يــدا في يـد. لنضف إلى ذلك أنـه ليست اللغة وحدهـا هي التي تمد جسرا بين إنسان وآخـر، بل كذلك النظـرة وضغط [اليد] والاشـارة، أما الشعـور بانطبـاعاتنـا المحسوسـة، أما القدرة على إثبـاتها وموضعتهـا خارجنـا تقريبـا، فقد تـزايدت تنـاسبيا مـع الحاجة المتنامية لتبليغها *للغير* عبر إشـارات. إن الانسـان المخترع للإشـارات هـو في ذات الوقت الإنسان الذي يعي ذاته بشكل حـاد أكثر فأكثر؛ وأنه لم يتعلم أن يفعل ذلك إلاّ باعتباره حيوانـا اجتماعيا ـ ولايزال يفعله أكثر فأكثر. ـــ فكرتي، كما ترون، هي أن الوعي لاينتمي في العمق إلى الوجود الفردي لـلإنسان، بل إلى كل ما يجعل منه طبعا جماعيا وقطيعيـا؛ هي أن الوعي، بالتـالي، لم يتطور بشكل دقيق إلاّ من حيث النفع الجماعي والقطيعي، وأن كـل واحـد منـــا رغم رغبتـــه في أن *يفهم ذاته* فرديـا قدر المستطاع، في «أن يعرف نفسه» لابد أنه لن يفعل شيئا عداأن يجلب لوعيه ما هو غير

فردي، ماهو «واسطة»؛ ـ هي أن فكرنا نفسه يرى باستمرار تقريبا ***مزيد القيمة*** بميزة الوعي ـــ ب «عبقرية النوع» التي تسود فيه ـــ ومترجَما ثانية إلى منظار القطيع. إن أفعالنا هي في العمق شخصية تماما وبلامثيل، فريدة، وفردية بمعنى غير محدود، هذا شيء لايرقى إليه الشك، لكن بمجرد ما نعيد ترجَمتها إلى الشعور ***تكفّ عن أن تبدو كذلك***. . . تلك هي الظاهراتية، المنظورية بحصر المعنى، كما أفهمها: إن طبيعة ***الوعي الحيواني*** تتضمن أن العالم الذي يمكن أن نعيه ليس إلاّ عالما سطحيا، عالم إشارات، عالما معمَّما، مبتذَلا ـ أن كل ما ***يصير*** شعوريا يجد نفسه للوهلة ذاتها مسطحا ومصغّرا ومنقصا إلى حد بلادة المقوْلَب القطيعي؛ أن كل وعي يرجع إلى عملية تعميم وتسطيح وتزوير، إذن إلى عمليةٍ مُفسدة بالأساس. في الختام، إن الوعي يشكل خطرا بتطوره ذاته، وكل من عاش بين الأوربيين الأكثر وعيا يعلم أنه مرض. ليس ما يشغلني هنا، كما يمكن أن تحزُروه، هو التعارض بين الذات و الموضوع: أدَعُ مثل هذا التمييز لمنظري المعرفة الذينْ وقعوا في أنشوطات النحو (هاته الميتافيزقيا [المخصصة] للشعب). ويشغلني بشكل أقل التعارضُ بين «الشيء في ذاته» والظاهرة: لأننا بعيدون عن أن «نعلم» ما يكفي حتى نسمح لأنفسنا للقيام بمثل هذا ***التمييز***. الحقيقة أننا لانمتلك أية آلية صالحة ***للمعرفة، للحقيقة***: لا«نعلم» (أو نعتقد أو نتصور) أن مقدار ذلك قد يكون ***نافعا*** لمصلحة القطيع الإنساني، لمصلحة النوع: وماله اسم «نفع» هنا ليس في نهاية المطاف سوى اعتقاد، سوى تصور، ولربما كانت بالضبط هاته البلادة نفسها، القاتلة أكثر من كل الأخريات، والتي سنهلك بسببها يوما.

355 عن أصل مفهومنا لـ«معرفة»

لقد أوحي إليّ التفسيرُ التالي في الشارع: سمعت رجلا من الشعب يقول: «لقد عرفني» ـــ وفي الحين تساءلت: ماذا يمكن أن يقصد الشعب بالمعرفة؟ ماذا يريد حين يريد «المعرفة»؟ لاشيء غير هذا: ردّ شيء غريب إلى شيء ***معروف***. ونحن الفلاسفة ـ هل قصدنا ***أكثر من ذلك*** بمصطلح: معرفة؟ المعروف يعني: الشيء الذي اعتدناه حتى أننا لم نعد نندهش له، حياتنا اليومية، قاعدةً مانكون قد التزمنا بها، الحاصل، كل شيء مألوف: ـ ما عساي أقول؟ ألن تكون حاجتنا إلى المعرفة هي بالضبط حاجتنا إلى المعروف قبلا؟ [ألن تكون] إرادة العثور ضمن كل ما هو غريب وغير معتاد وارتيابي على شيء لم يعد موضوع إقلاقٍ لنا؟ ألن تكون ***غريزة الخوف*** هي التي تحثنا على أن نعرف؟ ألن يكون ابتهاج الذي يكتسب معرفةً ابتهاج

الاحساس بأمنٍ مسترجَع؟ . . . الفيلسوف الفلاني أعتبر العـالم «معروفا» بمجرد ما أرجعـه إلى الـ «فكـرة» : لكن أليس ذلك لأن الـ «فكـرة» (Idée) كانت معروفة ومألوفـة لديـه قبليا؟ أليس لأنه كـان قد تـوقف تماما عن الخوف من الـ «فكرة»؟ - يـالفضيحةِ اكتفـاءِ أولئك الذين يـزعمون أنهم يعـرفون! لنتفحّص بهذا الخصـوص المبادىء والحلـول التي يقترحـونها لألغاز العـالم! إنهم حين يجدون في الأشياء وتحت الأشياء ووراء الأشياء مـا هو معروف لنا جيداً، لسوء الحظ، مثـلا جدولَ ضربنا أو منطقَنـا، أو كذلك إرادتنـا وطمعنـا، فكم يكـونون سعـداء لتـوّهِم! لأن «ما هـو معـروف يُتعرّف عليـه ثـانيـة» : إنهم على الإجماع بهذا الخصوص. غير أن أكثـرهم تحفظا يزعمون أن *التعرف على* المعروف *أسهل* على الأقل من التعـرف على الغريب : وسيكون آكثر منهجية مثلا أن ننطلق في «العالم الداخلي» ابتداء من «أفعال الشعور» لأن ذلك هو *العالم المعروف فينا أفضل!* هذا أفضع الأخطاء! فالمعروف هو المعتاد، والمعتـاد هـو أصعب مـا يمكن « أن نتعـرف عليـه»، أي أن نتأملـه كمشكل، إذن كغريب، كبعيد، كشيء وُضِعَ «خارجَنـا». . . اليقين الكبير الذي تبين عنه العلوم الطبيعية بالنسبة إلى علم النفس ونقد عنـاصر الوعي - وهما علمان يمكن القول أنهما مضادّان للطبيعـي - يتعلق بالضبـط بحقيقة كونها تعتبر الـواقع *الغريب* موضوعا : بينما هنـاك شيء مـن التنـاقض والعبث تقـريبـا في *إرادة* اعتبـار ما ليـس غريبـا موضوعاً. . .

356 إلى أي حد ستكون شروط الحياة في أوربا «فنية» أكثر فأكثر؟

.يفـرض همّ تـوفير العيش تقريبـا على كل الأورُبيين الـذكـور اليوم — في عصرنـا الانتقالي حيث أشيـاء قليلة تفرض نفسهـا - *دورا* محدَّدا، مهنتَهم المزعومـة : تبقى لبعضهم الحريـــة الظـاهـرة لاختيـار هـــذا الــدور بأنفسهم، بينما يـــوصف للأغلبية. والنتيجـة جد فريدة : كل الأوربيين الـذين بلغوا سنا متقـدمة يتماهون في دورهم، هم أنفسهم ضحيـة «لعبتهم»، هم أنفسهم نسـوا إلى أي حد تصرّفت بـه الصـدفـة والمزاج والتعسف لما قُـرّرَ «ميلُ» هُم — نسـوا كم من أدوار أخـرى كـانـوا *سيستطيعون* لعبهـا : لأن الأوان قـد فـات الآن! وبمعنى أدق، لقـد *أصبح* الدورُ حقيقةً طبعـا، والفن أمسىٰ طبيعة. كـانت هناك عصور كـان الناس فيهـا يعتقدون بثقة عنيدة، لابل بورع، أنهم مهيأون شخصيا للمهنة كذا، بالضبط، للحرفة كذا، ولوتجاهلـوا بكل بساطَة حظ الصـدفة، حظ الـدور، حظ التعسف : وبفضل هذا الاعتقاد نجحت كل أنواع المهن، والتعاونيات، والامتيـازات المهنية الموروثة في إقامة

هاتـه القلاع الاجتماعيـة الهائلة التي تميـز العصور الـوسطى، والتي يمكن على كل حال أن نمجدها لما يلي: القدرة على البقاء (ـ البقاء هنا على الأرض قيمة من الطراز الأول!). لكن هناك، على العكس، عصورا ديمقراطيـة يتخلّى الناس فيها أكثر عن هذا الاعتقاد، بينما تأخـذ وجهة نظر معاكسة أهمية بالغـة بجسارة، [مثل] الاعتقاد الأثيني الـذي بدأ يتأكـد في عصر بيريكْليس، والاعتقـاد الأمريكي الحاضر الـذي ينحو أكثـر فأكثر ليصبح أوربيا: هنـاك أُقْنِعَ الفرد بأن يكـون قادرا على كل شيء، بأن يكون في مستوى *أي دور*، بينما كل واحد يجرب نفسـه، يرتجل، يجرّب ثـانية، يجرب استمتاعـا، وأن كل طبيعة تتـوقف، تصير فنّـا... إننا نعرف أن الإغـريق، الذين تورّطـوا باديء الأمر في هذا ***الاعتقاد في الدور*** ـ اعتقاد الفنان، إن شئنـا ـ قد خضعوا تدريجيا لتحولٍ غريب لايستحق أن يقلَّد بأي وجه من الوجوه: ***لقد صاروا حقيقةً ممثّلين***، وبما أنهم كذلك فقـد خلبوا لبّ العـالم، فتنوه، وفي نهاية الأمـر فتنوا «المهيمنة عَلى العـالم» (لأن graeculus histrio (*) هو الـذي هزم رومـا، ***وليست*** الثقافة الهلّينية، كما يقول السذج...) لكن الـذي أخشاه، الذي نأخذه الآن أخذا محكما، هذا إن كانت لنا الرغبة في أخذه، هو أننا نحن الرجال العصريون، قد نكون على نفس الطـريق تمامـا: ففي كل مـرة يشرع فيها رجل في اكتشـاف إلى أي حـد يلعب دورا، إلى أي درجة **يمكنه** أن يكون ممثّلا، **يصير** ممثلا فعلا... من هذا الطراز نشهد انطلاقـة نباتات جديدة، انطـلاقة طغمة جديـدة من الأفراد لن تعرف كيف تنمو في عصور أكثر جمودا، أكثر محدودية، ـ أو التي تُبعَد «إلى أسفل»، تُسقَط عنها حقوقهـا المدنية، تُتَّهم بـالفضيحة ـ وأقـول أننا نشهـد أهمّ وأخرق عصـور التاريخ حيث «الممثلون»، الممثلون ***من كل الأصناف*** هم الأسيـاد الفعليون. من هنـا نرى نـوعـا آخر من الـرجـال يلحقـه إجحـاف أكثر فأكثـر وفي الأخير يصير مستحيـلا [وجوده]، بدءاً بـ «المعماريين» الكبار، بـ «البنائين» الكبار: إن القوة البانية تنضني حاليـا؛ الجرأة على القيام بمشـاريع طويلة الأمـد لاتُشجَّع، بينما المنظمون العبـاقرة بدأوا يتنـاقصون: ـــ من سيجرؤ بعـد الآن على القيام بمشـاريع **سيستغرق** إتمامها آلاف السنين؟ نرى في الـواقع هذا الاعتقاد الأسـاسي تخبو جذوته، والـذي بفضله يمكن لرجل أن يعُـد، أن يعِد أن يستبق المستقبل بمشـاريعه، أن يضحي من أجل هـاته الأخيرة بشكل لاتكـون معه لـرَجلٍ قيمةٌ ولامعنى إلاّ بما هـو ***حجـر في صرحٍ شاسع***: لهذا يجب عليـه قبل كـل شيءٍ أن يكـون ***صلدا***، أن يكون «حجـرا»...

(*) الممثل الاغريقي.

لاممثلا ـ بالخصوص. باختصار ـ سيخفونه لمدة طويلة مع الأسف! ـ إن الشيء الذي لن يُبنىٰ انطلاقا من الآن، الذي سوف لن يبنىٰ أبدا، هو ـ مجتمع بالمعنىٰ القديم للكلمة : فلبناء مثل هذا الصرح ينقص كل شيء بدءا بسواد البناء. ***نحن كلنا لم نعد مواد بناء مجتمع*** : هاته حقيقة موضعَ اهتمام وعناية! لايهمني في هذه اللحظة أن يظن السادة الإشتراكيون، وهم أحسر أنواعَ الرجال، ربما أشدهم إخلاصا كذلك، لكنهم الأشد ضجيجا في الحاضر على كل حال، أن يظنوا، أن يأملوا، أن يحلموا، وقبل كل شيء أن يعلنوا ويكتبوا ما يقارب العكس من ذلك : كلامهم عن المستقبل منذ الآن : «مجتمع حرّ» يمكن أن يقرأ على كل الطاولات، على كل الجدران. مجتمع حرّ؟ جميل جدا! ومع ذلك، أيها السادة، بماذا ستبنون مثل هذا المجتمع إذاً؟ إنكم لاتجهلونه، بحديد الخشب! حديد الخشب المشهور! بل ليس حتى من الخشب . . .

357 عن المسألة القديمة : «ما الذي هو ألماني؟»

لنعدَّ في سرِّنا مكاسب الفكر الفلسفي بحصر المعنى، والتي يرجع الفضل فيها لعقول ألمانية : هل يمكن أن تعْزىٰ بشكل مشروع لمجموع العِرق؟ هل نستطيع أن نقول : إنها، في ذات الوقت، عمل «الروح الألمانية»، على الأقل علامتها، بالمعنى الذي اعتدنا به اعتبار فكرة أفلاطون عن الهوس وجنونه الشبه ـ ديني بالأشكال حدثا وشهادة في ذات الوقت على «الروح الهلّينية»؟ أم سيكون العكس صحيحا؟ هل تكون مكاسب المعرفة هاته فردية جدا و***استثنائية*** جدا بالنسبة لعقل العرق على ما كانت عليه وثنية غوته مثلا، دون إحساس بالخطإ؟ بالقدر الذي هي عليه بين الألمان ميكيافيلية بسمارك، «سياست (ـه) الواقعية» المزعومة، براحة ضمير؟ تُرَىٰ هل يناقض فلاسفتنا حتى ***حاجيات*** «الروح الألمانية»؟ باختصار، هل كان الفلاسفة الألمان فعلا ـ ***ألمانا*** فلاسفة؟ ـ سأذكر بثلاث حالات. أولا وضوح لايبنيتز الفريد الذي منحه الحقّ ليُثبت، ضد كل من تفلسف قبله وليس ضد ديكارت فقط، بأن الشعور ليس إلاّ عرض التمثيل (accident de la représentation)لاصفته الضرورية والأساسية، بأن ما نسميه بالتالي شعورا، ***بعيدا عن أن يكون عالمنا الروحي بل والنفسي***، لايشكل منها إلاّ حالة ربما مَرَضيّة) : ـ هل تدل هاته الفكرة، التي لم يُسْبَرْ عمقُها اليوم، على شيء ألماني؟ هل هناك من سبب لكي نشك في أن لاتينياً كان سيصل بسهولة لعكس الظاهر هذا؟ ـ لأن ذلك عكس فعلا. لنتذكر في المرتبة الثانية علامة الاستفهام الكبيرة التي وضعها ***كانط*** بجانب مفهوم «السببية»، ـ لا

لأنه عـارض مشروعية هـذا المفهوم كما فعـل هيوم (Hume) : لقد شرع بـالأحرى وبحذر في تحديد المجال الذي لايزال فيـه لهذا المفهوم نفسه معنى (ولازلنا لم ننته من هذا التحديد بعد). لنتأمل في المرتبة الثـالثة هذا العمل الجريء المدهش الذي زعزع به *هيجل* كل عاداتِ وسهـولةِ المنطق حتى تجرّأ على تعليم أن المفاهيم النوعيـة تنمو *واحدتها من الأخرى* : الفـرضية التي بفضلهـا هُيّئت العقول في أوربـا لآخر أحـد أكبر الحركات العلميـة، الداروينيـة ـ لأنـه لاداروين بدون هيجل. في هـذا الإبداع الهيجلي الذي كان الأول في إدخال مفهوم «التطور» في العلوم، هل يوجد شيء ألماني؟ ـــ نعم، دون أدنـىٰ شك : في الحالات الثـلاث المذكـورة نحـس بشيء من طبيعتنـا الخاصة قـد «كُشِفَ، حُزِرَ» وإننا نـنـدهش لذلك ونمتنّ لـه في نفس الوقت، فكل واحدة من هاته الفـرضيات الثلاث تشكّل جزءا لايستهان به من معـرفة، من تجربةِ وانفعالِ الروح الألمانية نفسها. فعند لايبنيتز نشعر بأن : «عالمنا الداخلي أكثر غنىً، أكثـر امتداد، وأكثـر خفاء»، مع كـانط نشك كألمان في القيمـة القطعية للمعـارف العلمية، كما نشك فضـلا عن ذلك، في كل ما *تسهل* معرفته سببيّا : حتى *الممكن معرفته* ذاته يبدو لنا بما هو كذلك *ذا قيمة أقل*. إننا نحن الألمان هيجليون، حتى ولو لم يوجد هيجل أبدا، [وذلك] بما نمنح، غريزيا (على عكس اللاّتينيّن)، للصيرورة وللتطور مـن مدلول أعمـق، من قيمة أغنىٰ ممـا نمنحه لما هـو «كائن» ـ قلّما نـؤمن بمشروعية مفهوم الـــ «كينونة» ـ ؛ هيجليـون بمقدار مالم نعد ميّـالين للسماح لمنطقنا بأن يكون المنطق نفســه، أن يكون النوع الـوحيد من المنطق (نودّ بـالأحرى أن نقتنع بأنه لن يكون إلاّ حـالة خاصة، ربما أغـرب وأبلد حالة ـ). السـؤال الرابع سيكون معرفة مـا إذا كان *شوبنهاور* بتشاؤمـه، أي بمسألة *قيمة الوجود*، ألمانيـا حتما. لا أعتقد ذلك إطلاقا. إن الحدث *الذي بعده* كنا سننتظر هذه المسألة بيقين، حتى أن منجّم الروح كـان بإمكانه أن يحدد يـومها وساعتها قبـلا، أي تدهور الإيمان بـالإله المسيحي وانتصار الإلحاد العلمي، يشكل حـدثا أوروبيا عامّـا يحق لكل الأجناس أن يكون لها فيه نصيبها من الفضل والشرف. بالمقابل، يجب أن نعزو إلى الألمان بالضبط ـ إلى هؤلاء الألمان المعاصرين لشبونهاور ـ واقع *تأخير* انتصار الإلحاد هذا لمدة طويلة وبطريقة خطرة؛ وقد كان هيجل خاصة مؤخرهُ *بامتياز*، طبقا للمحاولة الكبيرة التي قام بها ليقنعنا بـربانية الوجود، في نهاية المطـاف، بواسطة حاستنا السـادسة نفسها «الحاسة التـاريخية». لقد كان شـوبنهاور، باعتباره، فيلسـوفا، *أول* ملحـد مُعلَن وعنيد وُجد بيننا نحن الألمان : هنا كان يكمن السبب الحقيقي لعداوته مع هيجل.

لقد كانت الصبغة غير الربانية للوجـود بالنسبة إليه شيئا مباشرا، واقعيا، لأيناقَش! كان يفقد هدوءه كفيلسوف ويَحْتَـدُّ كلما رأىٰ أحدا يتردد في هذا الموضوع ويلجأ للّفّ والدوران. هنا يكمـن صدقه : الإلحاد التام والصادق هـو في الواقع *الشرط المسبق* لطـريقته في طـرح المسائل بـاعتباره نصرا اكتسبـه الوعي الأوربي في النهـاية بعنـاء، باعتباره العملية الأغنى من حيث العواقب لتأديب روح الحقيقة، الألْفي مضاعَفَة، التي انتهت برفض *كذبة* الإيمان بالإله . . . نرى هنا إجمالا *الشيء الذي* حقّقه النصر على الإله المسيحي : الأخـلاقية المسيحية ذاتها، مفهوم الصدق الـذي أُخذ بمعنى صارم أكثـر فأكثـر، دقة الشعور المسيحـي الذي طـوّره المعرّفـون، مُتَرْجَماً إلى شعورٍ علمي و متساميا فيـه حتى الوضوح الفكري بأي ثمن. اعتبـار الطبيعة كدليل على الرأفة والرعاية الإلهية؛ تفسير التاريخ بـالحق الإلهي باعتباره شاهدا أزليا على القصدية الأخلاقية للنظـام الكوني؛ تفسير تجاربنا الخاصة بالمعنى الذي فسّر بـه أناس أتقياء تجاربهم منذ أمد طويل كما لو أن كل شيء فيها ليس سوى عطاء وإشارة وإنذار من العنايـة الإلهية، وأن الكـل أسهم في خلاص الـروح بالمحبـة : هذا شيء *انتهىٰ* منذ الآن، هذا شيء *مناقض* للشعور، هـذا ما يحس بـه كلُّ شعور رقيق الآن كشيء غير مهذّب، كسـوء نية، كتضليل، كأنثـوية، كضعف، كجبن ــ وإنه لبفضل هـاته الصرامة، إن كان لابد أن يكـون بفضل شيء ما، نحن في الواقع أوربيون *صالحون*، ورثة أطـول وأشجع سيطرة على الذات بـرهنت عليها أوربـا. والحالة أنه بمجـرد ما نلقي بالتفسير المسيحي بعيـدا عنا ونديـن «مدلولـه» كعملة مزوّرة، يهاجمنـا السؤال *الشوبنهاوري* بأشنع طريقة : *هل للوجود معنى واحد فقط*؟ - سؤال سيحتاج إلى بضعة قـرون ليُدْرِكَ في كل أعماقه. الجواب الذي أعطـاه شوبنهاور نفسه كـان فيه - لتغفـروا لي ذلك - شيء من التسرع، من الصبيـانية، لم يكن سـوى نوع من التـوفيق وشبه تـورطٍ في المنظورات الأخـلاقية الزهـدية بـالضبط - المنظـورات المسيحية التي *انفصل عنها الاعتقاد* والإيمان بالإلـه في ذات الوقـت. . . لكنه في الأخير قـد طرح السـؤال - كأوربي صـالح، كما أسلفتُ، *وليس* كألماني. ـــ أم هل بـرهن الألمان صـدفة، على الأقل بـالشكل الـذي استـولوا بـه على السـؤال الشوبنهـاوري، على انتمائهم الحميمي لهاته المسألـة، على تجانسهم معها، على *الحاجة التي كانت لديهم* في أن يـروهـا تُطرح؟ فـواقع كـونهم في ألمانيـا تأملـوا ونـاقشوا المسألـة التي طـرحهـا شـوبنهاور، بعـد رحيله ــ في تاريخ جـد متأخر فضـلا عن ذلك *بالرعونة* الفريدة للتشاؤم البعد - شوبنهاوري؛ - لقد تصرّف الألمان بالنظر إلى ذلك كما لو لم يكونوا في

بيئتهم بشكل جلي. ومن خلال هذا لاأشير إطلاقا إلى إدوارد فون هارتمان؛ بل على العكس، اليوم أيضـا لازلت لم أتخلّ عن شكّي القديم بخصـوصه، إني اعتبره *ماهرا* جدا بـالنسبة لنـا نحن، أعني أنه لم يفعـل شيئا منـذ البداية كمخـادع ذكي غير أن يستـ.زىء بـالتشاؤم الألماني - بل وإنـه يستطيع، في نهاية المطاف أن «يـورث» للألمان عن طريق الوصية، الطريقـة التي خُدعوا بها هم أنفسهم في عز عصر التأسيسات. أتساءل والحالة هذه : هل يجب أن أذكر إكـراما للألمان هذا الخذروفَ العتيقَ الهارَّ : بانسن (Bahnsen)، الـذي ظلَّ سحابـةَ حيـاته يـدور بلذّة حـول بـؤسه «الـواقعي الجدلي»، وحول «نحسه الشخصي» - أيكون حتى هذا بـالصدفة ألمانياً؟ (أنصح بلا إلحاح بأعماله باعتبـارها علاجا ضد التشـاؤم. قد جرّبته أنـا نفسي، خاصة بسبب *علم نفس* (أعمالِه) *الأنيق* (*)، وهي فعّالـة فيها أعتقد ضد إمساك الـروح و الجسد الـذَي لايَطاق). أم هل نستطيع أن نعـد ضمن الألمان الأقحاح صنف الانفعـاليين والفتيات المسنّات مثل جِواري العذرية الملِق : ما ينلاندر(Mainländer)؟ في الختام سنكـون قـد تعاملنـا مع يهودي (ــ كل اليهـود يبدون ملقين بمجـرد أن يشرعـوا في الوعظ). لايسهـم لا بانسن، لاماينـلاندر ولا إ. فـون هارتمان بـالخصوص بمعطى يقيني في مسألة معـرفة إن كان تشـاؤم شوبنهاور، ونظـرته المروّعة بعـالم عارٍ من كل طبيعة ربّانية، بعالم صار بليدا، أعمى، أحمق، مشبوها، ورعب شوبنهاور *الصادق* هذا... إن كانت كلهـا تشكل ليس فقط حالة استثنائيـة ضمن الألمان، بل أيضا حدثـا *ألمانيّا*؛ بينما كل مـــا يقع في المرتبـــة الأولى، سيـــاستنـــا الشجـــاعـــة، وَطَنْجِيتنا (Patriotardise) المرِحة التي تنظر الى كل شيء حسب مبدإ فلسفي شيئا ما ("Deutschland, Deutschland, über alles") (**) إذن Sub specie spe- (***) ciei والحالة أن Sub Specie من Species (****) الألماني يبرهن بشكل لايـرقى إليه الشك على العكس. إلا إن ألمان اليـوم ليسوا تشـاؤميين ا *لبتة*! ولِنَقُلْه مرة أخرى، لقد كان شوبنهاور تشاؤميا باعتباره أوربيا صالحالا باعتباره ألمانيا.

358 ثورة المزارعين في ميدان الروح

نجـد أنفسنـا، نحن الأوربيون، أمـام حقل هـائل من الأنقـاض حيث لازالت أشياء كثيرة تنتصب واقفـةً، حيث لازالـت أشياء كثيرة نخـرة وذات مظهرمحزن، بينما

(*) Leur elegantiae Psychologicœ
(**) ألمانيا، ألمانيا فيها وراء كل شيء.
(***) نوع دون سائر الأنواع.
(****) والحالة أن النوع الثاني من العرق الألماني.

الجزء الكبير المنهار منثـور على الأرض، مغطى بأعشاب بـرية كبيرة وصغيرة، ولكل ذلك أثر رُسومي بالغ ـ أين وُجِدَت قط أنقاضٌ أجمل من هاته؟ ـ حاضرة الإنحطاط هاتـه هي الكنيسة: نـرى مجتمع المسيحية الـديني مزعـزعا حتى أعماقـه، ـ الايمان بالإلهصريعٌ، مقلـوبٌ، بينما يخوض الاعتقـاد في الـزهــد المسيحي المثـالي معـركتـه الأخيرة. فعملٌ قد بُني بصبر وعمق مثل المسيحية ـ التي كانتْ آخر صرح روماني! ـ لم يكن ممكنا بداهـة أن يهُدَم بضربة واحدة: لقد تطلّب الأمـر كل أشكال الزلازل، كل أصناف العقول التي تثقُب، تحفر، تقرِض، تضعف وتُفكِّك. غير أن أغرب ما هنـالك: أن أولئك الذين بـذلـوا ما في وسعهم لـلإبقـاء على المسيحية، للحفـاظ عليها، قد أصبحوا أفضل مخربيها، ـ إنهم الألمان. يبدو أن الألمان لايفهمون جوهر الكنيسة. أيكون ذلك لأنهم ليسوا روحانيين ولاحذرين كثيرا؟ يرتكز صرح الكنيسة على كل حـال على حـريـةِ وسخـاءِ روح جنوبيين، وكـذلك على حـذر جنـوبي بخصوص الطبيعـة والإنسان والعقل ـ يرتكـزعلى معرفة الإنسان، على تجربـة أناس تختلف تماما عـن التي عرفها الشمال. لقـد كان الإصـلاح اللوثـري، على امتداده، الثورة الناقمة للبساطة ضد شيء «مهَذّب»، كي نتحدث بحذر، كانت سوء تفاهم شنيع وساذج، فيه كثير مما يُغْفَرُ، ـــ لم يكن الناس يفهمون تعبير كنيسة مُنتصرة ولم يكونوا يرون فيـه إلا فسادا، كانوا يسيئون الحكم على الشكـوكية الأرستقراطية، ترفُ الشكوكية والحِلم الذي تخوله لنفسها كل قوة منتصرة واثقة من نفسها . . . يبدو اليوم واضحا كم كـان لوثر يتصرف بشكل مشؤوم، سطحي، بـلاروية، بِطَيْشٍ، في كل المسائل الأسـاسية للقوة، كـرجل من عامّة النـاس بالخصوص، ينقصـه إرث طبقة مهيمنة، تنقصه غـريزة القوة: بحيث أن عمله و إرادتَه إعـادةِ بناء مثل هذا الصّرح الـروماني كـانا بشكل لاإرادي ولاشعـوري أصل مشروع للهدم. لقـد شرع في نقض ماغزلته العنكبوت القديمة بعناء وصبر وفي تقطيعه بسخط معلن. لقد سلم الكتب المقـدّسة لكل واحـد ـــ وبهذا انتقلت هاتـه الكتب إلى أيـدي فقهاء اللغـة، أي إلى هادمي كل عقيدة ترتكز على كتب. لقد هدم مفهوم الـ «كنيسة» برفضه الاعتقاد في إلهام المجـاميع الدينيـة: لأن مفهوم الكنيسـة يحافظ على قوّتـه بالافتراض قبليـا أن العقل المُوحيَ الذي أسس الكنيسة مـايزال حيّاً فيها، [مستمر] في بناء ومتـابعة بناء منزله. لقد أعاد إلى القس المتاجرة بالمرأة: والحال أن ثلاثة أرباع الاحترام الذي يقدر عليه الشعب، وامرأة الشعب قبل كل شيء، ترتكـز على الاعتقاد بأن رجلا بارعا في هـذا الموضوع لن يكـون أقل من ذلك في مواضيع أخـرى، ـ في الـواقع، لقد وجـد

الاعتقاد الشعبي في [وجود] شيء فوإنساني في الإنسان، في الاعتقاد في المعجزة، في [وجود] الإله المخلِّص في الإنسان، وَجَدَ هناك أيضا محاميا بارعا وجذابا. لقد كان على لوثر، بعد ما ردّ المرأة للقس، أن يجرده من الاعتراف السمعي، الشيء الذين كان عادلا نفسيا: غير أن القس المسيحي قد حُذِف إجمالا بهذا الفعل، وهو الذي كان نفعه العميم أن يكون دائما أذنا مقدّسة، بئرا من الصمت، قبرا للأسرار. «كل واحد قسّ نَفْسِه» تحت مثل هاته الصيغ ومكرها المزارعي كان يكمن كرهُ لوثر الشديد لـ «الانسان المتفوّق»، لهيمنة «الانسان المتفوق» مثلما تصورتْهُ الكنيسة: ـ لقد هدم مثلا أعلى لم يعرف كيف يصل إليه في حين كان يبدو وكأنه يصارع فساد هذا المثل الأعلى ويكرهه. في الواقع، لقد رفض هذا الرّاهب البغيض هيمنة Homines religiosi*: لم يكن إذن يفعل شيئا داخل النظام الكنسي سوى إثارة ـ «ثورة المزارعين» التي كان يحاربها بكثير من التعصب مراعاة للنظام المدني. ـ أما كل ما نما انطلاقا من إصلاحه، من قبيح أو حسَن، والذي يمكن تقييمه تقريبا اليوم ـ فمن سيكون ساذجا ليلوم لوثر ببساطة أو ليمدحه بسبب مثل هاته النتائج؟ إنه بريء من كل شيء، إنه لم يكن يدري ماكان يفعله. لقد خطا تسطيح العقل الأوربي، خاصة في الشمال، خطتْ *سذاجتُه*، إن شئنا التعبير عن ذلك بمصطلح أخلاقي، خطوة جبارة إلى الأمام بفضل الإصلاح اللوثري، هذا شيء لايرقى إليه الشك: كما تطورت بفضله كذلك حركيةُ العقل وقلقُه، تعطشُه للاستقلال، اعتقادُه في حقه في أن يكون حرا، و [تطورت] «فطرتُ» ـه. ولوأردنا، كاعتبار أخير، أن نعطي للإصلاح فضل تهييء وتشجيع مانبجله اليوم باعتباره «علوما عصرية» فينبغي أن نضيف بكل بداهة أن له دوره كذلك في فساد العالم العصري، في قلة احترامه ورزانته وعمقه، في كل الثقة [التي توضع] في أمور المعرفة وفي بساطة هاته الأمور، باختصار، في *عامية العقل* التي ميزت القرنين الأخرين والتي لم يخلّصنا منها إطلاقا حتى التشاؤم الحديث؛ ـ وحتى «الأفكار العصرية» تمت بصلة إلى ثورة المزارعين في الشمال ضد عقل الجنوب البارد كثيرا، الملتبس كثيرا، الحذر كثيرا، والذي أقام أفخم أثر له على شكل الكنيسة المسيحية. لاننسى، في نهاية المطاف ماتشكله الكنيسة، خاصةً بتعارُض مع أية «دولة»: فالكنيسة، قبل كل شيء، بنية للهيمنة، تؤمّن الدرجة العليا للرجل *الأكثر روحانية*، وهي *تؤْمِنُ* بقوة الروحانية لكي تمنع كل لجوء إلى وسائل عنفٍ أشنع ـ الكنيسة، بهذا وحده، مؤسسة أنبل من الدولة بكل الاعتبارات. ـ

359 الانتقام من العقل وأسباب سرية أخرى للأخلاق

أين تظنون ـ الأخلاق ـ تجد محاميها الشـديدي المراس والماكرين إذن؟ هذا إنسان نـاقص، ليـس لـه من العقل مـا يكفي ليستمتـع بـذلك ولالـه قليل من الثقـافـة ليتجاهله، إنه ضجِـر، مشمئز، كله احتقار لذاته، لسـوء حظه فهو محروم، بفضل شيء من الثروة، مـن العزاء الأخير، من «رحمة العمل» من نسيـان الذات في «العمل اليومي» ؛ مثل هـذا الرجل الذي يخجل من وجوده إجمالا ـــ ربما يخفي، علاوة على ذلك، بعضَ النقائص الصغيرةـ والذي لايستطيع من جهة أخرى، أن يتوقف عن إفساد نفسه دائما بشكل أسوأ ولاعن أن يصير سريع التأثر أكثـر فأكثر لدى إطّلاعه على الكتب التي لاحقّ له في الإطـلاع عليها أو لـدى اتصاله بمجتمع جـد روحاني بحيث لايستطيع أن يندمج فيه : مثل هذا الرجل المتسمّم ـ لأن العقل يصبح سما، [كـذلك:] الثقافـة والثـروة والـوحدة، كل شيء يصبح سما لـدى هـاتـه الكائنـات الناقصةـ مثـل هذا الرجـل، أقول، يقع، في نهايـة المطاف، في حـالة اعتياديـة من الانتقام، من إرادة الانتقام. . . ، *مالذي* تظنون أنه في حاجة إليـه، في حاجة ماسة إليه لكي يسبغ على نفسه مَظهر التفوق بالنسبة إلى رجال أكثر روحانية، لكي يحصل على متعة *الانتقام التام*، في الخيال على الأقل؟ سيكـون ذلك الذي يحتـاجه دائما هي *الاخلاقية*، دون مجازفـة الـوقـوع في الخطإ، [ستكـون] دئما هي الكلمات الـرّنـانـة الواعظة، دائما هي «بُمْ بُمْ» العـدالة والحكمة والقداسـة والفضيلة، دائما هي رواقية الموقف (ـ كم تخفي الرواقيـة جيدا كل ما لايمتلكه المرء! . . .) ؛ دائما رداء الصمت الحذر؛ والبشـاشة والـدماثـة، ومـالا أعلم من أردية المثل الأعلى التي يختفي تحتهـا محتقرو ذواتهم الزّمنين، وكـذلك المغترون الزّمنون. لايغلطنّ أحد بصـدد ما أقول : إنه من هـذا الصّنف من *المولودين أعداء للعقل* ينشأ أحيانا هـذا الجنس النادر من الانسانيـة الذي يبجّله الناس تحت اسم القـديس، [تحت اسم] الحكيم : من هذا الصنف من النـاس ينشأ بشعـو الاخـلاق الـذين يثيرون الجلبـة، الـذين يصنعـون التاريخ، ـ سـانت أوغسطين واحد منهم. الخوف من العقل، الانتقـام من العقل ـ أوه! كم مـرة من قبل تحولت هـاته النقـائصُ الطـافحُة بـالقـوة البـاعثةِ إلى جـذور فضائل! بل إلى *الفضيلة نفسها* !ـ وحتى ادّعاء الفلاسفة *للحكمةَ*، لكي نتساءل عنه فيما بيننـا، الذي تـوضّح أحيـانا هنـا وهنـاك على الأرض كأشـد الادعاءات خبـلا وبذاءة، ـــ ألم يكن دائما حتى ذلك الحين، في الهنـد كما في اليونـان، *ملجأ قبل كل شيء*؟ ربما كان إدعاء الحكمـة هذا أحيانا، من وجهة النظـر التربوية التي تبرر كثيرا من الكذب، ربما كان مطلـوبا كشكل من العناية الرقيقـة بكائنات في صيرورة، في

نمو، بأتباع غالبا ما يتطلب الأمرُ حمايتَهم من أنفسهم بالاعتقاد في الشخص (بالخطأ). . . لكن، ألن يكون، في الحالات الكثيرة التكرر، الملجأ الذي يعتزل فيه الفيلسوف، مُتْعَباً، قد أبْرَدَتْه الشيخوخة، مُحَنَّكاً، بقدرما يكون ما يترجم ذلك الإحساس بالنهاية القريبة، يُترجِم فطنة هاته الغريزة أمام الموت لدى الحيوانات، إنها تتنحى جانبا، تلزم الصمت، تلبد في مغارات، تصبح *حكيمة*. . . ماعساي أقول؟ الحكمة ملجأ الفيلسوف كي يتملص من ـ العقل؟ـ

360 نوعان من الأسباب نخلط بينهما

هذا مايبدو لي أنه أحد خطواتي وتقدّمي الأساسيين : لقد تعلمت أن أميّز سبب الفعل من سبب هاته الطريقة أو تلك في الفعل، من سبب الفعل بالمعنى كذا، من سبب الفعل للغاية كذا. الصنف الأول من السبب هو كمٌّ من القوى المتراكمة ينتظر أن يُصرَف بأية طريقة كانت، لأية غاية كانت؛ الصنف الثاني، بالمقابل، مقارنا مع هاته القوة الجاهزة، شيء تافه تماما، صُدفة صغيرة «يندفع» بواسطتها هذا الكم، منذ ذلك الوقت، بطريقة محدَّدة : عود الثقاب بالنسبة لبرميل البارود. ضمن هاته الصّدف الصغيرة، أعواد الثقاب هاته، سأصنّف كل «الغايات» المزعومة، كذلك «المواهب» المزعومة أكثر؛ إنها عرضيةٌ نسبيا، كيفيةٌ، لامباليةٌ تقريبا بالنسبة للكم الهائل من القوة الذي يستعجل، كما أسلفت، أن يُصرَ ف بأية طريقة كانت. إننا نتأمله بشكل جماعي من زاوية أخرى : تعوّدنا أن لانرى *القوة الباعثة* إلا في الهدف ذاته (غايات، مهن، إلخ)، طِبقا لخطإ قديم جدا، ـ لكن الهدف ليس سوى القوة *الموجّهة*، ومن جراء هذا خلطنا بين الرُّبّان والبخار. بل ليس الهدف دائما هو الرّبّان، هو القوة الموجهة. . . أليس الـ «هدف» و الـ «الغاية» في الغالب سوى ذريعة زخرفية، سوى عمىً إضافيا من الغرور الذي لايريد أن يعرف أن السفينة فقط *تتبع* التيار الذي تورّطت فيه بالمصادفة؟ أنها لا «تريد» السير في الاتجاه كذا إلاّ *لكونها جرت إليه*؟ أن لها اتجاها دون شك ـ لكن لاربّان إطلاقا؟ ـ لازال ينقصنا نقد لمفهوم «غاية».

361 بصدد مسألة الممثل

لقد شغلتني مسألة الممثل لمدة طويلة : لم أكن على يقين (ولا حتى الآن أحيانا) فيما يتعلق بمعرفة إن كان القضاء على المفهوم الخطير للـ «فنان» سيتم فقط انطلاقا من ذلك ـ المفهوم الذي عاملناه حتى الآن بعطف لايُغتَفَر. الزيف في راحة الضمير؛

اللذة في التظاهر المتفجر كقوة، كابحا للـ «طبع» المزعوم، غامرا إياه أحيانا إلى حد خَنْقِهِ؛ الباطن يرغب في اتخاذ قناع والدخول في دورٍ، في *مظهر*؛ فائض من ملكات التكيف من كل الأصناف لم تعـد تعرف كيف تجد رضاهـا في خدمة المنفعـة المباشرة الضيقة : ربما لا يشكل كلَّ هذا الممثلَ في ذاته *فقط*؟ . . . مثل هاته الغريزة ستتكون بسهولـة بالغـة لدى عـائلات من الطبقات الـدنيا التـي كان عليهـا، تحت ضغوط وإكـراهات مختلفـة، أن تُؤمِّن عيشهـا في تبعية قـاسيـة، أن تديـر أفواههـا حسب أمـوالها، أن تتكيف بمـرونـة مـع ظـروف دائمـة التغير، أن تظهـر دائما في مـواقف جديدة، وهكذا صارت، شيئـا فشيئا، قادرة على «تعليق الرداء في مهب الريح» إلى أن تصبح «رداء» تقريبا حتى باعتبارها سيدةَ هذا الفن المستوعَب والمجسَّد، فن لعبة الغميضة الخالد الـذي نسميه *تقليدا إيمائيا* لـدى الحيوانـات : إلى أن تصبح هاتـه القدرة كلهـا، المتجمعة خـلال أجيال، مستبِدة في النهـاية، تصبح غير معقـولة، جموحة، وتُعَلِّم كغريزة، الغرائزَ الأخرى أن تصدر الأوامر، كما أنها توجد الممثل، الـ «فنان» (ابتداء من البهلول فالمحتال فالمهـرج فالبهلوان، وكذلك الوجه الكلاسيكي للخادم جيـل بْلا (Gil Blas)؛ لأنـه في مثل هاتـه الأصنـاف نجد مـا قبل تـاريخ الفنان، وفي غـالب الأحيان، مـاقبل تاريخ «العبقـري»). في شروط إجتماعية أرقى ينمو كـذلك، تحت ضغوط مماثلة، نـوع مماثل من الأفراد : فيما عدا هـذا الاستثناء الـذي هو كـون غـريزة أخـرى، هنـاك، هي التي تتمكن بشكل متكـرر، من كبح الغريزة التمثيلية تماما، لدى الـ «دبلوماسي» مثـلا، ـ سأكون إضافة إلى هذا، قريبا من الاعتقاد أنـه سيكون سائغـا لدبلوماسيّ جيـد أن يكون ممثلا جيـدا في كل لحظة شريطة أن يكـون هذا بـالضبط «مباحـا» له. لكن فيما يتعلق *باليهود*، شعبُ فنِّ التكيف *بامتياز*، فقد نكون مستعدين، على أساس هاته الأفكار، أن نرى فيهم لأول وهلة مشروعا ذا قيمة تاريخية كونية تقـريبا لتكوين الكومدين، مُسْتَنْبَتاً للكوميديين بحصر المعنى؛ وهذا السؤال حديث جدا : هل هناك اليوم ممثل جيد *ليس*ـ يهوديا؟ اليهودي كذلك، باعتباره وُلِدَ مُعْنيَ بالأدب، باعتباره المهيمن الفعلي على الصحافة الأوربية، يمارس هـاته القـوة التي يمتلكها بفضـل ملكات الكـوميدي لـديه : لأن المعنى بالأدب هو أساسا ممثل ـ يلعب في الحقيقة دور الـ «متمكن»، الـ «مختص».

ـ أخيرا، *النساء* : لنفكر في تـاريخ النساء كله ـــ ألا ينبغي لهنّ أن يكنّ كوميـديات بالخصـوص وقبل كل شيء؟ لنُصْغِ إلى الأطبّاء الذين نـوّموا فتيات مـا : في الختام،

لِنُحْبِبْهُنّ ـ لندعهنّ «ينوِّمْنَنَا»! ما الذي ينتج عن ذلك دائما؟ أنهن «يعتبِرْنَ أنفسهن» حتى حين ـ يعطين أنفسهن . . . المرأة فنانة إلى حد بعيد . . .

362 اعتقادنا في ترجّل أوربا

إننا نـدين لنابليون (وليس إطلاقـا للثورة الفرنسية التي كـانت تسعى إلى «إخاء» الشعوب و إلى تعبيرات عن العاطفـة ، شاملة ومزخرفة) بإمكان انتظـار تعاقب قرون مِحْرَبَةٍ لاسابق لها في التاريخ ابتداء من الآن ، باختصـار ، ندين له بدخولنا في *العصر الكلاسيكي للحرب* ، الحرب العلمية والشعبية في نفس الوقت [و] على نطاق واسع (فيما يتعلق بـالوسـائل و المواهب والنظـام) ، مـرحلة ستتأملهـا الألفيـات القابلـة استعاديا بغيرةٍ واحترام كقطعة من الكمال : ـ فالحركـة الوطنية التي سينشأ عنها هذا المجدُ المِحْرَبي ليست فيِّ الـواقع سوى ردة فعل تجاه عملية نابليـون نفسها ، و لم تكن لتظهر لولاه . إذن له سنعترف يومـا بفضل إرجاع التفوق في أوربا *للإنسان* على رجل الأعمال وعلى غير المثقف ؛ بل ربما على «المرأة» التي مافتئت تتملقهـا المسيحية وروح القرن الثامن عشر المتحمّسة ، و «الأفكار الحديثة» بشكل أكثر. لقد اثبت نابليون ، الذي كـان يعتبر الحضارة بأفكارهـا الحديثة كعـدوة شخصية ، نفسه بهاتـه العداوة كواحـدٍ من أكبر متمِّمي النهضة ؛ هو الذي أعـاد إلى الحياة جزءً كامـلا من الطبيعة القديمـة ، الجزء الحاسم ربما ، جزء الصّـوان . ومايُدريـكَ إن لم يكن هذا الجزء من الطبيعة القديمـة سيستعيد التفوق على الحركة الـوطنية كذلك ، ليرث مجهـود نابليون ويتابعه *بالمعنى الإيجابي* : ـ هـو الذي كـان يريـد أوربا واحـدة ، كما نعلم ، وذلك باعتبارها *سيدة الأرض* . ـ

363 كيف أن للجنسين حكمهما المسبق بخصوص الحب

رغم كل التنـازلات التي قـد أكون مستعـدا لتقـديمها لكل حكـم مسبق مؤيـد للزواج الأحادي فإنني لن أقبل أبدا أن يتكلم الناس عن *مساواة حقوق* الرجل والمرأة في الحب ، فهـذا شيء غير موجـود . معنى هـذا القول أن الـرجل والمرأة يقصـد كل واحد منهما شيئا مختلفا بكلمة حب ـــ ومن شروط الحب لدى الجنسين أن الواحد **لا** يفترض في الآخـر نفس عطاء الإحسـاس ، نفس مفهوم الـ «حب» . ما تعنيـه المرأة بالحب واضح جـدا : عطاء الجسـد والروح الكامـل (ليس التخلي فقط) دون تقييد ولاتحفّظ ، يرافقه بالأحـرى خجل ورعب عند التفكير في عطاء مشروط وعرضي . إن حبها ، في هـذا الغياب للشروط ، *إيمان* : ما للمـرأة إيمان غيره . ـ إن الـرجل ، حين

يحب امرأة، *يتطلب* منها هذا الحب بالضبط، فهو نفسه أبعد واحد عن هذا المبدإ القبلي للحب النسائي؛ لكن إذا افترضنا أنه قد وُجِد كذلك رجال لم تكن هاته الرغبة في التخلي الكامل غريبة عنهم فإنهم لن يكونوا إذن ـ رجالا. الرجل الذي يحب مثل المرأة يصير بذلك عبدا؛ لكن المرأة التي تحب كامرأة تصير بذلك إمرأة *أكثر كمالا* . . . شغف المرأة بتخليها التام عن حقوق خاصة يفترض بالضبط أنه لا يوجد لدى العاشق لاشفقة ولاإرادة تخلٍ مشابهيْن : لأنه لوتخليا عن نفسيهما، بالحب، فقد ينتج عن ذلك، لست أدري، ربما فضاء فارغ؟ ـــ المرأة تريد أن تؤخذ، أن تُقبَل كملكية، تريد أن تزدهر في مفهوم «الملكية»، «أن تكون مملوكة»؛ وبالتالي فهي ترغب في رجل *يأخذ*، لايعطي نفسه ولايتخلى عن نفسه، بالمقابل، عليه أن يصير أكثر غنى في «نفسه» ـ بفائض قوة، بفائض سعادة، بفائض إيمان، وذلك يشكل ما تعطيه إياه المرأة حين تعطي نفسها. المرأة تتخلى عن نفسها، الرجل ينمو أكثر ـــ لاأعتقد أن أي عقد اجتماعي ولاأفضل إرادة إنصاف سيمكّنان من التغلب على هاته الثنائية الطبيعيّة : يُستحسب إلى حد بعيد ألا نصطدم باستمرار بما هو صلب ومرعب وملغز ولا أخلاقي في هاته الثنائية. لأن الحب، مُتصوَّرا في كليته، في رفعته، في كماله، هو طبيعي، وبما أنه كذلك فهو شيء «لاأخلاقي» إلى الأبد. ـ بهذا فإن *الوفاء* متضمّن في حب المرأة، يتفرع عن تعريف هذا الحب نفسه : لدى الرجل يمكن أن يتولد بسهولة من بعد حبه، عرفانا بالجميل، أو بطبع ذوقه، وبالقرابة الانتخابية، لكنه لاينتمي *لجوهر* حبه، ـ وهذا أقل ما يمنحنا بعض الحق في التحدث عن تناقض طبيعي بين الحب والوفاء لدى الرجل : هذا الحب ليس سوى إرادة امتلاك *وليس* تخليا ولاتركا *قطّ* : والحالة أن إرادة الامتلاك تتوقف بانتظام بمجرد ما يكون هناك امتلاك . . . في الواقع، إن ظمأ الإمتلاك الدقيق والحذر لدى الرجل، هذا «الامتلاك» الذي لايعترف به إلا نادرا، وبشكل متأخر، هو الذي يُوجِد الحب لديه، وبهذا يُحْتمل أن يزداد أكثر بعد تخلي المرأة ـــ فالرجل لايقبل بسهولة أن يتبقى للمرأة شيء «تتخلى» له عنه. ـ

364 المتوحد يتكلم

يرتكز فن معاشرة الناس أساسا على القبول (المهارة التي تشترط ممارسة طويلة)، مهارة تُناول وجبة لايوحي إعدادُها المطبخي بالثقة. إذا افترضنا أنّا نأتي إلى الطاولة بشهية قوية فإن كل شيء سيمرُّ دون تنافر («رفقة السوء تمكنك من التذوق»ـ كما يقول ميفستوفليس) : لكننا لانجد هاته الشهية القوية في اللحظة المرغوبة! واها،

كم يعسر أشباهنا على الهضم! المبدأ الأول : أن تذهب إليها، كما بعدَ مصيبةٍ، بكل جرأتك، أن تخدم نفسك بعزم، أن تُعْجَب بذاتك، أن تمضع كراهيتك، أن تبلع اشمئزازك. المبدأ الثاني : «أن تحسِّن» شبيهك، عند الحاجة، ببعض المديح الجدير بجعله يفيض فرحا بخصوصه هو : أو تجرّ طرف واحدة من ميزاتك الحسنة أو «المهمة» إلى أن تظهر فضيلتك كاملة لتَلُفَّ شبيهَك في ثناياها. المبدأ الثالث : التنويم المغناطيسي الذاتي. أن تُثَبِّت موضوعَ معاشرتك مثل زر زجاج إلى أن تقطع كل إحساس باللذة أو بالنفور؛ ينام الناس خفية، يتصلبون، يكتسبون وقارا : الوسيلة المألوفة الممارسة في الحياة الزوجية وفي الصداقة، وهي متسحسنة كما ينبغي، مقدَّرة كشيء لاغنى عنه، لكنها لم تجد تعريفها العلمي. اسمها المألوف هو ـ الصبر.

365 المتوحد يتكلم مرة أخرى

نحن أيضا نعاشر «أشخاصاً»، نحن أيضا، بتواضع، نرتدي اللباس الذي به يعرفنا الناس، يقدِّروننا، يبحثون عنا، ونذهب إلى المجتمع ونحن مرتدين ذلك، أي إلى وسط مُقنّعين لايريدون أن ننعتهم بذلك : « نحن أيضا نتصرف كأقنعة حذرة، وبظرافة نضع حدا لكل فضول لايقتصر على تقنّعنا». غير أن هناك وسائل أخرى لمعاشرة الناس وسط الناس : [أن نكون] كشَبح مثلا ـ وهو شيء منصوح به كثيرا إذا أردنا أن نتخلص منهم ونجعلهم يخشَوننا. الدليل : أنهم يضعون اليد علينا ونبقى متعذّري الإمساك. هذا شيء يُرعب. أو : ندخل من أبواب موصدة. أو حين تكون كل الأنوار مطفأة. أو أيضا : عندما نكون قد مُتْنا. هاته الوسيلة الأخيرة هي وسيلة إنسان مابعد الوفاة (*)بامتياز. («فيم تفكر؟ـــ أنت؟» قال واحد من هؤلاء [ناس مابعد الوفاة] بجزع ذات يوم، «هل كنا سنكون مستعدين لنتحمل مثل هاته الغرابة وهاته البرودة وهذا الصمت الرسمي، لنتحمل كل هاته الوحدة الديپاسية، المختبئة، الخرساء، الغامضة، التي تُسمّىٰ عندنا حياة، وقد تسمى كذلك موتا، لو لم نعرف ما **سيقع** لنا ـ لو لم نعرف أننا لانصل إلى ***حياتنا*** ونصير أحياء إلاّ بعد الموت، أوه! كم نحن أحياء! نحن رجال ما بعد الوفاة!»ـ).

(*) L'homme posthume

366 إزاء كتاب علمي

لسنا من أولئك الـذين لا يتوصلون إلى تكوين أفكـار إلا وسط الكتب، إلا عند إطّلاعهم على الكتب ــ عادتنا نحن هي أن نفكر في الهواء الطلق، ونحن مـاشون، ونحن نقفـز، نتسلق، نرقص، بـالأحـرى بين الجبال المنفـردة أو القـريبة جـدا من البحر، هناك حيث الطّرقُ ذاتها مفكِّرة. أسئلتنـا الأولى المتعلقة بقيمة كتاب، بقيمة إنسـان، بقيمـة مـوسيقى، هي : «هل يستطيع أن يمشي؟ فضـلا عن ذلك، هل يستطيع أن يرقص؟». . . إننا نادرا ما نقرأ، دون أن تكون قراءتنا رديئة بسبب هذا ـ واها! كم نحن سريعون في حزر الطريقة التي انتهى بها أحد ما إلى أفكاره، جالسا، أمـام الدواة، البطن معصـور، الرأس مكبـة على الورق : لكن لكم نحن سريعـون كذلك لأن ننتهي من كتابه! يشعُر المؤلِّف ببقية ألم من أمعاء الكاتب المنضغطة، من الهواء المنغلق، من سقف الغرفة ومن ضيقها، لامجال للشك في ذلك. ـ تلك كانت أحاسيسي عندمـا أطبقتُ دفتيْ كتاب علمِي وصادقٍ ممتناً، مفعما بـالامتنان، لكن ببعض الارتياح كذلك. . . فمن كتاب العـالم يفوح تقريبا دائما شيء مضايق، شيء متضايق : في مكان ما منه يرشح «المتخصصُ»، [يرشح] حماسه، جديته، غضبه، تقديـره الفائق للـزاوية التي يجلس فيهـا وهو يخترع، وأخيرا موهبتـه، فلكل مختص موهبتُـه. كتابُ العـالم يعكس كذلك روحـا ملويـة : فكل مهنة تجعل [صـاحبها] أعـوج. يكفي أن نرى أصـدقاء شبـابنـا بعد أن امتلكـوا علمَهم : آه، كم العكس صحيح دائما، هو الآخـر! كم هم منذ الآن مغمورون بـالعلم ومملوكون لـه إلى الأبد! منغـرزون في رُكْنهم، مُغَضَّنـون حتى أنهم لايعرَفـون من جـراء ذلك، مستعبَـدون، محرومون من توازنهم، مهزولون، مزوّون إلا في مكان حيث هم مُدوَّرون بشكل رائع، ـ نتأثر عندما نلقاهم كذلك لكننا نصمت. كل مهنة، ولو افترضنا أن لها أساسا من ذهب، تـوجـد تحت سقفٍ من الرّصـاص لايفتأ يضغط على الـروح حتى يصيّرهـا ملْويّة، وغريبة الأطوار. لانملك أن نغير مـن ذلك شيئا. لاتعقدنّ بالخصوص أننا نستطيع أن نتغلب على مثل هـذا التشوه ببعض الأسـاليب التربوية. فكـل نوع من ***الاستاذية*** يؤدّىٰ عنـه غالياهنـا على الأرض حيث قد يؤدّىٰ غـاليا عن كل شيء : لن تكـون رجل مهنتك إلا بأن تكـون ضحيتها، ذاك هـو الثمن. غير أنكم تـودون أن تحصلوا عليها بطريقة أخرى ـ بـ «تكلفة أقل»، بسهولة كبيرة قبل كل شيء، ـ أليس كـذلك، السادة معـاصري؟ جـزاكم الله خيرا! لكن مـا ستحصلـون عليه مبـاشرة إذّاك، بـدل الصانع والأستـاذ، هو المعنىٰ بـالأدب، المعنى المرنُ بالأدب، «المتنـوع

التوجه» الذي تنقصه الموهبة بالطبع ـ غير موهبة إيلائكم الظهر باعتباره قائد شعاع الفكر و «حامل» الثقافة ـ المُعني بـالأدب الذي هو إجمالا لاشيء، لكنه «يمثل» تقريبا كل شيء، يلعب دور المتمكّن، «يحل محله» ويتكلف بكل تواضع بأن *يجعل* الناس يؤدون له ويشرفونه ويحتفلون بـه عِوضا عن المتمكن. ـ لاياأصدقائي العلماء! أباركم حتى على موهبتكم! وأيضا على ازدرائكم للمُعنىٰ بالأدب، للمتطفل على الثقافة، على عجزكم عن التكسب بـالعقل، على كل أصناف الرأي التي لن يمكن التعبير عنها بالمال! على عدم تمثيلكم لأي شيء *لستموه أنتم*! أباركم على إرادتكم الفريدة لأن تصبحوا أساتذة في مهنتكم باحترام كل أستاذية، بكل قدرة، وبالرفض القطعي لكل ما ليس إلا مظهراً، لاشرعيةً، بـريقاً خدّاعـا، مهارةً لاطـائل تحتها، دهماويةً، تصنّعا in litteris et artibus (*) ـ لكل ما لن يدل على *نزاهة* تامة في العلم والتعلم! (حتى العبقـري لايعوِّض مثل هذا النقـص، مهما عرف كيف يخدع بهذا الخصـوص : ذاك مـانفهمه على التّـو بمجـرد أن نتمكن من مـلاحظـة عمل رسامينـا وموسقيينا الموهوبين جـدا عن قرب، ـ الـذين يعرفون، وهم كلهم تقـريبا يفيضون بالحيلة في الابتكار، بالأساليب، بالذرائع، وحتى بالمبادىء، يعرفون كيف يكتسبون *مظهرَ* هـاته النـزاهة بتصنّع وبعـد فوات الأوان، مظهـرَ هاتـه المتانـة، في التكـوين وفي الثقافـة، دون أن ينخدعـوا هم أنفسهـم، دون أن يُسكتوا إحسـاسَهـم الخاص بالخطإ. لأن كل الفنانين العصريين الكبار يُعـانون، كما تعلمون جيدا، من الإحساس بالخطإ. . .)

367 أول تمييزٍ واجب في العمل الفني

كل ما هـو متصوَّر، متخيَّل شعريا، مَـرسوم أو مؤلَّف مـوسيقيا، أو حتى مبني ومشكّل، ينتمي إمـا إلى الفن المناجـاتي وإما إلى الفن أمام شهـود. يجب أن نصنف ضمن هذا النوع الأخير كذلك غنائية الصلاة كلهـا، هذا الفن الذي يبدومناجاتيا، الذي يتضمن الإيمان بـالإله : لأنه ليست هناك وحـدة بالنسبة لروح ورِعـة ـ هذا الابتكار يرقى [زمنيـا] إلينا نحن الذين هم دون إله. لاأعلـم تميزاً أعمَق [مما يلي] في وجهـة نظر الفنـان الكاملـة : معرفـة إن كـان يعتَبِر عمله في تقـدم من وجهة نظـر الشاهد (ومنها [كذلك] يتأمل «نفسه») أو إن كان على العكس قد «نسي الناس» :

(*) في الآداب والعلوم.

وهو شيء أساسي لكل فن مناجـاتي ـ الفن الذي يكمن في *النسيان*. الفن الذي هو موسيقى النسيان.

368 الكلبي يتكلم

اعتراضـاتي على موسيقى فـاغنر اعتراضـات فسلجية : فما الجدوى من تقنيعهـا بصيغ جمالية؟ «الحقيقـة» هي أن هاته الموسيقى تجعل تنفّسي يضيق بمجرد أن تـؤثر علي : في الحين تغضـب *رجلي* وتثور عليهـا ـ تريد إيقـاعا، رقصا، مشيا مـوزونا، تنتظـر مـن الموسيقى، قبل كل شيء، نشـوةً في سرعـة المشي *اللطيفة*، تنتظر قفـزا ورقصا. لكن، ألا تحتج معدتي بدورهـا؟ وقلبي؟ ودورتي الدموية؟ وأحشائي؟ ألا أصاب ببُحة خفية عند سماعها؟ـ وهكذا أتساءل : ما الذي *ينتظره* جسدي كله من الموسيقى إذن؟ *ارتياحا*، أظن : كما لـو أن سرعـة كل العمليات الحيـوانيـة يجب أن تزيد بإيقاعات خفيفة، جريئة، مفرطـة الحيوية، واثقة من نفسها، وأن هاته الحياة البُرُنْزية والرصاصية قد طُلِيَتْ بذهب تناغم لطيفٍ وحنون. كآبتي تريد أن تستريح في خبايا وثنايا *الكمال*. لهذا أنا في حـاجة إلى الموسيقى. لاتهمني المأسـاة! لاتهمني تشنّجات هذه الانخطافات المهذّبة التي يجد فيهـا «الناس» رضاهم! لاتفيدني تومئة الممثل الدجليـة كلها! . . . حزرتم ذلك، أنـا ذو طبيعة ضد مسرحية بـالأساس، ـ لكن فـاغنر، بالمقـابل، كان رجـل مسرح وممثلا بالأسـاس، كان رجل الميـم الأكثر حماسا على الإطـلاق، حتى باعتبـاره موسيقيـا! . . . ولنقل دون إلحاح : إن كانت نظرية فاغنر : «المأسـاة هي الهدف، ما الموسيقى إلا وسيلة إليها» ـ فإن *ممارسته* منذ البداية حتى النهاية كانت تُظهـر على العكس أن «الموقف هو الغاية، والمأساة، مثل الموسيقى، ليستا إلا وسيلة لـذلك». الموسيقى باعتبارها وسيلة لتحديـد، لتقوية، لاستبطان إشارة الممثل الـدرامية وسحنته الخارجية : مأساة فاغنـر ذريعة فقط لعدد من المواقف الدرامية! لقـد كانت له، إلى جانب كل الغرائز الأخـرى، غريزة الممثل الكبير المِلحَّـة، وذلك في كل شيء : و كـذلـك كموسيقي، كما أسلفتُ. ـــ هـذا ماكنت أحاول إفهامه ذات يوم لأحد الفاغنزيين الأوفياء، ولم يكن ذلك دون عناء : وكانت لي أسباب معقـولة لأضيف : «كن صريحا مع نفسك شيئا مـا : لسنا هنا في مسرح! في المسرح لايكون لنـا صِدق غير صدق الجماعـة؛ نكذب كأفـراد، نكذب على أنفسنـا. نترك ذاتنـا في الـدار حين نـذهب إلى المسرح، نتخلى عن حقنـا في أن تكون لنا الشجاعـة مثلما نمارسها بين جدران أربعة ضد الإله وضـد الناس. لاأحد يأتي معـه إلى المسرح بحواسِ فنِّـه الدقيقـة، ولاحتى الفنان الـذي يعمل للمسرح :

هناك لانكون إلا ناسا، جمهورا، قطيعا، امرأة، فريسيا، دابةً انتخابية، ديمقراطيا، مـواطنـا، قـريبـاً، حتى الشعـور الشخصي جـدا يستسلم لِسِحْـر «العـدد الأكبر» المسوّي، تتصرف فيه البلادة باعتبارها اشتهاء وعدْوىٰ، وحده الـ «جارٌ» يسود فيه، **ونصير** فيـه نحن أنفسنا جـاراً. . . » (نسيت أن أورد مـاقابَل بـه الفاغنيريّ المتنـور اعتراضاتي الفسلجية: «إجمالا، صحتك ليست على ما يرام لتلائم موسيقانا؟» ـ).

369 التعايـش فينـــا

ألايجب علينا، نحن الفنانين، أن نعترف لأنفسنا بأن هناك تنافرا مقلقافينا، بأن لكلٍّ من ذوقنا وقـوتنا المبـدِعة طريقـة غريبـة في أن يكون ويبقى لـذاته، وبأن لكل واحـد منهما نموه الخاص، ـــ أعني أن لهما درجـات، أوقاتـا مختلفة تمامـا فيما يخص العمر والشبـاب والنضج والتفتُّتِية والتدعص؟ بحيث أن موسيقيـا مثلا يستطيع أن يبدع أعمالا قد ***تناقض*** كل ما تتذوقه وتستلذه أذنُه كمستمع مدلَّلٍ وقلبُه كمستمِع: ولن يكون بحـاجة لأن يعي هذا التناقـض! كما تدل على ذلك تجربة شبه شـاقة من فرط تكرُّرها فإنه من السهل علينا أن نذهب في ذوقنا أبعد من ذوق قوتنا المبدعة دون أن نجمِّـد ها مع ذلك أو نمنعهـا من الإنتـاج؛ غير أنّه قـد يحدث العكس ـ وهـذا بالضبط مـا أريد أن أثير انتبـاه الفنانين إليه: إن مبـدعا مثابـرا، نوعـا من الإنسان «الأمومـي» بكل ما في الكلمة مـن معنىٰ، الذي لن يكـون له همٌّ سـوى حَمْلُ عقله ووضعُه، الذي لن يكون لديه حتى الوقت للتفكير لافي نفسه ولافي عمله ولا ليوازن بينه وبين عمله، الذي لن تعود له حتى الـرغبة في ممارسة ذوقه، والذي سينسى هذا الـذوق ببسـاطة، مع احتمال أن يتخلى عنـه أو يكف عن الاهتمام بـه، إن مثل هـذا المؤلِّف قـد يتوصل إلى إنتـاج أعمال ***لم يعد قـادرا منذ مدة طويلـة أن يحدد قيمتها***: بحيث أنـه لن يقول ولن يظنّ بشأنها إلا حماقـات. يبدو لي أن العـلاقة العـادية بين الفنانين الخَصبينَ وأعمالهم هي هذه ـ لاأحد يجهل طفـلا أكثر من والديه ـ بل إنها، (لكي نأخذ مثلا كبيرا، تكشفُ مجموع العالم الشعري والفني في اليونان: هذا العالم ما «عرف» يوما ماكان يفعله. . .

370 ماهي الرومانسية؟

سيذكر الناس، أو على الأقل بعض الأصدقاء، أني كنت قد انقضضت على هذا العـالم بأخطاء فـادحة وتقـديرات مُبـالَغ فيها، على أيـة حال، على طـريقة امـرىء يتمنى. كنت أتصور التشاؤم الفلسفي في القرن التاسع عشر ـ لكن من يعلم إثر أية

تجارب شخصية؟ ـ علامةَ قوةِ فكرٍ متفوقة، علامةَ شجاعةٍ جريئة، علامةَ *فيض* حياة أكثر من تلك التي ميزت القرن الثامن عشر، قرن هيوم وكانط وكوندياك والحسّويين: مازلت أتصوره كذلك حتى بدت لي المعرفة المأساوية *كترف* ثقافتنا بحصر المعنى، كنوع التّبذير الثمين، السامي، الخطير في هاته الثقافة، لكن كَتَرفِها *المشروع* كذلك بفضل وفْرته. كذلك كنت أفسر الموسيقى الألمانية بحيث أرى فيها تعبيرا عن القوة الديونزوسية للروح الألمانية: كنت أعتقد أني أُبصِر فيها الزلزال الذي انصرفت به قوة أصلية كانت مركّزة منذ قرون، غير مُبالية بكون كل ما يسمى ثقافة عادة قد أخذ يترنح بنفس الهزة. كما ترون، كنتُ منذ عهد قريب أنكر ذلك الذي يشكل الميزة الخاصة بالتشاؤم الفلسفي وبالموسيقى الألمانية ـ *روما نسيتهما*. ماهي الرومانسية؟ كل فن، كل فلسفة يمكن أن يُعتبرا كوسائل ملائمة ومساعدة في خدمة الحياة النامية، المصارِعة: إنهما دائما يفترضان وجود معاناة، وجود كائنات تعاني. لكن هناك صنفين من الكائنات المعانِيّة، أولئك الذين يعانون من *فيض الحياة*، الذين يرغبون في فن ديونيزوسي والذين لهم كذلك رؤية وفهما مأساويين للحياة ـ وأولئك الذين يعانون من *عوز الحياة*، الذين يبحثون في الفن وفي المعرفة عن الراحة، عن الصمت، عن البحر الهادىء، عن خلاص الذات، أو على العكس، عن النشوة، عن الانقباض، عن الدهشة، عن الجنون. للحاجة المزدوجة *لهذا الصنف الأخير* تستجيب رومانسية كل فن، رومانسية كل المعارف، لهاته الكائنات استجاب (ويستجيب) شوبنهاور وفاغنر، لأسمّيَ هذين الرومانسيين المشهورين والمعبّرين اللذين كانا فيما مضى موضوع *سوء فهم* من طرفي ـ سوء فهم لم يكن ضارّا بهما *إطلاقا*، كما يمكن أن يُغْفَرَ لي [ذلك] بعدل. إن الكائن الغني بالوفرة الحيوية، إن الإله والإنسان الديونيزوسيّين يمكنهما أن يتيحا لنفسيهما ليس فقط رؤية ما هو مريع وإشكالي لكن كذلك أن يقوما بعمل مريع وأن يكبّا على ترف الهدم والتفكيك والنفي: فالشرّ والعبث والقبح تبدو كلها مباحة لديهما بفضل وفرة في القوى المنتجة والمخصبة القادرة على تحويل كل صحراء، كيفما كانت، إلى بلد خصب. بالمقابل، سيكون الكائن المعاني والفقير من حيث هو من يحتاج الحياة أكثر إلى الوداعة، إلى الصلاح في الفكر وفي العمل، لابل إلى إله، إلى إله للمرضى بصفةٍ خاصةٍ، إلى «مخلّص»؛ وهو من سيكون بحاجة كذلك إلى المنطق، إلى الوضوح المفهومي للوجود ـ لأن المنطق يهدّئُ، يعطي الثقة ـ باختصار، سيكون بحاجة إلى نوع من الضيق والتضمين في آفاق متفائلة، جديرة بأن توفر له الدّفء وتطرد الخوف. هكذا تعلمت

شيئا فشيئا أن أفهمَ أبيقور، [الذي هـو] نقيضُ متشائم ديونيزوسي، وكذلك أن أفهم المسيحي الذي ما هـو في الواقع سوى أبيقوري، وهو مثله، رومـانسي بالأساس، ـ وقـد تمرن نظري على التّمييـز أحسن فأحسن لكي أعرف استعمال صيغـة ***الاستقراء*** الصعبة والخدّاعة التي هي أصل الكثير من الأخطاء ـ تلك التي ترقى من العمل إلى المبدع، من الفعل إلى الفـاعل، من المثل الأعلى إلى من هو في ***حاجة*** إليه، ومن كل أسلوبِ فكرٍ واستحسانٍ إلى ***الحاجة*** التي تحدده بإلحاح . ـ إنني أستعمل هذا التمييز الأساسي منذ الآن أمام كل قيمة جمالية : عند كل حالة خاصة أسأل «إن كان الجوع أم التّخمة هو الذي صار مبدِعا هنا؟» . لأول وهلة يبدو نوع آخر من التمييز مرغوبا فيه أكثـر ـ الأكثـر بداهـة من ضمن كثير من التمييزات ـــ وهو أن نبرهن إن كـانت الرغبة في الثبـات، في التخليد، في ***الكينونة***، هي أصل الفِعل المبـدِع، أو إن كـان أصله، على العكس، هي الـرغبة في الهدم، في التغيير، في الجديد، في المستقبل، في ***الصيرورة***. لكن إذا تأملنا نـوعي الرغبة هذين، بعمق أكثـر، فإنهما سيبدوان قابلين لتفسير مزدوج، وهذا بالضبط حسب طريقة التمييز التي أشرت إليها والتي تبدو لي أنها تستحق التفضيل بحق. فالـرغبة في ***الهدم***، في التغيير، في الصيرورة، قد تكـون تعبيرا عن قوة المستقبل الضخمة الوافرة (مصطلحي للدلالة عليها، كما هو معلوم، هو كلمة «ديـونيزوسية») . غير أن هاته الـرغبة يمكن أن تكون حقدَ هـذا الذي هو ناقص، محروم، سيء الحظ، الذي يهدم، الذي ***عليه***أن يهدم لأن الوضع الموجود، بل كل وجود، كل أشكال الكينـونه تصدمه وتُسخِطه ـ فما علينـا، لكي نفهم هاته الشهوة، إلاّ أن نتأمّل فوضويّينا . إرادة ***التخليد*** كذلك تتطلب تفسيرا مزدوجا . فهي من جهة، قـد تأتي من إحساس بالامتنـان والحب : ـ وفن من هـذا الأصل سيكون دائما فنا تمجيديا، ربما تقريظيا لدى روبنز (Rubens)، ساخرا بهدوء لدى (Hafiz)، جليا وخفيا لـدى غوته ، مغلّفا كل شيء بضياءِ مجدٍ هـوميروسيّ . لكنها، من جهة أخرى، قد تكون الإرادة الاستبـدادية لكائن مصاب بمعاناة بليغـة، كائن مصارع، معذّب، يطمح لأن يفضي الطابع الإكراهي لقانون كوني على طبع معاناته ذاته، على ماهو فيها شخصي وخاص وضيق، كائن ينتقم بشكل من الأشكال من كل الأشياء بكونه ينحت صورتـه، فيها، يَسِمُهَا بحديد صورتـه الأحمر، حديد نكالـه. هذا ما يشكل ***التشاؤم الرومانسي*** في أبلغ أشكالـه، سواء كفلسفة الإرادة الشوبنهـاورية أو كموسيقى فاغنـرية : ـ التشاؤم الـرومانسي آخرُ **أكبر** حدثٍ في قَـدَر ثقافتنـا . (أن **يوجد** تشـاؤم مخالف تماما، تشـاؤم كلاسيكي ـــ هـذا تصوّر سـاذج ورؤيا أملكهـا

باعتبارهما لاينفصمان عني، باعتبارهما (*) mon proprium et ipsissimum : إلا أن تعريف «الكلاسيكي» يصدم أذني، إنه مصطلح صارَ، من فرط استعماله، مدوَّرا ولايمكن التعرف عليه. تشاؤم المستقبل هذا ـ لأنه آت! لأني أراه آتيا! أسميه التشاؤم *الديونيزوسي*).

371 نحن المبهمون

هل حدث أن اشتكينا من كوننا أُسيءَ فهمنا، أو لم يتعرّف علينا أو، لم نُميّز (من آخَرين)، أو افتُري َعلينا، أو أسيء سماعنا أو لم نسمع قط؟ هنا بالضبط يكمن نصيبنا ــ أوه! لمدة لاتزال طويلة! بكل تواضع، حتى 1901 ـ وهنا كذلك يكمن سموّنا، لن يكون لنا تقدير كبير لأنفسنا لو أردناه [نصيبنا] أن يكون بخلاف ذلك. إننا نقر بالغموض ـ الحقيقة هي أننا نحن أنفسنا في نمو، نخلع عنا قشورا بالية، في تغّيرٍ دائم، نكتسب جلدا جديدا كل ربيع، لانفتأ نصير شبابا أكثر فأكثر، نصير مُستقبليّين، شامخين، أقوياء، نغرس جذورنا دائما بقوة أكبر في الأعماق ـ في الشر ـ بينما في الوقت نفسه نعانق السماء دائما بحب وسعة أكثر، وبكل أغصاننا، بكل أوراقنا نمتصّ ضوءها بتعطش. إننا ننمو مثل الأشجار، مثل كل ماهو حي، هذا ما يستعصي على الفهم، ـ ولسنا ننمو في مكان واحد فقط، بل في كل مكان، لافي اتجاه واحد فقط، بل بقدر ماننمو إلى الأعلى، إلى الخارج، ننمو إلى الداخل وإلى الأسفل، ـ قوّتنا تعمل في نفس الوقت في الجذع، في الأغصان، في الجذور، لم نعد نملك أن نفعل شيئا بشكل أفضل أو أن **نكون** شيئا منفصلا... هنا إذن نصيبنا، كما أسلفت؛ ننمو إلى *الأعلى* حتى وإن كان ذلك مُميتا لنا ــ لأنّنا نسكن قريبا من الصاعقة أكثر فأكثر! ـ نِعِمّا هو، فنحن لانحطّ من شرفها بهذا، ويبقى هذا الشيء هو ما لانريد أن نقتسمه ولا أن نكشفه، إنه لعنة العلو، لعنتُـ*نا*...

372 لماذا لسنا مثاليين

فيما مضى كان الفلاسفة يخشون الحواس: ترى هل ــ نكون قد نسينا هاته الخشية؟ كلنا اليوم حسّـوِيُون، نحن الفلاسفة الحاليون والآتون، *ليس فقط* فيما يخص النظرية، لكن فيما يخص التطبيق العلمي (Praxis) والتطبيق (Pratique) أيضا. بالمقابل، كان أولئك الفلاسفة يعتبرون أن الحواس تكاد تجرهم خارج

(*) باعتبارهما ملكيتي ومثلي.

عالمهم، خارج مملكة «الأفكار» الباردة، إلى جزيرة خطرة وأكثر جنونية. كانوا يخشون أن تذوب فينا قواهم كفلاسفة كما يذوب الثلج في الشمس. «الشمع في الآذان» ذلك كان، فيما مضى، الشرط القبلي للتفلسف تقريبا: لم يكن لفيلسوف أصيل أذان صاغية للحياة، وبقدرما هي الحياةُ موسيقى كان هو ينكر موسيقى الحياة، ـ وإنها لخرافةُ فيلسوفٍ قديمة أن تُعتبر كلّ موسيقى صوت صفاراتِ إنذارٍ.
ـ والحال أننا اليوم قد نكون مدعوين لاعتقاد العكس (الشيء الذي قد يكون خاطئا كذلك)، يعني أن *الأفكار*، بكل مظهرها البارد والأنيمي، ورغم أنَّ هذا المظهر أسوأ من الحواس في الإغواء، ـ فقد عاشت دائما بـ «دم» الفيلسوف، لقد أفرغت حواسّه دائما، بل حتى «قلبه» إن شئتم أن تُصدقونا. لقد كان هؤلاء الفلاسفة القدماء دون قلب: كان التفلسف دائما يقتضي نوعا من الهاموية. ألاتشعرون لدى مثل هاته السيماء، كسيما سبينوزا، بشيء مُلغز ومُقلق بشكلٍ بالغ؟ ألا تفهمون هذا العرض الذي يقدّم هنا، هذا *الامتقاع التدريجي* ـ فقدانُ الحواس الذي يُعطى تفسيراً مثاليا أكثر فأكثر؟ الاتحدسون في الخلفية عَلَقَةً ظلت مختبئة طويلا، تبدأ بمهاجمة الحواس، وفي نهاية المطاف لاتُبقي ولاتترك شيئا غير العظام، غير الاصطكاك؟ ـ أعني اصْطِكاك الأصناف والصيغ والكلمات (لأن كل ما بقي من سبينوزا، وليُغْفَر لي ذلك، أي amor intellectualis Dei (*) ليس إلا اصطكاكاً، لاغير! فما معنى حب، ما معنى *إله*، دون أدنى قطرة دم؟...) الحاصل: أن كل مثالية فلسفية كانت حتى الآن نوعا من المرض، حين لم تكن احتياطَ صحةٍ خطرة ومفرطةِ الحيوية، وهي حالة أفلاطون، حين لم تكن خشية *قوة زائدة* بخصوص الحس، حين لم تكن حكمة سقراطيّ حذِرٍ. ـ ألسنا، نحن العصريوّن، أصحاء جدا حتى *تكون* مثالية أفلاطون *ضرورية* لنا؟ وإننا نخشى الحواس، لأن...

373 الـ«علم» باعتباره حكما مُسبقا

ينتج عن قوانين التراتبية أنه لايجب السماح إطلاقا لبعض العلماء، لانتمائهم للطبقة المثقفة الوسطى فقط، بالاطلاع على المسائل وعلى علامات الاستفهام *الكبيرة* بحصر المعنى؛ فلاشجاعتُهم ولانظرهم سيكفيان في ذلك، ـ فحاجتهم التي تجعل منهم باحثين قبل كل شيء، وطريقتهم في التوقع والتمني داخليا أن تتشكل الأشياء *بهذا الشكل أو ذاك*، وخوفهم وأملهم، كلها تنتهي إلى أن تهدأ وترضى قبل الأوان.

(*) الحب الإدراكي للإله.

فالشيء الذي يحمّس هذا المتحذلقَ الانجليزي، هربرت سبنسر، مثلا، على طريقته، ويفرض عليه أن يرسم حدا لأمله، أن يرسم خطّ أفق للأشياء المرغوبة، هذا التصالح الأخير بين «الأنانية والغيرية» الذي يجعله يُخرّف، هذا شيء جدير بأن يثير تقزّزنا نحن: ان إنسانية بمثل هاته المنظورات السبنسرية كمنظورات أخيرة قد تبدو لنا جديرة بالازدراء، بالإفناء! لكن *حقيقة كونه* أحس بشيء باعتباره أملاً أسمى، وهو شيء يحسّ به الآخرون، ولايملكون أن يحسوا به بشكل مشروع إلا كإمكانية كريهة، فهذه علامة استفهام لم يكن سبنسر ليتوقعها... نفس الشيء ينطبق على هذا الاعتقاد الذي يكتفي به، في الحاضر، كثير من العلماء الماديين، الاعتقاد في عالم مفروض أن يكون له مُعادِل ومقياس في الفكر الإنساني وفي المفاهيم الإنسانية للقيمة، الإعتقاد في «عالم الحقيقة» الذي قد يمكن إدراكه بشكل نهائي عن طريق عقلنا الإنساني المحدود. ـ ماعساي أقول؟ هل سنقبل حقا أن ندع الوجود ينحط هكذا إلى تمرينٍ حسابيٍّ حقير، إلى الحياة البيتية لعالمٍ رياضي؟ لنحذر قبل كل شيء إرادة تجريده من طابعه *الغامض*: هذا ما يتطلبه الذوق *السليم*، أيها السادة، خصوصا ذوق الاحترام، الشيء الذي يتجاوز أفقكم! أن يكون تفسير واحد فقط للعالَم هو المشروع، تعيشون فيه *أنتم* بشكل مشروع، وفيه لن يمكن الاستكشاف ومتابعة العمل عمليا إلا من خلال *رأيكم* (ـ تقصدون *بطريقة إوالية* إجمالا؟) الذي لايقبل غير العد، الحساب، الوزن، النظر والفهم، فهذا ليس إلا بلاهة وسذاجة حين لايكون استلابا وقماءة. أليس محتملا جدا، بالمقابل، أن يكون ماهو سطحي وخارجي في الوجود ـ ماهو ظاهر، جلدته، مايجعله ملموسا ـ هو أول شيء استطعنا إدراكه؟ بل ربما كان الشيء الوحيد؟ إن تفسيرا «علميا» للعالَم مثلما تقصدونه أنتم سيبقى بالتالي واحدا من بين *أبلد* التفسيرات، أي واحدا من بين أفقرها من حيث المعاني من بين كل التفسيرات الممكن تصوّرها: نهمس هذا في آذان الإواليين ونُشعِرهم به، وهم الذين يختلطون اليوم بالفلاسفة عن طيب خاطر ويعتقدون بشكل مطلق أن الإوالة ستكون عقيدة القوانين الأولى والأخيرة التي يجب أن يُبنىٰ عليها كل وجود كما يبنى على أساس. لكن عالما إواليا بالأساس سيكون عالَماً ا *عبثيا* بالأساس! لنفترض أن *قيمة* موسيقى مالاتقدَّر إلا من خلال كمية العناصر التي يمكن عَدُّها، حسابها، تحديدها في صيغ، ـ فكم سيكون عبثيا مثل هذا التقدير «العلمي» للموسيقى! فماذا سنكون قد استفدنا أو فهمنا أو عرفنا منه! لاشيء، قطعا لاشيء *مما* يجعل منه «موسيقى» بالأساس!...

374 مُطلقنا الجديد

إن معرفة إلى أي مدى يمتد الطابع المنظوري للوجود أو إن كان له بالإضافة إلى ذلك طابع آخر، إن كان وجودٌ دون تفسير، دون أي «معنى» لايصير «لامعنى» معرفةٍ إن لم يكن كل وجود، من جهة أخرى، وجودا *تفسيريا* بالأساس ـ هذا ما لن يستطيع الفكر تقريره كالعادة، لابتحليل جاد ولا باختباره الدقيق لنفسه : لأن الفكر الإنساني لن يفعل شيئا بعد هذا التحليل غير أن يرى نفسه في أشكاله المنظورية، *وفيها فقط*. لانستطيع أن نرى ما وراء زاويتنا : إنه لفُضولٌ يائس أن نحاول معرفة أي أنواع أخرى من الفكر ومن المنظورات يمكن أن توجد هي الأخرى : مثلا معرفة إن كانت بعض الكائنات قادرة على الشعور بالزّمن بشكل نكوصي أو في مُراوَحَته بين التدرّج والنكوص، بالتناوب (الشيء الذي سيفسح المجال لتوجّهٍ آخر للحياة ولمفهوم آخر للعلة والمعلول). غير أني أظن أننا اليوم بعيدون على الأقل عن هذه البذاءة المثيرة للسّخرية في التقرير من زاويتنا بأن المنظورات، انطلاقا من هاته الزاوية، هي وحدها التي *ستكون مقبولة*. بالعكس، لقد عاد العالم «مطلقا» لنا مرة أخرى : بحيث لن نستطيع أن نتجاهل إمكانية *احتوائه على عدد لايحصى من التفسيرات*. مرة أخرى تتملّكنا الرعشة الكبرى : ـ منذا قد يرغب إذن في تأليه *غول* هذا العالم المجهول، مُحْيِيا في الحين هاته العادة القديمة؟ من يتجرأ منذ الآن على حب *هذا* المجهول باعتباره «الاله المجهول»؟ واها! هناك كثير من الامكانيات *غير الإلهية* للتفسير منقوشة في هذا المجهول، كثير من الشيطانيات، من البلاهات، من حماقات التّفسير ـ تفسيرنا الانساني، المفرط في الإنسانية، الذي نعْرفه. . .

375 لماذا نبدو أبيقوريين

إننا نحن الرجال العصريون حذِرون بخصوص القناعات الأخيرة؛ حَذَرُنا يراقب الإغراءات والمكائد التي يُؤْخذ بها الشعور في كل اعتقاد راسخ، في كل **نعم** مطلقة، في كل **لا** مطلقة : فكيف يُفَسَّر هذا؟ ربما بواقع كوننا قد نتعرّف فيه على نصيب كبير من تيقُّظِ «الطفل الذي حرقَ نفسه»، من المثاليّ المتقزز، بل نتعرف فيه كذلك على نصيب أكبر من الفضول المتهلل لذلك الذي كان فيما مضى لازقا برُكْنه حتى أنه ليغتاظ منه، والذي يلتذّ، منذ الآن، بالعكس ويتمادح في اللاّمحدود، في «العراء المطلق». بهذا الشكل ينمو ميلٌ شِبه أبيقوريّ للمعرفة لايترك الطابعَ الإشكالي للأشياء بسهولة؛ ينمو كذلك نفور من طنانية الكلمات والمواقف الوعظية، [ينمو]

ذوق يرفض كل النقائض البليدة والفظة ويعرف، بكبرياء، أن عليه أن يتمرن في حذر. في الحقيقة، *هذا* هو الذي يجعل زهْونا يشد الزمام شيئا ما إثر إندفاعتنا العنيفة تجاه اليقين، [هو الذي يكوّن] هذا التّحكّم في الذات الذي يبرهن عليه الفارس خلال نُزهاته السريعة جدا [على ظهر الفرس] : لأننا لانفتأ نمتطي حيوانات مهووسة وجموحة، وإن تَرَدَّدْنا فلا شك أن ذلك ليس بسبب الخطر. . .

376 تباطؤات الحياة

هذا ما يشعر به كل الفنانين، كل مبدعي «نتاجات أدبية»، [الذين هم] من النوع الأُمومي : يتخيلون، عند نهاية كل مرحلة من حياتهم ــ التي يأتي نتاجٌ أدبي ليقطعها، كل مرة، إلى مراحل ـ أنهم قد بلغوا الهدف ذاته، أنهم مستعدّون، بهذا الإحساس، لتقبّل الموت بصبر : نحن ناضجون بخصوص هذا. ليس هذا تعبيرا عن العياء ـ بل بالأحرى تعبيرا عن نوع من الضوء واللطافة الخريفيّين اللذين يولّدهما لدى المؤلِّف نضجُ النتاج الأدبي، وكذلك هذا النتاج نفسه. إذاك يتباطأ إيقاع الحياة حتى يتخثّر ويسيل مثل العسل ـ حتى التوقّفات الطويلة، حتى الاعتقاد في التوقف الطويل. . .

377 نحن الذين «بلا وطن»

لاينقص اليوم إطلاقا بين الأوربيين هؤلاء الناس الذين لهم الحق في أن يتسمّوا الذين بلا وطن بمعنىً يميزهم ويشرفهم؛ لتوكل بوضوح إلى هؤلاء بالضبط حكمتي السرية و ma gaya scienza (*)! لأن مصيرهم قاس وأمنيتهم غامضة، وإنه لنجاح باهر أن نُوجِد لهم عزاء ـ لكن ماجدوى ذلك! نحن أطفال المستقبل، كيف *يمكننا* أن نكون في منزلنا في مثل هذا الوقت الحاضر. إننا نقاوم كل مثل أعلى قد لايحس أحدُنا بموجبه أنه متغرب حتى في هاته المرحلة الانتقالية الضائعة والمعرَّضة للزوال؛ لكن فيما يخص حقائقها فإننا لانعتقد أنها *دائمة*. فطبقة الجليد التي مازالت تحمل الوقت الحاضر قد رقّتْ : والريح المذوِّبة للجليد تهُب، ونحن الذين بلاوطن نفسُنا شيء يكسر الجليدَ و «حقائقَ» أخرى جد رقيقة. . . إننا لانحتفظ بشيء، ولانريد كذلك أن نعود إلى أي نوع من الماضي، لسنا «متحررين» (**) قطعا، لانعمل للتقدم، لانحتاج أن نصُمّ آذاننا حين تنشد صفاراتُ السوق عن المستقبل ـ

(*) علمي المرح.
(**) متحرر : نصير الحرية الفردية في السياسة والاقتصاد.

مـاتنشـده : «تَسـاوي الحقـوق»، «مجتمع حـر»، «لاسـادة ولاعبيـد» هـوذا مالايستهوينـا، إلا نادرا ! ببساطة، إننا لانأمل أن تتأسس مملكة العدل والوئام هنا على الأرض (لأنها ستكـون مملكة العـراقيل والضعف البـالغ بكل الاعبارات)، إننـا نغتبط بكل الـذين، مِثلنـا، يحبون الخطـر والحرب والمغـامرة، الـذين لايقبلـون أن يتكيفوا، أن يُسْلَبـوا، أن يتصالحوا أو أن يُـرَقَّقُوا، إننـا نَعُد أنفسنـا ضمن الفاتحين، نفكر في ضرورة تراتبيـة جديدة، وعبودية جـديدة أيضا ـ لأن كل تقـوية وكل رفعة للنوع «إنسان» تفترضـان كذلك نوعا جديدا من العبـودية ـ أليس ذلك بحق؟ بكل هذا يجب أن نكون متضـايقين أكثر ما يمكن في عهد يدّعي شرف كـونه أرقّ وأعدلَ العهود التي طلعت عليها الشمس وأكثرها إنسانية. والأدهى من ذلك هو كون مثل هاته الكلمات الجميلة تثير فينـا بالأحرى أفكارا مبطَّنة قبيحة! حتـى أننا لانرى فيها سوى تعبير ــ وتقنيع أيضا ـ عن الضعف البالغ، عن العيـاء عن تقدّم السنّ، عن العجـز! لايهمنا نـوع البريق الخدّاع الذي يبهـرج به المريضُ ضعفَـه! هو حـرّ في أن يعرضه كـ*قوّته* ـ لاشك أن الضعف يجعل الإنسان لطيفـا، أوه! لطيفا جدا، منصِفاً جدّاً مسالما جدا، «إنسانيا»جداً! «دين الشفقه» الذي يريدون إقناعنا بتبنّيه، ـ أوه! نعرف جيداً هـؤلاء الرجال الضعيفي الإرادة وهاتـه النساء الحمقى الهستيريين الذين يحتاجون اليوم لانتحال هذا الدين بالضبط والاحتجاب وراءه! لسنا إنسانويين ولن نجرؤ أبدا عن التّحدث عن «حبنا للإنسانية» ــ ليس أحدُنا كوميدياً ليُمثّل هذا! أوْ ليس سان سيمونياً ولافرنسيا! يجب أن تكون مصابا فعلا بإفراط *ماجن* في الإنفعالية الإيـروسية وبجـزع غرامي لكي تعـاشر بصدق شـوقَ الإنسانيـة نفسه. . . تعـاشر الإنسانية! هل وُجِـدت قط عجوز أكثر شناعـة بين كل العجائز؟(إلا أن تكون هي «الحقيقة» : سؤال مخصص للفلاسفة). لا، إننـا لانحب الإنسانية، غير أننا، من جهـة أخـرى، بيعـدون عن أن نكـون «ألمانيين» بـالمعنى الـرائج اليـوم لكلمـة (*) (deutsch) حتى نجعل من أنفسنـا الناطقين بـاسم الوطنيـة والحقد العـرقي، حتى نبتهج بـالعدوى الـوطنيـة التي بفضلها تتترّس الشعـوب في أوربـا ضد بعضهـا في الحاضر وتقاطع بعضها بالتبادل. نحن جـدّ وقحين بخصوص هذا، جدّ ماكرين، جدّ فاسدين، لكن جد مجرّبين كذلك، فقد «سافرنا» كثيرا : نفضل كثيرا أن نعيش على الجبـال، على انفراد، «لاآنيّين»، سـواء في قـرون مـاضية أو آتيـة، لالِشيْء إلا لنوفـر على أنفسنا الغضب الصـامت الذي سيُحْكَمُ بـه علينا بـاعتبارنـا شهودا على

(*) ألماني.

سياسة تجعل العقل الألماني عقيما بجعله مزهوا، والتي هي، فضلا عن ذلك، سياسة *تافهة* : ألا ينبغي لها، كيلا يتفكك ابتكارها الخاص على الفور، أن تموضعه بين حِقْدَين قاتليْن؟ ألا ينبغي لها أن ترمي إلى تخليد تجزيء أوربا إلى دويلات صغيرة؟ . . . إننا نحن الذين بلاوطن متنوعون ومختلطون فيما يخص الجنس والأصل باعتبارنا «ناسا عصريين»، وبالتالي نادرا ما نُغْرى بالمشاركة في هاته المغالاة وفي خُدعة الهيام بالذات العرقي هاته التي تعرض نفسها في ألمانيا كعلامة مميّزة للمزايا الألمانية، والتي تعطي لدى لشعب «الحسِّ المؤرخ» انطباعا مزدوجا عن الزيف والوقاحة. نحن باختصار ـ وستكون هذه كلمة شَرفنا! ـ *أوربيون صالحون*، ورثة أوربا، ورثة أغنياء ومفعمون لكننا ورثة مدينون كثيرا بعدة ألفياتٍ من العقل الأوربي: إننا كذلك لأننا تحدرنا في نفس الوقت من المسيحية ومن أعداء المسيحيين، ولأننا بالضبط *متحدرون منها* [المسيحية]، ولأن أسلافنا كانوا مسيحيين باستقامة مسيحية مطلقة، وضحّوا طواعية بما ملكوا، بدمهم، بدولتهم وبوطنهم لصالح إيمانهم. ونحن ـ نفعل نفس الشيء. لفائدة ماذا إذن؟ ألفائدة كفرنا؟ ألكل أنواع الكفر؟ لا، إنكم تعرفون ذلك جيدا ياأصدقائي! *نعم* المخبوءة فيكم أقوى من كل أنواع *لا* و *ربما* التي تعانون منها بتضامن مع عصركم؛ ولو كان عليكم أن تُبحِروا، أنتم أيها المهاجِرون، فإن ماسيدفعكم لذلك أنتم أيضا سيكون ـ *عقيدةً*!

378 ثم نصير صافين مرة أخرى

إننا نحن أسخياء وأغنياء العقل الذين نقوم على قارعة الطريق، مثل السُّبُل، ولانُريد مَنْعَ أحد من الاستقاء منّا : لانعرف، للأسف، أن ندافع عن أنفسنا، حين نريد ذلك، لانستطيع منع الناس، بأي شيء، من أن يجعلونا *عكرة*، معتّمة ـ ولامنع العصر الذي نحيا فيه من أن يقذف فينا ما هو فيه «حاليّ أكثر»، ولاطيوره الوسخة من إلقاء قاذوراتها، ولاصبيانه من إلقاء أشيائهم التافهة، ولاالمسافرين المنهَكين الذين يستريحون بالقرب منا من إلقاء مآسيهم الصغيرة والكبيرة فينا. لكننا سنفعل مثلما كنا دائما نفعل : نبتلع، في عمقنا، كل ما يلقى فينا، ـ لأننا عميقون، لاننسى ذلك ـ *ثم نصير صافين مرة أخرى* . . .

379 فاصِلُ المهرِّج الترفيهي

لم يؤلِّف هذا الكتابَ مبغِضٌ للبشر : فالحقد على الإنسان يؤدَّىٰ ثمنُه غاليا في الوقت الحاضر. لكي نحتقر *الانسان* مثلما احتُقِر من قبل، بشكل عريشي، بلاقيد

ولا شرط، من أعماق القلب، بكل حب الحقد ـ يجب أن نعرف كيف نتخلى عن الازدراء. وكم نحن مدينون لازدرائنا بالضبط بكثير من الفرحة الدقيقة، بكثير من الصبر، بل بكثير من الطيبة! فضلا عن ذلك، فنحن، بهذا الشكل، «من اختارهم اللـه»، يشكِّل الازدراءُ الظريفُ ذوقَنا وامتيازَنا، يشكل فنَّنا وربّما فضيلتَنا نحن الأكثر عصرية من بين العصريّين! . . . الحقد، على العكس من ذلك، يساوي، يضع وجها لوجه؛ في الحقد هناك شرفٌ، في الحقد أخيرا هناك خشيةٌ، نصيبٌ كبير من الخوف. لكننا نحن الرجال بلاخشية، نحن الرجال الأكثر روحانية في هذا القرن، نعرف تفوّقنا بما فيه الكفاية لكي نستطيع أن نحيا دون خشية بخصوص هذا الزمان بالضبط باعتبارنا رجالا أكثر روحانية. سيتطلب الأمر كثيرا حتى نعدم أو نسجَنَ أو نُنْفَىٰ؛ لن يتوصلوا حتى لأن يمنَعوا أو يحرقواكتبنا. فهذا القرن يحبّ العقلَ، يحبنا، هو في حاجة إلينا، حتى وإن كان علينا أن نُفهمه أننا ماهرون في الإزدراء: أن معاشرة الناس تثير فينا قشعريرة خفيفة؛ أننا، بكل لطافتنا وصبرنا واجتماعيتنا ومجاملاتنا، لن نستطيع أن نُقنِع أَنْفَنَا بالتخلي عن حُكْمِه المسبَق المعارِض للإقتراب من أي كائن إنساني؛ أننا نحب الطبيعة، لاسيما وأن كل شيء يحدُث فيها بشكل أقل إنسانية، ونحب الفن حين يرتكز على هروب الفنان أمام الإنسان، أو على استهزاء الفنان بالإنسان، أو على استهزاء الفنان بنفسه . . .

380 الـ«مسافر» يتحدث

لكي نتأمل أخلاقيتنا الأوربية عن بُعدٍ، لكي نقابلها مع أخلاقيات أخرى، سابقة أو آتية، يجب أن نعمل بطريقة المسافر الذي يحاول أن يتأكد بنفسه من علو أبراج حَاضِرة ما: لأجل هذا *يغادر* الحاضرة. ولكي لاتكون الـ«أفكار عن الأحكام الأخلاقية المسبقة» مُجَدِّداً أحكاماً مسبقة على أحكام مسبقة فإنها تفترض وضعا *خارج* الأخلاق، تفترض ماوراء خير وشر يجب أن نصعد أو نتسلق أو نَطير إليه ـ تفترض في كل الحالات، والحالة هذه، ما وراء مفهوم*نا* للخير والشر، تفترض حريةً بخصوص كل «أوربا» التي تُعتبر، في نهاية المطاف كجملة أحكام القيمةِ القطعية التي تسربت إلى دمنا. *أن نريد* الذهاب بالضبط خارجاً و إلى الأعلى فتلك ربما حماقة صغيرة هي مُتَطَلَّبُ «يجبُ عليكَ» الشاذِّ واللاّمعقول ـ لأن لنا أيضا، نحن العقول العارفة، أمزجتنا «اللاّقدرية» ـ: ليس السؤال هو الوصول إلى الأعلى بل هو معرفة إن كنا *نستطيع* ذلك. يبدو أن هذا يتوقف على شروط متعددة: الأساس هو أن نعرف إن كنا خِفافاً جدا أم ثِقالا جدا ـ إنها مسألة «وزننا الخاص». يجب عليك

أن تكون *خفيفا جدا* لكي تدفعك إرادةُ المعرفـة فيك إلى مِثل ذلك البعد و إلى ماوراء عصرك، تقريبا، لكي تكتسب نظرة تعانق ألفيات، ولكي ترى بها السماءَ الصافيةَ، فضلا عن ذلك! يجب علينا، نحن أوربيُّو الوقت الحاضر، أن ننفصل بالضبط عن كل ما يضايقنا، يعرقلنا، يرهقنـا، يثقلنا. إن إنسانَ مثلِ هذا الماوراءِ الذي يريد أن يتبيَّنَ أسمى تقييمات عصره، عليه قبلا أن «يتغلـب على» روح هذا العصر في داخله هو نفسـه ـ ذاك اختبار قـوّته ـ وبـالتالي ليس فقط على عصره، بل أيضـا على التقزز الذي أحسّ به حتى ذلك الوقت *تجاه* هذا العصر، على معارضته *لـه*، على صعوبة عيشه فيه، على لاراهنيَّتِهِ وعلى *رومانسيته* . . .

381 عن مسألة الوضوح

حين نكتب لانحـرص فقط على أن نُفْهَـمَ، لكن أيضـا على *ألاّنُفْهَم*. لـو أن شخصا كائنا من كان حكم على كتاب مـا بأنه غير مفهوم فليس ذلك اعتراضا كافيا عليه إطلاقا: فلربما كان هـذا داخلا ضمن نوايا المؤلّف، ـ فهو لم يرد أن يُفهَم من طرف «أي كان». كل عقل، كل ذوق رفيع يختار مُستمعيه حين يريد أن يتواصل؛ وبذلك نفسه يرسم حدا للـ «آخـرين». من هنا تنشأ كل قوانين الأسلوب المهذَّبة: إنها تُبعد، تخلـق مسافة، تمنع الـ «وصول»، تمنع الفهم، كما أسلفنا، ـ بينما تَفتح آذانَ أولئك الـذين تجمعهم معنـا قـرابة في الأذن. ولأقـولها فيما بيننـا، وفي حـالتي الفـريدة ـ لا أريد أن يمنعني جهلي ولاحيـوية طبعي من أن أكـون مفهومـا *لكم*، يـاأصـدقـائي: قلتُ ولاحيـويـةَ طبعي مع أنها تحثني على أن أعـرض للشيء باستعجال، إذا كـان صحيحا أني أستطيع فقط أن أعرض له. لأننـي أقدّر أن هناك مشـاكل لها عمق حمّامٍ بارد ـ يجب أن نغطس فيـه ونخرج بسرعـة. أمّا ظنّ النـاس أنهم، بهذا الفعل، لنَّ يصلوا إلى العمـق ولن يهبطوا *عميقا جدا* فتلك خرافةُ الذين يخشـون الماء ويقشعـرون منـه؛ إنهم يتحـدثـون عن ذلك دون تجربـة! آه، إن البرد الشـديـد يمنحك حيويـة! ولكي نسأل بـلا إلحاح، هل يبقى شيء مـاغير مفهـوم حقيقة وغير معـروف لمجرد أننـا لم نلمسه إلا خطفا، لمجـرد أننا لاننظـر إليه إلا من مُـوقِ العين؟ هل يجب أن نلتصق به تمامـا؟ أن نجلس عليه ونحضنـه تقريبـا لكي نفهمه؟ Diu noctuque incubando (*) كما كان نيوتن يقـول عن نفسه؟ هل هناك على الأقل حقـائق حسـاسة وجَفـولـة لايمكننا التّمكن منهـا إلا بشكل فجـائي و

(*) أن نحضنه ليلا ونهارا.

بالمباغتة ـ أو لنترك . . . الحاصل أنه لاتزال لاختصاري قيمة أخرى : ضمن أسئلة مثل التي تستغرقني يجب أن أقول أشياء كثيرة باختصار حتى أَسْمَعَ باختصار أكثر. في الحقيقة، يجب أن أحتاط، كَلاَ أَخْلاَقِيّ، من إفسادِ البراءة، أعني الحمير والبنات المسنات من الجنسين الذين لم يعيشوا من الحياة سوى البراءة، بالإضافة إلى ذلك يجب أن تحمِّسهم كتاباتي، أن تُثيرهم، أن تشجعهم على الفضيلة! لاأعلم شيئا مُفرِحا على الأرض أكثر من حُمُرٍ مُسنة وعذارى مُثارة بأحاسيس الفضيلة اللطيفة : و «هذا ما شاهدته» ـ هكذا تكلم زرادشت. هذا فيما يخص نيّة الإختصار : جهلي مقلق كثيرا حتى أني أخفي نفسي عن نفسي. هناك ساعات أخجل فينا منه : ولاشك كذلك أن هناك ساعات أخجل فيها من مثل هذا الخجل. ربما كنا كلنا نحن الفلاسفة غير مستعدين جيدا بخصوص المعرفة الآن : العلم يتقدم، والعلماء الكبار من بيننا قريبون من اكتشاف أنهم يعلمون منه القليل جدا. غير أن الأمر سيكون أسوأ لو كان الأمر بخلاف ذلك ـ لوكنا نعرف منه *الكثير*: مهمتنا هي ألا نختلط بهالسناه وتبقى [مهمتنا] كذلك، قبل كل شيء. *نحن* شيء آخر غير العلماء، مع أنه لا مندوحة من أن نكون علماء عند الإقتضاء. لنا حاجيات أخرى، نمو آخر، هضم آخر : نحتاج أكثر، نحتاج أقل. فيما يخص معرفة كم يلزم عقلا ليتغذى فإنه ليست هناك صيغة لهذا : لكن إنْ جرّه ذوقُه إلى الاستقلالية، إلى جيئة وذهاب سريعين، إلى السّفر، ربما إلى مغامرات لاتقدر عليها إلا العقول الأكثر يقظة، فإنه سيفضل العيش حرّاً بزادٍ قليل على العيش تابعا والبطن ممتلىء. إن الراقص لاينتظر من غِذائه البدانةَ، بل الحيوية والرشاقة الكبرى ـ ولست أعلم أن عقل فيلسوف قد يتمنى أكثر من أن يصير راقصا جيدا. إن الرقص، في الواقع، هو مثله الأعلى، هو فنّه أيضا، وهو في الأخير تقواه الوحيدة، «عبادته السماوية» . . .

382 الصحة الكبرى

إننا نحن الجدد، الذين لااسم لنا، الذين نستعصي على الفهم، طلائع مستقبلٍ لايزال غير أكيد ـ إننا، لكي نصل إلى هدف جديد، نحتاج إلى صحة جديدة، أكثر حيوية، أكثر مكرا، أكثر عنادا، أكثر جسارة، أكثر فرحة مما كانت عليه أية صحة حتى الآن. إن الذي تطمح روحه لأن يعيش كل وفرة القيم والطموحات التي سادت حتى الآن، لأن يقوم برحلة سياحية على كل ضفاف هذا «البحر المتوسط» المثالي، الذي يريد أن يعرف من خلال مغامرات تجربته الأكثر شخصية ما يجرى في روح فاتحِ ومستكشف مثل أعلى، في روح فنانٍ، قديسٍ، مشرّعٍ، حكيمٍ، عالم،

رجل تقي، عـرّافٍ، رجلٍ وُضِعَ جـانبـا بغـايـة الإتقـان، [وهي روح] من الطـراز القديم: يحتاج هـذا الشخص، قبل كل شيء، إلى شيء واحد: ***الصحة الكبرى*** - هذا النـوع من الصحة الـذي لانمتلكه فقـط، بل نكتسبه، ويجب علينـا أيضا أن نكتسبه باستمـرار، لأننا نتخلى عنه من جديد، لأننا لانفتأ نتخلّى عنـه من جديد، لأنـه يجب التخلي عنـه . . . والآن، بعـد أن كنـا على الطـريق لمدة طـويلـة، نحن المغامـرون بحثا عن المثل الأعلى بشجاعـة أكثر ممـا ينبغي، وعلى الرغم من كثير من الغرق والخسائر، فإننا قد استمتعنا، عنـد كل محنة، بصحة أفضل مما قد يسمحون بـه لنا، بصحـة مخيفـة ـــ يبدو أننـا الآن، على سبيل الجائزة، على مـرأى أرض غير مُكْتَشَفة، لَمْ يَحُدّ حدودَها أحدٌ بعـد، على مرأى ماوراءِ كل الأرضين، كل زوايا المثل الأعلى المعـروفة حتـى الآن، على مرأى عـالم فيـه وفرة كبيرة مـن الأشياء الجميلـة، الغريبة، المريبة، المرعبة والرائعة بحيث أن فضولنا، مثله مثل تعطشنا للإمتلاك قد أثيرا بذلك ـــ أوه! حتى أنه لاشيء منذ الآن سيُشْبِعُنـا! بعد مثل هاتـه المنظورات، بمثل هـذا الجوع النّهم في الشعور وفي المعـرفة، كيف سيمكننـا أن نكتفي ***بالإنسان الحالي***؟ والشيء الخطير، لكنْ لايمكن تفـاديـه، هـو أن نجـد صعـوبـة في الإهتمام بجديةٍ بأهـدافنا وطموحاتنا التي هـي أَوْلى لدرجةِ أننا قد لانقـدر حتى على إيلائها اهتماما. مثل أعلى آخريمشي أمامنا، مثل جـذاب، كله مخاطرة، لانريد أن نشجع أحدا عليه لأننا لانرى أحدا يمكن أن ***نُخَوّل*** له ***الحقَّ*** في ذلك عن قصد: مَثَلُ عقلٍ يستمتِع، بشكل سـاذج، أي بشكل لاإرادَي وبنوع من الـوفرة ومن القـوة المفرطـة الحيـوية، بكل مـاكـان يُعتبر حتى الآن مقـدسا، صـالحا، لايُمَسّ، إلهيـا: عقل لاتعني لـديه الأشيـاء الساميـة التي يجد فيها النـاس معاييرهم للقيمـة، على سبيل المثال، شيئـا سوى الخطـر، الإنحطاط، المهـانة، أو على الأقل التـوقف، العمى، وأحيانـا نسيان الذات؛ مَثَلُ لينِ عيشٍ وإحسـانٍ، مثلٌ فوبشري في الـوقت نفسه، وغالبا ما سيبدو ***لاإنسانيا***، مثلا حين يظهر، بالنسبة إلى كل الجدية التي سادت على الأرض حتى الآن بخصوص كل أنواع التفخيم في الحركة، في الكلمة، في النبرة، في النظرة وفي الأخـلاق، حين يَظهَرُ كالمحـاكاةِ الساخـرة الأكثر واقعيةً ولاإراديـةً لهاته الأخيرة - مثل أعلى ربما سَتُعلَن ***الجدية الكبيرة*** انطلاقا منه بالفعل، رغم كل شيء، وستكـون علامـة الاستفهام الأسـاسية أخيرا قـد وُضِعت، بينما يتغير قَدَرُ الـروح، ليتقدّم العقرب على ميناء الساعة، ***لتبدأ*** المأساة . . .

383 خاتمة

لكن بينما أنا أرسم ببطء، ببطءٍ شديدٍ، علامةَ الاستفهام الكئيبة هاته لكي أختم، وبينما أستعد كذلك لتذكير قرائي بمزايا قراءة متأنية ـ آهٍ! مزايا كَمْ هي منسية ومتجاهَلة!ـ حدث وأن أحاطت بي أشد الضحكات مكرا، أشدها مرحا، أشدها تيقّظا: أرواح كتابي نفسُها تهاجمني، تجذُبُ أذني وتذكّرني بالواجب: «إننا لانحتمل موسيقى الغراب الكئيب هاته ـ صرختْ فيّ ـ أبْعِدْها عنّا! ألسنا في غير الصباح الأكثر إشراقا؟ على أعشاب خضراء ناعمة، على مملكة الرقص؟ هل هناك ساعة أنسب للمرح من هاته؟ من سيغنّينا أغنية على درجة عالية من الإشعاع والخفة والأثيرية بحيث **لا** تثير حتى حشرات الزيز ـ بحيث تدعوها بدل ذلك أن تغني وترقص معنا؟ إن مزمار القِربة الريفيّ الساذج أفضل من هاته الأصوات الغريبة، من نعيب البوم هذا، من هاته الأصوات الرمسية، من صفير المرموط هذا الذي أَمْتَعْتنا بها في بيدائك حتى الآن، أيها السيد المتوحد الذي يعرِضُ المستقبلَ بالموسيقى! لا! كفى من هاته النبرات! لننشد أجواء أكثر متعة، في وضع أفضل، أكثر فرحا!» إنْ أعجبكم *هذا*، يأصدقائي المتلهّفين، فليكن! من لايتنازل لكم عن طيب خاطر! مزمار قربتي ينتظر بعدُ، حنجرتي كذلك ـ وإن كانت مبحوحة شيئا ما، معذرة! إننا في قلب الجبل. لكن الذي قد تسمعونه جديدٌ على الأقل، وإن لم تفهموه، إن أسأتم فهم *المنشد*، فلايهم! فهناك تكمن «لعنة المنشِد». بالمقابل، ستسمعون موسيقاه ولحنه بشكل أكثر وضوحا، وشبّابته ستجعلكم ـ ترقصون أفضل. فهل تريدون *ذلك*؟ . . .

ملحق

أغاني الأمير الخارج عن القانون (*)

(*) "أغاني الأمير الخارج عن القانون" تظم ستّ قصائد من ثمان كان نيتشه قد نشرها في يونيه 1882، تحت عنوان: "غزليات مسّينا" [أو "قصائد ريفية غزلية" نسبة إلى مدينة Messine] في مجلة Internationale Monastasschrift ـ(م).

إلى غوته

ما الخالد
إلاّ رمز!
الإلهُ، دجَلٌ
الشاعر الخداعُ . . .

عجلةُ العالم بدورانها
غايةً إثر غاية تلامسُ :
" شقاء" ـ قالَ الحقود،
[أما] الأحمق فقال ـ لعبة . . .

لعبة العالم القهرية
تمزج الكينونة والظاهر : ـ
والشططُ الأبديّ
خلْطُ ملْط ـ فيها يقحمنا . . .

موهبة الشاعر

وأنا أستريح منذ أيام خلَتْ
تحت أوراق شجر معتمهْ
سمعت تكتكة خفيفهْ
تعينُ النغم برقَّة .
مغيظا، قطّبتُ وجهي
مستسلما للحركة، أخيرا،
كشاعر، أنانفسي
شرعت أتكلّم تكتكه .

فاجأتْني أنظم أبياتا،
عند كل مقطع لفظ، هوبْ،
غمرني الضحكُ فجّأة
خلال ربع ساعة .
أشاعر أنت؟ أشاعر أنت؟
أمشوّشةٌ إذن رأسُك؟
" سيدي العزيز، أنت شاعر"

قال الطائر النقّار محرّكا كتفه .

في الدغل ماذا كنتُ أنتظرُ ،
من كنتُ ، كقاطع طريق ، أرقبُ؟
مجيء صورة أو جملة؟ وقافيةٌ
بوثبة قفزتْ وراه مُردَفة .
ماينطّ [و] ما يسيل ،
توّا يجعلُ الشاعرُ بيتا منه .
«سيدي العزيز ، أنت شاعر»
قال الطائر النقار محركا كتفه .

القوافي ، أقول لكم ، سهامٌ .
تهتز ، ترتعش وتقفز ،
بمجرد مايلج السهمُ
الأطراف النبيلة لجسم صغير!
آه ، تموت منها ، أيها المتسوّل
أم تترنّح من ثمالة!
«سيدي العزيز ، أنت شاعر»
قال الطائر النقار محركا كتفه .

أمثال عرجاء ، عجلى
كلمات سكرى ، كما الكل يتعجل!
إلى أن تُعلقوا ، آية فآية ،
في سلسلة التكتكة .
وتقولون إن ثمة عرقا متحجّراً
يستلذّ هذا؟
أيضلّ الشعراءُ؟
«سيدي العزيز ، أنت شاعر»
قال الطائر النقار محركا كتفه .

أتهزأ يها الطائر؟ أتمزحُ؟
لو أن رأسي مشوشةٌ
ماسيُمسي المسكينُ قلبي؟
حذار ، حذار من غضبي!ـ

لكن الشاعر ـ يجدل القوافي
ما استطاع، حتى غاضبا
«سيدي العزيز أنت شاعر»
قال الطائر النقّار محركا كتفه .

في الجنوب

معلقا إلى الغصن الرئيس،
أهدهد تعبي .
استضافني طائرٌ؛
في عشه أستريح .
أين أنا إذن؟ آه، بعيدا، بعيدا جدا!

البحر الأبيض نائم
وفيه شراع أرجواني .
جلمود، أشجار تين، منار وميناء،
خراف ثاغية، مقام الحب البريء ـ
يابراءة الجنوب استقبليني!

أن أسير خطوة ـ يالها من حياة!
ساقا ثم أخرى، توتونيّ(*) وبطيء .
قلتُ للريح احمليني،
علّمني الطائر التحليقَ، ـ
وجنوبا، فوق البحر، حلّقتُ .

الصوابُ! شيء مخيّبٌ!
هو ذا ما، سريعا إلى الهدف، يوصلُ!
عرفتُ بالطيران ماكان يوهمني،
هاقد أتاني الشوق والحيوية
لأجل حياة، لعبة جديدة .
حكمةٌ أن تفكر وحيدا
لكن أن تغني وحيدا . . . حماقة!

(*) توتوني (Teuton) = من التوتونيين، سكان جرمانيا الشمالية (م) .

كذلك حولي تحلّقي
وفي صمت انصتي
لأغنية في مدحك
أيتها العصافير الشريرة!

شبابة، كاذبة، تائهة،
[كذا] تبدين للحب خُلقْت
ولكل ألهوة جميلة.
في الشمال ـ أتردّدُ في الاعتراف ـ
أحببتُ امرأة صغيرة
عجوزا تثير القشعريرة، ـ
«الحقيقة»:
كانت تسمى تلك المرأة المسنّة . . .

بيبّا الورعَة (*)

مادام جسدي الصغير جميلا،
أوثر أن أكون تقية.
نعلم أن الإله يحب الصغيرات،
الجميلات، فوق الكل.
بسرور سيغفر لا شك
للرّويهب المسكين
والذيَ، ككثير من الرّويهبين
بالقرب منّي يَسْعَدُ . . .

ما[هو] لأب الكنيسة حمارا
لا، شابا لا يزال وغالبا مُحْمرّا،
غالبا، رغم أسوأ الهموم،
مفعماً غيرة وغماً.
لا أحبّ المسنّين،
ولا هو قطّ يحب المسنّات،
بأي حكمة رائعة
دبّر هذا الإله!

(*) (Beppa) ـ أو «السّاحرة الصغيرة، كذلك كان عنوانها الأصلي في «غزليات مسّينا». (م)

تعرف الكنيسة أن تحيا
تسبر القلبَ والنظرَ،
دوما، الغفرانَ، تمنحني،
من إذَن لن يَمْنَحَنيه!
بفيكم الصغير تتُمتمون،
ركعة ثم تخرجون
وبذنْب صغيرٍ جديد
[ذاك] القديمَ تُذهبون.

على الأرض الحمدُ للإله
المحبّ البنات الجميلات
ومثل هموم القلب هذي
لنفسه يغفر بطيب خاطر.
ماظلَّ الصغيرُ جسدي جميلا
أوثر أن أكون تقيةً:
وليكن الشيطان قريني
إذا صرتُ عجوزا بلا أسنان.

المركب العجيب (*)

ليلة أمس والكل نيام،
والريح ماكادت بأنين
مبهم، تجوب الأزقةَ،
لم تمنحني الأريكةُ راحةً،
لا ولا الخشخاش، ولا الذي
يُنيمُ عميقا ـ راحةَ الضمير.

أخيرا، متخليا عن النوم
إلى الشطّ هرولتُ. هناك في ضوء القمر
والجو رائق، وجدت،
على الرمل الساخن، المركبَ والرّجُلَ
نائمين كلاهما، الشاة والراعي:
نائما غادر المركبُ الشطَّ.

(*) أو «السرّ المعتّم» ـ ضمن المجموعة السابقة (م).

انصرمتْ ساعةٌ، ربّما اثنتان،
أو حتى سنة؟ ـ آنذاك غرقتْ
فجأة أفكاري وحواسي
في لا مبالاة خالدة،
وجهنم، دون حدود،
فُتحَتْ: ـ كانت النهاية.

تنفَّس الصبح: على أعماق كالحة
يرسو مركبٌ ينام ويستريحُ...
ما الأمر! كذا كانوا يصرخون، كذا صرخت
حيناً مئاتُ الأصوات: ما هناك؟ دم؟
ماشيء جرى! كنا نائمين، نائمين
كلنا ـ آه! عميقا، عميقا!

إعلان حب *(الحب الذي عجّل بالشاعر إلى الهاوية)*

يا لمعجزة! ألا زالَ يطير؟
يعلو وأجنحته لا تتحرك؟
مايرفعه إذن ويحمله؟
ماهدفه، سبيله، عنانه منذ ذلك الحين؟

كالنجم وكالخلود
يحيا الآن في أعال تخشاها الحياة،
رؤوف حتى بالحسّد.
وعاليا يحلق نفسهُ من يراه محلقا!

أيها القَطْرَسُ!
إلى الأعالي يسوقُني دافعٌ أبدي!
خطرتَ ببالي: وأذرفتُ دموعا،
دموعا، ـ أجل، أهواك.

نشيد راعي الماعز الثيوقريطي (*)

هاأنذا مستلق، مريض الأحشاء،
يفترسني البقّ.

(*) أو «إلى قريبي ثيوقريط...»

وهناك لا يزال ضوءٌ وضجيج!
أسمعهما يرقصان . . .

في تلك الساعة كانت تريد
أن تنسلّ إليّ .
ككلب أنتظر ،
لا إشارة تأتي .

علامة الصليب هذه ، متى كانت قد وعدَته؟
كيف كان بمقدورها أن تكذب؟
أم كانت وراء واحد يجري
كما تفعل معزاتي؟

من أين لها فستان الحرير؟
آه ، ياغطريستي!
هناك أيضا بعض تيوسٍ أخرى إذن
تسكن هاته الغابة؟

ـ كم يجعل الانتظارُ الشّبقُ
المرء عبوسا وساماً!
كذا في ليل خانق ينمو
في الحديقة فطير مسموم .

ينخرني العشق
كما الآلام السبعة ، ـ
لأي شيء لا شهوة عندي
وداعا ـ يابصَلاتي . . . !

وقد نام القمر في البحر ،
متعبة هي كل النجوم ،
رماديا يطلع النهار
لاأرغبُ إلا في الموت .

هاته الأرواح الحائرة (*)

لهاته الأرواح الحائرة
أُكن حقدا مميتا .
كلّ احترامها لي نكال ،
كل مدحها يفوح خزيا وغيظا .
لأني لا أُساق بالعصر قطّ
مشدودا لمقودهم،
من نَظَرهم، مزّا، يحيّيني
الحسدُ الفاقدُ الأملَ .

أولىٰ أن يلعنوني صراحة
وليولوَني الظّهر!

لتشرد فيّ إلى الأبد
هذي الأرواح على غير هدى .

مجنون باليأس

واها! لما كنت أخطّه على الطاولة والجدار
بقلب مجنون، بيد مجنون ،
سيصلح لرونقة الجدار والطاولة؟ . . .

لكن تقولون : «يدا المجنون تلطّخان فقط ـ
والطاولة والجدار يجب أن يطهّرا
إلى أن يمّحي أدنىٰ أثر!»

لو سمحتم! سأساعدكم ـ،
فأنا تعلّمت استعمال الإسفنج والمكنسة ،
كناقد وسقّاء .

لكن لما هذا العمل ينتهي
سألقاكم بسرور، أنتم أعقل العقلاء
مُصَدَّفَة (**) . . . هي الطاولةُ والجدارُ .

(*) أو «إلى بعض التقريضيّين» (م)

(**) concho، وردت الكلمة هكـذا، غير تامـة . لهذا افترضنا أنها أصل : conchoidal : (صفة) شبيه بالمحار شكلا (محاراتي) . conchyliculture (تربية المحار) . conchilien : مصدَّف، محتوٍ على أصداف (م) .

Rimus Remedium

(كيف يتعزى الشعراء)

من فيك ؛
ساحر الزمان ، المهذار
ترشحَ ببطء الساعةُ تلوَ الأخرى .
عبثا يصرخ كلُّ نفوري :
ملعونة ، ملعونة لجةُ
الأبدية!

جُلمدٌ هو ـ الكونُ
ثورٌ ضار ، أصمّ عن كل صراخ .
بطعناته الخفيفة ، الألمُ
في ذهني ينقش :
«الكون لا قلب له ،
من البلاهة الحقد عليه!»
صُبّي كل الخشخاش
صُبّي ، أيتها الحمّى ، صُبّي سماً في ذهني!
من عهد طويل
تتحسسين يدي وجبيني .
ماتبغين؟ ماذا؟ «بأي ـ ثمن»؟
ـ ها ، ملعونةٌ هي العاهرةُ
ملعونٌ تهكُمها!

لا! عودي!
الجوّ خارجاً باردٌ ، أسمعُ المطرَ ـ
عليّ أن أكون أكثر ودّا معك؟
خذي! ها الذهبُ : كم تلمع القطعةُ!
أأسميك «حظا»؟
أأباركك أنت ، حمّى؟

ينفتح البابُ ، فجأة!
غَمَرَ المطر حتى فراشي :
أطفأت الريحُ السراجَ ـ كارثة!

ـ الآن من لا ينظُمُ،
أراهنُ، أراهنُ
أنه كان بذلك سيموتُ.

حظّي(*)

أرى من جديد حمامَ سان مارك
ساكنةٌ هي الساحة، فيها يرتاح الصباح،
بالألق الوديع، عاطلا أرسلُ أناشيدي
كالكثير من الحمام إلى اللازورد،
ثم أناديها ثانية إليّ
لأعلّق قافيةً جديدة بريشها ـ
حظّي، حظّي!

قبّه السماء الهادئة، الحريرية والصافية،
وأنت تؤوين الصرح المبرقش، خفيفا،
موضوع ـ ماذا أقول؟
موضوع حب وخوف ورغبة!
طواعية سأتشرّب روحه
أأستطيع يوما أن أعيدها إليه؟
لا، صمتا، يامرعى عيوني! ـ
حظّي، حظّي!

أيها البرج الساذج، بقوة ليْث
تنتصبُ ظافراً، ساخرا من الجهد!
تغطي الساحة برنتك العميقة ـ :
وحتى نتكلم بالفرنسية، أتكون (**)son accent aigu؟
لو مثلك مكثّ هنا
سأعرف بأيّ إكراه
أنشرُ كالحرير . . .
حظّي! حظّي!

(*) أو : وبعد !)م)
(**) بالفرنسية في النص الأصلي : . . . أتكون نبرتها الحادة؟ (م)

ابتعدي ياموسيقى! دعيها أولاً تتعتّم
وتمتدّ حتى الليل البنيّ
والدافىء : الظلال!
عن الفروق، لازال الوقت نهارا،
لاتومضُ بعدُ
فسيفساءُ التّبر ببهاء الورود،
لا يزال من النّهار الكثير
الكثيرِ من النهار لحلم الشاعر،
الخطى الشاردةُ، الهمساتُ المتوحدةُ ـ
حظّي! حظّي!

نحو البحار الجديدة

هناك ـ الذهاب هناك، أريده، منذ الآن
عليّ أنا أعتمدُ، على يديّ.
مفتوحاً يعرضُ نفسَه البحرُ، في الزرقة
يريد أن ينقذف مركبي الجَنَوي (*)

كل شيء يومض لي ببريق جديد،
تغفو الظهيرة على الفضاء والزمن ـ :
وحدها عينُكَ ـ ببشاعة
تحدّق فيّ، أيها المطلقُ! (**)

سلس ماريا (***)

هنا كنتُ جالسا، أنتظرُ،
أنتظرُ ـ لكن لا شيء أنتظرُ،
ماوراء خير وشر، أتلذذ تارةً
بالضوء [و] طورا بالظل
فأنا كليةً لم أكن إلا لعبةً،
بحيرةً، جنوبا، وقتا بلاهدف.

(*) الجنوي : نسبة إلى مدينة جنوة Gênes
(**) في نص آخر : أيتها الأبدية (م)
(***) المدينة الايطالية.

لما فجأة ، أيتها الصديقةْ! أمسىٰ الواحدُ اثنينْ
ـ وزرادشت مرّ بالقرب منّي . . .

إلى ريح الميسترال (أغنية للرقص)

ريحُ المسترال ، طاردةُ السحاب ،
موتُ الغم ، طهارةُ السماء ،
كم أهواك ، أنت التي تئنّين!
ألسنا كلانا من نفس البطن
الطلائع المعدّة سلفا
لنفس القدَر أزليا؟

في مسالك الصخور الزّلقة
أسارع راقصا للقاك ،
راقصا منذْ تُصفرّين وتغنّين ،
أنت التي ، دون مركب ولا مجداف ،
شقيقة الحرية ، الحرّة أكثر
تنقضّين وراء البحار الهائجة .

مستيقظا بالكادّ ، لدى ندائك
قفزتُ إلى درج الأجراف
ذات الجدران الصّفر ، على البحر .
أهلا! كنت تنحدرين مثل
شلالات ألماسية صافية ،
مظفّرةً من أعالي الجبال .

رأيتُ خيلك عاديات
تدوس سطح السماواتّ السويّ ،
رأيت العربة التي تُقلك ،
رأيت حتى يدك تمتدّ
حين على صهوة الخيل
لوّحتْ كالرعد بالسوط .

(*) هذا البيت يوجد في القصيدة الأصل ، ارتأينا إضافته هنا حتى يكتمل المعنى (م) .

رأيتك تقفزين خارج العربة
لتهوي سريعا إلى الأسفل،
تسوّطين الموج، تروّضين البحر (*)

رأيتك سهما حادا،
عموديا تشقين الهاوية، ـ
كما يشق شعاعُ الذهبِ الورودَ
بأولى أنوار الفجر

ارقصي من الآن على ألف متن
[على] متون الموج، [على] خدع الموج
يحيا من يبدع رقصات جديدة!
لنرقص إذن بألف طريقة،
ـ لنسمّ فننا ـ حرّا!
ـ لنسمّ علمنا ـ مرحا!

من كل نبات لنختلس
زهرة لمجدنا،
ولإكليلنا ورقتينْ.
لنرقص كالتروبادور (**)
بين القديسين والمومسات
رقصةً بين الإله والناس!

من لا يشارك الرياح رقصتَها،
من يعشْ مغلفا بعصبية،
محنطا، أو عجوزا مُقعدا،
من كمنافق يتصرف،
كغبي مستنيرٍ، كساذج الفضيلة:
هيا! ليخرجْ من جنّتنا!

لنُثِرْ عَفَرَ الطرقات
اَستَهزاءً بكل مستقام،

(**) شعراء جوّالون (التروبادوري: شاعر غنائي جائل من فئة الشعراء الذين اشتهروا في جنوبيْ فرنسا وشمالي إيطاليا من القرن 11، إلى نهاية القرن 13) ـ المنهل ـ

لنجفل الجنس الضعيف!
من نظراته المذعورة،
من نَفَس الصدور اللاهثة
لنطهّر كل الشاطىء!
لنطرُد مكدّري السماء
المغتمّين، عُشاق العرّاصات،
لنصفّ مملكة السماوات،
لنزمجر . . . معك
ياأكثر العقول الحرَة حريةً،
كما تزمجر العاصفة بغَبطتي.
حتى تخلُدَ ذكرىٰ
هاته الغبطة، خذي شهادة منها
خذي إلى الأعلى هذا الإكليل
لقذفه عاليا، بعيدا كذلك،
على درجات السماء، حلّقي
انصرفي لتعلّقيه على النجوم!

جدول تاريخي مختصر

تـواريخ أهم الأحـداث، الأسفار، العطل، اللقـاءات بمختلف الشخصيـات، ومؤلفات نيتشه

(1844ـ1900)

الطفولة و الشباب

ـ 15أكتوبر 1844، ميلاد فريديرك وليام نيتشه، ابن القس لودفيغ كارل نيتشه وفرانسيسكا أويْلر، بنت قس بدورها، بمدينة روكن قرب لايبسيغ.
ـ1846، ميلاد أخته إليزابيت، التي ستصبـح في المستقبل السيدة فويرْسْتر.
يونيه1849، وفاة الأب.
ـ1854، الالتحاق بثانوية نومبورغ.
ـ1858، الدراسات الثانوية بپفورْطا.

التكوين الجامعي

ـ سبتمبر 1864، يدخل جامعة بون، حيث سيتابع دروس سيرينغر (تاريخ الفن)، ريتشل (فقه اللغة) ويان (الاركيولوجيا).
ـ أكتوبر 1865، يرافقه ريتشل إلى لايبسيغ ـ بداية التأثـر بشوبنهاور ـ متابعة دروسه في فقه اللغة.
ـ 1867، يرتبط بإرفين روده، أستـاذ الدراسات الإغريقية المشهـور (صاحب كتاب «البروح»: مؤلَّف عن الرمزي والأساطيرية).
ـ1867 ـ 1868، الخدمة العسكرية، بعد سقطـة عنيفة من على حصان يعود إلى لايبسيغ سنة 1868، ليلتقي لأول مرة بريشار فاغنر.

مرحلة الدراسات اليونانية

ـ فبراير 1869، الأستاذية بشعبة فقه اللغة الكلاسيكي، بجامعة بازل (Bâle /سويسرا)
ـ ماي يزور فاغنر بـ: تريبشن (لوزان/سوسيرا)
ـ1870، يوظّف أستـاذ كرسي بجامعة بـازل، علاقات وصـداقات من نفس المدينة: المؤرخ جاكوب بوركارت J.Burckhart وعالم اللاهوت البروتستانتي فرانتز أوفربك F.Overbeck.
ـ الحرب الفرنسية الألمانية، حيث سيتطوع نيتشه كممرض، حرب سيحتفظ منها بذكرى رهيبة.

ميلاد التراجيديا ديونيزوس

ـ1872، زيارة جديدة لفاغنر، الالتقاء بكوزيما فاغنر (زوجته).
ـ كتاب *ميلاد التراجيديا*.
ـ1873، الأعراض الأولى للمرض: صداع ـ ألم الرأس.
1873 ـ 1876، كتاب *دواع لاموسمية*، شتاء 1876، عطلة بمدينة سورانته/ ايطاليا، صحبة فاغنر، مالفيدا دي مايزنبورغ والدكتور بول ريه.

نقد نظرية الثقافة

ـ 1877، معاودة الآلام الجسدية.
ـ1878، فساد العلاقة مع فاغنر

تصفية الوضعية.

ـ 1879، حـالته الصحيـة الرديئـة ألـزمته طلب رخصـة عطلة من الجامعـة (بازل).

ـ كتاب : **إنساني مفرط في انسانيته**،
ـ كتاب : **حكم وأمثال متنوعة**،
ـ الصيف، عبور منطقة لونغادين،
ـ الشتاء ـ 79ـ 1880، مرحلة انهيار عصبي بمدينة نومبورغ.
ـ كتاب : **المسافر وظله**.
ـ 1880، مارس الصيف والخريف ـ أول عطلة بالبندقية/إيطاليا.
ـ مدينة مارينباد ونومبوغ/ألمانيا، شتاء 1880ـ 1881 بمدينة جنوة/إيطاليا.
ـ كتاب : **فجر**.

تباشير التشاؤم الديونيزي 1881ـ الربيع ـ تحسن حالته الصحية، بريكوارو (قرب مدينة فيسانس) صحبة صديقه وتلميذه بيترغاسْت، مرة أخرى سقطة ثانية.
ـ الصيف عطلة في لونغادين بمدينة سلس ماريا (تجليات كتاب : **العودة الأبدية**).
ـ شتاء 1881 ـ 1882 إقامة مطوّلة بمدينة جنوة/إيطاليا؛ فترة نقاهة؛ بداية كتاب : **العلم المرح**.

زرادشت ومذهب العودة الأبدية. ـ الربيع، الإقامة بمسّينا ثم روما، لقاء مع لوسالومي (التي كان يحلم بأن يجعل منها مريدة، والتي سيطلبها للزواج، يرُفْضُ الطلب، وتصبح Lou (صديقة بول ريه) فيما بعد السيدة آندرياس، وستخصص بعدئذ دراسة مهمة حول نيتشه).
ـ الصيف والخريف، بمدينة طوتنبورغ ولايبسيغ
ـ الشتاء بمدينة رابّالو
ـ 1883، 13 فبراير، برابّالو، إنهاء الجزء الأول من كتاب **هكذا تكلم زرادشت** يوم وفاة فاغنر بالبندقية.

مرحلة الزرادشتية ومحاولة التبشير الحِكميّ ـ الربيع، بروما،
ـ الصيف، بسيلس ماريا : **الجزء II من زرادشت**
ـ الخريف بألمانيا، يطلب تقديم محاضرات بجامعة لايبسيغ، يُرفَضُ الطلب، يعود إلى جنوة.
ـ الشتاء 1883ـ1884، إقامة بمدينة نيس/فرنسا، الجزء الثالث من كتاب : **زرادشت**. خيبات لعدم الترحيب بالكتاب.
ـ 1884، الربيع بمدن البندقية، بال، زوريخ ثم الرجوع إلى سيلس ماريا
ـ آلام رأس فظيعة.

بداية مرحلة تحول مجموع القيم
ـ شتاء 1884ـ1885، الإقامة بمدينة نيس ومونتون/فرنسا، إنهاء الجزء الرابع من : زرادشت (طبع على نفقة المؤلف).
ـ1885، الربيع والصيف، بالبندقية ثم العودة إلى سيلس ماريا/ إيطاليا، الخريف بمدينة مونيخ/ألمانيا، ثم فلورنسا/ ايطاليا، فالعودة إلى نيس/ فرنسا، أعمال تحضيرية للكتاب تحوّل مجموع القيم» الذي سينشر بعد وفاته بعنوان : **إرادة القوة**.
ـ 1886، الربيع، إقامة بالبندقية ولايبسيغ حيث سيلتقي ب : روده ـ كتاب : **مقدمات للآثار السالفة**.
ـ الصيف بمدينة بسيلسْ ماريا
ـ الخريف بمدينة روتا (إيطاليا دائما)

إعلان الحرب ضد الأخلاق المسيحية والبرجوازية
ـ 1866-1887، بمدينة نيس
ـ1887، الربيع بكانوبيو وكْوار (لونغادين) ـ كتاب : **ماوراء الخير والشر**.
ـ الصيف بسيلس ماريا
ـ الخريف بالبندقية
ـ الشتاء بمدينة نيس، كتاب : **جينيالوجيا الأخلاق**.
ـ 1888، الربيع، أول إقامة بتورينو، يربط علاقة مع الناقد الدانماركي جورج براندز الذي سيقدم سلسلة من المحاضرات بكوبنهاغن حول الفلسفة النيتشية.
ـ الصيف، بسيلس ماريا

الحملة النهائية ضد المسيحية
ـ الخريف، العودة إلى تورينو، إنتاجية كبيرة بغبطة عارمة.
ـ شتاء 1888 ـ 1889 كتاب : **الحالة فاغنر**، **أفول الأصنام**، **المسيح الدجّال**، وأخيرا **هذا الإنسان** (ينشر بعد وفاته)

ديونيزوس والمصلوب
ـ1889، يناير، بتورينو، انفجار هذيانه ـ رسائل لشخصيات مختلفة، لكل من ستريندبيرغ، وبوركهارت، بتوقيع : ديوينزوس أو المصلوب. انهيار عصبي. يعاد به من تورينو، من طرف أوفربك إلى مدينة (بازل)، ومن ثم تأخذه والدته إلى إيينا (Iena)، وبها سيُحجَز
بمصحة الطب النفسي ليعالج من طرف مويْبيوس Moebius.
ـ1897ـ وفاة والدته ـ تتكفل به أخته (إيلزابيت فويرستر) بمدينة فايْمار.

الخبل
ـ1900، 25غشت، وفاة نيتشه.

ثبت الأعلام والشذرات التي ذكرت فيها

دليل : عربي / فرنسي

آخِريّ	Supra-terrestre
أدامة (أكل لحم البشر)	Anthropophagie
إدراكية	Comprehensibilité
إرعاء	Bienveillance
إستلاحة (مشابهة الحق)	Vraissemblance
أصل، (شكل)	Forme
أصلية، (فطرية)	Primitivité
أظفورة	Crampon
أعياد زحل	Satunnales
ألفيّة	Millenaire
أمر مطلق	Impératif catégorique
إنسان «أمومي»	Homme maternel
أنشوطة	Noeud (magique)
إنفعال (هوى، شغف، وجد)	Passion
إنكار (نفي)	Négation
إوالة (تركيب)	Mécanique
باع/أبواع (طول ذراعين)	Brasse
برطمة	Moue
بغض البشر	Misanthropie
تابع	Fonction
تأدّم (من الأدمة)	Epidermité
تأسلية	Atavisme
تباطؤ	Andante
تبربر	Barbariser (se)
تبكيت الضمير	Remords
تحريض، (اندفاع، نزوة، إغراء)	Impulsion

Putréfaction	تدعيص
Différenciation	تخلّف
Religiosité	تديّن مفرط
Identité	تطابق، (تماثل)
Incantation	تعزيم
Fixation	تعلّف
Mutabilité	تغيّرية
Pathos	تفخيم
Dithyrambique	تقريضيّ
Intermittances	تقلبات
Mimetisme	تقليد (إيمائي)
Représentation	تمثيل (بيان)
Antinomie	تناقض
Enjuiver	تهويد
Inraraibilité	ثباتيّة
Médire	ثلب
Midi	جنوب
Méridional	جنوبي
Sensualiste	حسّويّ
Maillon	حلقة
Zèle	حماس
Apôtre (l')	حواريّ
Sang	حياة (دم)
Exteriorité	خارجانية
Souterraine	ديماسية
Durée	ديمومة
Démagogie	وهماوية، (ديماغوجية)
Progénitune	ذرية
Esprit	ذهن، (عقل، روح)
Vieillerie	رثاث
Maladresse	رعونة

رقيب	Caton
رمّاس	Fossoyeur
روح ، (نفس)	Ame
رواقية	Stoicisme
زاهد	Ascète
زؤان	Ivraie
زهو	Présomption
سابق (مبشر، رائد)	Précurseur
سعدنة	Singexie
سعْوَلَ	Toussoter
سقام	Langueur
سقط	Avortant
شراء الذهم	Vénalité
شرطية	Conditionalité
شعار	Mot metrique
شكل بحريّ	Forme metrique
شكوكية	Scèpticisme
صحيح	Valable
صيرورة	Devenir (le)
ضعف	Asthenie
ضيق	Detresse
طبع	Idiosyerasie
طبيعة طلقة	Libre Nature
طبيعة (مزاج)	Nature
طلائع	Prémisses
عامّة	Plebeienisme
عدم نزاهة	Improbité
عريشيّ	Timonien
عفرتة	Espièglerie
عميق	Foncier
عيب ، (قصور)	Imperfection

غابية (من غابة)	Sylvestre
غارة	Coup de main
غمارة	Inculture
فساد	Corruption
فطرة، (حسّ سليم)	Bon sens
فوبشري	Surhumain
فوضى	Brouillaminie
فوطبيعي	Surnatural
قدريّة	Libre Arbitre
قطيعي	Grégaire
قوة باعثة	Force impulsire
كراهية، (عداوة)	Inimosité
كلبيّ	Cynique
كمّ	Quantum
كهنوتي	Sacerdotal
لامعقولية	Illogisme
محرقة (ذبيحة كبرى)	Holocauste
مخرقة	Phantasmagorie
مريد	Adepte
مزاج شعب	Ethos
مسح	Cilice
مغامرة (رمية نرد)	Coup de dé
مغفّل	Vert
مئات	Hécatombes
هامويّة	Vamprisme
هموم	Soins
هيام بالذات	Auto idôlatrie
وحي	Oracle
وزن (شعري)	Mesure
وطنجيّة	Patriotradise
وعي	Prise de conscience

الفهـــرس

تم التصفيف الإلكتروني والطبع
بـ **مطابع أفريقيا الشرق**
159 مكرر ، شارع يعقوب المنصور ـ الدار البيضاء ـ
الهاتف : 25.98.13 / 25.95.04

« هل سبق أن اشتكينا من كوننا أسيء فهمنا ، أو لم يُتَعرَّف علينا، أو لم نُمَيَّز من آخرين، أو افتُرِيَ علينا، أو أسيءَ سماعنا أو لم نسمع قطّ؟ هنا بالضبط يكمن نصيبنا. . . أوه! لمدة لا تزال طويلة ! . . . وهنا كذلك سموّنا، لن يكون لنا تقدير كبير لأنفسنا لو أردنا أن يكون نصيبنا بخلاف ذلك. إننا نقر بالغموض - الحقيقة هي أننا نحن أنفسنا في نمو، نخلع عنا قشوراً بالية، في تغيّر دائم، نكتسب جلداً جديداً كل ربيع، لانفتأ نصير شبابا أكثر فأكثر، نصير مستقبليين، شامخين، أقوياء، نغرس جذورنا دائما بقوة أكبر في الأعماق - في الشر - بينما في الوقت نفسه نعانق السماء دائما بحب وسعة أكثر، وبكل أغصاننا، بكل أوراقنا نمتصّ ضوءها بتعطش. إننا ننمو مثل الأشجار، مثل كل ما هو حيّ، هذا يستعصي على الفهم (. . .) هنا إذن نصيبنا، ننمو إلى الأعلى حتى وإن كان ذلك مميتا لنا - لأننا نسكن قريبا من الصاعقة أكثر فأكثر! - نعماً هو، فنحن لا نحطّ من شرفها بهذا، ويبقى ذلك هو ما لا نريد أن نقتسمه ولا أن نكشفه، إنه لعنة العُلُو، لعنتُنا. . . »

نيتشه - الشذرة 373

صمّمت الغلاف الفنانة :
CANDIDA M.P. VIEIRA
(Portugal)

أفريقيا الشرق
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور
الدار البيضاء
25.95.04
25.98.13

ISBN : 9981 - 25 - 007 - 4 : ردمك

Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com